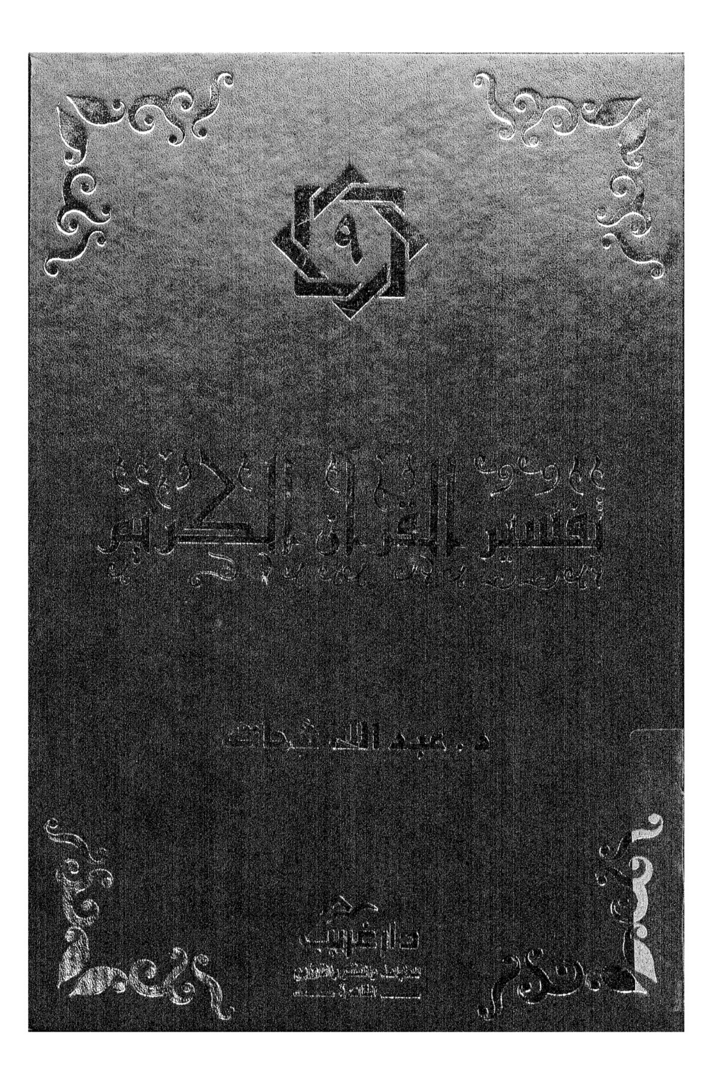

٩
تفسير القرآن الكريم
د. عبد الله شحاته
دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع

تفسير القرآن الكريم

الجزء السابع عشر من القرآن الكريم

الدكتور
عبد الله شحاته





تفسير سورة الأنبياء

أهداف سورة الأنبياء

سورة الأنبياء سورة مكية بالاتفاق وآياتها (١١٢) آية وقد نزلت قبيل الهجرة إلى المدينة أى: حوالى السنة الثانية عشرة من البعثة وسميت بسورة الأنبياء ؛ لأنه اجتمع فيها على قصرها كثير من قصص الأنبياء ؛ فسميت السورة باسمهم .

الغرض منها وترتيبها :

هى سورة مكية نزلت فى آخر العهد المكى أى: فى ذروة تجبر أهل مكة وعنتهم وانصرافهم عن الإسلام.

فنزلت تنذر هؤلاء الكفار باقتراب العذاب ففى بدايتها : ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ. (الأنبياء : ١)

ثم ساقت السورة الأدلة على الألوهية والتوحيد والرسالة والبعث . وهى الموضوعات التى عنيت بها السور المكية ؛ من أجل تقرير العقيدة والدفاع عنها .

ونلحظ هنا أن السورة قد عالجت هذه الموضوعات بعرض النواميس الكونية الكبرى ، وربط العقيدة بها .

فالعقيدة فى سورة الأنبياء جزء من بناء هذا الكون يسير على نواميسها الكبرى .

وهذه العقيدة تقوم على الحق الذى قامت عليه السماوات والأرض ، وليست لعبا ولا باطلا ، كما أن هذا الكون لم يخلق عبثا ، ولن يترك سدى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ . (الأنبياء : ١٦) .

ويلفت السياق أنظار الناس إلى مظاهر الكون الكبرى فى السماء والأرض ، والرواسى والفجاج ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، موجها الأنظار إلى وحدة النواميس التى تحكمها وتصرفها ، وإلى دلالة هذه الوحدة على وحدة الخالق المدبر والمالك الذى لا شريك له فى الملك ، كما أنه لا شريك له فى الخلق . لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ... (الأنبياء : ٢٢) .

ثم تتحدث السورة عن وحدة النواميس التى تحكم الحياة فى هذه الأرض ، وعن وحدة مصدر الحياة : وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ... (الأنبياء : ٣٠) .

وعن وحدة النهاية التى ينتهى إليها الأحياء : كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ... (الأنبياء : ٣٥) .

والعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية ، فهى واحدة كذلك وإن تعدد الرسل على مدار الزمان . وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ . (الأنبياء : ٢٥) .

وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط بنواميس الكون الكبرى ، فكذلك ملابسات هذه العقيدة فى الأرض . فالسنة التى لا تتخلف أن يغلب الحق فى النهاية وأن يزهق الباطل؛ لأن الحق قاعدة كونية وغلبته سنة إلهية: بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ... (الأنبياء : ١٨) .

وأن يحل الهلاك بالظالمين المكذبين وينجى الله الرسل والمؤمنين : ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ . (الأنبياء : ٩) .

وأن يرث الأرض عباد الله الصالحون : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ . (الأنبياء : ١٠٥) .

ومن ثم يستعرض السياق أمة الرسل الواحدة فى سلسلة طويلة استعراضا سريعا ، يطول بعض الشىء عند عرض حلقة من قصة إبراهيم عليه السلام وعند الإشارة إلى داود وسليمان عليهما السلام .

ويقصر عند الإشارة إلى قصص نوح ، وموسى ، وهارون ، ولوط ، وإسماعيل ، وإدريس ، وذى الكفل، وذى النون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى عليهم السلام .

وفى هذا الاستعراض تتجلى المعانى التى سبقت فى سياق السورة – تتجلى فى صورة وقائع فى حياة الرسل والدعوات ، بعد ما تجلت فى صورة قواعد عامة ونواميس .

كذلك يتضمن سياق السورة بعض مشاهد القيامة ، وتتمثل فيها تلك المعانى نفسها فى صورة واقع يوم القيامة .

وهكذا تتجمع الأساليب المنوعة فى السورة على هدف واحد هو استجاشة القلب البشرى لإدراك الحق الأصيل فى العقيدة التى جاء بها خاتم الرسل ﷺ فلا يتلقاها الناس غافلين معرضين لاهين . كما تصفهم السورة فى مطلعها .

إن هذه الرسالة حق كما أن هذا الكون حق وجد . فلا مجال للهو فى استقبال الرسالة ، ولا مجال لطلب الآيات الخارقة ، وإن آيات الله فى الكون وسنن الكون كله توحى بأنه الخالق القادر الواحد ، والرسالة من لدن ذلك الخالق القادر الواحد .

نظم السورة :

النظم فى سورة الأنبياء يختلف عن النظم فى سورة مريم وسورة طه . هناك كان النظم سهلا والختام رخيا يختم فى الغالب بالألف اللينة .

أما فى سورة الأنبياء فالنظم هنا نظم التقرير الذى يتناسق مع موضوعها ، ومع جو السياق فى عرض هذا الموضوع ، ولذلك ختمت آياتها بالميم أو بالنون .

وإذا نظرنا إلى الجانب الذى عرض من قصة إبراهيم فى سورة مريم ؛ وجدنا أن الحلقة التى عرضت هناك حلقة الحوار الرخى بين إبراهيم وأبيه . وقد ختمت آيات الحوار هناك بالألف اللينة مثل : نَّبِيًّا ، صَفِيًّا، عَلِيًّا.

وأما هنا فجاءت حلقة تحطيم الأصنام ، وإلقاء إبراهيم فى النار ، وليتم التناسق فى الموضوع والجو والنظم والإيقاع فقد ختمت قصة إبراهيم هنا بالنون أو الميم التى تفيد : التقرير والتأكيد ، أو ما يشبه أحكام القضاء بعد تفكر وتأمل وترتيب .

أشواط أربعة

يمكن أن تقسم سورة الأنبياء إلى أربعة أقسام ، يمضى السياق خلالها من قسم إلى آخر ، ويمهد كل شوط للذى يليه .

الشوط الأول :

يبدأ الشوط الأول : بمطلع قوى الضربات ، يهز القلوب هزا وهو يلفتها إلى الخطر القريب المحدق ، وهى عنه غافلة لاهية : ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . (الأنبياء : ١) .

ثم يهزها هزة أخرى بمشهد من مصارع الغابرين الذين كانوا عن آيات ربهم غافلين : وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ . (الأنبياء : ١١) .

ثم يربط بين الحق والجد فى الدعوة والحق والجد فى نظام الكون ، وبين عقيدة التوحيد ونواميس الوجود ، وبين وحدة الخالق المدبر ووحدة الرسالة والعقيدة ، ووحدة مصدر الحياة ونهايتها ومصيرها على النحو الذى أسلفناه ، ويستغرق هذا الشوط من أول السورة إلى الآية ٣٥ .

الشوط الثانى :

أما الشوط الثانى: فيرجع بالحديث إلى الكفار الذين يواجهون الرسول ﷺ بالسخرية والاستهزاء ، بينما الأمر جد وحق ، وكل ما حولهم يوحى باليقظة والاهتمام . وهم يستعجلون العذاب، والعذاب منهم قريب .. وهنا يعرض مشهدا من مشاهد القيامة ، ويلفتهم إلى ما أصاب المستهزئين بالرسل قبلهم ، ويقرر :

أن ليس لهم من الله من عاصم ويوجه قلوبهم إلى تأمل يد القدرة وهى تنقص الأرض من أطرافها ، وتزوى رقعتها وتطويها فلعل هذا أن يوقظهم من غفلتهم التى جاءتهم من طول النعمة وامتداد الرخاء .

وينتهى هذا الشوط بتوجيه الرسول ﷺ إلى بيان : وظيفته : قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ . وإلى الخطر الذى يتهددهم فى غفلتهم : وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ . (الأنبياء : ٤٥) . حتى تنصب الموازين القسط وهم فى غفلتهم سادرون . ويستغرق هذا الشوط من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٧ .

الشوط الثالث :

ويتضمن الشوط الثالث : استعراض أمة النبيين وجهاد الرسل وبلائهم فى سبيل الحق ويبدأ الشوط بموسى وهارون وقد أنعم الله عليهما بالفرقان وهو التوراة ؛ لأنها تفرق بين الحق والباطل ، ثم ذكر: إبراهيم وقد أعطاه الله الرشد والهداية فأنكر على قومه عبادة الأصنام ثم حطمها ، فألقى فى النار فجعلها الله بردًا وسلامًا عليه . ثم نجاة لوط من قومه المعتدين ، ونجاة نوح وأتباعه من الطوفان ، ثم ذكر : حكم داود وفهم سليمان ، وتسخير الشياطين والجن؛ لتعمل بين يديه بإذن ربه ، ثم تضرع أيوب، ودعاء يونس، وسؤال زكريا، وصلاح مريم . ويعقب الشوط بأن هناك وحدة بين هذه الرسالات فى العقيدة والإيمان والهدف والقيم والسلوك : إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ . (الأنبياء : ٩٢) .

وتتجلى فى رسالة الأنبياء عناية الله بهم ، ورعايته لأهل رسالته وتوليهم بالعناية والرعاية وأخذ المكذبين والظالمين أخذ عزيز مقتدر ، ويستغرق هذا الشوط من الآية ٤٨ إلى الآية ٩٥ .

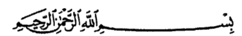
الشوط الرابع :

أما الشوط الرابع والأخير : فيعرض النهاية والمصير ، فى مشهد من مشاهد القيامة المثيرة ، حين يفتح سد يأجوج ومأجوج ويعرض ذل الكفار فى عذاب جهنم ونعيم المؤمنين فى الجنة ثم طى السماوات فى ساعة القيامة ، ثم توجه السياق إلى الرسول بالخطاب فذكر : أن الله أرسله بالرحمة والإحسان لتبليغ رسالة الله إلى الناس . ثم ختمت السورة بمثل ما بدأت : إيقاعًا قويًا ، وإنذارًا صريحًا ، وتخلية بينهم وبين مصيرهم المحتوم ويستغرق هذا الشوط من الآية ٩٦ إلى ١١٢ .

وفى آخر آية للسورة رنين يتحدى الكفار ويتوعدهم بحكم الله العادل : قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ . (الأنبياء : ١١٢) .

★ ★ ★

اقتراب الساعة



﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾

المفردات :

اقترب : اقترب وقرب بمعنى واحد ، والمراد من اقتراب الحساب : اقتراب زمانه ، وهو مجىء الساعة .

الناس : هم المكلَّفون .

معرضون : عن التأهب لهذا اليوم .

من ذكر : قرآن .

محدث : جديد إنزاله .

يلعبون : يسخرون ويستهزءون .

لاهية قلوبهم : غافلة قلوبهم عن ذكر الله .

النجوى : التناجى ، والمراد : أنهم أخفوا تناجيهم ولم يتناجوا بمرأى من غيرهم .

أضغاث أحلام : تخاليط أحلام رآها فى النوم .

افتراه : اختلقه من تلقاء نفسه .

بل : تذكر للانتقال من غرض إلى آخر ، ولا تذكر فى القرآن إلا على هذا الوجه كما قال ابن مالك .

التفسير :

١ - ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ .

مطلع قوى يهز القلوب هزًّا ، ويثير الفزع عند كل غافل أو مستهتر ، أو معرض عن البعث والحساب والجزاء ، فالدنيا قصيرة الأمد ، واليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل ، والموت يأتى بغتة ، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ . (النحل : ٦١) .

وخلاصة معنى الآية :

دنا وقت الحساب والجزاء ، والناس غافلون عن حسابهم ، ساهون لا يفكرون فى عاقبتهم ، مع أن قضية العقل تقضى بجزاء المحسن والمسيء ، ومن شأن كفار مكة أنهم إذا تلى عليهم الوحى ، ونُبِّهوا من غفلتهم ، بما يتلى عليهم من الآيات والنذر ، أعرضوا ، وسدُّوا آذانهم عن سماع الوحى ، وعن التنبيه لأمور الآخرة .

٢ - ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ .

كان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ يوقظ القلوب والنفوس ، ويطهر الأفئدة ، ويدعو إلى التأمل فى الكون وخالقه ، ويذكر الناس بالموت والبعث والحساب والجزاء وأهوال القيامة ، وكلما نزلت سورة جديدة قابلوها باللهو والإعراض ، والعبث والجحود ، مع أن الأمر جد وليس بالهزل ، والحديث فى الآية عن المشركين .

وخلاصة المعنى :

ما جدد لهم الذكر وقتا فوقتا ، وكرر على أسماعهم للتنبيه والموعظة لعلهم يتعظون ؛ إلا زادهم ذلك سخرية واستهزاء .

٣ - ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ .

لقد أعرضوا عن القرآن وشغلهم اللهو والمجون ، فقلوبهم لاهية عن الآخرة والمعاد والقرآن ، مشغولة بالفساد والضلال ، وترى أهل الباطل يتناجون سرًّا فى تدبير الكيد لأصحاب الحق .

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ .

أى : تفاوضوا سرًّا ، وأسروا التناجى ، وتدبير المكر السيئ ، قائلين فى تناجيهم :

﴿هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ .

إن محمدًا ليس ملكا ، وإنما هو إنسان كسائر الناس ، لا فضل له ولا مزية ، وما يقدمه هو سحر .

أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ .

أي : أفتتبعونه فتكونون كمن يأتى السحر ، وهو يعلم أنه سحر .

وخلاصة ذلك : أنهم طعنوا فى نبوته بأمرين :

١ - أن الرسول لا يكون إلا ملكًا .

٢ - أن الذى يظهر على يديه من قبيل السحر .

وقد رد القرآن الكريم عليهم فى أكثر من موضع ، مبينا : أن الرسول إلى البشر يجب أن يكون بشرا مثلهم ، وأن محمدًا ليس ساحرًا ، وإنما عدم الإيمان بالله تعالى هو الذى يحملهم على تقوّل الأقاويل .

قال تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ . (الأنعام : ٩) .

وقال عز شأنه : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ... (يوسف : ١٠٩) .

وقال تعالى : وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً . (الفرقان : ٨ ، ٩) .

٤ - قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

لقد أطلع الله ورسوله على ما تناجوا به ، حيث بيتوا المكر والكيد للرسول محمد ﷺ ودعوته ، وفى قراءة سبعية قُلْ ربى يعلم القول فى السمآء والأرض وهو السميع العليم . أى: قل لهم يا محمد: إن الله مطلع على سركم وجهركم ، وهو عليم بكل قول فى السماء والأرض ، شاهد على السر والجهر فما أسمع الله وما أبصره! فهو سبحانه يسمع دبيب النمل فى الليلة الظلماء تحت الصخرة الملساء ، وهو عليم بكل أمر ، تنكشف أمامه جميع الموجودات انكشافًا تامًّا دون سبق خفاء ، وفى الآية تهديد ووعيد للمخالفين .

٥ - بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ .

تردد الكفار فى اتهامهم للرسول ﷺ بصنوف الفرى ، فلم يثبتوا على تهمة معينة ، وفى الآية تعبير مصور لجماعة من الحائرين يقولون : إن ما يأتى به محمد من الوحى أضغاث أحلام ، أى: أخلاط من الرؤيا المنامية تهيأ له فى النوم ثم يجسدها فى اليقظة .

والضِّغث : حزمة من الحشيش ، يختلط فيها الرطب باليابس ، ومنه قول القرآن الكريم : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ . (ص : ٤٤) .

أى: خذ حزمة من الحشيش يختلط فيها الرطب باليابس فاضرب به زوجتك؛ برًّا فى يمينك ، فالكفار يدّعون : أن محمدًا يرى عددًا من الأحلام المختلفة ، ثم يعبر عنها فى الصباح بهذا القرآن.

بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ . ثم أضربوا عن القول السابق وقالوا : إن محمدًا يتقوّل هذا الوحى من عند نفسه ، فهو كذاب أو مبتكر أو عبقرى يؤلف الكلام وينسبه إلى الله .

بَلْ هُوَ شَاعِرٌ . تأتيه شياطين الشعر بهذه الأفكار فيصوغها ، ويدّعى: أنها وحى. قال تعالى : وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . (الشعراء : ٢١٠ ، ٢١١) .

وقال عز شأنه : إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . (الحاقة : ٤٠ – ٤٢) .

فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ .

أى : على محمد أن يأتينا بمعجزة مادية ملموسة مثل : زحزحة الجبال عن مكة ، وتحويل أرضها إلى أرض سهلة تجرى فيها الأنهار مثل سهول الشام ، أو ليحوّل جبل الصفا إلى ذهب ، كما أعطى صالح الناقة تحلب لبنا يكفى جميع قومه ، وكما أعطى موسى اليد والعصا ، وكما أعطى عيسى شفاء المرضى ؛ فليظهر لنا محمد معجزات مادية ملموسة ، كما فعلت الرسل السابقة ، لكن الله سبحانه لم يجبهم إلى مطلبهم ؛ لأن لله سننا لا تتخلف ، ومن هذه السنن : أن الأمة التى تعطى آية مادية ملموسة ثم تكذّب ؛ تستحق العذاب العاجل ، والحق سبحانه لا يريد أن يعجل بالعذاب لأمة بينها محمد ﷺ حيث قال : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ... (الأنفال : ٣٣) .

٦ – مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ .

أرسل الله رسلاً وأنبياء كثيرين ، لهداية الناس ، وأنزل عليهم كتبه وصحفه ، وأيدهم بالمعجزات ، لكن قومهم كذبوا بعد هذه المعجزات ، فاستحقوا الهلاك ، وكان أهل مكة أشد نكرانا وجحودا ، ذلك أن الله أمدّ رسوله محمدًا ﷺ ، وأيده بالقرآن ، وبعدد من المعجزات المادية الملموسة ، مثل : النصر فى بدر ، ونزول الملائكة ، وشفاء المرضى على يديه ، وتكثير الطعام ، ونبع الماء فى بعض الغزوات ، وعلم الله أن أهل مكة لن يؤمنوا ، إذا جاءتهم المعجزات المادية ، ولذلك قال سبحانه فى هذه الآية ما معناه : أرسلنا رسلا وأيدناهم بالمعجزات ، فلم يؤمن أهلهم بذلك ، فاستحقوا الهلاك ، أفيؤمن هؤلاء الكفار برسالتك ؟

إن هذا بعيد ، وقد جاء هذا المعنى فى قوله تعالى : وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا . (الإسراء : ٥٩) .

قال قتادة : قال أهل مكة للنبى ﷺ : إذا كان ما تقوله حقًا ويسرُك أن نؤمن ؛ فحوّل لنا الصفا ذهبًا ، فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان الذى سألك قومك ، ولكنه إن كان ، ثم لم يؤمنوا ؛ لم ينظروا ، وإن شئت استأنيت بقومك ، قال : بل أستأني بقومى ، فأنزل الله .

مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ .

★ ★ ★

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

المفردات :

أهـل الـذكـر : هم أهل الكتاب .

الجسـد : كالجسم إلا أنه لا يقال لغير الإنسان .

خـالـديـن : باقين .

الـوعـد : هو نصرهم وإهلاك أعدائهم .

المسـرفين : الكافرين .

ذكـركـم : شرفكم ، أو دينكم وعظتكم .

تـعـقـلـون : تتدبرون ما فى تضاعيفه من العبر والمواعظ .

تمهيد :

تناقش هذه الآيات المشركين ، فتبين : أن محمدًا ﷺ بشر رسول ، وليس بدعًا من الرسل ، فقد كان الرسل السابقون رجالاً ، ينزل عليهم الوحى ، وبينهم أهل الكتاب فليسألوا اليهود والنصارى عن رسل الله السابقين ، ومحمد بشر يأكل الطعام ، ويدركه الموت كسائر البشر وكسائر الرسل ، وهؤلاء الرسل وعدهم الله بالنصر والنجاة وبإهلاك المكذبين ، وقد صدقهم الله وعده ، والقرآن فيه شرف وحياة ورقى لهذه الأمة ، ولو استخدموا عقولهم ؛ لكان فى هذا الكتاب ما ينفعهم فى أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم .

التفسير :

٧ - وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

لم يكن محمد ﷺ بدعًا من الرسل ، بل كان مثل الأنبياء السابقين ، رجل أو بشر ينزل عليه وحى السماء ، وشاء الله أن يكون الرسول بشرًا ؛ ليكون قدوة عملية ، أمام الناس فى سلوكه وزواجه ، وأكله وشربه ونومه ، لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... (الأحزاب : ٢١) . ولو كان الرسول ملَكا (بفتح اللام) لامتنعت القدوة العملية ، فالملك لا يأكل ولا يشرب ولا ينسل ، ولا يتأثر بالحزن والفرح وسائر الانفعالات ، والملائكة معصومون من الخطيئة لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (التحريم : ٦) .

لقد كان موسى وعيسى وإبراهيم وغيرهم رجالاً ، أنزل الله عليهم الوحى من السماء .

فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

أى : اسألوا أهل التوراة والإنجيل ، عن ذلك ، إن لم يكن عندكم علم به .

وقد ورد مثل هذا المعنى فى القرآن الكريم كثيرًا ؛ للدفاع عن بشرية الرسول ﷺ حيث قال تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ . (الأنعام : ٩) .

وقال عز شأنه : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ... (يوسف : ١٠٩) .

وقال تعالى : قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٩) .

وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم : أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ... (التغابن : ٦) .

قال ابن كثير :

فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

أى : اسألوا أهل العلم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف ، هل كان الرسل الذين أتوهم بشرا أو ملائكة وإنما كانوا بشرا ، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه ، إذ بعث فيهم رسلاً منهم ، يتمكنون من تناول البلاغ منهم ، والأخذ عنهم . ا هـ .

٨ - وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ .

لم نجعل الرسل أجسادًا كالملائكة ، لا تأكل الطعام ، بل جعلنهم بشرًا يحتاجون إلى الأكل والإخراج والنسل ، ويعتريهم المرض والموت والفناء ، فقد كان كذلك رسل الله السابقون .

قال ابن كثير :

وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ .

أى : بل قد كانوا أجسادًا يأكلون الطعام ، كما قال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ . (الفرقان : ٢٠) . أى : قد كانوا بشرا من البشر ، يأكلون ويشربون مثل الناس ، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئا كما توهم المشركون فى قولهم : مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا . (الفرقان : ٧ ، ٨) .

وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ .

أى : فى الدنيا لا يموتون ولا يفنون ، ولكنهم قضوا حينا من الدهر وهم أحياء ، ثم طواهم الثرى وضمتهم القبور ، قال تعالى : وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ . (الأنبياء : ٣٤) .

وخلاصة ذلك : إنا جعلنا الرسل أجسامًا تتغذى حين الحياة ، ثم يصير أمرها إلى الفناء ، بعد استيفاء آجالها ، ولم نجعلهم ملائكة لا يتغذون ، وما كانوا مخلدين بأجسادهم ، بل يموتون كما مات الناس قبلهم وبعدهم ، وإنما امتازوا عن غيرهم من سائر الناس ، بما يأتيهم عن الله من الوحى والزلفى عنده .

٩ - ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ .

لقد وعد الله رسله بالنصر ، قال تعالى : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ . (غافر : ٥١) . وقد صدق الله ما وعد به رسله ، فنجاهم من أذى المشركين ، ونجى من يشاء من المؤمنين، وأهلك الذين أسرفوا على أنفسهم بالكفر والعصيان ، فقد نجى نوحا ومن آمن به ، وأغرق الكافرين، ونجى إبراهيم من النار وجعلها بردًا وسلامًا عليه ، ونجى موسى ومن آمن معه من الغرق ، وأغرق فرعون ومن معه من الجنود ، ونجى عيسى ورفعه إلى السماء ، ونصر محمدًا ﷺ ومن آمن معه من المهاجرين والأنصار، حتى فتح مكة وجاء نصر الله والفتح .

١٠ - لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

لقد أنزلنا إليكم أيها العرب ، قرآنا فيه شرفكم ومجدكم وعزتكم ، ودينكم وتقويم أخلاقكم ، بما اشتمل عليه من الإيمان والتشريع والآداب ، والقصص وأسباب السعادة والتربية المثلى ، فمن اتبعه ؛ نال السعادة فى الدنيا والآخرة .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ . ذلك فتقبلون على القرآن إقبال المصدق به ، المتبع لما جاء فيه .

لقد نزل القرآن عربيًّا مبينًا ، وكان شرفًا لهذه الأمة ، وبقدر اتباعها للقرآن ، بقدر ما جاء إليها من نصر وعز ، وبهذا القرآن تقدم العرب المسلمون ، فافتتحوا بلاد الفرس والروم ومصر ، وتقدموا شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا ، وحين ضعفت صلة المسلمين بهذا الكتاب ، وضعف الاقتداء به ؛ عمَّهم ظلام التخلف والتأخر، ولا يزال الوحى نضيرا ، والسنة المطهرة قدوة حسنة ، وكلما عاد المسلمون إلى أصول دينهم ؛ كلما عاد إليهم مجدهم ، وصاروا خير أمة أخرجت للناس ، والبشرية فى حاجة إلى هدى هذا القرآن ، ولم يكن للعرب كبير شأن فى الجاهلية ، وإنما عرف فضلهم بهذا القرآن الذى عم نوره المشارق والمغارب ، فالعرب بالإسلام كلُّ شىء ، وبدون الإسلام لا شىء ، قال تعالى : وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

إن القرآن شرف للرسول ﷺ وللعرب ؛ بما حوى من تشريع وآداب وأخلاق وقيمٌ ، وهذه نعم سوف نُسأل عنها : هل تمسكنا بها وحملناها إلى غيرنا فى صورة كريمة تدعو إلى الاقتداء بها أم لا ؟

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... (البقرة : ١٤٣) .

فالأمة الإسلامية أمة وسط ، وهذه الوسطية تميز هذه الرسالة ، فهى رسالة وسط بين المادية والروحية ، وهى فى منطقة وسط بين ما حولها من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وهى دعوة وسط بمعنى : مثالية الرسالة وصلاحيتها للدنيا والآخرة ، وهى لذلك تجعل للمسلمين القوامة على البشرية ، يتمسكون بالقيم ، ويدعون الناس إليها ، وحضارة القرن العشرين حضارة مادية ، تقدمت فى اختراع القنبلة الذرية ، ثم ألقيت قنبلة فى هيروشيما ، وقنبلة فى نجازاكى سنة ١٩٤٥ فكان مع ذلك الوباء والبلاء ، وآلاف القتلى وأصحاب العاهات ، وامتد الأثر إلى الأرض والزراعة والإنسان والحيوان ، وديننا هو دين الرحمة بالإنسانية وصدق الله العظيم . وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ . (الأنبياء : ١٠٧) .

★ ★ ★

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

المفردات :

كم : لفظ يفيد : تكثير وقوع ما بعدها .

القصم : هو الكسر بتفريق الأجزاء ، وإذهاب التئامها .

الإحساس : الإدراك بالحاسة ، أي : أدركوا بحاسة البصر عذابنا الشديد .

البأس : الشدّة .

الركض : الفرار والهرب .

الإتراف : إبطار النعمة ، يقال : أترف فلان أي : وسّع عليه في معاشه وقل فيه همّه .

ياويلنا : يا هلاكنا .

دعواهم : دعوتهم التي يردّدونها .

حصيدا : كالزرع المحصود بالمناجل .

خامدين : كالنار التي خمدت وانطفأت .

تمهيد :

تأتي هذه الآيات بمثابة التهديد والوعيد لأهل مكة وتفيد : أن الله أهلك كثيرا من القرى الظالمة وأنشأ بعدها قومًا آخرين .

التفسير :

١١ - وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ .

لقد أهلكنا كثيرا من القرى الظالمة ، التي كذبت الرسل واستهزأت بهم ، فدمّر الله قرى الكافرين ، مثل: عاد وثمود وفرعون وأشباههم ، والتدمير يعم الناس والمنازل وسائر المكان ، وتصوّر الآية شدة بطش الله بالظالمين ، فالتعبير بكلمة قَصَمْنَا تفيد : الفناء الكامل ، حيث إن القصم (بالقاف) يفيد : تفكيك الأجزاء وامتناع التئامها .

بخلاف الفصم (بالفاء) لأنه يفيد : التصدُّع ، وإمكانية الالتئام .

وحين تحدثت الآية عن الإهلاك جعلته للقرية ، كأن الإهلاك أصاب الأشخاص والأماكن وسائر الممتلكات والمنشآت ، أمّا عند الحديث عن الإنشاء والتعويض بالآخرين ، نسبه الله للأشخاص ، فيبدأ الله بهم ، ثم يعمرون المكان .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، تفيد : هلاك الظالمين المفسدين ، فذلك ناموس الله فى إزهاق الباطل وإحقاق الحق ، قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا . (الإسراء : ١٧) .

وقال تعالى : فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ... (الحج : ٤٥) .

وقال عز شأنه : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ . (النحل : ١١٢) .

وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ .

أى : أمة أخرى بعدهم ، فالله قد خلق الإنسان لعمارة الأرض ، فإذا أفسد وكذّب وأترف ؛ أهلكه الله ، وأنشأ أمة أخرى مكان الهالكين ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم . (محمد : ٣٨) . ويقول عز شأنه متحدثًا عن هلاك فرعون وقومه : كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ . (الدخان : ٢٥ – ٢٨) .

أى : عندما هلك فرعون ؛ انتقلت ملكية النعيم إلى قوم آخرين ، كأنه ميراث ملكوه ، كما يملك الابن الميراث عن أبيه .

١٢ – فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ .

تصوّر الآية ما نزل بهؤلاء المكذبين من الزعر والخوف ، فهم أشبه بالفأر فى المصيدة ، يجرى من هول ما أصابه ؛ لعل ذلك ينجيه ، كذلك هؤلاء الأشرار ، عندما شاهدوا عذاب الله ، وأيقنوا بوقوع الهلاك عليهم ؛ إذا بهم يفرّون من القرية مسرعين ؛ ظنا منهم أن ذلك الفرار والجرى السريع ، ربما ينجيهم من العذاب .

١٣ – لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ .

أى : يُقال لهم عند الفرار من قريتهم : لا تفرّوا وعودوا إلى النعيم والمال والترف والأبّهة ، واسكنوا فى

مساكنكم ، واستريحوا على الأرائك ، وناموا على السرر المريحة ، لعل الخدم والأتباع يسألونكم : ماذا تطلبون ، حتى نقوم بخدمتكم ، أو لعل الناس تسألكم : عن سبب هلاككم ، أو لعل المساكين والمحتاجين يطلبون منكم شيئا من مالكم ، والأمر كله تهكم بهؤلاء الأشرار ، الذين أنعم الله عليهم بالنعم ، فلم يقوموا بشكرها ، بل قابلوها بالبطر والأشر .

١٤ - قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ .

لقد استبانوا هذه الحقيقة ، بعد فوات الأوان ، وأحسُّوا بمقدار الخيبة والخسران ، فتنادوا : بالويل والثبور ، وقالوا : يا هلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا ، مستوجبين للعذاب ، بسبب إعراضنا عن الحق ، وتكذيبنا لمن جاء به .

١٥ - فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ .

تصوِّر الآية مصرع هؤلاء المشركين ، وهم يولولون على أنفسهم ، ويدعون عليها بالثبور ، ويعترفون بعد فوات الأوان ، بأنهم كانوا ظالمين ، ويظلُّ هؤلاء كالفأر فى المصيدة ، فى ذهاب وإياب ، واعتراف بالذنب ، وتحسر وولولة ونحيب ، حتى تنتهى حياتهم ، ويتم إهلاكهم ، كما يحصد الزرع بالمنجل ، وكما تخمد الجثة وتنتهى حياتها وتنقطع أنفاسها .

وخلاصة هذا : إنهم صاروا يكررون الاعتراف بظلمهم أنفسهم ، ولكن لم ينفعهم ذلك .

قال تعالى : فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ... (غافر : ٨٥) .

حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ .

حتى لم يبق لهم حس ولا حركة ، وأبيدوا كما يباد الحصيد ، وخمدوا كما تخمد النار .

★ ★ ★

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

اللعب : الفعل لا يقصد به مقصد صحيح .

اللهو : الفعل يعمل ترويحا عن النفس ، ومن ثم تُسمَّى المرأة والولد: لهوا ؛ لأنه يُتروَّح بكل منهما ، ويقال لامرأة الرجل وولده : ريحانتاه .

من لدنا : من عندنا .

القذف : الرمى البعيد .

الدمغ : أصل الدمغ : كسر الشيء الرخو ، ويراد به هنا : القهر والإهلاك .

زاهق : زائل ذاهب .

الويل : الهلاك .

من عنده : الملائكة .

لا يستكبرون : لا يتعظمون .

يستحسرون : يكلُّون ويتعبون ، يقال : حسر البعير ؛ إذا أعيا وكلّ .

لا يفترون : لا يضعفون ولا يتراخون .

تمهيد :

تردُّ الآيات على الطاعنين فى نبوة محمد ﷺ ، فالكون كله خلقه الله بالحق ، ومن هذا الحق : إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ولو أراد الله أن يتخذ ولدًا ؛ لاصطفاه من الملائكة ، لكنه منزه عن الصاحبة والولد ، ثم بين : أن الغلبة للحق دائما مهما طال أمد الباطل ، وأن جميع من فى السماوات ومن فى الأرض كلهم عبيده وفى طاعته .

التفسير :

١٦ - وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ .

إن الله لم يخلق الكون عبثا ، بل خلقه بالحق ، وأرسل رسله بالحق ، وأنزل كتبه بالحق ، وبالحق قامت السماوات والأرض ، ومن هذا الحق : الإيمان بالرسل ، والكتب ، والبعث ، والجزاء . وإثابة الطائع ، وعقوبة العاصى ، وقد كان أهل مكة لاهين لاعبين ، ووقفوا من دعوة الإسلام موقف اللاعب المستهتر .

فقال القرآن : إن خلق الكون ، وخلق الإنسان ، تمّ بالعدل والجد ، ومن تأمل فى خلق الكون وخلق الإنسان ؛ استدل بهذه المخلوقات على قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلاً ذَ ٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ . (ص : ٢٧) .

إن هذا الكون البديع المنظم ، يحتاج إلى قدرة عليا ، تمسك بنظامه ، وترفع سماءه ، وتبسط أرضه ، وتُرسى جباله ، وتظلم ليله وتضىء نهاره ، وتسخر شمسه وقمره ونجومه ، وتنظم الهواء والماء ، وتحافظ على التكامل والتنسيق بين هذا الكون ، فكل شىء فيه لحكمة عليا أرادها الله ، فالإنسان مثلا يستنشق الأكسجين ، ويخرج ثانى أكسيد الكربون ، والنبات عكس ذلك ، فلو وجد الإنسان وحده ؛ لمات ، ولو وجد النبات وحده ؛ لذبل واضمحل ، وهكذا تركيب الهواء بنسب معينة ، تساعد على الحياة والتعلم والتحضر ، فلو زادت نسبة الأكسجين فى الهواء ؛ لزادت الحرائق ، بحيث تكفى شرارة واحدة للغابة لتحترق ، ولو قلَّ الأكسجين ؛ لتعطل التحضر الإنسانى ، فالكون كله بيد الله يدبِّر نظامه ، ويرسل رسله وينزل كتبه .

ومن هذا الناموس الإلهى : إحقاق الحق ، ونصرة الرسل ، وإهلاك المفسدين .

١٧ - لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ .

أى : لو أردنا - على سبيل الفرض والتقدير - أن نتخذ ما نتلهى به ؛ لاتخذناه من عندنا ومن جهتنا ، دون أن يمنعنا أحد مما نريده ، ولكنا لم نُرد ذلك ؛ لأنه مستحيل علينا استحالة ذاتية ، فيستحيل علينا أن نريده ، فالآية الكريمة من باب تعليق المحال على المحال ؛ لأن كلا الأمرين يتنافى مع حكمة الله ومع ذاته الجليلة .

إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ .

إن هنا بمعنى (ما) أى : ما كنّا فاعلين ، والفقرة هذه تذييل لتأكيد امتناع إرادة اللهو عليه سبحانه ؛ لأن اتخاذ اللهو يستحيل عليه .

ونقل ابن كثير فى معنى الآية ما يأتى :

قال الحسن وقتادة وغيرهما : لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا . اللهو : المرأة بلسان أهل اليمن .

وقال إبراهيم النخعى : لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ من الحور العين .

وقال عكرمة والسدّى : المراد باللهو هنا : الولد وهذا والذى قبله متلازمان ، وهو كقوله تعالى : لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ . (الزمر : ٤) . فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقا ، ولاسيما عما يقولون من الإفك والباطل ، من اتخاذ عيسى أو العزير [1] أو الملائكة ؛ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . (الإسراء : ٤٣) .

وخلاصة المعنى :

لو أراد الله أن يتخذ لهوا كما يتخذ العباد ؛ لاتخذه من العوالم المجردة كالملائكة ، لكنه سبحانه منزه عن اللهو ، فقد خلق الكون لحكمة عليا ، وخلق الإنسان وزوده بالسمع والبصر ، وأرسل له الرسل وأخبره بالحساب والجزاء ، فالجدّ ظاهر فى خلق الكون ، واللهو واللعب من شأن العبيد المخلوقين ، لا من شأن رب العالمين .

وقريب من ذلك قوله تعالى : قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ * سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ . (الزخرف : ٨١ ، ٨٢) .

١٨ - بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ .

بَلْ هنا للإضراب ، أى : ليس من شأننا أن نتخذ لهوا ، ولكن من شأننا إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل، ومن هذا الحق : إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتكليف الرسل بالبلاغ والدعوة إلى الهداية ، والصراع بين الحق والباطل أزلى ، ولحكمة إلهية عليا أن يوجد فى هذا الكون وسائل الهداية ، ووسائل الغواية ، وأن يكون مع الإنسان العقل والرسالات السماوية ، وأمامه وسائل الإغراء ، وهذا للاختبار والابتلاء ، إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . (الكهف : ٧) .

ومفردات الآية تصور الحق قذيفة موجهة إلى أم رأس الباطل ، فتشق دماغه ، فتنتهى حياته وتزهق روحه ، والقذف الرمى بسرعة .

فَيَدْمَغُهُۥ . يمحقه ويزيله .

قال القرطبى : وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ .

قال صاحب الظلال :

والتعبير يرسم هذه السُّنَّة فى صورة حسية متحركة ، فكأنما الحق قذيفة فى يد القدرة ، تقذف به على الباطل ، فيشق دماغه ! فإذا هو زاهق هالك ذاهب[٢] .

وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ .

ولكم أيها الكافرون الضالون العذاب الشديد ، مما تصفون الله به ، بأن له صاحبة أو ولدا ، أو أنه لا بعث ولا حساب ، أو التكذيب بالرسل وبرسالة محمد ﷺ وبالقرآن المجيد .

١٩ - وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ .

ولله ملك السماوات والأرض وما فيهما ، من إنسان وحيوان وطير وفضاء وهواء ، فهو سبحانه يملك جميع من فى السماوات والأرض ، وله وحده جميع من فى السماوات والأرض ، خلقا ، وملكا ، وتدبيرًا ، وتصرفًا ، وإحياء وإماتة ، لا يخرج أحد عن علمه وقدرته ، ولا يبعد أن يكون فى السماوات والأرض كائنات حية تعيش فى هذه المجرات والبروج على طريقة خلقها الله عليها ، وجعلها تتكيف فى حياتها مع طبيعة ما حولها .

وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ .

ومن عنده من مخلوقاته التى لا يعلمها إلا هو ، ومن عنده الملائكة المقربون ، الذين فطروا على العبادة والطاعة ، فلا يستكبرون عبادة الله ، ولا يستحسرون أى : ولا يمتنعون ولا يكلّون ولا يتعبون ، فقد فطروا على عبادة الله وطاعته ، عن راحة وطواعية ، فليس فى طبيعتهم التكبر عن العبادة ، أو الامتناع عنها أو الكلال أو الملل منها .

٢٠ - يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ .

التسبيح : تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ، والفتور : الاسترخاء والراحة والإبطاء ، فالملائكة فى تسبيح دائم ، وطاعة مستمرة لله ، بالليل والنهار فى جميع الأوقات ، بدون فتور أو تقصير أو إهمال أو إبطاء ، كما قال سبحانه وتعالى : لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (التحريم : ٦) .

وقال سبحانه : فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ . (فصلت : ٣٨) .

قال فى حاشية الجمل على الجلالين :

وتسبيح الملائكة لله تعالى ، يجرى منهم مجرى التنفس منّا ، فهو سجيه وطبيعة ، وكما أن اشتغالنا لا يمنعنا من الكلام ، فكذلك اشتغال الملائكة بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الأعمال . ا هـ .

والمؤمن يستطيع أن يحوّل كل أعماله إلى عبادة ، فتكون دراسته أو تعلُّمه ، أو زراعته ، أو صناعته عبادة ؛ إذا قصد بها الامتثال لأمر الله ، أو نفع عباد الله ، فتكون الأعمال العادية عبادة ، كعبادة الصلاة والصيام ؛ إذا حسُنت فيها النية ، وفى الحديث الصحيح : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...» [٣].

★ ★ ★

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

ينشرون : من أنشره أى : أحياه .

لفسدتا : خرجتا عن نظامهما وخربتا .

فسبحان الله : تنزيها له عما وصفوه به .

هذا ذكر من معى : هذا الوحى المتضمن للتوحيد عظة أمتى .

وذكر من قبلى : وموعظتهم وإرشادهم .

لا يسبقونه بالقول : لا يتكلمون حتى يأمرهم .

مكرمون : مقربون عنده .

من خشيته : بسبب خوف عذابه .

مشفقون : حذرون .

تمهيد :

ما تقدّم من أول السورة إلى هنا كان فى النبوات وما يتعلق بها سؤالاً وجوابًا ، وأما هذه الآيات فإنها فى بيان التوحيد ونفى الشريك .

التفسير :

٢١ - أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ .

أى : بل اتخذوا أصناما تُعبد من دون الله ، خلقت من الأرض كالأصنام والأحجار ، وهذه الأصنام على حقارتها وضعتها هل تقدر على إحياء الموتى ، وبعث من فى القبور ؟! والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع : لأن الكفار أثبتوا لهذه الأصنام الألوهية وعبدوها على أنها وسيلة للتقرب إلى الله ، وهو هنا يسألهم : من له الألوهية والعبادة يستطيع البعث والنشر ، فهل آلهتكم تملك هذه القدرة ؟! والجواب : لا طبعًا؛ لأن الكفار يعرفون ذلك ، وهم وإن لم يقولوا ذلك صريحًا ، فما ادعوه لها من الألوهية ، يستدعى لها ثبوت إحياء الموتى ؛ لأنه من خصائصها ، وكأن الآية تشير ضمنًا إلى أن الخالق الحق هو الله ، فهو الذى أنشأ الخلق من العدم ، وهو القادر على إعادة الخلق كما بدأهم ، قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ . (الأنبياء : ١٠٤) .

٢٢ - لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ .

إننا نلاحظ اتساق السماء واتساعها ونظامها ، وإحكام خلقها ، بلا خلل ولا تشقق ولا عيوب ، ونشاهد امتداد الأرض واتساعها وتماسكها وإحكام خلقها ، وتثبيتها بالجبال ، ولو كان فى الكون آلهة متعددة؛ لكثر بينهما التغالب والتنازع وأدى ذلك إلى فساد الكون ، واضطرابه ، والشاهد أمامنا نظام الكون وإبداعه، فدلَّ ذلك على أن خالقه إله واحد ، وأن خالقه هو الله وحده لا شريك له ، فلا يقدر على هذا الخلق البديع إلا الله، والمنطق يقول ذلك ، والعقل يقول ذلك . فنظام الكون واحد ، وهذا الكون يسير على نسق واحد ، فى خلقه واستمراره ونهايته وإعادته ، وهذا النَّسق الواحد ، يشير إلى أن وراءه يدًا واحدة ، هى يد القدرة الإلهية ، وقد تعددت آيات القرآن التى تشير إلى خلق الله للكون ، وبأن الكون البديع له ناموس بديع واحد ، يشير إلى خالق واحد مثل قوله تعالى : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ... (الأنعام :١) .

وقوله عز شأنه : مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ . (المؤمنون : ٩١) .

وقال تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَ ٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (الروم : ٢٧) .

وخلاصة معنى الآية :

لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله لفسدتا ، لكنهما لم تفسدا ، بل هما على غاية النظام والإبداع ، فدل ذلك على أن خالقهما الإله الواحد سبحانه وتعالى .

فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ .

أى : فتنزيها لله رب العرش العظيم ، الخالق المبدع ، المحيط بهذا الكون ، المدبّر لهذا العالم ، عما يقول هؤلاء المشركون من أن له ولدًا أو شريكًا .

٢٣ – لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ .

ليس فوقه أحد حتى يسأله ، إنه هو القاهر فوق عباده ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو الذى يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ . (المؤمنون : ٨٨) وهو سبحانه : الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد ، لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، عظم سلطانه ، وامتد ملكه ، وعظمت قدرته ، وعظمت حكمته ؛ فكل أعماله حكيمة ، ولذلك ؛ لا يتطاول إنسان فيقول : لم خلق الله كذا ، ولم عمل كذا ؟ لأننا قد ندرك سر الحكمة فى شيء ، وقد تغيب عنا أشياء ، وهذا معنى : لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ؛ لأنه سبحانه حكيم فى خلقه ونظامه وأوامره وتشريعاته ، والخلق جميعًا يُسألون يوم القيامة عما قدموه فى دنياهم ، ويجازون على الإحسان إحسانًا وعلى السوء سوءًا ، قال تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

وجاء فى التفسير الوسيط للدكتور / محمد سيد طنطاوى :

لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ . تأكيد لوحدانيته وقدرته سبحانه . أى : لا يسأله سائل عما يفعله بعباده ، من إعزاز وإذلال ، وهداية وإضلال ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وإسعاد وإشقاء ؛ لأنه هو الرب المالك المتصرف فى شئون خلقه .

وَهُمْ يُسْئَلُونَ . يوم القيامة عن أعمالهم وأقوالهم ؛ لأنهم عبيده ، وقد أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، فمنهم من اتبع الرسل فسعد وفاز ، ومنهم من استحب العمى على الهدى فشقى وهلك[٤].

٢٤ - أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ .

أيصح بعد تقديم الأدلة السابقة ، أن يتخذ المشركون آلهة يعبدونها من دون الله ، قل لهم يا محمد: قدموا الأدلة والبراهين على ذلك، هذا القرآن الكريم تذكير لمن معى من المؤمنين ، مشتمل على أدلة التوحيد، حافل بلفت الأنظار إلى جمال الكون ، وبديع نظامه ، وأنه فى قبضة إله واحد .

قال تعالى : أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (النمل : ٦١) .

وهذه التوراة والأناجيل والصحف السماوية ، كلها حافلة بالدعوة إلى التوحيد ، وقد نزلت هذه الكتب على الأنبياء من قبلى ، لأمم الأنبياء السابقين . وبذلك اتفق القرآن وجميع الكتب السماوية السابقة على الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك ، أى : أن العقل والنقل يؤكدان التوحيد وينبذان الشرك .

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ .

أكثر هؤلاء المشركين لا يعرفون الحق ، ولا يميزون بين الحق والباطل ، فلا تنفع معهم الأدلة والبراهين ، لقد اتبعوا آباءهم فى عبادة الأصنام ، ولم يستخدموا عقولهم ، ولم يفتحوا قلوبهم لسماع دعوة الإسلام ، وصادروا الاستماع إليها ، وأعرضوا عنها وصمُّوا آذانهم عن الهدى ، وأغلقوا عيونهم عن النظر .

فَهُم مُّعْرِضُونَ .

لذلك أعرضوا عن الدخول فى الإسلام . والجهل بالحق داء دوىّ ، ومرض يفسد الفطرة ، ويصرف الإنسان عن السير فى طريق الهدى والإيمان .

٢٥ - وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ .

لقد أرسلنا رسلنا يدعون أقوامهم إلى التوحيد ، فآدم، ونوح، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى، وعيسى، وسائر الرسل ، كانوا يدعون أقوامهم إلى توحيد الله ، والإخلاص له فى العبادة ، وامتثال أمره واجتناب نواهيه .

وقد أوحى الله إلى كل رسول: أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ؛ فلا معبود بحق غير الله .

وفى سورة طه: فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ . (طه: ١١ – ١٤) .

وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ... (النحل: ٣٦) .

والخلاصة: أن الفطرة والعقل والنقل تؤيد التوحيد، ورسالات جميع الأنبياء متحدة فى دفع الشرك وإقرار التوحيد .

٢٦ – وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ .

وقال فريق من هؤلاء المشركين: إن الملائكة بنات الله، وقد ناقش القرآن هذه الفكرة فى آيات كثيرة، وأثبت ضلالها وبين ضعف الأنثى، وعدم استطاعتها إقامة الحجة أو النجاح فى الخصومة، فكيف يجعلون لأنفسهم الذكور ولله الأنثى ؟!

قال تعالى: أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ . [٥] (النجم: ٢١، ٢٢) .

وقال سبحانه وتعالى: وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ * وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . (الزخرف: ١٥ – ٢٠) .

وتفيد كتب التفسير: أن اليهود ادعوا لله ولدًا هو العزير، وأن النصارى ادعوا لله ولدًا وهو المسيح عيسى بن مريم، وأن جموعًا من مشركى العرب ادعو أن الملائكة بنات الله، وهم بطون من خزاعة وجهينة وبنى سلمة، وقد ناقشتهم آيات القرآن وفندت حججهم، فكيف يتخذ الخالق مما يخلق البنات ويترك للمخلوقين البنين ؟! مع أن العربى كان إذا بُشر بالأنثى؛ اسودّ وجهه، وملأ الغيظ قلبه، وسيكتب الله قولهم ويحاسبهم عليه ويسألهم عنه .

ومعنى الآية :

وقال المشركون : ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا تنزه الله وتقدّس الله تعالى عن ذلك ، جل وعلا عما يقولونه علوا كبيرا .

بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ .

لقد كذب المشركون فى قولهم : الملائكة بنات الله ، والحق أن الملائكة هم عباد مخلوقون له تعالى، ومقربون إليه ومكرمون عنده ؛ لأنهم فى منتهى الطاعة والعبادة والامتثال لأمره ، والتسابق فى مرضاته، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

٢٧ – لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ .

إنهم فى غاية الامتثال والطاعة لربهم ، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ، ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله ، فهم نموذج للطاعة فى القول والعمل .

٢٨ – يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ .

شتان بين المخلوق والخالق ؛ فالله العلى العظيم ، يعلم أحوال الملائكة كلها ، صغيرها وكبيرها ، متقدمها ومتأخرها .

وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ .

ولا تشفع الملائكة إلا لمن رضى عنه الرحمان ، وهم أهل التوحيد ، وقد ثبت فى الصحيح : أن للملائكة شفاعة ، لكنها مرتبطة بمن رضى الله عنه ، وأذن لهم بالشفاعة له ، والملائكة لخوفهم من عقاب الله وعذابه ؛ حذرون وجلون ، يتسابقون فى طاعته وذكره ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، ولا يملكون إلا هذه الطاعة ، ولا يخالفون لله سبحانه أمرًا ، فمن جعلهم بنات لله ، فقد افترى على الله الكذب ؛ لأن الابن يكون من جنس الأب ، وشتان بين الإله الخالق وبين الملائكة المخلوقة .

٢٩ – وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ .

ومع طاعتهم لله تعالى وامتثالهم لأمره ، إذا فرضنا جدلاً أن واحدًا منهم ، ادعى : أنه إله من دون الله ، فسوف يكون جزاؤه عذاب جهنم ، ومثل هذا الجزاء لكل مدعٍ للألوهية ، ولكل ظالم عات على أمر الله ، مثل إبليس الذى أقام مع الملائكة فنسب إليهم ، وعندما خالف أمر الله تعالى ، ولم يسجد لآدم ؛ طرده الله من جنته ورضوانه ، وكتب عليه اللعنة والطرد من رحمته ، ووعده فى الآخرة عذاب السعير .

قال تعالى : قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . (ص ٧٧ – ٨٥) .

★ ★ ★

الخلق

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾

المفردات :

الرتق : الضم والالتحام ؛ خلقة كان أو صنعة .

الفتق : الفصل بين الشيئين الملتصقين .

جعلنا من الماء كل شيء حي : أحيينا بالماء الذى ننزله من السماء كل شيء ، والنبات والشجر .

الرواسي : الثوابت واحدها : راسية .

تميد : تتحرك وتضطرب .

الفجاج : واحدها : فج وهو طريق يكتنفه جبلان .

سبلا : طرقا واسعة .

سقفا محفوظا : السماء كالسقف للأرض ، محفوظة من الخلل والاضطراب ، ومن استراق السمع .

كل في فلك : في مدار خاص به .

يسبحون : ينطلقون ويتحركون ويعومون ، مرتبطين بنظام هذا الكون .

تمهيد :

تقدم الآيات دلائل القدرة الإلهية فى : خلق الكون ، ورفع السماء ، وبسط الأرض، وإرساء الجبال، وتسخير الليل والنهار، والشمس والقمر ، وكل شيء له مجال يسبح فيه مرتبطا بنظام هذا الكون المحفوظ بيد القدرة الإلهية .

التفسير :

٣٠- أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ .

يمن الله على عباده بخلق هذا الكون وإيجاده من العدم .

والمعنى : ألم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة ، لا فتق فيها ولا انفصال وهو ما يسمى فى عرف علماء الفلك : بالسديم ، وبلغة القرآن : بالدخان فَفَتَقْنَـٰهُمَا ، بفصل بعضهما عن بعض ، فكان منها ما هو سماء ومنها ما هو أرض [٦] .

وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس وغيره عن أعلام التفسير قولهم : كانت السماوات رتقًا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت ، وكانتا ملتصقتين ففصل الله بينهما بالهواء فكان فى ذلك فتق السماء بالمطر، وفتق الأرض بالنبات .

وقيل : الرتق : مجاز عن العدم، والفتق: مجاز عن الإيجاد والإظهار كقوله تعالى : فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ [٧].

وقال بعض علماء الفلك :

معنى : كَانَتَا رَتْقًا ، أى : شيئًا واحدا ، ومعنى : فَفَتَقْنَـٰهُمَا : فصلنا بعضهما عن بعض .

قال : فتدل الآية : على أن الأرض خلقت كباقى الكواكب السيارة من كل وجه ، أى : أنها إحدى هذه السيارات ، وهى مثلها فى المادة وكيفية الخلق وكونها تسير حول الشمس ، وتستمد النور والحرارة منها ، وكونها مسكونة بحيوانات كالكواكب الأخرى ، وكونها كروية الشكل ، فالسيارات أو السماوات هى متماثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة وهى مادة الشمس ، وعلى طريقة واحدة – ا هـ . كلامه [٨] .

ومعنى قوله تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ . صيرنا كل شيء حى بسبب الماء لا يحيا دونه ، فيدخل فيه النبات والشجر؛ لأنه من الماء صار ناميًا ، وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر ، وإسناد الحياة إلى ظهور النبات معروف فى آيات شتى كقوله تعالى : وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا [٩] . وخص بعضهم الشيء بالحيوان ، لما ورد فى الآية ٤٥ من سورة النور وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ولا ضرورة إليه ، بل العموم أدل على القدرة ، وأعظم فى العبرة وأبلغ فى الخطاب وألطف فى المعنى [١٠] .

٣١- وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ...

أى : ألقينا فى الأرض جبالا راسية حتى تحفظ توازنها فلا تضطرب ولا تختل ، ولولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب ؛ مما فى جوفها من المواد الدائمة الجيشان .

وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ .

أى : جعلنا فى الأرض طرقًا ؛ ليهتدوا أثناء السير فيها .

وقال ابن كثير :

جعلنا ثغرًا فى الجبال يسلكون فيها طرقًا من قطر إلى قطر ، ومن إقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد فى الأرض يكون الجبل حائلا بين هذه البلاد وهذه البلاد ، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة ؛ ليسلك الناس فيها من هنا إلى هنا ولهذا قال : لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ .

٣٢- وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ .

بارك الله فى الأرض ، وحفظ توازنها بالجبال ، وقدر فيها أرزاقا بالماء والفضاء والهواء ، وجعل السماء سقفًا وغطاء لحفظ الأرض ، وحفظ الله السماء من الخلل والفطور والتشقق ، كما حفظها من الشياطين بالشهب ، قال تعالى : وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ . (الحجر : ١٧) .

وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ .

أى : لا يتفكرون فيما خلق الله فى السماء من الارتفاع الباهر ، والاتساع العظيم ، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات فى ليلها ونهارها ، من هذه الشمس التى تقطع الفلك بكماله فى يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذى قدرها وسخرها وسيرها .

وفى معنى الآية قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . (يوسف : ١٠٥)

٣٣- وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

الله خَلَقَ ٱلَّيْلَ ؛ ليسكن الإنسان فى ظلامه ويهدأ، وخلق ٱلنَّهَارَ مبصرًا ؛ ليسعى فيه على رزقه وينشط لعمله.

وخلق الله ٱلشَّمْسَ ؛ لتكون سراجًا للنهار ، ولتمد الناس والكون بالدفء والحرارة .

وخلق الله ﴿الْقَمَرَ﴾ نورًا لليل ، ويرتبط بالقمر المد والجزر ، وقد سخر الله هذه الكائنات ، وأبدع نظامها ، ويسر لها حركتها .

﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ . كل واحد منهما يجرى فى الفلك كالسابح فى الماء .

قال فى ظلال القرآن :

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان . والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان فى الأرض ، وبالحياة كلها .. والتأمل فى توالى الليل والنهار ، وفى حركة الشمس والقمر بهذه الدقة التى لا تختل مرة ، وبهذا الاضطراد الذى لا يكف لحظة .. جدير بأن يهدى القلب إلى وحدة الناموس ، ووحدة الإرادة ، ووحدة الخالق المدبر القدير [١١] .

★ ★ ★

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

المفردات :

الخلد : الخلود والبقاء فى الدنيا .

فهم الخالدون : الباقون فى الدنيا ؟ لا ، وهذه الجملة محل الاستفهام الإنكارى .

ذائقة الموت : كل نفس ستدرك الموت عند نهاية الحياة ، والمراد من الموت : مقدماته من الآلام الشديدة ، والمدرك هى النفس المفارقة للبدن .

نبلوكم : نختبركم ، أى : نعاملكم معاملة المختبر .

بالشر والخير : بالبلايا والنعم ، أو المحبوب والمكروه ، كفقر وغنى ، وسقم وصحة ، وذل وعزّ .

فتنة : ابتلاء وامتحانًا ؛ لننظر أتصبرون وتشكرون أم لا .

وإلينا ترجعون : فنجازيكم حسبما يوجد منكم من الصبر والشكر ، وفيه إيماء بأن المقصود من هذه الحياة: الابتلاء.

إن يتخذونك إلا هزوا : ما يتخذونك إلا مهزوءا به مسخورًا منه .

أهذا الذي يذكر آلهتكم: أهذا الذي يعيب آلهتكم .

وهم بذكر الرحمان: إذا ذكر الإله الرحمان الواحد .

هـم كـافـرون: بما أنزل عليك من القرآن والرسالة كافرون جاحدون ، فهم أولى بالرثاء والسخرية؛ لكفرهم بالله الحق .

تمهيد:

فى آيات سابقة ربط الله بين نواميس الكون ، ولفت الأنظار إلى خلق الكون ، والحياة والماء ، والأرض والسماء ، والشمس والقمر .

وهنا يتحدث عن نواميس الحياة البشرية فى طبيعتها ونهايتها ومصيرها .

التفسير:

٣٤- وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ .

كان الكافرون يتربصون بالنبى الموت ، ويقولون : سيموت محمد كما مات شاعر بنى فلان ؛ فبين القرآن : أن الموت سنة الأحياء ؛ فكل حىّ سيدركه الموت ، وكذلك كفار مكة سيموتون ، وإذا كانوا سيموتون فلماذا لا يعملون عملاً صالحًا ينفعهم بعد الموت ؟.

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ .

لم يخلّد نبى ولا رسول ولا بشر ؛ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ . (الرحمان : ٢٦ ، ٢٧).

وإذا كان كل بشر فان ؛ فأنت ستموت يا محمد كما مات غيرك ، وسنتكفل نحن بأمر الرسالة ونحافظ عليها.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ . (الحجر : ٩) .

أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ .

وأنت إذا مت يا محمد ، فإن الكفار سيموتون أيضًا فى الوقت الذى حدده الله تعالى لانقضاء عمرك، وأعمارهم .

وما دام الأمر كذلك ، فلا تلتفت إليهم ، ولا تنزعج من شماتتهم فى موتك ، فإنك ميت وإنهم ميتون ، وكل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون .

يقول الإمام الشافعي :

تمنَّى أناس أن أموت ، وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى تهيأ لأخرى مثلها ، وكأن قد

ويقول شاعر آخر :

إذا ما الدهر جرَّ على أناس كلا كلـه أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

٣٥- كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ .

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ .

فهى قضية عامة تشمل الإنسان والحيوان والنبات ، هذا هو الناموس الذى يحكم هذه الحياة ، إنه الموت نهاية كل حى ، وعاقبة المطاف للرحلة القصيرة على الأرض ، فما أجدر الإنسان بأن يُعد الزاد للحياة الحقيقية فى الدار الآخرة .

وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ . (العنكبوت : ٦٤) .

والمقصود من هذه الحياة الدنيا : الاختبار ، والابتلاء ، والامتحان .

وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ .

نختبركم بالفقر والغنى ، والمرض والصحة ، والشقاء والسعادة ، والبلاء والعافية ؛ امتحانا لكم ، واختبارًا لأنفسكم ، ولنشاهد نحن وملائكتنا ماذا كان وقع الابتلاء بأنفسكم ؛ هل صبرتم على البلاء ؟ هل شكرتم على النعماء ؟ جزعتم من البلاء ؟ وأترفتم بالنعماء ؟ هل أديتم حق الله فى أنفسكم وأموالكم وسائر نعم الله عليكم ؟ هل صبرتم على المصائب ؟ هل شكرتم على النعم ؟

قال تعالى : ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . (الملك : ٢) .

وقال سبحانه : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . (الكهف : ٧) .

فالحياة اختبار ، والمال والجاه والسلطان وسائر النعم ، هى مادة ذلك الاختبار ، وكثيرون ينجحون

فى الصبر والاحتمال ويتحملون الشدائد ، وقليلون هم الذين ينجحون فى الرخاء والنعم والدّعة والراحة والمال والغنى .

يقول الأستاذ سيد قطب :

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة ، وإن خيّل للناس أنه دون الابتلاء بالشر .

إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ، ولكن القلة القليلة هى التى تصمد للابتلاء بالخير .

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف ، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة ، ويكبحون جماح القوة الهائجة فى كيانهم ، الجامحة فى أوصالهم .

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذّل ، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والمقدرة ، وما يغريان به من متاع ، وما يثيرانه من شهوات وأطماع !

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم ، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم ، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرّغائب والمناصب والمتاع والثراء !

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح ؛ ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح ، ثم لا يصابون بالحرص الذى يذل أعناق الرجال ؛ وبالاسترخاء الذى يقعد الهمم .

إن الابتلاء بالشدّة قد يثير الكبرياء ، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب ، فتكون القوى كلها معبأة؛ لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخى الأعصاب وينميها ، ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة.

لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح ، حتى إذا جاء الرخاء سقطوا فى الابتلاء ! وذلك شأن البشر.. إلا من عصم الله فكانوا ممن قال فيهم رسول الله ﷺ : «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له» [١٢] .

فاليقظة للنفس فى الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها فى الابتلاء بالشر ، والصلة بالله فى الحالين، هى وحدها الضمان [١٣] .

وإذا تأملت أيها المسلم وجدت أن المال والجاه والسلطان وسائر النعم هى خيرات يتفضل الله بها على عباده ، والقلب الموصول بالله ، يرى أن كل نعمة من الله ، وأنه مستخلف عن الله فى إدارتها وإنفاقها قال تعالى : وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ... (الحديد : ٧) .

وقد ورد فى هدى القرآن الكريم والسنة المطهرة : دعوة متكررة تحث على الصبر على البأساء وعلى الشكر على النعماء ، وتحذر من الجزع والهلع واليأس ، كما تحذر من البطر والترف والغرور .

والمؤمن حقا متوازن ؛ إذا جاءت النعم ، سخرها فى طاعة الله ، وأنفق من ماله فى جهات الخير والبر وسخَّر أنعم الله عليه فى مصالح العباد ، ومرضاة الله رب العالمين ، وإذا ابتلاه الله بالشدة أو المرض أو الفقر لم يهلع ولم يجزع وصبر واحتسب .

قال تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ، ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ . (البقرة : ١٥٥ - ١٥٧) .

وقال عز شأنه :

إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ * وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ * وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ . (المعارج : ١٩ - ٢٦) .

وفى الحديث الصحيح يقول النبى ﷺ : «ما يصيب المؤمن من همٍّ ولا حزن ، ولا تعب ولا وصب ، حتى الشوكة يشاكها ؛ إلا كفر الله بها من خطاياه ، ولا يزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة» [١٤] .

ويقول النبى ﷺ : «لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس» [١٥] .

وختاما : إن لله حكمة عليا فى هذا الكون ؛ فهو يمتحن عباده بالخير حينا وبالشر حينا كما قال سبحانه : وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . (الأعراف : ١٦٨) .

وقال عز شأنه : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ . (الأنعام : ٤٢).

وقال تعالى : وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ .
(الشورى : ٢٧)

٣٦- وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ.

كان الكفار يسخرون من النبى ﷺ ، ويستكثرون على الفقير اليتيم أن ينزل عليه وحى السماء وأن يكون رسولا نبيا .

ومعنى الآية :

إذا شاهدك المشركون تهكموا بك هازئين ، قائلين : أهذا الذى يتجرأ على ذكر آلهتكم ؛ بأنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضّر ، ولا تفيد من عبدها . وهم كافرون بالله ، الإله الحق ، الخالق لهذا الكون ، أى : إنهم يستكثرون على محمد أن يذكر آلهتهم وأصنامهم بسوء ، ولا يستكثرون على أنفسهم ، أن يجحدوا حق الله عليهم فى الإيمان به وبرسوله الصادق المصدوق ؛ فسبحان من جعلهم يخضعون للأصنام الباطلة، ويجحدون رسالة الرسول ، والإيمان بالرحمان مع أن هذا الإيمان هو الحق المبين ، لقد وضعوا الشىء فى غير موضعه ، فهم أحق بالاستهزاء والسخرية .

وقد سجل القرآن الكريم أن الله حفظ نبيَّه من المستهزئين فقال : إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ * ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . (الحجر : ٩٥ ، ٩٦) .

وقال تعالى : وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا . (الفرقان : ٤١ ، ٤٢) .

★ ★ ★

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

المفردات :

خلق الإنسان من عجل : العجل والعجلة : طلب الشىء قبل أوانه .

والمراد بالإنسان : هذا النوع ، وقد جُعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق من

العجل مبالغة ، كما يقال للرجل الذكى : هو نار تشتعل ، ويقال لمن يكثر منه الكرم : فلان خلق من الكرم ، قال المبرد : خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ، أى : إن من شأنه العجلة ، كقوله: خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ... (الروم : ٥٤) أى : خلقكم ضعفاء .

الآيـــــات : هى آيات النقم التى هددهم بوقوعها .

سأريكم آياتى : سأصيبكم بنقمتى .

الـــوعـــد : قيام الساعة .

لا يـكـفـون : لا يمنعون .

بـغـتـة : فجأة .

تـبـهـتـهـم : تدهشهم وتحيرهم .

يـنـظـرون : يمهلون ويؤخرون .

حـــاق : حل ونزل .

تمهيد :

أقام القرآن فيما سبق أدلة عقلية ونقلية على وجود الله . وأبان: أن مصير الدنيا إلى فناء وزوال، وأنها خلقت للابتلاء والامتحان ، ولتكون جسرًا إلى الآخرة دار الخلود ، وأن مصير الخلائق كلها إلى الله تعالى للحساب والجزاء .

وفى الآيات ٣٧ – ٤١ يذكر: أن العجلة خلقت فى طبيعة الإنسان ، وقد أمرنا الله بالصبر والاحتمال، وقد كان كفار مكة يتعجلون وقوع العذاب بهم ؛ سخرية بالنبى ﷺ وأصحابه ؛ فبينت الآيات: أن العذاب آت لا ريب فيه ؛ فلا يغترنَّ أحد بطول البقاء فى الدنيا ، ولا يسخرنَّ برسولٍ من عند الله ، فإنه سيلقى جزاء سخريته واستهزائه ، وهذا زجر واضح شديد التأثير .

التفسير :

٣٧– خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ .

خلق آدم عليه السلام وفى طبيعته العجلة ، وعندما دخلت الروح وجهه ورأسه وأعلاه؛ استعجل القعود والقيام قبل أن تصل الروح إلى نصفه الأسفل .

وقد ورد فى تفسير ابن كثير :

وقال ابن أبى حاتم عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : «خير يوم طلعت فيه الشمس : يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أهبط منها ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة إجابة» [١٦] .

قال أبو سلمة : فقال عبد الله بن سلام : قد عرفت تلك الساعة ، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، وهي التي خلق الله فيها آدم .

أي : أن في طبيعة الإنسان العجلة ؛ فهو يتعجل حصول الأشياء قبل وقتها ، إلا إذا دخل الإيمان في القلب ؛ فتحل معه الطمأنينة ، والإيمان بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، حلوه ومره .

خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ .

أي : أنه تعالى فطر هذا النوع على العجلة ، وجعلها من سجيته وجبلته ، كما تقول للكريم : خلق فلان من الكرم ، أو للجميل : خلق فلان من الجمال ؛ ولذلك كان المشركون يتعجلون وقوع العذاب في الدنيا .

وروى : أن الآية نزلت في النضر بن الحارث ، وهو القائل : ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢) .

سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ .

سأنزل بكم نقمتي ، ومن ذلك ما أصابهم يوم بدر من الهزيمة ، وتوالى تأييد الله لنبيه حتى فتح مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجا ؛ وصدق الله العظيم : وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ... (الأنعام : ٣٤) .

وقد نهى الإنسان عن العجلة فقال تعالى : فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ، مع أن العجلة مركّبة في طبيعته ، والمراد أن يستحث نفسه على الصبر والاطمئنان ، وعدم استعجال الأمور قبل أوانها .

فالمؤمن يعلم أن لكل أجل كتاب ، وأن الله سبحانه هو النافع وهو الضار ، وأن أحدًا لا ينفع أو يضر إلا بإذن الله ، وهذا من شأنه أن يمنح الإنسان الصبر والرضا ، والإطمئنان وحسن التوكل ، واليقين بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك .

قال الآلوسي في تفسير الآية :

والنهي عن استعجالهم إياه – تعالى – مع أن نفوسهم جبلت على العجلة ؛ ليمنعوها عما تريده ، وليس هذا من التكليف بما لا يطاق ؛ لأنه – سبحانه – أعطاهم من الأسباب ، ما يستطيعون به كف النفس عن مقتضاها ، ويرجع هذا النهي إلى الأمر بالصبر . اهـ .

وفي الحديث النبوي الشريف : «من يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله» [١٧] .

٣٨- وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ .

كان القرآن يتوعَّد المشركين بالعذاب ، ويضرب الأمثلة بما أصاب الأمم السابقة المكذبة ، مثل: طوفان نوح ، وهلاك عاد وثمود ، ولكن هؤلاء الكافرين لم يصيخوا السمع ولم يتأملوا كلام الله ؛ بل قالوا ذلك بالسخرية ، واستعجال العذاب ، استخفافا وتهكما . وبلغ من عدم مبالاتهم أنهم كانوا يقولون للنبى ﷺ والمؤمنين : متى يأتى هذا الموعد بنزول العذاب إن كنتم صادقين فى وعدكم ؟ وهذا منهم استبطاء للموعود به ، وإنكار لوقوعه وأنه لن يكون البتة .

٣٩- لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .

جواب لَوْ محذوف ، والتقدير : لو يعلم الذين كفروا ما ينتظرهم من العذاب ، الذى يغشاهم من فوقهم ومن تحتهم ويشملهم من الأمام والخلف ، ويغشى وجوههم وظهورهم فلا يستطيعون دفعه ، ولا يجدون من ينصرهم ؛ لما تعجلوا العذاب ، ولما استهزءوا بالنبى والمؤمنين .

وخص القرآن الوجوه والظهور بالذّكر ؛ لكونهما أظهر الجوانب ، ولبيان : أن العذاب سيغشاهم من أمامهم ومن خلفهم دون أن يملكوا له دفعًا ، ولأن مس العذاب للوجه أشد وقعا وألما ، والإنسان منا حريص على المحافظة على وجهه ، وإذا تعرض وجهه للخطر دافع عنه بيديه ، فإذا اشتد الخطر اتقى العذاب بوجهه، وتلك أخطر المراحل ، قال تعالى : أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ... (الزمر : ٢٤) .

وقال صاحب الظلال :

لو يعلمون ما سيكون ؛ لكان لهم شأن غير شأنهم ، ولكفُّوا عن استهزائهم واستعجالهم ؛ فلينظروا ماذا سيكون ؛ ها هم أولاء تنوشهم النار من كل جانب ، فيحاولون فى حركة مخبلة – يرسمها التعبير من وراء السطور – أن يكفوا النار عن وجوههم ، وعن ظهورهم ؛ ولكنهم لا يستطيعون ، وكأنما تلقفتهم النار من كل جانب . ا هـ .

فلا يستطيعون ردّها ، ولا يجدون ناصرًا ينصرهم فى ذلك اليوم .

٤٠- بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ .

بل تأتيهم النار بغتة فجأة ؛ فتحيرهم وتشل تفكيرهم ؛ لأنهم تعجلوا عذاب الله ؛ فكان الجزاء أن تأتيهم النار فجأة ، دون استعداد فتحيرهم بأهوالها ؛ فليس لديهم قدرة على رد عذاب النار ؛ ولا يُعطون مهلة ؛ يُنظَرُونَ ويمهلون فيها ، إنه عذاب مفاجئ مباغت شديد قوى لا يملكون دفعه ولا تأجيله .

وقد قرأ الأعمش :

بل يأتيهم بغتة فَيَبْهَتُهُمْ ... على التذكير والضمير للوعد أو للحين .

قال الزمخشري في تفسير الآية :

فإن قلتَ : فإلام يرجع الضمير المؤنث في هذه القراءة ؟ قلتُ : إلى النار أو الساعة ، أو إلى البغتة . ا هـ .

والخلاصة : أن بعض المفسرين أرجع الضمير إلى النار ؛ وبعضهم أرجعه إلى الساعة . ويكون معنى الآية : بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ .

أي : بل تأتيهم الساعة الموعود بها وبعذابهم ، مفاجأة فتدهشهم وتُحيرهم ؛ فلا يستطيعون دفع الساعة أو ردها عنهم ؛ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ، ولا هم يمهلون لتوبة أو معذرة .

٤١ - وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .

تبين الآية : جانبا من سنن الله الإلهية ؛ ذلك أن بعض الرسل الكرام سخر منهم قومهم ؛ واستهزءوا بهم ، فأنزل الله بالمستهزئين العذاب الماحق ، والعقاب الرادع ، الذي كانت الرسل تخوفهم نزوله .

قال تعالى متحدثًا عن نوح عليه السلام : وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . (هود : ٣٨ ، ٣٩) .

ومن لوازم مدلول الآية ، ما يأتي :

إذا كان العذاب قد نزل بالمستهزئين بالرسل فيما سبق ؛ فلن يعدو أن يكون أمر هؤلاء الكفار كأمر أسلافهم ، من الأمم المكذبة لرسلها ، فينزل بهم من عذاب الله وسخطه مثل ما نزل بمن قبلهم .

★ ★ ★

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

المفردات :

يكلؤكم : يحرسكم ويحفظكم ، والفعل الماضى كلأ : حفظ .

من الرحمان : من بأسه وعقابه الذى تستحقونه. وفى لفظ (الرحمان) تنبيه على أن لا كالئ غير رحمته العامة .

ذكر ربهم : القرآن الكريم .

معرضون : لا يتفكرون فيه .

من دوننا : من عذابنا .

يصحبون : يجارون من عذابنا ، يقال : صحبك الله ، أى : حفظك .

ننقصها من أطرافها : يستولى المسلمون على أطراف مكة ، ويقيمون معاهدات مع القبائل التى جولها .

أنذركم بالوحى : من الله ، لا من قبل نفسى .

الصم : التاركون للعمل بما سمعوه ، فكأنهم صم .

نفحة : نصيب قليل أو أدنى شىء ، وأصل النفح : هبوب رائحة الشىء .

ياويلنا : يا هلاكنا ، و (يا) للتنبيه .

إنا كنا ظالمين : بالإشراك وتكذيب محمد ﷺ .

ونضع الموازين القسط: ذوات العدل ، توزن بها صحائف الأعمال .

ليوم القيامة : لجزاء يوم القيامة .

فلا تظلم نفس شيئا : من نقص حسنة أو زيادة سيئة .

حبة الخردل : مثل فى الصغر .

أتينا بها : أحضرنا ، وأتينا بموزونها .

حاسبين : محصين كل شىء ، إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا .

تمهيد :

تنتقل الآيات من التقرير بأن الله سبحانه هو الحافظ للناس بالليل والنهار ، إلى الاستفهام عن الآلهة المدعاة وهل تستطيع أن تمنعهم من عذاب الله ، إلى الإخبار بأن النعم قد كثرت عليهم فلم يتنبهوا إلى قدرة الله وعظمته .

وتُبين : أن وظيفة النبى هى الإنذار ، وأن العذاب إذا نزل بالكفار فسيعضون بنان الندم ؛ وأن القيامة فيها الحساب والميزان العادل ، فالله أعدل الحاسبين .

التفسير :

٤٢ - قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ .

قل لهم يا محمد : من الذى يحفظكم بالليل فى نومكم وبالنهار فى عملكم من بطش الرحمان بكم؛ جزاء إعراضكم عن هدايته ، وتكذيبكم رسوله ، وفى تعبير ٱلرَّحْمَـٰنِ إشارة إلى أن تأخير العذاب عنهم ، واستمرار حفظ الله لهم ، إنما هو بمقتضى رحمته العامة ، وفضله الواسع ؛ كى يعود الإنسان إلى ربّه من تلقاء نفسه.

بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ .

أى : بل إن هؤلاء المشركين مع وجود الأدلة العقلية على وجود الله ، ووجود الحجج والبراهين على صدق رسوله التى قدمها لهم القرآن الكريم ، فإنهم معرضون عن هذا القرآن، لا يسمعونه سماع تدبّر أو تأمل.

٤٣ - أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ .

هذه الآية استفهام إنكارى ، مكمل للآية السابقة ، على سبيل السخرية من هؤلاء المشركين ، الذين يعبدون أصناما لا تنفع ولا تضر ، ولا تدفع الضر عن نفسها ، ولا ترد عذاب الله إن جاء لمن عبدها .

ومعنى الآية الكريمة :

سلهم يا محمد – مرة أخرى – : ألهؤلاء الجاحدين آلهة أخرى تستطيع أن تحرسهم وترعاهم سوانا ؟ كلا ليس لهم آلهة تمنعهم من عذابنا ؛ إن أردنا إنزاله بهم .

فالأصنام التى يعبدونها لا يستطيعون نصر أنفسهم ؛ فضلا عن نصر غيرهم .

وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ . يجارون ويمنعون من نزول الضر بهم .

تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان ؛ بمعنى : أجيرك وأمنعك منه .

٤٤ – بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ .

إن الذى غر هؤلاء وآباءهم ، وحملهم على ما هم فيه من الضلال ؛ أن الله تعالى منّ عليهم بالنعمة والمال والرخاء ، واستمروا طويلا يتمتعون بهذه النعم ، حتى طالت أعمارهم وهم فى رخاء ونعمة ، فحملهم ذلك على الطغيان والبطر وظنوا أن هذه النعم لا تزول أبدا ، ولا يحرمون منها مطلقا .

أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .

والأطراف هم الأشراف ، أى : أن الله أهلك قبلهم فرعون وهامان ، وعادًا وثمودا ؛ وقرونًا قبل ذلك كثيرا كانوا يتمتعون بالنعم ويكذبون الرسل فحق عليهم وعد الله ، وطواهم الزمان وأصبحوا أثرا بعد عين.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالأرض : أرض مكة .

وكان المسلمون قد حصَّنوا المدينة وما حولها ، وكانوا يرسلون السرايا والغزوات لعقد محالفات مع القبائل ، وفى كل عام من أعوام إقامته ﷺ فى المدينة ؛ يتقدم المسلمون خطوات ، وينكمش كفار مكة خطوات ؛ فقال القرآن : أفلا يشاهد هؤلاء المشركون ، أن المسلمين يتقدمون وينتصرون ويغلبون ؛ وأن الكفار ينهزمون وتنتقص أطرافهم حول مكة لحساب المسلمين .

أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ .

وهذا استفهام إنكارى مؤدَّاه ، أنكم فى هزيمة مستمرة أمام الزحف الإسلامى ، بسبب كفركم وإيمانهم فتدبروا : لأن الغلبة للمؤمنين ، كما قال تعالى : وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ . (الصافات : ١٧٣) .

ويمكن أن يكون فى الآية إشارة إلى اتساع دائرة الأرض عند خط الاستواء ، ونقصان دائرتها عند

القطبين ، فالأرض دائرة كروية لكنها منبعجة عند خط الاستواء ، مفرطحة عند القطبين ، وهذا دليل قدرة الله وعظمته ، وأن حركة الكون تحت سلطانه وقدرته وغلبته .

وقد ثبت علميا الإعجاز العلمى فى هذه الآية ، وأن محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء أطول منه عند القطبين .

وقد نزلت هذه الآية على نبى أمى ، وأظهرت الأيام إعجاز هذا القرآن .

وصدق الله العظيم : سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... (فصلت : ٥٣) .

٤٥ - قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ .

لقد أثبتت الآية السابقة أن يد القدرة الإلهية تقبض وتبسط ، وتعطى وتمنع ، وأنها قادرة أن تطوى الأرض من تحتهم ، فإذا هم هالكون مغلوبون .

وفى الآية التى معنا يقول القرآن ما معناه :

أخبرهم يا محمد : أنَّك رسولُ الله تنذرهم بالوحى ، المنزل من عند الله ، وليس عليك إلا البلاغ ؛ ولا تملك لهم الهداية ، فإذا أصمُّوا أسماعهم فلا أمل فى هدايتهم ، ولا نفع فى إنذارهم ، فكما أنَّ الأصم لا يسمع النداء ، ولا يجيب الدعاء . فكذلك الكافرون لما أصموا أسماعهم ، وأغلقوا قلوبهم ، فلم يسمعوا القرآن سماع تأمل ، ولم يتدبروا آياته ؛ أشبهوا المريض بالصمم ، فلا فائدة من توجيه النداء إليه .

٤٦ - وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ .

ولئن أصابتهم لمسة قليلة من العذاب يوم القيامة ، ليصيبهم الهلع والجزع والندم ؛ ويصيحون قائلين: يا ويلنا ، ويا هلاكنا إنا كنا ظالمين فى الدنيا حين كفرنا بالرسل وأنكرنا وحى السماء إليهم .

والمسّ : اللمس الخفيف ، والنفحة : تقال فى الخير ، وهى اسم مرة ، وذكرت فى جانب الشر ؛ للدلالة على القلّة ؛ أى : إذا أصابهم عذاب خفيف فى الدنيا ، أو فى الآخرة ؛ ليظهرنّ الندم والتفجُّع حيث لا ينفع الندم ، فخير لهم أن يؤمنوا الآن ، وهم فى السعة قبل أن يندموا ولات ساعة مندم .

٤٧ - وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ .

أى : ونضع الموازين العادلة للحساب يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات ؛ فمن رجحت حسناته؛ فهو من الناجين ، ومن رجحت سيئاته ؛ فهو من الخاسرين .

وذهب بعض المفسرين : إلى الإيمان بالميزان ، وهو جهاز دقيق توزن عليه الحسنات والسيئات .

وقال آخرون : هذا تصوير لدقة الجزاء والحساب ؛ فليس هناك جسم يسمى: الميزان ، بل المقصود: بيان : العدل المطلق فى الحساب يوم القيامة ؛ لأنه بيد أعدل الحاسبين .

وأكثر المفسرين على الإيمان بالميزان ، وأنه جسم توزن به الأعمال يوم القيامة ، وهو جسم حقيقى حسى ، كما ذهب إلى ذلك ابن كثير فى تفسيره .

وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا .

حبة الخردل : مثل فى الصغر ؛ أى : إن كان العمل الذى عمله الإنسان صغيرا مقدار حبة الخردل ؛ جازينا عليه جزاء وفاقا سيئا كان أم حسنا .

قال تعالى : **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ .

تصور هذه الجملة إحاطة علم الله بكل شىء فهو مطلع على الكبير والصغير ويجازى على الفتيل والقطمير ، كما تصور الآية سرعة الحساب ، فالله عالم بكل شىء وهو سبحانه سريع الحساب لا يشغله شىء عن شىء ، فأعظم به عالما محاسبًا عادلا حكيما !

قال تعالى : **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ** . (آل عمران : ٥) .

وإذا كان المحاسب عالما دقيقا عادلا ؛ فمن الواجب على الجميع أن يخلصوا أعمالهم ، وأن يتقنوا العمل وأن يضاعفوا أعمالهم الطيبة ؛ لأن الجزاء من جنس العمل .

قال تعالى : **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** . (النساء : ٤٠) .

وقال سبحانه وتعالى : **يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** . (لقمان : ١٦) .

من تفسير ابن كثير :

أورد ابن كثير فى تفسيره : طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة ، من بينها حديث البطاقة ، وهو يفيد: «أن الله تعالى يعرض على رجل أعماله فى سجلات السيئات كل سجل مدّ البصر ؛ فيعترف العبد بذنوبه حتى إذا يئس العبد ؛ قال له الله تعالى : إن لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها:

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ، فتوضع فى كفة وسجلات السيئات فى كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شىء»[١٨] .

وفى الصحيحين : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمان ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم»[١٩] . وقد ختم البخارى صحيحه بهذا الحديث الشريف .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

المفردات :

الفرقان : التوراة ، وهى الضياء والموعظة ، وسميت : فرقانا ؛ لأنها تفرق بين الحق والباطل وكانت ضياء : لأنها تنير طريق الهدى للمتقين .

يخشون ربهم : يخافون عذابه .

مشفقون : خائفون .

مبارك : كثير الخير ، غزير النفع .

تمهيد :

تحكى الآيات السابقة جانبا من جهاد الرسول محمد ﷺ مع قومه ، فهو ينذرهم بالوحى . وتبرز الآيات التالية : أن هذه سنة الله فى أنبيائه ، فكلهم قد آتاهم الله الوحى ، وبلغهم الله من الشرائع والأحكا ما فيه هداية البشر وسعادة لهم فى دنياهم وآخرتهم ، وقد بدأ هنا بموسى فى إشارة موجزة ؛ وسيأتى جها إبراهيم فى جانب بارز من قصته ، ويأتى بعد إبراهيم إشارات إلى أنبياء الله : لوط، ونوح، وداود، وسليمان وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذى الكفل، وذى النون، وزكريا . ويعقب القرآن على ذكر هؤلاء الرسل ، بم يؤكد الوحدة الإيمانية بين المؤمنين جميعا ، فإلـهـهم ، واحد والوحى الإلهى واحد ، والأسس العامة للشرائ واحدة، وهى : الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر ، والدعوة إلى عمل الصالحات، وترل المنكرات قال تعالى: إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ . (الأنبياء : ٩٢) .

التفسير :

٤٨ - وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ .

فى سورة الأنبياء ذكرٌ لطائفة كثيرة من الأنبياء ؛ وكأن السورة ترد على المشركين الذين استكثروا على محمد ﷺ أن يكون بشرا ؛ فتقول لهم : إن محمدًا ليس بدعا من الرسل ، فقد أعطينا الرسالة لعدد من الرسل السابقين كانوا جميعا من البشر .

ومعنى الآية :

ولقد أعطينا موسى وهارون التوراة ، وهى فرقان يفرق بين الحق والباطل ، والكفر والإيمان ، والتوراة ضياء ينير طريق الهدى ، وفى التوراة تذكير يستفيد به المتقون .

٤٩ - ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ .

تلك صفات المتقين ، فهم على صلة حسنة بالله ؛ يخافون عقابه ، ويحذرون معصيته ويخشون غضبه.

يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ مع كونه غير مرئى لهم ؛ لا تشاهده عيونهم ، ولكن تؤمن بوجوده قلوبهم .

وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ .

هم وجلون حذرون من القيامة ، وما يقع فيها من حساب وجزاء ، وليسوا كالكافرين مكذبين بها جاحدين لها ، يستعجلون حدوثها .

٥٠ - وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ .

وهذا القرآن الذى أنزلناه على محمد ﷺ ، ذكر لمن تذكر به ، وشرف لمن آمن به ، وموعظة لمن اتعظ به ، وهو مبارك كثير النفع والخيرات ؛ لمن اتبع أوامره وانتهى بنواهيه .

أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ .

أى : ماذا تنكرون من القرآن ؛ وقد سبقته الرسالات ونزلت الكتب قبله ، وكان العرب يسألون اليهود عن محمد ﷺ ورسالته ؟ فكأن القرآن يقول لهم : إن رسلا سابقين عليه تعرفونهم ، ومنهم : موسى وهارون، وقد نزلت عليهما التوراة ، مشتملة على أصول التشريع والهدى والضياء والتوحيد والرسالات كلها من عند رب واحد ، فكيف تصدقون بالتوراة ، وتنكرون القرآن ؟ مع أن القرآن مشتمل على أرقى أساليب البيان ، والإعجاز العلمى والبيانى والغيبى ، ولا يمكن لبشر أن يأتى بمثله .

وخلاصة ذلك : إذا علمتم أن شأن القرآن كشأن التوراة ، فكيف تنكرون أن يكون القرآن من عند الله؟!

★ ★ ★

حجاج إبراهيم لأبيه وقومه ودعوتهم إلى التوحيد

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

المفردات :

الرشد : الاهتداء إلى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا ، والاسترشاد بالنواميس الإلهية .

التماثيل : جمع تمثال ؛ وهو الصورة المصنوعة على شبه مخلوق من صنع الله : كطير أو شجر أو إنسان ، والمراد بها هنا : الأصنام ؛ سمَّاها بذلك ؛ تحقيرًا لشأنها .

العكوف : الملازمة والإقبال .

بالحق : بالشيء الثابت فى الواقع .

اللاعبين : الهازلين .

فطرهن : أنشأهن .

من الشاهدين : المتحققين صحته ، المثبتة بالبرهان .

الكيد : الاحتيال فى إيجاد ما يضرّ مع إظهار خلافه ، والمراد : المبالغة فى إلحاق الأذى بها .

جذاذا : قطعا ، من الجذّ ، وهو القطع .

يذكرهم : يعيبهم ويسبهم .

على أعين الناس : على رءوس الأشهاد فى الملإ .

يشهدون : بفعله أو قوله ، أو ليشاهدوا العقاب الرادع له .

فرجعوا إلى أنفسهم: ففكروا وتدبروا .

الظالمون : الظالمون لأنفسكم بعبادة ما لا يستطيع الدفاع عن نفسه .

نكسوا على رءوسهم: يقال : نكسته ، أى : قلبته فجعلت أعلاه أسفله ، والمراد : أنهم انقلبوا من الاعتراف بالحق إلى المكابرة والجدال بالباطل .

التفسير :

٥١- وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ .

أى : ولقد آتينا إبراهيم ما فيه صلاحه وهداه ، من قبل موسى وهارون ، ووفقناه للحق وأضأنا له سبيل الرشاد ، وأنقذناه من عبادة الأصنام.

وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ .

وكنا عارفين أنه على يقين بالله ، جامع لأحسن الفضائل ، ومكارم الأخلاق ، وجميل الصفات .

وقال الفرّاء : أعطيناه هداه ورشده من قبل النبوة والبلوغ ، أى : وفقناه للنظر والاستدلال على وحدانية الله ؛ لما جنّ عليه الليل فرأى النجم والقمر ثم رأى الشمس ، وعلى هذا جرى كثير من المفسرين .

ويجوز أن تتسع الآية لتشمل المعنيين ؛ فإبراهيم أبو الأنبياء وقد وجد فى الزمن قبل موسى وهارون؛ وقد آتاه الله الرشد والتوفيق ، وحسن التأنى للأمور قبل الرسالة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

٥٢- إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ .

لقد كان إبراهيم راشدا جادًّا موفقا ؛ حين سأل قومه عن الأصنام التى يعبدونها ، ويعكفون على عبادتها ، معتقدين فى أنها تنفع أو تضرُّ ؛ مع أنها حجارة صماء ، لا تسمع ولا تجيب ، ولا تملك النفع لذاتها فضلا عن غيرها .

وخلاصة معنى الآية :

ما هذه الأصنام التى عكفتم على عبادتها ، وملازمتها والتعلق بها ، والوثوق فيها ؟

٥٣- قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ .

لم يجدوا شيئًا يدافعون به عن عبادتهم للأصنام ، سوى تقليد الآباء والأجداد ، فى عبادتهم لها .

والمعنى : وجدنا آباءنا يعبدون هذه الأصنام ، فعبدناها تبعا لهم .

٥٤- قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ .

أراد أن يستحثهم إلى استخدام عقولهم ، والتفكير السليم فى خالق هذا الكون ، الذى سخر الشمس والقمر ، ورفع السماء وبسط الأرض ، إن هذا الإله هو الذى يستحق أن يعبد ، أما عبادة الأصنام – وهى حجارة صماء ، لا تنفع ولا تسمع ولا تجيب – فهو ضلال واضح ظاهر .

٥٥- قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ .

لقد فوجئوا بِمَن يسخر منهم ومن آلهتهم ، ويخبرهم أنهم فى ضلال واضح ؛ حين يعبدون حجارة من دون الله .

والمعنى : أهذا القول الذى تخبرنا به حق جاد ، أم أنت هازل مازح فى قولك ؛ وهذا يدل على أنهم كانوا فى شك من شأن آلهتهم ؛ فمن استخدم عقله وفكّر ؛ وجد أن الحجر الأصمّ لا يمكن أن يكون إلها .

ويجوز أن يكون قولهم هذا ، من شدة التصاقهم بالأصنام وتعلقهم بها ، فاستكثروا هذا القول عليها، واستبعدوا أن يكون آباؤهم على باطل ، فقالوا لإبراهيم : هذا الذى جئتنا به ، أهو جدّ وحق ، أم لعب وهزل؟

وقد أيَّد الرأى الثانى الإمام الزمخشرى فى تفسير الكشاف .

٥٦- قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ .

إن كل ما فى الكون لينطق بوحدة الخالق المدبّر ، ووحدة الناموس ، ووحدة الإله .

ومعنى الآية : قال إبراهيم : لست مازحًا ولا لاعبا ، بل أنا جادٌ كل الجد وربكم الحق هو الذى خلق السماوات والأرض ، على غير مثال سابق ، وأنا شاهد على ذلك ومعى من الحجج والأدلة ما يؤيدنى .

فمن تأمل فى هذا الكون وهو بهذا النظام والإبداع ؛ سيهتدى إلى أن خالقه ومبدعه ، إله واحد عليم قدير ؛ وهو الله رب العالمين .

٥٧- وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ .

أى : أقسم بالله ، الإله الحق لأدبرن كيدا لتحطيم أصنامكم ، بعد أن تذهبوا عنها إلى عيدكم ؛ وكان لهم عيد يخرجون إليه كل سنة ، ثم يعودون فيسجدون للأصنام .

فقال آزر لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا ؛ أعجبك ديننا !! فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ، ألقى نفسه إلى الأرض وقال : إنى سقيم ، فتركوه ومضوا .

٥٨- فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ .

أى : كسَّر الأصنام ؛ حتى جعلها فتاتا وحطاما وكانوا سبعين صنما .

إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ .

لم يكسر الصنم الأكبر بل تركه بدون تكسير ، وعلق الفأس فى رقبته ، لعل القوم يرجعون إليه ، ويسألونه عمن كسَّر الأصنام ؟ فيتبين لهم مدى عجز الصنم عن الإجابة عليهم .

٥٩- قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

لما عاد القوم من عيدهم وجدوا الأصنام قد كُسِّرت ؛ وتقطعت قطعا قطعا ؛ فآلمهم ذلك ؛ ولم يحرك تكسير الأصنام تفكيرهم ؛ فإن الإله ينبغى أن يحمى نفسه وأن يدافع عنها ؛ لكنهم لم يستخدموا عقولهم فى هذه الناحية ، بل قالوا : من كسَّر آلهتنا إنه ظالم معتد .

٦٠- قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ .

تفيد الآية : صغر سنِّ إبراهيم ، وتؤيد أن إبراهيم قد أعطاه الله الرشد والحكمة قبل النبوة ، وهذه الآية تؤيد رأى من ذهب إلى أن الله أعطاه الرشد والحكمة قبل النبوة .

ومعنى الآية : قال فريق من القوم : سمعنا فتًى حدثًا ، يذكر الأصنام بسوء ، ويقسم على الكيد لها ، وينعى على من يعبدها .

٦١- قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ .

رغب القوم فى التشهير وإظهار سوء فعله أمام الملإ ، ومضمون الآية : أحضروا إبراهيم أمام جمع حاشد من الناس ؛ ليكونوا شهودًا على سوء فعله ، وحتى يُشهَّرَ بإبراهيم على رءوس الأشهاد .

٦٢- قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ .

فهم ما زالوا يصرُّون على أنها آلهة ، وهى جذاذ مهشمة .

والمعنى : هل أنت الذى كسرت الأصنام ، وجعلتها جذاذًا ؟ والسؤال أشبه باستجواب ومحاكمة ؛ فإذا اعترف فقد استحق عقوبة صارمة ، تكون عظة وعبرة ، لكل من يجرؤ على مثل هذا الفعل .

٦٣- قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ .

رغب إبراهيم فى تحريك عقولهم لعلهم يتعظون ويتدبرون ؛ فقال لهم ساخرًا من عبادتهم للأصنام : إن الذى كسر الأصنام هو الصنم الأكبر ، ربما لأنكم تركتم عبادته ، وعبدتم الأصنام الصغيرة ، وأمامكم فرصة للتأكد ممن كسر الأصنام .

فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ .

أى : اسألوا الأصنام : من كسرها ؟ واسألوا الصنم الأكبر وقولوا له : نحن نراك سالما من التكسير ، والفأس فى رقبتك ، ونرى الأصنام الأخرى مكسرة ، فمن الذى كسَّرها ؟!

قال القرطبى :

والكلام خرج مخرج التعريض وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ، ويتخذونهم آلهة من دون الله ؛ كما قال إبراهيم لأبيه : لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا . (مريم : ٤٢) .

فقال إبراهيم : بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا ... ؛ ليقولوا : إنهم لا ينطقون ، فيقول لهم : فلم تعبدونهم ؟! فتقوم عليهم الحجة منهم .

كما يجوز فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من نفسه ، فإنه أقرب فى الحجة وأقطع للشبهة [٢٠] .

٦٤ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ .

كانت ومضة تحركت فيها مشاعرهم ، واستفاقت ضمائرهم ، كيف يعبدون أصناما لا تنطق ولا تنفع ولا تضر ولا تملك الدفاع عن نفسها ، فضلا عن غيرها ؟

٦٥- ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ .

لقد قاوموا ضمائرهم ، وركبوا رءوسهم بلا عقل ، ولا تفكير ، وانقلبوا من الإذعان إلى المكابرة والطغيان ، فما أجمل تعبير القرآن بقوله : ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ . وهو تعبير مصوّر ؛ يصوّر سلوك إنسان استبان له الهدى والنور ؛ فسار على قدميه وفكّر بعقله ؛ واهتدى بفطرته لحظة ؛ ثم قاوم الهدى ، ورفض التفكير العقلى ، ورفض الهداية والنور ، وسار على رأسه وعقله منتكسا .

ثم قالوا لإبراهيم : لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ .

إن الأصنام لا تنطق ، ولا تسمع ولا تعقل ، فاكتفوا بكلمة واحدة منها ؛ لأنها تدل عليها ، فليس لدى الأصنام نطق ولا عقل ولا تفكير .

والانتكاس : أن يسير الإنسان على رأسه بدلا من أن يسير على قدميه ، وقد صور القرآن هذا المعنى فى سورة تبارك الملك حيث قال تعالى : أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . (الملك : ٢٢) .

ومعناها : أتنعكس الحال ، فمن يمشى متعثرا ساقطا على وجهه أهدى فى سيره ، أم من يمشى مستوى القامة على طريق لا اعوجاج فيه ؟

★ ★ ★

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

المفردات :

أف : كلمة تدل على أن قائلها متضجر متألم من أمْر .

الكيد : المكر والخديعة .

تمهيد :

وبّخ إبراهيم قومه على عبادة أصنام لا تنفع ولا تضرّ ، وقد ظهر عجزهم ، فانقلبوا إلى العناد ، واستعمال القوة الحسية ؛ فأضرموا نارًا عظيمة جدا ، وألقوا إبراهيم فى النار بواسطة المنجنيق ، فجعل الله النار بردًا وسلاما عليه .

التفسير :

٦٦- قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ .

أى : قال إبراهيم لقومه : كيف تعبدون – من دون الله – أصناما لا تسمع ولا تجيب ولا تنفع ولا تضرّ ولا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئا من ذلك .

٦٧- أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أى : تبًّا لكم ، وقبحًا لمعبوداتكم ، التى تعْبدونها وتتذللون لها ، وتلتصقون بها ، وهى صمّاء بكماء.

أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أفلا تستخدمون عقولكم وتفكيركم ، وتتجهون بعبادتكم إلى الإله الحق الواحد الأحد ، الذى بيده الخلق والأمر وهو على كل شىء قدير ؟! فأقام عليهم الحجة وأوضح لهم أنهم فى ضلال وكفر غليظ لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر، قال تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ . (الأنعام : ٨٣) .

٦٨- قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ .

عندما غلبهم إبراهيم بالمنطق والحجة ، وبين لهم : سفههم وعاب عبادتهم للأصنام ، وانهزموا أمام حجته وقدرته فى الحق : لجئوا إلى القوة الغاشمة فأمر نمروذ ملك العراق ، أن يجمع حطب كبير فى حظيرة كبيرة واستمر جمع الحطب مدة طويلة ، رغبة فى النكاية والكيد به .

والمعنى : ألقوه فى نار متأججة لتحرقه ، وانصروا الآلهة التى حطمها وكسّرها .

إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ .

أى : إن كنتم بحق تريدون أن تنصروا آلهتكم نصرًا يرضيها فاحرقوه بالنار .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

أجمعوا رأيهم – لما غُلبوا – بإهلاكه ؛ وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح ، لم يكن أحد أبغض إليه من المحق ، ولم يبق له مفزع إلا مناصبته العداء ، كما فعلت قريش برسول الله ﷺ حين عجزوا عن المعارضة ، والذى أشار بإحراقه هو نمروذ .

واختاروا المعاقبة بالنار ؛ لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه ، ولذلك جاء : «لا يعذب بالنار إلا خالقها» . اهـ.

٦٩- قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ .

أى : إن الكافرين أضرموا النار ، واستخدموا المنجنيق ؛ ليوضع إبراهيم فى وسط النار ؛ حتى تحرقه إحراقًا شديدًا ؛ فأمر الله سبحانه وتعالى النار : أن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم .

إن القدرة بيد الله والأمر بيده ، وهو سبحانه على كل شيء قدير قال تعالى : بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (البقرة : ١١٧)

إن يد القدرة الإلهية إذا أرادت أمرًا كان ، فهو سبحانه خالق النار ، والنار تحرق الأجساد ، لكن الله سبحانه أراد أن يحفظ خليله ، الذى حطم الأصنام ، متجردًا لله . روى : أن إبراهيم عندما أُخذ وأوثق بالحبال؛ قال : **حسبى الله ونعم الوكيل** .

كما رواه البخارى ، عن ابن عباس أنه قال : **حسبى الله ونعم الوكيل** قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها محمد عليه السلام حين قالوا : إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ [٢١] (آل عمران : ١٧٣) .

إن فضل الله يظهر فى كثير من حياة الأفراد ، والأمم والجماعات ؛ فكم من كربة فرجها، وكم من شدة صرفها ، وكم من محنة تحولت إلى منحة ؛ لأن الله العلى القدير هو المحيط بكل شيء ؛ لا رادَّ لقضائه ، ولا معقب لأمره .

وفى كتب التفسير : أن جبريل تعرض للخليل إبراهيم ؛ فقال : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال إبراهيم: أمّا إليك فلا ، قال جبريل : ألك حاجة إلى الله ؟ فقال إبراهيم : «علمه بحالى يغنينى عن سؤالى» فقال الله تعالى : يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ.

فأحرقت النار الحبال التى أوثقوه بها ، وكان إبراهيم فى أسعد حال ، وأهنإ بال ، حيث نجاه الله من كيد الظالمين ، ولو كانت النار بردًا فقط ؛ لمات من البرد ، لكنها كانت بردًا وسلاما [٢٢] .

وفى الصباح تقدم النمروذ ؛ ليشاهد آثار النار من الحريق والهلاك ، فوجد العناية والحفظ والسلامة على إبراهيم .

وقد ورد : أن الله عاقب النمروذ عقوبة شديدة ، وأهلكه هلاكا تامًا قال تعالى :

٧٠- وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ .

وأراد الكافرون بإبراهيم كَيْدًا أى : مكرًا وهلاكًا وإحراقًا .

فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ .

فجعلناهم من ذوى الخسران والوبال ، فسبحان الله القادر .

روى : أن نمروذ جاء ليشاهد إبراهيم فى النار ؛ فانطلقت شرارة أصابت إصبعه ، وتسببت فى هلاكه، وفى هذا القصص من العبرة أن الجهاد لنصرة الحق والفضيلة ، فيه الخير كل الخير ، وأنه مهما صادف المرء فيه من آلام وأهوال ؛ فهى هينة لينة ؛ فلنجاهد إذًا ، مثل ما جاهد إبراهيم ؛ وإن بركة الله مع المجاهدين ، ونصره ثابت للمؤمنين .

وفى هذا القصص : تخليد لجهاد المرسلين وإحياء ذكراهم وبيان : كفاحهم .

وفيه : رعاية الله للمؤمنين ، فهذا الخليل مقيد بالأغلال ، يلقى فى أعظم نار أوقدت من أجله ، ويتبتل إلى الله ويتضرع إليه ، فتتدخل القدرة الإلهية ، وتحفظه من النار بقدرة الله ، ويخرج إبراهيم من النار سليما معافى ، فى أبهى حلة يتمتع بالمعجزة ، ويؤيده الله ، ويهلك أعداءه ؛ فسبحان الله رب العالمين !.

★ ★ ★

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

المفردات :

لـــــــوط : هو ابن أخى إبراهيم .

الأرض : أرض الشام ، وفيها بيت المقدس ، وفيها الأشجار والأنهار والثمار .

نـــافـلـــة : عطية ومنحة .

حــكــمـــا : نبوة .

القــريــة : هى سدوم التى بُعث إليها لوط .

الخبــائث : الأعمال الخبيثة التى يستقذرها أرباب الفطر السليمة .

تمهيد :

فى أعقاب المنة على إبراهيم بالنجاة من النار ، ذكر الله المنة على لوط ابن أخيه ؛ حيث نجاهما من أرض العراق إلى أرض الشام ؛ حيث البركة فى الزروع والثمار ، ووجود المسجد الأقصى .

وامتن الله على إبراهيم بإسحاق ويعقوب ، وجعل إبراهيم وذريته ولوطًا أئمة يقتدى بهم ، فى إنزال الوحى عليهم ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

التفسير :

٧١- وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ .

أى : نجينا إبراهيم ولوطا من أرض العراق إلى أرض الشام ، حيث الأنهار والأشجار ، وميلاد الرسل والأنبياء ؛ فهى أرض الشرائع ، وبها بيت المقدس ، وبها بركات مادية ومعنوية .

وكانت هذه الهجرة فرارًا من أرض الشرك والوثنية ؛ انتصارا لدين الله ، قال تعالى : فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (العنكبوت : ٢٦) .

٧٢- وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ .

أعطينا لإبراهيم إسحاق ، ورزقنا إسحاق بيعقوب نافلة وزيادة .

وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ . أى : إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ؛ هؤلاء الأربعة جعلناهم أهل خير وصلاح، يطيعون ربهم ويتجنّبون محارمه .

٧٣- وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ .

أى : جعلنا إبراهيم ولوطا وإسحاق ويعقوب أئمة فى الهدى والإصلاح ؛ يهدون الناس بأمر الله ورسالاته ؛ وقد أوحى الله إليهم : فعل الخيرات وعمل الصالحات ، وعلى رأسها : إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة، وخصهما بالذكر ؛ لأنهما من أهم العبادات .

وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ .

أى : كانوا عابدين الله مطيعين له ؛ حيث صبروا على البأساء ؛ فعوضهم الله التقى والهدى ، وخير الدنيا والآخرة .

٧٤- وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ .

ذكر القرآن : قصة لوط فى مواضع كثيرة ؛ للعظة والاعتبار ، وللتحذير من تكرار هذه الفعلة الشنعاء.

فقد تخصص قوم لوط فى أفعال منكرة منها: الشرك بالله ، وقطع الطريق، وسلب المارة أموالهم، اللواط وهو أشنع عمل حيث كانوا يفعلونه جهارًا فى مجتمعهم ، فهم يتعاونون على المنكر ، ولا يتناهون ن منكر فعلوه ؛ فاستحقوا الهلاك ؛ حيث أمطرتهم السماء بالعذاب ، وجعلت أعلى القرية أسفلها ؛ فأصابهم لزال مدمّر

ومعنى الآية هنا :

لقد آتينا لوطا: الحكمة، والنبوة، والعلم، ونجيناه من قرية سدوم، وكان لوط قد آمن بإبراهيم ، وهاجر عه من العراق إلى الشام ، وأرسله الله إلى قرية سدوم وتوابعها ، فدعاهم إلى التوحيد ، وحذرهم من اللواط العدوان ، فلم يؤمنوا ولم يلتزموا وهددوا لوطا ومن آمن به بالطرد من القرية ، وقالوا : أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن رْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ . (النمل : ٥٦) .

فأمر الله لوطا أن يسير بمن آمن معه ليلا ، وألا يلتفت خلفه ؛ حتى لا تأخذه شفقة عليهم ، فقد قضى لله أمره بهلاكهم ؛ حيث قال تعالى : إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ . (هود : ٨١ - ٨٣) .

الخلاصة :

اختار الله لوطًا للرسالة ، ونجاه من هذه القرية الفاسقة التى كانت تعمل الأعمال الخبيثة ، وأشنعها اللواط.

إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ .

أى : كانوا أهل سوء وغدر ومنكر ، خارجين عن طاعة الله تعالى .

٧٥- وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ .

أدخلنا لوطًا فى رحمتنا ، أى : فى عنايتنا وحفظنا ورعايتنا ؛ لأنه من الصالحين الطائعين لربهم ، الرجل الصالح قدر الله فى الأرض ينفِّذ أمر الله ؛ فيعطيه الله رحمته وعنايته .

وقد حفظ الله لوطا والمؤمنين ، ونجاهم من هذه القرية ، التى كانت تعمل الخبائث ، وينتشر فيها لواط ؛ واستغناء الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وكانوا يأتون المنكر جهرة فى نواديهم ومجتمعاتهم؛ أمر الله لوطا بالخروج من القرية ليلا ، ومعه المؤمنون ، ثم أهلك القرية ؛ عقوبة عادلة لهؤلاء الفاسقين.

واكتفى القرآن هنا بهذه الإشارة ؛ تخليدا لذكرى لوط، وتذكيرا بما يصيب مرتكب اللواط من الأمراض؛ لأنه خروج على الفطرة ، وتدمير لما أودعه الله فى الإنسان من تعاون الذكر والأنثى فى الحياة والإنجاب، والمتعة المشتركة المتكاملة بين الطرفين .

★ ★ ★

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

المفردات :

الكـــرب : الغمّ الشديد ، والمراد هنا : العذاب النازل بقومه وهو الغرق .

قـوم سـوء : منهمكين فى شرورهم وآثامهم .

تمهيد :

هذه إشارة إلى قصة نوح عليه السلام وهو الأب الثانى للبشرية ، على المشهور من أن جميع الباقين بعد الطوفان ، من ذريته عليه السلام .

التفسير :

٧٦- وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ .

تقدمت قصة نوح بالتفصيل فى سورة هود ، وجاءت فى سورة خاصة هى سورة نوح لكنها هنا إشارة موجزة ، تركز على دعاء نوح لربه ، واستجابة الله لدعائه ، وهلاك المكذبين ، ونجاة المؤمنين .

وقد أرسل الله نوحًا إلى قومه ، وقدم لقومه أدلة متعددة على دعوته ، ولفت أنظارهم إلى هذا الكون ، وما فيه من ليل ونهار وشمس وقمر، ونبات وأمطار، وحياة وعمران، لكنهم كذبوا وتواصوا بالكفر جيلا بعد جيل .

وقد جاءت الرسالة إلى نوح وعمره : أربعون عامًا ، ومكث مع قومه رسولاً ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم ويقدم لهم الأدلة ويتفنَّن فى دعوتهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، لكنهم كذبوا ، وصمُّوا آذانهم عن دعوته ، فدعا عليهم بالهلاك ؛ فاستجاب الله دعاءه ، وأهلكهم بالطوفان ، وأمره الله أن يصنع السفينة ؛ وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، ومن اتبعه من المؤمنين .

وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ . (هود : ٤٠) . قيل : كانوا ستة أو عشرين من أهل بيته ، وأغرق الله الكافرين ، ونجى المؤمنين وعاش نوح بعد الطوفان ستين عاما ، أي : أنه عاش ألفا وخمسين عامًا .

ومعنى الآية :

واذكر يا محمد لقومك : قصة نوح – عليه السلام – حين دعا ربّه من قبل حيث قال : أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ . (القمر : ١٠) . وقال : رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا . (نوح : ٢٦) . أي : دعا ربّه من قبل إبراهيم، أو من قبل رسالتك يا محمد ، فاستجاب الله دعاءه ، ونجّاه ومن معه من المؤمنين من الغرق ، أو من سوء معاملة الكافرين واضطهادهم للمؤمنين .

٧٧– وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ .

أي : أيدناه وأنقذناه من قومه ، الذين كفروا بالوحي وكذبوا بالرسول ، وصموا آذانهم عن سماع الحق وتواصوا بهذا الكفر جيلا بعد جيل .

إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ .

أي : لأنهم كانوا فئات من الأشرار ، الفجّار الكفّار ، الذين صموا آذانهم عن سماع الحق ، وأصروا على الباطل ، واستكبروا استكبارا عن الدخول في الإيمان .

فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ .

حيث شمل الطوفان جميع الكافرين ، ومنهم : ابن نوح وزوجته ، وتوسّل نوح إلى الله أن يرحم ولده ، وينقذه من ذلك المصير ؛ فأخبره الله بأن هذا الابن قد عمل عملًا غير صالح؛ فليس من أهلك ولا من فصيلتك؛ إنما أهلك حقًا ، هم المؤمنون ، الذين آمنوا بالله وصدقوا بالرسالة .

قال تعالى : وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ * قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ . (هود : ٤٥ – ٤٧) .

وتفيد هذه الآيات : العدالة الإلهية المطلقة ؛ فلا محاباة ولا وساطة ولا شفاعة ، إلا بإذن الله وأمره ، وهي الشفاعة لأهل التوحيد والإيمان . والله أعلم .

* * *

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

المفردات :

الحرث : الزرع .

النفش : رعى الماشية بالليل بلا راع .

شاهدين : حاضرين .

اللبوس : الدروع .

البأس : الحرب .

الريح العاصف : الشديدة الهبوب .

إلى الأرض التى باركنا فيها : هى أرض الشام .

الغوص : النزول إلى قاع البحار لإخراج شىء منها .

دون ذلك : غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع الصناعات الغريبة .

تمهيد :

تتحدث الآيات عن نعم الله على داود وسليمان ، ومن هذه النعم : الفهم ، والعلم ، والحكمة .

(أ) وخص الله داود بما يأتى :

تسخير الجبال والطير للتسبيح معه ، تعليمه صناعة الدروع للوقاية من أذى الحرب .

ب) وخص الله سليمان بما يأتى :

تسخير الريح العاصفة التى تجرى بأمره ، وتسخير الشياطين تغوص فى البحر ؛ لتخرج له اللؤلؤ والمرجان ، وتعمل له أعمالا أخرى غير ذلك .

التفسير :

٧٨- وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ .

تشير كتب التفسير والحديث إلى مضمون هذه الآية .

ذلك أن رجلين أحدهما صاحب زرع والثانى صاحب غنم ، انطلقت أغنام صاحب الغنم ليلا فأكلت الزرع عن آخره ، فاشتكى الفلاح إلى داود عليه السلام ؛ وسأل داود عن قيمة الزرع ، وقيمة الغنم ؛ فلما علم أن قيمتهما متقاربة : قضى بالغنم لصاحب الزرع ؛ عوضًا عن الخسارة التى أصابته .

وسار صاحب الزرع وصاحب الغنم ؛ فمرًّا على نبى الله سليمان ؛ فسألهما : بم حكم الملك؟ فأخبراه به.

فقال سليمان : عدل الملك ، وغير ذلك كان أحكم : أن يعطى للفلاح الغنم فينتفع بألبانها وأصوافها ونتاجها ، ويعطى لصاحب الغنم الأرض فيحرثها ويزرعها ويسقيها ؛ حتى يعود الزرع كما كان ؛ فيستلم صاحب الأرض أرضه ، وصاحب الغنم غنمه ، فقال داود لما بلغه هذا القول : القضاء كما قضى سليمان .

وقد ناقش المفسرون : هل كان قضاء داود بوحى أم باجتهاد ؟ والراجح أن قضاء كل منهما كان باجتهادٍ لا بوحى ؛ فداود نظر إلى العدل المطلق ، حيث إن صاحب الزرع ؛ قد خسر زراعة تعادل قيمة الغنم، أما سليمان فنظر إلى العدل الإيجابى ؛ المشتمل على البناء والتكوين والنظرة العامة .

فصاحب الغنم : يعمل فى إصلاح الأرض وزراعتها ؛ حتى يعود الزرع كما كان ، وصاحب الأرض : يستفيد بنتاج الأغنام وألبانها ؛ ثم يستلم الأرض كما كانت ، ويستلم صاحب الأغنام أغنامه كما كانت ؛ وكل منهما حكم باجتهاده بيد أن الله فهَّم سليمان هذه الطريقة المثلى ؛ وفيها الرأفة والبناء ؛ والإبقاء على صاحب الغنم : بأن يجتهد فى إصلاح الأرض وزراعتها ؛ ثم يستردَّ غنمه .

ولو كان حكم سليمان بوحى لما قال القرآن فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ؛ لأن القرآن أفاد : أنهما حكما فى الموضوع ؛ واحدا بعد الآخر ، وأن الله فهَّم سليمان الأوْلى والأرفق .

وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ .

أى : كنا ناظرين مطَّلعين على حكمهم واجتهادهم ؛ لذلك ورد فى صحيح البخارى : «المجتهد إذا أصاب له أجران : أجر الاجتهاد وأجر الصواب ، وإذا أخطأ فله أجر واحد هو أجر الاجتهاد» [٢٣] .

ومعنى الآية : واذكر أيها الرسول الكريم : قصة داود وسليمان ؛ وقت أن كانا يحكمان فى الزرع ، الذى نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ . أى : انطلقت وتفرَّقت فيه وانتشرت ليلا ؛ دون أن يكون معها راع ؛ فرعته وأفسدته ؛ وكنا لما حكم به داود وسليمان عالمين وحاضرين ؛ بحيث لا يغيب عنا شىء مما قالاه .

وقد ورد فى صحيح البخارى ومسلم وأحمد والنسائى قصة أخرى تدل على مهارة سليمان فى القضاء ؛ والحكمة فى استخلاص الحقيقة من بين المتخاصمين .

ومعنى ما ورد فى الحديث الصحيح :

أن امرأتين إحداهما صغرى والثانية كبرى ؛ انطلقتا فى طريق إلى السُّوق ، ومع كلٍ منهما طفل رضيع، وفى الطريق استراحتا ووضعتا طفليهما على الأرض ، فجاء ذئب فالتقم ابن إحداهما .

فاشتكتا إلى نبى الله داود : كل منهما تقول : إن الطفل الموجود ابنها ؛ وأن الذئب التقم ابن الأخرى ؛ فقضى نبىُّ الله داود بالولد للكبرى ؛ حيث كان الولد معها تحمله وتحتضنه وتحافظ عليه ، ولم تقدم الصغرى دليلا لينقله إليها .

ثم عُرض الأمر بعد ذلك على سليمان ، فقال : عدل الملك وغير ذلك كان أحكم ؛ وبلغ الأمر إلى نبىّ الله داود ؛ فأحضر سليمان وسأله عن حكمه فى الموضوع فقال : أرى أن نقسم الصبى قسمين متناصفين ، ونعطى كل امرأة نصفًا ؛ فليست إحداهما أحق به من الأخرى ؛ فلما وضعت السكين الحادّة على رأس الصبى؛ صرخت الصغرى وقالت : هو ولدها فلتأخذه كلّه ، فقضى به للصغرى [٢٤] .

وتوجد كُتب فى ذكاء القضاة ، وأساليبهم فى استخلاص الحقوق ، والاهتداء إلى الحقيقة ؛ وقد خص الله سليمان بهذا الفهم ، وهداه إلى الحكمة فى القضاء ؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

٧٩- فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وكُنَّا فَـٰعِلِينَ .

أعطى الله سليمان الحكمة والفهم ، وألهمه حكما يجمع بين العدل من جهة ؛ وبين الرحمة والعطف والبناء الهادف ؛ الذى يرعى الأطراف كلها من جهة أخرى .

وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .

إن داود وسليمان كليهما أعطاه الله الحكم والعلم ، أى : حكمة ومعرفة بالقضاء والحكم ، لكنه اختص سليمان بسعة الفهم ؛ والتصور الأوسع ، وهذا لا يطعن فى داود وحكمه ؛ لأن الفهم منة من الله ، قال تعالى: **يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ** (البقرة : ٢٦٩) .

وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وكُنَّا فَـٰعِلِينَ .

كان داود ذا صوت حنون ، جميل الصوت، حاضر القلب ؛ فكان إذا قرأ الزبور أو سبح الله ؛ تجاوب معه كل ما حوله ؛ فالجبال تسبّح بتسبيحه ؛ والطير تسبّح بتسبيحه .

وَكُنَّا فَٰعِلِينَ . وكان هذا بفعلنا وقدرتنا ؛ حيث جعلنا ذلك معجزة لداود عليه السلام ؛ أن تسبح الجبال معه ؛ وأن يردد الطير تسبيحه ؛ قال تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ . (سبأ : ١٠)

وكان هذا من فضل الله عليه ؛ أن ترجِّع وتردد الجبال معه التسبيح ؛ وكذلك الطير ينطق بمثل ما ينطق به ؛ قال تعالى : ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ . (ص : ١٧ - ١٩) .

قال ابن كثير :

وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور ؛ وكان إذا ترنَّم به تقف الطير فى الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويبا ؛ ولهذا لما مرّ النبى ﷺ على أبى موسى الأشعرى ، وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيِّب؛ فوقف واستمع إليه ؛ وقال : «لقد أوتى أبو موسى مزمارًا من مزامير آل داود» [٢٥] .

ونظير الآية قوله تعالى : وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء : ٤٤) .

٨٠- وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ .

ألان الله الحديد لداود عليه السلام ، وكان الحديد يُلبس صفائح كما يلبس القميص ؛ فعلمه الله صناعة الزرد ؛ وهى حلقات تتشابك مع بعضها ويلبسها المحارب فتحمى صدره من السيوف والرماح .

ومعنى الآية : ألهمنا داود وعلَّمناه صناعة حلقات الحديد ؛ التى تتشابك مع بعضها فتكوِّن درعا حصينة ؛ يلبسها المحارب؛ فيتقى بها ضربات الأعداء فى الحرب ؛ وقد تعلم داود عليه السلام صناعة الدروع بتعليم الله له ؛ حيث قال تعالى له : وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ أى : اصنع الحلْقة بتقدير محكم ؛ مناسب للمسمار الذى يربطها بالحلقة الأخرى .

لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ . لتحميكم وتحفظكم من حروبكم ؛ حيث تحفظ المقاتل من ضربة السيف ؛ وطعنة الرمح.

فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ .

على تيسير الله لكم نعمة الدروع ؛ والمراد : اشكروا الله على ما يسر لكم من هذه الصنعة ؛ التى ألانها الله لداود ؛ وجعله بارعًا فى صناعتها ، وتعلمها الناس منه جيلا بعد جيل ؛ وفيه دليل على أهمية الصناعة، وفضل العمل والحرفة وأن الأديان السماوية تحث على العمل والإنتاج ؛ وتحارب البطالة والكسل ؛ فهذه سنة من سنن الله يترتب عليها اعمار الكون .

لقد أخبرنا نبينا محمد ﷺ : أن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده ؛ فقد كان يصنع الدروع وكان أيضًا يصنع الخوص ؛ ليأكل من كدِّ يمينه ، فما أكل أحد طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده .

وكان آدم حرَّاثا يحرث الأرض ؛ وكان نوح نجارًا يصنع السفن ، وكان إدريس ولقمان خياطين؛ وطالوتُ دباغًا ، أو سقاءً ، وكل ذلك يدل على أن العمل منهج الأنبياء والصالحين ، وطريق المؤمنين الأقوياء.

وقد جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه الشيخان والنسائى عن أبى هريرة : أن النبى ﷺ قال : «لأن يأخذ أحدكم حبله ، ثم يغدو إلى الجبل ، فيحتطب ، فيبيع ، فيأكل ، ويتصدق ، خير له من أن يسأل الناس»[٢٦] .

قال القرطبى فى تفسيره ما ملخَّصه :

وهذه الآية أصل فى اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب، لا قول الجهلة الأغبياء؛ القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء ، فالسبب سنة الله فى خلقه : فمن طعن فى ذلك ؛ فقد طعن فى الكتاب والسنة ، وقد أخبر الله عن نبيَّه داود ؛ أنه كان يصنع الدروع ؛ وكان أيضًا يصنع الخوص وكان يأكل من عمل يده ...؛ فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس .

٨١- وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ .

أى : وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ، وهذه من نعم الله على سليمان أن ذلل له الريح العاصفة أى: المدمرة ، التى تعصف بما تمر عليه وتدمِّره .

وقد وصف الله تعالى هذه الريح بأنَّها سهلة هَينة مريحة : فى موضع آخر فقال : فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ . (ص: ٣٦) .

قال المفسرون :

فهذه الريح قوية وعاصفة فى حد ذاتها ؛ لكن إذا أمرها سليمان بأمر تحولت إلى طائعة سهلة منقادة لينة ورخاء ، أو أنَّها حينا عاصفة ، وحينا رخاء وهى مطيعة لسليمان ؛ وكان سليمان قد دعا الله قائلا : رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (ص: ٣٥ - ٣٩)

والخلاصة :

أن الله ذلل الريح لسليمان عليه السلام ، فكان يتحرك مع جنوده وجيوشه وأتباعه ، ويأمر الريح أن تنقلهم إلى أى مكان يريد الذهاب إليه ، ثم يطلب من الريح أن تعيده إلى المكان الذى يريد أن يرجع إليه ؛ فتطيعه الريح وتجرى بأمره .

وكان ملك سليمان فى بلاد الشام ؛ فقد حكم داود عليه السلام فلسطين ٧٠ سنة، وحكمها سليمان ٧٠ سنة ، وبعد ذلك دب الخلاف بين أبناء سليمان وتقسّموا الملك ثم دالت دولتهم.

أمَّا العرب المسلمون فقد فتحوا فلسطين وبيت المقدس سنة ١٥ هـ ومكثوا فيها أكثر من ألف عام ؛ ولم يخرجوا من بيت المقدس إلا أيام الحروب الصليبية ؛ ثم عادوا إليه بقيادة صلاح الدين الأيوبى ، وظلوا هناك إلى أن كانت حرب سنة ١٩٦٧ م فأخرجوا من ديارهم بغير حق .

وأملنا فى الله أن يعودوا إلى بيت المقدس بفضل الله .

ونعود إلى تقرير معنى الآية فنقول :

سخرنا لسليمان الريح قوية ؛ تسير بأمره وتنقله هو وأتباعه فى الصباح وتعود بهم فى المساء ؛ حيث ترجع بهم إلى أرض الشام التى بارك الله فيها ؛ بوجود الأنبياء والزروع والثمار ؛ ووجود بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين .

وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَـٰلِمِينَ .

أى : أن علمنا ممتد إلى كل كبيرة وصغيرة ، ونعرف الحكمة فيما نفعل ، ونعرف أن سليمان أهل لهذه النعمة؛ فنحن لنا حكمة فى ابتلاء الناس بالخير أو بالشر ؛ كما قال سبحانه : وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ... (الأنبياء : ٣٥) .

٨٢- وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ .

كذلك سخرنا لسليمان الشياطين والجن يأتمرون بأمره ، ويعملون تحت حكمه ، لا يخرجون عن طاعته، ومن أعمال الشياطين : الغوص فى البحار ، واستخراج اللؤلؤ والمرجان والجواهر ونحوها .

وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ .

أى : ويعملون أعمالا غير ذلك ؛ كبناء المدن والقصور ، والمحاريب والتماثيل ، والقدور الراسيات ونحوها ، وأما الصناعات فهى مثل الطواحين والقوارير والصابون .

وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ .

أى : حافظين لأعمالهم ، نحرسه من أن يناله أحدهم بسوء ، وقد جعلنا له سلطة مطلقة عليهم ؛ إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء . ذلَّلهم الله له ، وجعلهم طوع أمره ، ورهن إشارته ؛ لا يجرؤ أحد منهم على الاقتراب منه ، ولا يستطيعون أن يفسدوا أعمالهم ، وأن يهيجوا أحدًا من بنى آدم فى زمان سليمان أو أن يهربوا أو يمتنعوا عن أمره .

فلله جنود السماوات والأرض ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، فهو سبحانه مالك الملك ؛ وواضع الناموس وفاعل المعجزة ؛ وإذا شاء وهب ما شاء لمن يشاء ؛ ولا يبعد أن تكون لهذه الأفعال نواميس أخرى نحن لا نعلمها ؛ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . (الإسراء : ٨٥) .

★ ★ ★

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

المفردات :

أيـــوب : هو أيوب بن أموص، اصطفاه الله، وبسط له الدنيا وكثر أهله وماله، ثم ابتلاه بموت أولاده؛ بسقوط البيت ، وبذهاب أمواله ، وبالمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة ، وسنهُ إذ ذاك سبعون سنة ، ثم شفاه الله ، وآتاه من الأولاد ضعف ما كان له ، وسيأتى تفصيل قصصه فى سورة صٓ .

الضـــر : الضرر (بالفتح) شائع فى كل ضرر وأذى ؛ والضُرُّ (بالضم) خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما .

ذكـــرى : تذكــرة .

تمهيد :

سبق ذكر داود وسليمان ، حيث امتحنهما الله بالنعمة فكان منهما الشكر لله ، واستخدام النعمة فى طاعة الله وأردف ذلك بقصة أيوب ؛ فى إشارة سريعة إلى صبره على البلاء : ليكون تذكرة وعظة لكل إنسان ؛ فى الصبر على البلاء ، وفى الشكر على النعماء .

التفسير :

٨٣- وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ .

واذكر : نبأ أيوب ؛ حين دعا ربه متضرعا متعطفا ؛ قائلا : أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ . أى : أصابنى المرض والبلاء والهزال ، فى نفسى وفى مالى وأولادى ؛ والضَّر (بالفتح) كل ضرر ، والضُّر (بالضم) خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما .

فأيوب عليه السلام يصف حاله أمام الله ، ويستحى أن يسأل الشفاء ؛ لأن الله أعلم بحاله ، كما قال إبراهيم فى الشِّدة : «علمه بحالى يغنينى عن سؤالى» .

وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ .

أى: أنت واسع الرحمة ، كثير العطاء والشفقة أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ، وأفضل المعطين فالرحمة الواسعة صفتك، والفضل العميم هو فضلك ؛ فاشملنى برحمتك وأسبغ علىّ من فضلك .

وقد توسعت بعض كتب التفسير ، فى أنواع البلاء والأمراض التى أصابت أيوب ، حتى اعتزل الناس، وابتعدت عنه الناس ، وهى مبالغات أو إسرائيليات ؛ ليس لها سند ثابت ، فلنكتف بما ورد فى القرآن الكريم؛ فقد أفاد : أن الله ابتلى أيوب ؛ وامتحنه بالشدة فى نفسه وفى أولاده وفى زوجته وفى ماله ؛ ونحن نكتفى بما أجمله القرآن ، ولا نتزيَّد عليه ؛ وروح القرآن تفيد : أن الله تعالى جعل أيوب نموذجا يقتدى به ، فى الصبر على البأساء وتحمل الشدائد واللجوء إلى الله تعالى فى البلاء .

٨٤- فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ .

كان أيوب قد ابتلى فى نفسه بالمرض ، وفى أولاده بالموت ، وفى ماله بالضياع ؛ امتحانا من الله تعالى ، وكانت له الأموال والأولاد والزوجة والعافية ، وكان دائم الصبر ، حيث قالت له زوجته مرة : لو دعوت الله حتى يذهب عنك البلاء ؟! فقال لزوجته : كم مكثنا فى الصحة والعافية والنعمة ؟ قالت : ثمانين سنه ؛ قال أيوب : كم مكثنا فى البلاء ؟ قالت : ثلاثا أو سبعا أو ثمانى عشرة سنة ، فقال أيوب : أستحى أن أدعو الله ليرفع البلاء ؛ ولم أمكث فى البأساء مثل ما مكثت فى النعماء .

فلما كثر إلحاح زوجته عليه ؛ مدّ يديه إلى الله متضرعا ، طالبا أن يشمله الله برحمته : فاستجاب الله دعاءه ؛ فكشف عنه الضُّرّ الذى نزل به اختبارًا وابتلاء .

وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ .

استردّ زوجته وولدت له من الأولاد بعدد من مات من أولاده ؛ ثم ضاعف الله له عدد أولاده .

رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ .

أى : تلطفا وتكرما وترحما من الله عليه ، حيث أكرمه فى نفسه وأولاده وماله .

وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ .

وتذكيرًا للعباد الصالحين ؛ ألا ييئسوا من فضل الله ، وأن يتوقعوا من الامتحان بالبلاء ، والكشف بالرحمة والنعماء ؛ وقد ذكرت قصة أيوب فى مواضع أخرى فى القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى : وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ . (ص : ٤١ – ٤٤) .

لقد جعل الله من أيوب نموذجا للصبر ؛ فقد امتحن فى نفسه ، وفى أولاده وزوجته وأمواله : ثم عوضه الله بالشفاء والعافية ، حيث اغتسل بالماء فبرئ ظاهره ، وشرب من الماء فبرئ باطنه ، ورزقه الله من الأولاد بعدد من مات منهم ، ثم ضاعف له عددًا من الأولاد والأحفاد ؛ فقد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ، ويختبر بعض الناس بالنعماء قال تعالى : لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ... (النمل : ٤٠) .

وأمره الله أن يأخذ حزمة من الحشيش الأخضر ، الذى يختلط فيها الرطب باليابس ، وبها أكثر من ١٠٠ عود ، فيضرب بها زوجته مرة واحدة ، حتى لا يحنث فى يمينه ؛ وكان قد أقسم إذا شفاه الله ليضربن زوجته ١٠٠ ضربة ؛ ثم وضع الحق سبحانه وساما يؤيد الصبر ، وصدق العبودية ، والرجوع إلى الله وعبادته ، والتبتل إليه واستمرار ذكره ؛ فقال تعالى : إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ .

وفى الحديث الشريف : «أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» [٢٧] .

★ ★ ★

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

المفردات :

وإسماعيل : أى : واذكر : إسماعيل ، والصابر على الذبح ؛ امتثالا لأمر الله .

ذا الكفل : اختلف فيه ، هل هو نبى أو عبد صالح ، قيل : هو إلياس ؛ قيل : خمسة من الأنبياء ذوو اسمين : إسرائيل ويعقوب ، إلياس وذو الكفل ، عيسى والمسيح ، يونس وذو النون ، محمد وأحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

كل من الصابرين: أى : كل هؤلاء من الصابرين ؛ على مشاق التكاليف وشدائد النوائب .

إنهم من الصالحين: أى : الكاملين فى الصلاح ، وهم الأنبياء ، فإن صلاحهم معصوم عن كدر الفساد .

تمهيد :

بعد أن ذكر الله أيوب ، وجعله المثل الأعلى فى الصبر ؛ أتبعه بذكر ثلاثة من الصابرين وهم :

إسماعيل : الذى صبر فى بناء البيت الحرام ، وصبر على الانقياد للذبح ، وصبر على الإقامة فى بلد لا زرع فيه ولا ضرع ولا بناء ؛ فأكرمه الله بأن جعل خاتم النبيين من صلبه .

وإدريس : فهو أول من خاط الثياب، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من اتخذ السلاح عدَّة للحرب .

وأما ذو الكفل : فقد تكفل بثلاث صفات :

١ – قيام الليل . ٢ – صيام النهار. ٣ – عدم الغضب حين يقضى بين الناس.

ووفى بذلك وبما ضمن على نفسه، قيل : إنه كان عبدًا صالحًا ، وقيل : كان نبيا بدليل اقترانه مع الأنبياء.

التفسير :

٨٥– وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ .

أى : واذكر أيها النبى نبأ إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، وقد مدحه الله فيما سبق بصدق الوعد ، ورعايته لأسرته ، وأمرهم بالصلاة والزكاة ؛ وقد رضى الله عنه جزاء صدقه وجميل أعماله قال تعالى : **وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا .** (مريم : ٥٤ ، ٥٥)

وكذلك نبى الله إدريس ، يقال : إنه جاء بعد آدم وقبل نوح عليه السلام ، ويقال : إن زمانه مجهول وكذلك مكانه ، وهناك قول بأنه أزوريس ، الذى عبده المصريون بعد موته ، وصاغوا حوله الأساطير ؛ بوصفه المعلم الأول للبشر ، الذى علمهم الزراعة والصناعة ولكننا لا نملك على هذا دليلاً ، فلنعلم أنه كان من الصابرين فى أداء رسالته ، وفى شئون حياته وقد قيل : إن الله كافأه بصبره على أذى قومه ؛ بأن رفعه إلى السماء الرابعة.

وقد قال تعالى فى شأنه : **وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا .** (مريم ٥٦، ٥٧).

وَذَا ٱلْكِفْلِ ، أى : صاحب النصيب أو الحظ الكثير ، الذى هو إلياس وهو من بنى إسرائيل ، وقد عاش فى بلاد الشام .

كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ .

أى : كل واحد من هؤلاء من الصابرين المحتسبين الذين صبروا على البلاء والمحن .

٨٦- وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ .

شملناهم برحمتنا وعطفنا وبركتنا فى الدنيا ، وأدخلناهم الجنة فى الآخرة .

إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ .

أى : الكاملين فى الصلاح ؛ لأنهم أنبياء معصومون ، وصلاحهم لا يعكره فساد .

★ ★ ★

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

المفردات :

النون : الحوت وجمعه نينان ، وَذَا ٱلنُّونِ . أى : صاحب الحوت وهو يونس بن متّى .

مغاضبا : غضبان من قومه ؛ لتماديهم فى العناد والطغيان .

نقدر عليه : نضيّق عليه فى أمره بحبس ونحوه .

الظلمات : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل .

تمهيد :

هذا نموذج آخر للقدوة والتعليم ، نبى كريم يغضب من قومه فى نينوى بالعراق ، ويركب سفينة ، وتوشك السفينة على الغرق ، فيقترع القوم لإلقاء أحد الركاب فى البحر ، وتصيب القرعة يونس ، فيلقى بنفسه فى البحر ، فيلتقمه الحوت ، ويتضرع إلى الله تعالى وهو محبوس فى بطن الحوت ، وفى ظلمات الليل والبحر وجوف الحوت ، فيستجيب الله دعاءه وينجيه ، وهكذا ينجّى المؤمنين .

التفسير :

٨٧ - وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

أى : واذكر أيها الرسول قصة يونس بن متَّى عليه السلام ، حين بعثه الله إلى أهل قرية نينوى (من أرض الموصل) ، وكان اسم ملكها (حزقيا) فدعاهم إلى توحيد الله وطاعته ، فأبوا عليه ، فضاق صدره بهم ، فخرج من بلده ، مغاضبًا لقومه ، ومغاضبته لقومه كانت غضبةً لله ، وأنفة لدينه .

فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .

أى : ظن يونس أن لن نضيِّق عليه بالعقوبة ، على خروجه من القرية بدون إذن من ربه ، فهى من باب قوله تعالى : وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ... (الطلاق : ٧) . أى ضُيِّق ، فهو من القدْر لا من القُدرة .

سأل معاوية ابنَ عباس عن هذه الآية : كيف يظن يونس أن الله لن يقدر عليه ؟! فقال ابن عباس : هذا من القدْر لا من القدرة . ا هـ .

وعندما خرج يونس - عليه السلام - من عند قومه ، سار حتى وصل إلى شاطئ البحر، فركب سفينة، وفى وسط البحر ، أوشكت على الغرق ، فقالوا : لابد من إلقاء شخص فى البحر ؛ لتنجو السفينة ، فأجريت القرعة فخرجت على يونس ، فألقى بنفسه فى البحر ، فالتقمه الحوت ، وفى ظلام الحوت والحبْس بداخله ، وظلام البحر ، وظلام الليل والنفس ، نادى يونس ربَّه ، واستغاث بالله فأغاثه .

فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ .

لقد استجاب الله له ، عندما لجأ إلى الله ، وفزع إليه ، وهو فى ظلام الليل والبحر والحوت والكرب ، قائلاً : لا إله سواك ، أنت القادر المهيمن ، القائم على كل نفس بما كسبت .

سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

أى : تنزهت يا ربّ عن النقص والظلم ، وقد كنتُ من الظالمين لنفسى ، وأنا الآن من التائبين النادمين ، فاكشف عنى المحنة ونجنى مما أنا فيه .

٨٨ - فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ .

فاستجاب الله دعاء يونس ، وفرَّج عنه الكرب ، وأمر الحوت أن يحافظ عليه وأن يطرحه فى العراء ، وحافظ الله عليه ، وأرسله مرة أخرى إلى قومه ، فآمنوا ؛ فأنقذهم الله من العذاب .

قال تعالى : فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ. (يونس : ٩٨) .

وقد ورد فى سنن أبى داود : أن رسول الله ﷺ قال : «دعوة أخى ذى النون فى بطن الحوت : لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . لم يدع بها مسلم ربَّه فى شىء قطٌ إلا استجاب له»[٢٨] .

وقد ورد فى القرآن الكريم : قصة يونس فى عدد من السور قال تعالى : فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ . (القلم : ٤٨ - ٥٠) .

وقال تعالى : وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ * فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ . (الصافات : ١٣٩ - ١٤٨) .

وروى البخارى ومسلم وأبو داود : عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال «لا تفضلونى على يونس ابن متى ؛ فإنى لم أكن وأنا فى سدرة المنتهى بأقرب إلى الله منه ، وهو فى قعر البحر فى بطن الحوت»[٢٩].

وهذا دليل على أن البارى سبحانه وتعالى ليس فى جهة معينة ، وأن المؤمن إذا لجأ إلى الله ودعاه ؛ استجاب الله دعاءه ، وأن على المسلم إذا وقع فى كرب أو عسر ، أو شدة أو همٍّ ، أن يردد دعاء يونس عليه السلام : لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

لأن الله وعد بإجابة دعاء المؤمن ، إذا قال هذا الدعاء صادقًا متضرعًا ، قال تعالى :

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ .

أى : استجبنا دعاء يونس ، ونجيناه من الغمّ ، فقد فرجنا كربه ، وأمرنا الحوت أن يلفظه على الشاطئ ، وأنبت الله عليه شجرة القرع .

وكان النبى ﷺ يُحبُّ القرع ويقول : «إنها شجرة أخى يونس ، وإنها تشد قلب الحزين» .

وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ .

أى : كما نجينا يونس من الغم وهو الحزن ، ننجى كل مؤمن إذا لجأ إلينا ودعانا مخلصا قانتا متبتلا .

★ ★ ★

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

تمهيد :

تتحدث الآيتان عن تضرع زكريا إلى ربّه سبحانه وتعالى بأن يهبه ولدًا صالحًا ، وقد استجاب الله دعاء زكريا ، ووهب له يحيى وجعل زوجة زكريا صالحة للحمل والولادة والرعاية للمولود ؛ فقد كان زكريا وزوجته أخيارًا ، وأبرارًا أطهارًا صالحين .

التفسير :

٨٩ - وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ .

أى : واذكر : خبر زكريا حين طلب من الله أن يهبه ولدًا يؤنس وحدته ، ويرث تدينه وصلاحه ، وقيامه على شئون الدين ، وقال : إنك يا رب ، نعم الوارث لشئون العقيدة والراعى لها .

وقد سبقت القصة بتفصيل فى سورة مريم ، وقبلها فى سورة آل عمران ، وعلمنا أن زكريا نادى ربّه نداء خفيا ، واشتكى إلى الله ضعفه ، وظهور الشيب فى رأسه ، ووهن عظامه ، والحال أن زكريا كثير التضرع والدعاء لله ، وهنا يختصر القرآن القصة ، إلى إشارة سريعة ، تفيد : أن زكريا شكا لله وحدته ، وأظهر لله رغبته فى ولد صالح ، يكون وارثًا لزكريا ، مجتهدًا فى العبادة راعيًا للعباد والأتقياء .

٩٠ - فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ...

استجاب الله دعاء زكريا ، وبشّره بغلام اسمه : يحيى ، يتميز بطاعة الله وبر الوالدين ، والزهد فى الدنيا ، والتبتل إلى الله ، وكانت زوجة زكريا عجوزًا عقيمًا فأعاد الله إليها صحتها وعافيتها ، وجعلها صالحة للحمل والولادة ، بقدرة الله ، فهو سبحانه على كل شىء قدير .

إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغبا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ .

هذا تعليل لما سبق أى : لقد منحنا زكريا ولدًا وأصلحنا له زوجه : لأنهم كانوا

يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ .

أى : يسارعون إلى عمل الخير والمعروف ، ومساعدة المحتاج ، ويدعون الله ويعبدونه ، راغبين فى رحمته وثوابه ورضاه ، راهبين بطشه وعذابه وغضبه .

وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ .

متواضعين متذللين ، لا يستكبرون عن طاعتنا ، والتضرع إلينا ، وسؤالنا والالتجاء إلى حمانا .

★ ★ ★

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

المفردات :

الإحصان : المنع مطلقا .

الفرج : الفرج فى الأصل : الشق بين الشيئين كالفرجة ، ثم أطلق على السوءة ، وكثر حتى صار كالصريح فى ذلك .

الروح : هو المعنى المعروف ، ونفخ الروح هو الإحياء .

آية : برهانًا ودليلاً على قدرة الله .

التفسير :

٩١ - وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ .

واذكر : مريم التى أحصنت فرجها ، وحفظته من أن ينال ، فلم يمسسها بشر بزواج ولم تك زانية ، بل حفظت فرجها فلم يقترب منه أحد ، وأرسل الله جبريل حيث نفخ فى جيب درعها فحملت بعيسى ، وجعلها الله هى وابنها آية ، أى : معجزة ودليلا على قدرة الله ، أمام الإنس والجن والملائكة ، فالبشرية لم تشاهد آدم ، حين خلق بقدرة الله من غير أبوين ، ولم تشاهد حواء حين خلقت من آدم ، وإنما شاهد الناس آية خلق عيسى من مريم بدون زوج وإنما بقدرة الله القادر ، وقد جعل الله ميلاد عيسى ، دليلا وآية أمام الناس ، إن واضع الناموس هو الله ، الذى خلق الزوجين الذكر والأنثى ، ومع ذلك إذا أراد أمرا ؛ حصل ونفذ أمره .

قال تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (آل عمران : ٥٩) .

وقد جعل الله حمل مريم بعيسى آية واحدة ، لكن عندما تحدث عن الليل والنهار قال : وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ... (الإسراء : ١٢) ؛ لأن حال مريم مع ابنها آية واحدة ، وهى ولادتها من غير فحل ، كما ذكر الزمخشرى فى تفسير الكشاف .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

المفردات :

الأمة : القوم المجتمعون على أمر ، ثم شاع استعمالها فى الدِّين .

تقطعوا أمرهم بينهم : أى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا .

حرام : ممتنع .

قرية : أهلها .

أهلكناها : قدّرنا هلاكها .

يأجوج ومأجوج : قبيلتان مفسدتان فى الأرض ، بنى ذو القرنين سدًّا ؛ حماية للناس من أذاهما .

حدب : مرتفع من الأرض .

ينسلون : يسرعون .

اقترب : قرب .

الوعد الحق : يوم القيامة .

شـــــاخصـــــة : مرتفعة أجفانها لا تكاد تطرف من شدة الهول .

الـــــويــــــل : الهلاك .

التفسير :

٩٢ - إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ .

تأتى هذه الآية ، فى أعقاب حديث طويل عن عدد من الرسل والأنبياء ، حيث ذكر قصة إبراهيم ولوط ونوح وداود وسليمان ، وأيوب وإسماعيل وإدريس وذى الكفل ، وذى النون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، ثم عقب على ذلك بأن الأديان كلها من عند الله ، والرسل جميعا هدفهم واحد ، هو دعوة الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد ، والعناية بمكارم الأخلاق ، والاستقامة على الصراط المستقيم ، والبعد عن الرذائل والموبقات ، فأهداف الرسالات جميعا ، تتلخص فى هدفين :

١ - إصلاح العقيدة والإيمان بالله وحده لا شريك له .

٢ - إصلاح السلوك بالاستقامة على الطريق السوىّ ، وفعل الطاعات واجتناب المحرمات ، فالأديان كلها متفقة على تحريم القتل والزنى وعقوق الوالدين والكذب ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وعلى الأمر بصلة الرحم والتواضع والتعاون والتسامح ، والأديان كلها متفقة على عبادة الله وحده لا شريك له ، والإيمان بالكتب والرسل واليوم الآخر .

إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ .

إن هذه أمة الرسالات أمة واحدة ، تلتقى على الإيمان بالله ، والتحلى بمكارم الأخلاق ، والسير على الطريق القويم ، واجتناب الرذائل والمحرمات .

وقد روى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «الأنبياء إخوة لعلات : أمهاتهم شتّى ودينهم واحد»[٣٠] .

وإخوة العلات هم إخوة الضرائر ، أبوهم واحد وأمهاتهم متعددة ، فالرسل جميعا ديانتهم تقوم على توحيد الله ، وقد اجتهد كل رسول فى إصلاح الخلل الاجتماعى والأخلاقى ، الذى ساد فى قومه ، فحارب لوط المثلية الجنسية ، وحارب شعيب تطفيف الكيل والميزان ، وحارب موسى طغيان الحاكم وتأليه الفرعون ، وحارب عيسى مادِّية اليهود ، وكانت رسالة محمد ﷺ رحمة للعالمين ، فعنيت بتوحيد الله وتعميق عقيدة التوحيد ، وعنيت بوسطية الرسالة ، فهى رسالة وسط ، تهتم بالروح والجسد ، وإصلاح الدنيا والآخرة ، وهى تؤمن بالرسل والكتب والملائكة واليوم الآخر .

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ .

أى : اتجهوا إلى الله تعالى بالإخلاص فى التقوى والعبادة ، فلا نعبد إلا الله ، ولا نستعين إلا بالله .

وفى سورة الفاتحة : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ .

والمسلمون جميعًا أمة واحدة ، دينهم واحد ، ونبيهم واحد ، وكتابهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وأمتهم واحدة ، يجمعهم وحدة الهدف ، ويدعوهم القرآن إلى الوحدة قال تعالى : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ... (آل عمران : ١٠٣) .

٩٣ - وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ .

مع أن الإله واحد وقد شرع لنا الدين الواحد ، وجعل أمة الأنبياء واحدة ، فإن أتباع الديانات قد تفرقوا فرقا ، وتقطعوا قطعا ، كما تقطع أجزاء الشئ ، فكل فريق يقتطع جماعة وينعزل عن القطع الأخرى ، ثم يصير الخصام والنزاع والتهاوش ، والحروب فى بعض الأحيان ، وجميع هؤلاء المختلفين المتنازعين ، سيرجعون إلينا يوم القيامة .

وفى معنى الآية قوله تعالى : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا .

وقوله سبحانه : شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... (الشورى : ١٣) .

وقال عز شأنه : وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . (الأنفال : ٤٦) .

وكأنَّ القرآن يقول : مع دعوتنا إلى الأمة الواحدة ، فإن الحاصل أن أتباع الديانات تقطعوا أمرهم ، واختلفوا وتضاربوا وتحاربوا ، وسيرجع الجميع إلينا للجزاء .

٩٤ - فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ .

نحتاج إلى أمرين هامين :

١ - الإيمان . ٢- العمل الصالح .

فلا ينفع الإيمان العاطل العاجز ، والعمل لابد أن يستند إلى إيمان مقبول ، فمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وضم إلى ذلك العمل الصالح النافع المفيد ، فجزاؤه عند الله عظيم .

فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ .

فلا ضياع لشىء من سعيه ، بل سيوفّى على هذا العمل جزاءه كاملا .

وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ .

أى : إن عمله مسجل مكتوب ليجازى عليه .

قال تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

٩٥ - وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ .

للمفسرين آراء فى معنى هذه الآية :

الرأى الأول :

أن لَا زائدة فى الآية ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ . (المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠) .

أى : أن من هلك وعُذّب وعوقب بالخسف أو الزلازل ، أو الموت بأى طريقة كانت ، لا يسمح له بالعودة إلى الدنيا ، فقد أعطى الفرصة كاملة فى الدنيا فأضاعها .

قال تعالى : وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ . (الأنعام : ٢٨) .

الرأى الثانى :

هو الرد على أن القرى التى عوقبت بالخسف أو الزلازل أو أى نوع من أنواع الهلاك ، لا تقوم للحساب والجزاء يوم القيامة ؛ لأن الناس تهلك بسبب غضب الله عليهم ، فهذه عقوبة عامة للجميع ، ثم يحاسبون يوم القيامة بحسب أعمالهم ، فالرؤساء والقادة لهم عقاب أشد من التابعين .

قال تعالى : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ... (العنكبوت : ١٣) .

وقريب من هؤلاء المنافقون المتلوّنون قال تعالى : إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . (النساء : ١٤٥) .

من تفسير ابن كثير :

وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ .

قال ابن عباس : قد قُدِّر أن أهل كل قرية أهلكوا ؛ أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة . هكذا صرح ابن عباس وأبو جعفر الباقر وقتادة وغير واحد .

وفى رواية عن ابن عباس : **أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** . أى : لا يتوبون ، والقول الأول أظهر والله أعلم .

وقال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

استعير الحرام للممتنع وجوده ، ومنه قوله عز وجل : **إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ** . (الأعراف : ٥٠) . أى: منعهما منهم ، وأبى أن يكونا لهم ، ومعنى : **أَهْلَكْنَـٰهَآ** عزمنا على إهلاكها أو قدَّرنا إهلاكها .

ومعنى الرجوع : الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة .

ومجاز الآية : إن قوما عزم الله على إهلاكهم ، غير متصوَّر أن يرجعوا وينيبوا ، إلى أن تقوم القيامة ، فحينئذ يرجعون ويقولون : **يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ** . (الأنبياء : ٩٧) يعنى : أنهم مطبوع على قلوبهم فلا يزالون على كفرهم ويموتون عليه حتى يروا العذاب[٣١] .

وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم لوزارة الأوقاف المصرية :

وممتنع على أهل كل قرية أهلكناهم بسبب ظلمهم ، أنهم لا يرجعون إلينا يوم القيامة ، بل لابد من رجوعهم وحسابهم على سوء أعمالهم .

٩٦ - حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ .

سبق الكلام عن يأجوج ومأجوج فى سورة الكهف ، وهذه الآية مرتبطة بالآية التى سبقتها .

وخلاصة المعنى :

ممتنع عن قرية أهلكها الله بسبب ظلمها ، أن يرجع أهلها إلى الدنيا ، بل تظل هالكة مدمرة إلى قرب قيام الساعة ، حتى إذا انهدم سد يأجوج ومأجوج ، فإذا هم يهبطون مسرعين ينزلون من فوق رءوس الجبال **يَنسِلُونَ** ، يسرعون الخطا .

والخلاصة : أنه لا تزال حياة من مات وهلك ممتنعة ، ولا يمكن رجوعهم إلى الدنيا حتى تقوم الساعة ، ويسرع الناس من كل حدب من الأرض ، أو ويسرع قوم يأجوج ومأجوج من رءوس الجبال إلى المحشر ، أو إلى الأماكن التى يوجههم الله تعالى إليها .

٩٧ - وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَاذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ .

اقترب مجىء القيامة ، والساعة حق لا ريب فيها ، وعند قيام القيامة ، يذهل الكافرون من هول المشهد ، وتفتح عيونهم وترتفع أجفانهم فلا تطرف ، بل تظل شاخصة من هول ما تشاهد ، قد أذهلها هول المفاجأة .

عندئذ يقولون : يا هلاكنا ! لقد كنا فى غفلة وإعراض وتكذيب للقيامة والبعث ، بل كنا ظالمين فى كفرنا وتكذيبنا للرسل ، والآية تعبير مصوّر عن مشاهد القيامة ، وشخوص العيون مرتفعة أجفانها إلى أعلى ، تعبيرا عن هول الموقف ، ثم ندم الكافرين على كفرهم ، وقت لا ينفع الندم :

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

وجاء معنى الآية فى المنتخب من التفسير كالآتى :

واقترب الموعود به ، الذى لابدّ من تحققه ، وهو يوم القيامة ، فيفاجأ الذين كفروا ، بأبصارهم لا تغمض أبدًا من شدة الهول ، فيصيحون قائلين : يا خوفنا من هلاكنا ، قد كنا فى غفلة من هذا اليوم ، بل كنا ظالمين لأنفسنا بالكفر والعناد !

★ ★ ★

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

المفردات :

الحصب : ما يرمى به فى النار لاشتعالها .

الـزفـير : صوت نفس المغموم يخرج من أقصى الجوف .

الحسنى : الكلمة الحسنى التى تتضمن البشارة بثوابهم ، حين الجزاء على أعمالهم .

الحسيس : الصوت الذى يُحسُّ من حركتها .

السجـل : هو الصحيفة .

تمهيد :

تستعرض الآيات مشاهد القيامة ، حيث يكون المشركون ومعبوداتهم من الأصنام حطبا للنار حين يردُونها ، أما من كتبت له السعادة والنجاة من النار ، فهؤلاء مبعدون من النار ، لا يسمعون أصواتها ، وتتلقاهم الملائكة بالبشرى والتهنئة ، قائلين : هذا يومكم الذى كنتم توعدون .

وفى هذا اليوم تطوى السماء طويا ، كما يطوى الكاتب الطومار ، الذى يكتب فيه ، أو كما يجمع فهرس المكتبة محتوياتها ، ولعلَّ فيما استجد من وجود الأشرطة الممغنطة التى يجمع فيها محتويات مكتبة كبيرة، تفسيرًا لهذه الآية .

التفسير :

٩٨ – إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ .

إنكم أيها الكفار وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ . من الأصنام والأوثان والشياطين ، أنتم جميعا حطب جهنم، أى : وقودها ، أنتم جميعا – العُبَّاد والمعبودون – داخلون فى جهنم ، وإنما جمع الله الكفار مع أصنامهم؛ ليزدادوا حسرة وتألما ، كلما شاهدوا أصنامهم تعذَّب أمامهم ، ولأنهم ظنوا أن الأصنام تشفع لهم عند الله، فها هم يشاهدونها تتقلب فى النار ، نكاية فيمن عبدها .

ولا يدخل فى هذه الآية ما عبده هؤلاء المشركون ، من الأنبياء والصالحين كعيسى والعزير والملائكة ، فإن هؤلاء الأخيار ما أمروهم بذلك ، وإنما أمروهم بعبادة الله ، وفى آخر سورة المائدة نجد آيات تفيد : براءة المسيح عيسى ممن عبده من دون الله حيث يقول : مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ... (المائدة : ١١٧) .

روى محمد بن إسحاق فى سيرته : أن رسول الله ﷺ دخل المسجد الحرام، وصناديد قريش فى الحطيم، فجلس رسول الله ﷺ إليهم ، فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليهم : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ . فأقبل عبدالله بن الزِّبعرى فقال للنبى ﷺ قد خصمتك ورب الكعبة ، أليس اليهود عبدوا عُزيرًا ، والنصارى عبدوا المسيح ، وبنو مليح عبدوا الملائكة ؟!

فقال ﷺ : «بل عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك» فأنزل الله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . (الأنبياء : ١٠١) . يعنى : عزيرا والمسيح والملائكة عليهم السلام . ا هـ .

والخلاصة : أن أصنام الكفار ستكون معهم فى جهنم ، أما المسيح والملائكة وعزير فهؤلاء قد أدّوا واجبهم ، ولم يرضوا عن عبادة الناس لهم ، وقد سبقت لهم الحسنى والسعادة ، ودخول الجنة والبعد عن النار .

٩٩ - لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ .

لو كان هؤلاء الأصنام آلهة ؛ لدفعت الضرّ عن نفسها ، وما ألقى بها فى النار ، وما قذفوا فيها كما يقذف الحطب .

وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ .

أى : العابدون والمعبودون باقون فى النار على سبيل الخلود الأبدى .

١٠٠ - لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ .

أى : ولهم فى النار من شدة العذاب وشدة الكرب والغم ، أنين وتنفس شديد ، يخرج من أقصى الجوف بصعوبة وعسر ، كما هو شأن المغموم المحزون ، كما قال تعالى : لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . (هود : ١٠٦) .

وأصل الزفير : ترديد النفس حتى تنتفخ منه الضلوع .

وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ .

أى : لا يسمعون ما يسرهم أو ينفعهم ، بل يسمعون صوت من يتولى تعذيبهم من الزبانية .

قال القرطبى :

وسماع الأشياء فيه روح وأنس . فمنع الله الكفار من ذلك فى النار .

وقال ابن مسعود :

إذا بقى من يخلّد فى نار جهنم ، جعلوا فى توابيت من نار ، فيها مسامير من نار فلا يسمعون شيئا ، ولا يرى أحد منهم أنّه يعذب فى النار غيره ، ثم تلا الآية : لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ .

١٠١ - إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ .

أى : سبقت لهم منا السعادة ، أو التوفيق للخير والطاعة ، كما قال تعالى : لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... (يونس : ٢٦) .

روى : أن عليا رضى الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال : أنا منهم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف . ا هـ .

أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ .

أى : مبعدون عن دخول النار إبعادًا تامًّا بفضل الله ورحمته ، لا يصلون حرها ولا يذوقون عذابها .

قال ابن عباس :

أولئك أولياء الله ، يمرون على الصراط أسرع من البرق ، ويبقى الكفار فيها جثيا

وقال ابن كثير :

نزلت فى عيسى وعزير والملائكة .

وقال الضحاك :

عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر .

١٠٢ - لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ .

لا يسمعون صوت النار وحريقها ولهيبها وهيجانها ؛ لأنهم قد استقروا فى الجنة ، وصاروا فى أمان واطمئنان .

وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ .

وهم فى ما تتمناه أنفسهم ، وتشتهيه أفئدتهم ، وتنشرح له صدورهم ، خالدون خلودا أبديا ، لا ينغّصه حزن أو انقطاع .

قال تعالى : وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ . (الزخرف : ٧١) .

١٠٣ - لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ .

يقارن القرآن بين صنوف العذاب فى النار ، وصنوف النعيم لأهل الجنة ، فأهل الجنة فى أمان واطمئنان وانشراح صدر ، ونعيم مقيم ، وفى القيامة أهوال وفزع وهلع، بيد أن أهل الجنة قد منحوا الرضا وحفظهم الله من النار ، ومن سماع أصواتها وهى تحرق الكافرين ، ولا يسمعون صوتها الذى يُحسُّ من حركة حريقها ولهيبها .

لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ .

لا تخيفهم أهوال القيامة ، والنفخ فى الصور ، والبعث من القبور ، وأهوال البعث والحشر والحساب، بل تلقاهم الملائكة فتبشرهم بالجنة والمسرة والكرامة .

وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ .

أى : تتلقاهم الملائكة عند القيام من قبورهم ، وقيل : على أبواب الجنة فتقول لهم : هذا هو يومكم ، الذى كنتم توعدون به فى الدنيا من خالقكم ، جزاء إيمانكم وعملكم الصالح .

١٠٤ - يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ .

اذكر : يوم نطوى السماء كما يطوى خازن الصحائف صحائفه ، وقد انتهت الدنيا ، وبُدلت الأرض غير الأرض والسماوات ، وحشر الناس حفاة عراة غرلا ، كما ولدتهم أمهاتهم .

روى الشيخان والإمام أحمد : عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا ، كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ . ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ، يقول الله : اكسوا خليلى لا أرى خليلى عريانًا[٣٢] .

وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ .

أى : وعدًا مؤكدًا علينا ، لا يخلف ولا يبدَّل ، لازم علينا إنجازه والوفاء به .

إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ .

قادرين على ما نشاء ، وقد جاء هذا المعنى فى القرآن بما يفيد أن الأرض تطوى وتبدّل ، وكذلك السماوات ، وأن الناس تحشر ويعاد خلقها كما خلقها الله تعالى أوّل مرة .

قال تعالى : وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ . (الزمر : ٦٧) .

وقال تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس : ٧٨ - ٧٩) .

ويرى بعض العلماء أن هذه الآية يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ . تشير إلى التقدم العلمى فى حفظ وثائق المكتبات ومحتوياتها من الكتب داخل أشرطة ممغنطة يطوى فى داخلها معلومات آلاف الكتب، فتكون هذه الأشرطة سجلاً لكتب مكتبات كبيرة وكذلك تطوى السماوات يوم القيامة فى قبضة الرحمان سبحانه وتعالى كطى السِّجل للكتب ، وهذه الأشرطة فى مجموعها مثل كرة كانت الأساس فى خلق السماوات والأرض وسائر أجزاء الكون ، والله أعلم .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

المفردات :

الــــزبــــور : الكتب التى أنزلت على الأنبياء .

الـــذكـــر : اللوح المحفوظ .

الـــبـــلاغ : الكافية .

العـــابـــد : من عمل بما يعلم من أحكام الشريعة وآدابها .

تمهيد :

تفيد الآيات أن ما أوحى إلى الرسول ﷺ ، كاف لمن يعتبر بسنن الله فى الكون فيستفيد منها ، ما ينفعه فى دينه ودنياه ، فجميع ما جاء به الوحى من المواعظ وأحكام الشرائع ، هداية وذكرى لو تدبرها المتدبرون ، وتأملها المنصفون .

التفسير :

١٠٥ - وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ .

يطلق الزبور على الكتاب الذى أعطى لسيدنا داود ، قال تعالى : وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا . (الإسراء : ٥٥) .

ويطلق الذكر على التوراة . قال تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ . (الأنبياء : ٤٨) .

ويكون المعنى :

ولقد كتبنا فى زبور داود من بعد توراة موسى ، أن ميراث الأرض والسيطرة عليها ، والنجاح فى

الغلبة على أرض الدنيا ، يكون لمن أخذ بأسباب الحضارة والقوة والتقدم والعمل والأمل ، وودَّع الكسل والترف والتراخى والفتور ، فهو صالح لعمارة الأرض واستغلال خيراتها ، وأهل لميراثها .

وتحتمل الآية وجها آخر :

أن المراد بالزبور : المزبور أى : المكتوب ، تقول : زبرت الكتاب ، أى : كتبته ، ويكون المراد بالزبور: جميع الكتب السماوية ، التى كتبها الله إلى رسله ، وأنزلها إلى خلقه ، ويكون المراد بالذكر : اللوح المحفوظ، كأن الآية تشير إلى ناموس عام ، وقاعدة إلهية ، وسنة من سنن الله الكونية ، أن من تكون له الغلبة والرياسة، والقدرة والقوة والسيطرة على أرض الدنيا ، هم أهل الصلاح والعمل .

اتجاهان للمفسرين :

من المفسرين من رأى أن المراد بالأرض أرض الجنة ، واستشهد بقوله تعالى فى القرآن الكريم : وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ . (الزمر : ٧٤) .

ومن المفسرين من رأى أن المراد بالأرض أرض الدنيا واستشهد بقوله تعالى : وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ . (القصص : ٥ ، ٦) .

وعند التأمل نرى أنه لا يمنع أن يكون من إعجاز الآية ، صلاحها للإطلاقين معا فى وقت واحد ، فيراد من الأرض أرض الدنيا وعزُّها ، وأرض الجنة ونعيمها ، فعباد الله الصالحون ، الذى يعملون ويجمعون بين العمل المادِّى ، والصلاح والتقوى ، أهل لميراث التفوق فى أرض الدنيا ، ودخول الجنة فى الآخرة .

من تفسير ابن كثير :

يقول تعالى : مخبرًا عما حتّمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة ، فى الدنيا والآخرة ، ووراثة الأرض فى الدنيا والآخرة ، كقوله تعالى :إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . (الأعراف : ١٢٨) .

وقال : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ . (غافر : ٥١) .

وقال تعالى : وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ... (النور : ٥٥) .

وأخبر تعالى أن هذا مسطور فى الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة ، ولهذا قال تعالى :

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ .

قال مجاهد : الزبور : الكتب ، والذكر : أم الكتاب عند الله . واختار ذلك ابن جرير رحمه الله . ا هـ .

وجاء فى تفسير المراغى ما خلاصته :

صلاح الأمة يقوم على أربعة عمد :

١ – أن يكون قادتها علماء مفكرين ، وساستها حكماء عادلين بعيدين عن الجور والظلم ، يعملون لخير الأمة ورقيها.

٢ – أن يكون لها جيش منظم متطور متقدم ، فيه المهندسون والمخترعون والقادة البارعون ، ولديه من الأسلحة ووسائل الدفاع ، ما يكشف عنه العلم المتطور ، من طائرات وغواصات وسفن حربية ، وجند حذقوا فنون الحرب ، وبلوا أساليبها المختلفة .

٣ – أن يقوم أبناء الحرف المختلفة من تجار وصناع وزراع بأداء أعمالهم على الوجه المرضى ، وكل طائفة تظاهر الطوائف الأخرى ، وتعاونها الجميع .

٤ – أن تنظم هذه الطوائف أعمالها ، بحيث تتوزع هذه المهن بين الأفراد بحسب حاجة الأمة ، ويكون فى كل طائفة جماعة مبرزون ، يفكرون فيما يرقى شئون الطائفة ، بحيث تنافس أمثالها فى الأمم الأخرى أو تفوقها ، وهذا حكم أيَّدته التجارب ، فى سائر العصور لدى جميع الدول .

١٠٦ – إِنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ .

للعلماء رأيان فى تفسير هذه الآية :

الأول : إن فيما ذكر فى هذه السورة من أنظمة الدول وأسباب الرقى والترقى ، لكفاية لقوم يجمعون بين العلم والعمل ، فعلى المسلمين قاطبة ، أن يقوموا قومة رجل واحد ، متماسكين متعاونين ، فى سبيل رقى أمتهم ، وتنظيم شئونها ، وتربية أبنائها ، تربية تؤهلهم أن يكونوا قادة العالم الإنسانى .

الرأى الثانى : إن فى هذا القرآن وما يكشفه من سنن فى الكون والحياة ، ومن مصائر الناس فى الدنيا والآخرة ، ومن قواعد العمل والجزاء ، إن فى هذا لبلاغا وكفاية للمستعدين لاستقبال هدى الله .

قال ابن كثير :

إن فى هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغا ومنفعة وكفاية ، لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ . وهم الذين عبدوا الله بما شرعه ، وأحبَّه ورضيه ، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان ، وشهوات أنفسهم . ا هـ .

١٠٧ - وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ .

أرسل الله محمدًا ﷺ على حين فترة من الرسل ، فكان رحمة مهداة ، وكانت شريعته جامعة لمطالب الجسم والروح ، مشتملة على أصول التشريع ، ومكارم الأخلاق ، وجوامع الآداب ، وأصول الخير والبر ، وتركت للعقل البشرى أن يجتهد فى شئون دينه ودنياه ، فى كل ما يجدّ أمام الإنسان ، وقد اشتمل القرآن على أصول الرحمة والدعوة إلى التراحم والتعاطف ، وكان ﷺ أرحم الناس ، قال تعالى : لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . (التوبة : ١٢٨) .

والرحمة سمة ملموسة فى التشريع الإسلامى ، لذلك خفف الله عن المريض والمسافر الصوم فى رمضان ، وأباح للحامل والمرضع والشيخ الكبير الإفطار فى رمضان ، وفتح الله باب التوبة لكلّ المذنبين ، ونهى عن اليأس والقنوط ، ودعا الناس جميعا إلى الدخول فى رحابه واللجوء إلى كنفه قال تعالى : قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . (الزمر : ٥٤) .

وقال تعالى : وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ . (الأعراف : ١٥٦) .

وقد كان النبى ﷺ مبلّغ الرسالة ، والرحمة المهداة ، الذى تحمل المشاق فى الدعوة إلى هذا الدين فى مكة والمدينة ، ولم يرسله الله سبابا ولا لعانا ، بل أرسله ليتمم مكارم الأخلاق ، وقد وضعت هذه الرسالة أسس الحق والخير ، ومبادئ الكمال والبرّ ، فكانت نعمة على الناس أجمعين .

عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى :

وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ .

قال : من تبعه كان له رحمة فى الدنيا والآخرة ، ومن لم يتبعه عوفى مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف[٣٣] .

★ ★ ★

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

المفردات :

مسلمون : منقادون خاضعون .

تولوا : أعرضوا .

آذنتكم : أعلمتكم ، وكثر استعماله في الإنذار ، كما في قوله تعالى : فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ .
(البقرة : ٢٧٩)

ما توعدون : من غلبة المسلمين عليكم .

فتنة : اختبار .

احكم : اقض .

بالحق : بالعدل ، والمراد بذلك تعجيل العذاب لهم .

ما تصفون : ما تقولون وتفترون من الكذب كقولكم: بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ. (الأنبياء : ٥) وقولكم: إن للرحمان ولدًا.

تمهيد :

تأتي هذه الآيات في ختام السورة ، بمثابة الإعذار والإنذار إلى الكافرين ، فالله واحد لا شريك له ، فهل أنتم مسلمون ومؤمنون به ؟

والموت يأتي بغتة ، ولا أعلم هل عذابكم قريب أم بعيد ؟

فالله وحده العليم بكل شيء ، الخبير بما تستحقون ، فالله قاض عادل يحكم بيني وبينكم ، وهو المستعان على أقوالكم وكفركم .

التفسير :

١٠٨ - قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ .

هذه خلاصة لب الإسلام والأديان ، أن للكون كله إلهًا واحدًا هو الله سبحانه وتعالى ، وهذا التوحيد يخلِّص البشرية من الخضوع للأوثان ، ومن الخضوع للخرافة والأسطورة ، ومن الخضوع للترف والنزوات ، لأن الإيمان بإله واحد ، يرفع هامة الإنسان ، حيث يعتز بالإيمان ، وبالاعتماد على الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

وخلاصة معنى الآية :

قل يا محمد لقومك وللناس أجمعين ، إن الوحى الذى ينزل علىّ أساسه ولبّه أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ . أى : إن معبودكم واحد هو الله ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ . هلا أسلمتم وجوهكم له ، وآمنتم به لتدخلوا فى ساحة التوحيد ، وتكسبوا سلامة الفطرة ، وحلاوة الإيمان ، وشرف الدنيا وسعادة الآخرة .

١٠٩ - فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ .

فإن أعرضوا عنك يا محمد ولم يؤمنوا بك ، فقل لهم : لقد أديت رسالتى ، وأعلمتكم بوحى الله رب العالمين ، فليس علىّ إلا البلاغ ، أما عاقبة تكذيبكم لى ، فلا أعلم تحديد الوقت ، الذى تصيبكم فيه عاقبة التكذيب ، فأنا بشر علىَّ البلاغ ، أما عذاب السماء فلا يعلم وقت نزوله إلا الله .

قال صاحب الظلال :

فالمقصود هو أن يعلنهم بأنه قد نفض يده منهم ، وتركهم عالمين بمصيرهم ، وأنذرهم عاقبة أمرهم، فلم يعد لهم بعد ذلك عذر ، فليذوقوا وبال أمرهم وهم عالمون .

وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ .

قال ابن كثير : أى : هو واقع لا محالة ، ولكن لا علم لى بقربه ولا ببعده .

وقال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ .

أى : إن غلبة المسلمين عليكم أمر كائن لا محالة ، ولابد أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار ، وإن كنت لا أدرى متى يكون ذلك ، لأن الله لم يعلمنى علمه ، ولم يطلعنى عليه . ا هـ .

وقيل : المراد لا أدرى متى تقوم الساعة ، ويأتيكم ما توعدون من الجزاء العادل الذى ينتظركم .

١١٠ - إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ .

إنه سبحانه مطلع على كل شىء ، تنكشف أمامه جميع الموجودات انكشافًا تامًا دون سبق خفاء .

وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ . (النور : ٦٤) .

فهو سبحانه مطلع على قولكم الظاهر ، وما تضمرونه فى صدوركم ، وحين يجازيكم على أعمالكم ، يكون جزاؤه عادلا ، لأنه خبير بأعمالكم الظاهرة والباطنة ، ولا تخفى عليه خافية .

١١١ - وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ .

أى : ما أدرى لعل تأخير العذاب لكم ، امتحان أو استدراج لكم ، تستمتعون بملاذ الحياة ، وتنعمون بأفضال الله وقتا مًّا ، لتكون الفرصة سانحة للتوبة ، والمهلة كافية لأن يتزود الإنسان الكافر ، بكل عرض الدنيا وشهواتها ، حتى إذا أخذه الله ، أخذه أخذ عزيز مقتدر ، وهكذا يسير الحوار ويتركهم النبى ﷺ ، فى جهالة من وقت نزول العذاب ، ليستنفر فيهم الترقُّب وانتظار المجهول ، والتذكر لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

١١٢ - قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ .

أى : قال محمد ﷺ مناجيا ربّه : ربِّ احكم بالحق والعدل بينى وبين قومى الذين كذبونى ، وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ . رحمته واسعة وقد أرسلنى رحمة مهداة ، ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ . أى : أستعين بالله وأتحصن به ، مما تصفون به الله من الشرك والكفر ، وأنه له ولد ، أو أنه ثالث ثلاثة ، وما تصفون به القرآن ، من أنه أساطير الأولين ، أو سجع كهان ، وما تصفون به محمدًا من أنه كذاب أو ساحر أو شاعر .

وخلاصة ذلك : أنه طلب من ربّه أن يحكم بما يُظهر الحق للجميع ، وأمره ربه أن يتوعد الكفار بقوله: وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ .

وقرأ أكثر القرّاء السبعة : قُلْ رب احكم بالحق ... بصيغة الأمر ، وهذه القراءة تدلّ على أن الرسول ﷺ قد أمره الله تعالى أن يقول ذلك .

من تفسير ابن كثير :

قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ .

أى : افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق ، قال قتادة : كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون : رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ . (الأعراف : ٨٩) . وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ، وعن مالك، عن زيد بن أسلم : كان رسول الله ﷺ إذا شهد غزاة قال : رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ . وقوله :

وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ .

أى : على ما يقولون ويفترون من الكذب ، ويتنوعون فى مقامات التكذيب والإفك ، والله المستعان عليكم فى ذلك . ا هـ .

وقرئ تَصِفُونَ . بالتاء والياء .

قال الزمخشرى :

كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه ، وكانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة ، فكذَّب الله ظنونهم ، وخيّب آمالهم ، ونصر رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وخذل الكافرين .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة الأنبياء

١ – الإنذار بقرب الساعة مع غفلتهم عنها .

٢ – إنكار المشركين نبوة محمد ﷺ لأنه بشر مثلهم ، وأن ما جاء به أضغاث أحلام ، وأنه قد افتراه ، ولو كان حقا لأتى بآية كمعجزات موسى وعيسى .

٣ – الردُّ بأن الرسل جميعا كانوا من البشر .

٤ – أهلك الله كثيرا من الأمم المكذبة لأنبيائها .

٥ – السماوات والأرض لم تخلقا عبثا .

٦ – إقامة الدليل على وحدانية الله ، باتساق الكون وبديع نظامه ، وتكامله وعدم فساده .

٧ – النَّعْى على من ادعى أن الملائكة بنات الله .

٨ – وصف النشأة الأولى ، بأن السماوات والأرض كانتا متصلتين ففصلهما الله ، وسخر الهواء ، وأرسى الجبال ، وسخر الشمس والقمر .

٩ – استعجال الكافرين للعذاب ، مع أنهم لو علموا كنهه ما طلبوه .

١٠ – بيان أن الساعة تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون .

١١ – قصص بعض الأنبياء ، مثل : موسى، وهارون، وإبراهيم، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذى الكفل، ويونس، وزكريا، وقصص مريم .

١٢ – بيان أن الدين الحق عند الله هو الإسلام ، وبه جاءت جميع الشرائع .

١٣ – حادث يأجوج ومأجوج من أشراط قيام الساعة .

١٤ – الأصنام وعابدوها يكونون يوم القيامة حطب جهنم .

١٥ – وصف ما يلاقيه الكفار من الأهوال فى النار .

١٦ – وصف النعيم الذى يتمتع به أهل الجنة .

١٧ – تبدَّل الأرض ، وتطوى السماوات كطىِّ السجل للكتب .

١٨ – سنة الله فى الكون أن يرث الأرض من يصلح لعمارتها ، من أى دين كان ، ومن أى مذهب اعتنق .

١٩ – الوحى إنما جاء بالتوحيد ، وأن لا إله إلا إله واحد .

٢٠ – طلب الرسول ﷺ ، أن يحكم الله بينه وبين أعدائه المشركين ، وأن الله هو المستعان على ما يصفونه به من أنه مفتر ، وأنه مجنون ، وأنه شاعر يتربصون به ريب المنون .

★ ★ ★



تفسير سورة الحج

أهداف سورة الحج

سورة الحج مدنية نزلت بعد سورة النور

وقيل : إن سورة الحج من السور المكية ، وقد استثنى من ذهب إلى هذا الرأى الآيات من (١٩ – ٢٤) [٣٤].

وكان الأولى أن يستثنى من قال إنها مكية آيات الإذن بالقتال من (٣٨ – ٤١) ، ومنها قوله تعالى : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . (الحج : ٣٩) .

وعند التأمل فى سورة الحج نجد أن أسلوبها وموضوعاتها وطريقتها أقرب إلى السور المكية .

فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة وإثبات البعث وإنكار الشرك ومشاهد القيامة وآيات الله المبثوثة فى صفحات الكون .. بارزة فى السورة .

ويمكن أن يقال إن هذه السورة مشتركة بين مكة والمدينة كما يبدو من دلالة آياتها وعلى الأخص آيات الإذن بالقتال وآيات العقاب بالمثل فى قوله تعالى : ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . (الحج : ٦٠) .

فهذه الآيات مدنية لأن المسلمين لم يؤذن لهم فى القتال والقصاص إلا بعد الهجرة وبعد قيام الدولة الإسلامية فى المدينة ، أما قبل ذلك فقد قال رسول الله ﷺ – حين بايعه أهل يثرب وعرضوا عليه أن يميلوا على أهل منى من الكفار فيقتلوهم : «إنى لم أومر بهذا» . حتى إذا صارت المدينة دار إسلام ، شرع الله القتال لرد أذى المشركين عن المسلمين ، والدفاع عن حرية العقيدة ، وحرية العبادة للمؤمنين .

ومن الموضوعات المدنية فى سورة الحج : حماية الشعائر، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغى وهو يرد العدوان ، والأمر بالجهاد فى سبيل الله .

وفى السورة موضوعات أخرى عولجت بطريقة القرآن المكى وتغلب عليها السمات المكية وهذه السمات تجعل سورة الحج مما يشبه المكى وهو مدنى .

سمات القوة

تتضح فى سورة الحج سمات القوة والعنف ، وأساليب الرهبة والتحذير ، واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والخوف من بأس الله .

وتبدو هذه المعانى فى المشاهد والأمثال :

فمشهد البعث مزلزل عنيف رهيب ، تذهل فيه الأم عن وليدها وهو بين يديها ، وكذلك مشهد العذاب : فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ . (الحج : ١٩ – ٢٢) .

ومشهد القرى المدمرة بظلمها :

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ . (الحج : ٤٥) .

تجتمع هذه المشاهد العنيفة المرهوبة إلى قوة الأوامر والتكاليف ، وتبرير الدفع بالقوة ، وتأكيد الوعد بالنصر والتمكين . إلى عرض الحديث عن قوة الله وضعف الشركاء المزعومين .

ووراء كل ذلك الدعوة إلى التقوى والوجل واستجاشة مشاهد الرهبة والامتثال لأمر الله ، تبدأ بها السورة وتتناثر فى ثناياها : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ . (الحج : ١) .

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ . (الحج : ٣٢) .

فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... (الحج : ٣٤ ، ٣٥) .

لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ . (الحج : ٣٧) .

ذلك إلى استعراض مشاهد الكون ، ومشاهد القيامة ، ومصارع الغابرين ، والأمثلة والعبر ، والصور والتأملات ؛ لاستجاشة مشاعر الإيمان والتقوى والإخبات والاستسلام ، وهذه هى الروح السارية فى جو السورة كلها والتى تطبعها وتميزها .

أقسام السورة وأفكارها [٣٥]

تشتمل سورة الحج على أربع مجموعات أو أقسام رئيسية يجرى السياق فيها كالآتى :

القسم الأول :

يبدأ القسم الأول بالنداء العام : نداء الناس جميعا إلى تقوى الله ، وتخويفهم من زلزلة الساعة ووصف الهول المصاحب لها وهو هول عنيف مرهوب . فى ظل هذا الهول باستنكار الجدل فى الله بغير علم ، واتباع كل شيطان محتوم على من يتبعه الضلال ، ثم يعرض دلائل البعث من أطوار الحياة فى حياة الإنسان وحياة النبات ، مسجلا تلك القربى بين أبناء الحياة ، ويربط بين تلك الأطوار المطردة الثابتة ، وبين أن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور. وكلها سنن مطردة ، وحقائق ثابتة متصلة بناموس الوجود ثم يعود إلى استنكار الجدل فى الله بغير علم، ولا هدى ولا كتاب منير .

بعد هذه الدلائل المستقرة فى صلب الكون وفى نظام الوجود ، وإلى استنكار بناء العقيدة على حساب الربح والخسارة ، والانحراف عن الاتجاه إلى الله عند وقوع الضراء ، والالتجاء إلى غير حماه ، واليأس من نصرة الله وعقباه ، وينتهى هذا الشوط بتقرير أن الهدى والضلال بيد الله ، وأنه سيحكم بين أصحاب العقائد المختلفة يوم الحساب وهنا يعرض ذلك المشهد العنيف من مشاهد العذاب للكافرين ، وإلى جواره مشهد النعيم للمؤمنين . ويستغرق هذا القسم من أول السورة إلى الآية ٢٤ .

القسم الثانى :

يبدأ القسم الثانى بالحديث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ، ويستنكر هذا الصد عن المسجد الحرام الذى جعله الله للناس جميعًا . يستوى فى ذلك المقيمون به والطارئون عليه ، وبهذه المناسبة يذكر طرفا من قصة بناء البيت ، وتكليف إبراهيم – عليه السلام – أن يقيمه على التوحيد ، وأن يطهره من رجس الشرك ، ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة مشاعر التقوى فى القلوب، وهو الهدف المقصود ، وينتهى هذا القسم بالإذن للمؤمنين فى القتال ؛ لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذى يقع على المؤمنين ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا ربنا الله . ويستغرق هذا القسم الآيات : (٢٥ – ٤١) .

القسم الثالث :

يبدأ القسم الثالث بعرض نماذج من تكذيب المكذبين من قبل ، ومن مصارع المكذبين ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين ، وذلك لبيان سنة الله فى الدعوات ، وتسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من صد وإعراض

وتطمين المسلمين بالعاقبة التى لابد أن تكون ، كذلك يتضمن عرض طرف من كيد الشيطان للرسل والنبيين فى دعوتهم ، وتثبيت الله لدعوته ، وإحكامه لآياته ، حتى يستيقن بها المؤمنون ، ويفتن بها الضعاف والمستكبرون . ويستغرق هذا القسم الآيات : (٤٢ – ٥٩) .

القسم الرابع :

يتضمن القسم الرابع وعد الله بنصرة من وقع عليه البغى ؛ فقام يدفع عن نفسه العدوان ، ويتبع هذا الوعد بعرض دلائل القدرة فى صفحات الكون ، وإلى جوارها يعرض صورة زرية لضعف الآلهة التى يركن إليها المشركون ، وينتهى هذا القسم وتنتهى السورة معه بنداء الذين آمنوا ليعبدوا ربهم ، ويجاهدوا فى الله حق جهاده ، ويعتصموا بالله وحده ، وهم ينهضون بتكاليف عقيدتهم العريقة منذ أيام إبراهيم الخليل. ويستغرق هذا القسم الآيات : (٦٠ – ٧٨) .

ومن هذا العرض نجد تعاقب موضوعات السورة وتناسقها فى حلقات متساوقة تسلم كل حلقة للتى تليها لتكون فى مجموعها سورة كاملة هى سورة الحج .

حكمة التسمية

سميت هذه السورة بسورة الحج لأنها اشتملت على الدعوة إلى الحج على لسان إبراهيم الخليل ، وفى الحج منافع دينية وعلمية وتجارية وسياحية .

قال تعالى : وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ . (الحج : ٢٧ ، ٢٨) .

فى الحج يتجمع المسلمون من كل بلد ، للتعارف والتآلف والتشاور والتعاون ، وبذلك يصبحون يدًا واحدة وقوة متآلفة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

فى الحج يشاهد الإنسان الأماكن المقدسة ، التى شهدت ميلاد الإسلام وولادة الرسول ورسالته وجهاده وهديه .

فى الحج يتعرف المسلمون من كل قطر على إخوانهم ، ويتدارسون شئونهم ويعرفون آلامهم وآمالهم. وربما تعاقدوا على شراء ما يلزمهم أو عمل ما ينفعهم .

فى الحج سياحة فى أرض الله وأداء لمناسك مقدسة فى موطن إبراهيم الخليل وهاجر وإسماعيل ، ورؤية الكعبة المقدسة وزمزم والصفا والمروة ومنى وعرفات ، وبعد الحج زيارة للمسجد النبوى وصلاة بالروضة ووقوف أمام قبر النبى ﷺ وزيارته ، وزيارة قبور الصحابة والشهداء ، ورؤية أمجاد الإسلام ومواقع المعارك ، وبذلك يستقر الإيمان فى القلب والشعور ويصبح الحج عبادة ذات منافع متعددة ، إذا فهم المسلمون حكمته ورسالته .

مقصود السورة إجمالا [٣٦]

إذا أردنا التعرف على الأفكار المنثورة فى سورة الحج فسنجدها تدور حول الأمور الآتية :

الوصية بالتقوى والطاعة ، وبيان هول الساعة وزلزلة القيامة ، والدليل على إثبات الحشر والنشر، وجدال أهل الباطل مع أهل الحق . وذم أهل النفاق وعبادة الأوثان ، ومدح المؤمنين ، وبيان رعاية الله لرسوله ، ونصره رغم أنف الكافرين ، وسجود الكائنات لله . وقيام إبراهيم بالدعوة إلى الحج وبيان تعظيم الحرمات والشعائر ، والمنة على العباد بدفع فساد أهل الفساد ، وإهلاك القرى بسبب ظلم أهلها وذكر نسيان رسول الله ﷺ ، وسهوه حال تلاوة القرآن ، وتثبيت المؤمنين ، وشقاق الكافرين حتى تفاجئهم الساعة ، وبيان قدرة الله سبحانه ، وعجز الأصنام وعبادها ، واصطفاء الرسل من الملائكة كجبريل ، ومن الإنس كمحمد ، وتكليف المؤمنين بأنواع من العبادة كالصلاة والجهاد والإحسان ، وترغيبهم فى الوحدة والجماعة والتمسك بحبل الله فى قوله : وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ . (الحج : ٧٨) .



تقديم

هذه سورة اختلف العلماء بين كونها مكية أو مدنية ، ومن رأى أنها مدنية ، استشهد بآيات الدعوة إلى القتال والإذن به ، ولم يؤذن بالقتال إلا فى المدينة ، ومن رأى أنها مكية استشهد بقوة آياتها وشدة أسلوبها .

حتى قال العلماء : هى مما يشبه المكىّ وهو مدنىّ .

وقال العزيزى :

وهى من أعاجيب السُّور ، نزلت : ليلاً ونهارًا ، سفرًا وحضرًا ، مكيًا ومدنيًا ، سلميًا وحربيًا ، محكما ومتشابها ، وآياتها ٧٨ آية .

وقال الشيخ أحمد المراغى فى تفسير المراغى :

وهى بحسب موضوعاتها أقسام ثلاثة :

١ – البعث والدليل عليه وما يتبع ذلك .

٢ – الحج والمسجد الحرام .

٣ – أمور عامة كالقتال ، وهلاك الظالمين ، والاستدلال بنظام الدنيا على وجود الخالق ، وضرب المثل بعجز الأصنام ، وعدم استطاعتها خلق الذباب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾

المفردات :

التقوى : مراقبة الله تعالى ، والبعد عن كل ما يكسب الإثم من فعل أو ترك .

الزلزلة : الحركة الشديدة بحيث تزيل الأشياء من أماكنها .

الـــــذهـــــول : الدَّهش الناشيء عن الهم والغمّ الكثير .

المرضـــــعـــــة : الأنثى حال الإرضاع ، والمرضِع: مَنْ مِنْ شأنها أن ترضع ، ولو لم ترضع حال وصفها به .

التفسير :

١ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ .

افتتاح يدعو إلى التقوى ويحث عليها ، وتقوى الله مراقبته وامتثال أمره ، واجتناب نواهيه ، وقد تكرر الأمر بالتقوى في القرآن الكريم، ففي أول سورة النساء: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ. (النساء : ١)

وفى أوائل سورة البقرة : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ . (البقرة : ٢١).

وقال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ * إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ . (لقمان : ٣٣ ، ٣٤) .

إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ .

أي : إنَّ الزلزلة التى تكون حين قيام الساعة ، قبل قيام الناس من قبورهم ، أمر عظيم هائل كما قال تعالى : إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا * وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا . (الزلزلة : ١ ، ٢) .

وقال تعالى : فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ * وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ * فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ * وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ * وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ . (الحاقة : ١٣ - ١٧) .

وقال تعالى : إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ * لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا * وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا * فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا . (الواقعة : ١ - ٦) .

وإذا كانت الزلزلة وحدها لا تحتمل ، فما بالك بما يحدث فى ذلك اليوم من الحشر والجزاء ، والحساب على الأعمال ، لدى من لا يغيب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

٢ - يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ .

تصف الآية أهوال القيامة التى تزلزل القلوب :

(أ) ففى هذا اليوم تذْهلُ كل مرضِعة عن رضيعها ، وقد وضعت ثديها فى فمه ، فتتحيَّر وتأخذها الدهشة ، وتنشغل بنفسها عن رضيعها .

(ب) وفى هذا اليوم يشتد الهول ، بحيث إن الحامل تضع حملها سقطا ، من الهول والفزع .

(جـ) وفى ذلك اليوم ترى الناس سكارى من الذهول والهول الذى اعتراهم ، وما هم بسكارى ، أى : إنهم لم يشربوا خمرًا ، ولكن أذهلهم هول الموقف ، وشدة الهول والعذاب .

وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ .

أى : إن الذى جعل الناس سكارى ذاهلين فى سكر معنوى ، بدون سبب حسِّى للسكر ، هو شدة عذاب الله فى هذا اليوم ، فشدة العذاب هى التى أذهلت عقولهم ، وأذهبت تمييزهم ، وقد يكون المراد من ذهول المرضع ، ووضع الحامل ، ضرب المثل لشدة الأمر وبلوغه أقصى الغايات ، كما يؤوَّل به أيضًا قوله تعالى : فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ＊ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولاً ＊ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً . (المزمل : ١٧ - ١٩) .

ملحق بتفسير الآيتين

- ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الزلزلة قبل قيام الناس من قبورهم ، فهى مثل أشراط الساعة أو علاماتها .

قال تعالى : إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . إلى آخر السورة

وقال تعالى : وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ＊ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ . (الحاقة : ١٤ ، ١٥) .

قال ابن كثير :

فقال قائلون : هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا ، وأوّل أحوال الساعة . عن علقمة فى قوله : إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ . قال : قبل الساعة . وقال عامر الشعبى : هذا فى الدنيا قبل يوم القيامة .

وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال كائن يوم القيامة ، فى العرصات بعد القيام من القبور ، واختار ذلك ابن جرير الطبرى ، واحتجوا بالأحاديث .

منها : ما ورد فى الصحيحين عن عائشة ، عن النبى ﷺ قال : «إنكم تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، قالت عائشة : يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ، قال : إن الأمر أعظم من أن ينظر بعضهم إلى بعض»(٣٧) .

وفى مسند الإمام أحمد ، عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟.

قال : «يا عائشة، أمّا عند ثلاث فلا : أمّا عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا ، وأمّا عند تطاير الكتب، إما يعطى كتابه بيمينه وإما بشماله فلا ، وأما عند المرور على الصراط حتى ينجو إلى الجنة أو يقع فى النار فلا »(٣٨) .

وعند التأمل نجد أنه يمكن الجمع بين الرأيين الأول والثانى ، بأن أهوال القيامة تبدأ مع أشراط الساعة ، وتستمر فى الموقف والحساب والميزان والصراط وجميع مشاهد القيامة ، نسأل الله السلامة ودخول الجنة ، والنجاة من النار . اللهم آمين .

★ ★ ★

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ ﴾

سبب النزول :

أخرج ابن أبى حاتم أن هذه الآيات نزلت فى النضر بن الحارث، وكان جدلا يقول : الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين ، ولا يقدر اللهُ على إحياء من بلى وصار ترابًا .

التفسير :

٣ - وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ .

وبعض الناس يجادل فى وجود الله ، وفى قدرته على البعث والحشر والجزاء ، ويجادل فى صفات الله بغير بينة أو دليل ، وإنما اتباعا للشيطان والهوى ، والنزوة والكبرياء الباطلة ، ورغم أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث ، إلا أنها عامة فى كل من يجادل فى الله وصفاته ، وما يجب له وما يجوز بغير علم .

وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ .

المريد : المتجرد للفساد ، العارى عن الخير ، فهو فى جبروته وظلمه وعناده ، تابع للشيطان ، الذى يوسوس له بالشرك ، ويزين له عبادة الأصنام ، وشرب الخمر ولعب الميسر ، ونحو ذلك .

٤ - كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ .

فهو حتم مقدور أن يضل تابعه من الهدى إلى الضلال ، ويخرجه من النور إلى الظلمات ، ويرشده إلى الضلال ، ويزين له الغواية والفجور ، وسلوك سبيل المعاصى والآثام ، التى توبقه فى جهنم وبئس القرار .

وخلاصة ذلك :

أنه يُضلُّهُ فى الدنيا ، ويقوده فى الآخرة إلى عذاب السعير ، والأصل فى الهدى أن يكون فى الخير ، بيد أن القرآن تهكّم بهذا الكافر ، وبقائده وهو الشيطان ، فسمّى قيادته هداية وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ . فيالها من هداية ، إنها قيادة إلى الضلال المهلك المبيد .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ ﴾

المفردات :

الريب : الشكُّ .

النطفة : أصل النطفة الماء العذب ، ويراد بها هنا : ماء الرجل .

العلقة : القطعة الجامدة من الدمّ .

المضـغـة : القطعة من اللحم بقدر ما يُمضغ .

الأجل المسمى: هو حين الوضع .

الطـفـل : يكون للواحد والجمع .

الأشـد : القوة .

أرذل العمر : أدنؤه ، وأردؤه .

هـامـدة : ميتة يابسة ، من قولهم : همدت الأرض ، إذا يبست ودرست ، وهمد الثوب : بلى .

اهـتـزت : اهتز نباتها وتحرَّك .

ربـت : ازدادت وانتفخت ، لما يتداخلها من الماء والنبات .

زوج : صنف .

بـهـيـج : حسن سار للناظرين .

الحـق : الثابت الذى يحق ثبوته .

وأنه يحيى الموتى : يقدر على إحيائها ، كما أحيا النطفة والأرض الميتة .

وأنه على كل شىء قدير : لأن قدرته لذاتها ، فمن قدر على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على إحياء كلها .

لا ريب فيها : لا شك .

تمهيد :

بينت الآيات مراحل نموّ الجنين فى بطن أمه ، والمراحل التى يمر بها الطفل ، من ولادته إلى أن يصبح فتى ثم ناشئا ، ثم شابا ، ثم رجلا ، ثم كهلا ثم شيخا ... وبعض الناس يموت قبل أن يدرك هذه المراحل ، وبعضهم يصل إلى أرذل العمر ، فتضعف الذاكرة ، ويغلب النسيان ، وما يحدث للإنسان ، يحدث للأرض الهامدة ، إذا نزل عليها الماء ، فتجد فيها الحياة والبهجة ، والزروع الناضرة البهيجة ، فالله سبحانه وتعالى حق ، وهو الخالق الرازق ، المحيى المميت ، والقيامة حق ، والبعث حق ، وكذلك الحساب والجزاء .

التفسير :

٥ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ...

تأتى هذه الآية ، لترد على المشركين فى إنكارهم للبعث ، فتضرب أمامهم مثالين ، هما حياة الإنسان وحياة الزرع ، ووراء كل ذلك يد القدرة ، ومعنى الآية: يا أيها الناس إن كنتم فى شك من بعثنا لكم بعد الموت،

ففى خلقنا لكم الدليل على قدرتنا على البعث ، فلقد خلقنا أصلكم من تراب ، وهو آدم عليه السلام ، ثم جعلنا منه نطفة هى ماء الرَّجُل ، الذى ينطلق إلى الرحم ، وبه ملايين الحيوانات المنوية ، ثم يتم الإخصاب بين حيوان واحد من الرَّجل ، وحيوان واحد من المرأة ، حيث يتم تلقيح الخلية ، فتصبح بعده قطعة جامدة ، تعلق بجدار الرحم ، وتسمى علقة ، لشدة تعلقها وتشبثها بجدار الرحم ، ثم تتحول العلقة إلى قطعة من اللحم ، مصورة فيها معالم الإنسان ، وكل صفاته من اللون بدرجاته ، والطول أو القصر ، والذكاء ونسبته، وسائر الأجهزة الهضمية، والعصبية ، واللمفاوية ، والحسية ، والإدراكية ، أو غير مصورة وهى السقط الذى لم تنفخ فيه الروح.

ويحتمل أن المعنى ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .

المخلقة : التامة الخلقة السالمة من العيوب .

غير المخلقة : الناقصة فى العقل أو الذكاء أو الجوارح .

وقيل مخلقة : نفخت فيها الروح .

وغير مخلقة : لم تنفخ فيها الروح .

لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ . قدرتنا القادرة ، وأن وراء خلق الإنسان ، قدرة كاملة ، حيث تجعل أصغر الحيوانات المنوية ، يحمل خصائص كاملة من الوراثة .

أو لنبين لكم قدرتنا على الإبداع ، والتدرج فى التكوين .

وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا .

ونسقط من الأرحام ما نشاء ، ونبقى فيها ما نشاء ، حتى تكمل مدة الحمل ، ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا ، ثم نرعاكم لتبلغوا تمام العقل والقوة ، ومنكم بعد ذلك من يتوفاه الله ، ومنكم من يمدّ له عمره حتى يصير إلى الهرم والخرف ، فيتوقف علمه وإدراكه للأشياء ، ومن بدأ خلقكم بهذه الصورة البديعة المتكاملة ، لا تعجزه إعادتكم .

وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ .

وأمر آخر يدلكم على قدرتنا ، هو أنك ترى الأرض قاحلة يابسة ، فإذا أنزلنا عليها الماء ، دبَّت فيها الحياة ، وتحركت وزادت ، وارتفع سطحها بما تخلله من الماء والهواء ، وأظهرت من أصناف النباتات ما يروق

منظره ، ويبهر حسنه ، وتبتهج لمرآه ، والآية تأخذ بأيدينا إلى إبداع القدرة الإلهية ، فى تكوين الجنين فى بطن أمه ، ومراحل حياته ، ووجوده فى هذه الدنيا ، ونهايته وموته ، وكذلك الأرض وخصوبتها ، وحياتها بالمطر والنبات ، فإن الذى أحيا الإنسان ، وأحيا الأرض ، قادر على البعث والحشر والجزاء والثواب والعقاب، قال تعالى :وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ. (الروم : ٢٧)

فى أعقاب الآية

أشارت الآية إلى سبع مراحل يمرّ بها الإنسان :

١ – أصلنا من التراب ، والمنىّ متولد من الماء والتراب والغذاء .

٢ – النطفة وهى الحيوان المنوى من الذكر الذى يلقح البويضة ، عند الأنثى ، ثم يستقر بعد ذلك فى الرحم .

٣ – العلقة التى تعلق بجدار الرحم .

٤ – المضغة المخلَّقة التامة الحواس ، فتصير تامة الصورة لمعالم الجسم ، أو ناقصة التصوير والمعالم .

جاء فى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال : «يجمع خلق أحدكم فى بطن أمّه، أربعين يومًا نطفة ، ثم أربعين يومًا علقة ، ثم أربعين يومًا مضغة ، ثم يبعث الملك فينفخ فيه الروح»[٣٩] .

وقد اتفق العلماء على أن نفخ الروح الحركية فى الجنين ، يكون بعد مائة وعشرين يومًا ، أى بعد تمام أربعة أشهر .

قال ابن عباس :

وفى العشر بعد الأشهر الأربعة ينفخ فيه الروح ، فذلك عدة المتوفى عنها زوجها ، أربعة أشهر وعشرة أيام.

٥ – **ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً** . حيث ينزل الجنين طفلاً مكتمل الحواس ، صالحا للنمو شيئًا فشيئًا .

٦ – **ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ** . تتكامل القوة البدنية والعقلية ، حتى يصل الإنسان إلى حد الكمال فى عنفوان الشباب، مرورًا بمرحلة الطفولة والناشئة والفتوة ثم الشباب .

٧ – مرحلة الشيخوخة والوصول إلى أرذل العمر والضعف ، ومن الناس من يموت قبل هذه المرحلة ، أو قبل المراحل السابقة عليها .

قال تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ . (الروم : ٥٤) .

فالله سبحانه القادر على تكوين الجنين ، وتطوير خلقته فى بطن أمه ، وتطوير حياته من الضعف إلى القوة ثم الضعف ، هو سبحانه القادر على إعادة خلقه وإحيائه بعد موته ، كما يحيى الأرض بعد موتها وهو على كل شيء قدير .

وقريب من هذا المعنى ما ورد فى صدر سورة المؤمنون قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ . (المؤمنون : ١٢ – ١٦) .

٦ – ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

أى : ذلك المذكور الذى بينته لكم ، من خلق الإنسان والحيوان ، والنبات ، وانتقال كل مخلوق من حال إلى حال ، بسبب أن الله هو الحق الثابت ، الذى لا شك فيه ، وهو القادر على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم ، كما أحيا الجنين فى بطن أمه ، وكما أحيا الأرض بعد موتها ، وهو سبحانه على كل شيء قدير ، فلا يعظم عليه شيء ، لأنه الإله الحق ، وما سواه كالأصنام لا ينفع ولا يضر ولا يسمع ولا يجيب ، وتأتى هذه الآية ، بمثابة الدليل والتأكيد ، على قدرة الله على البعث والحشر ، وعلى امتداد قدرته لتشمل كلَّ شيء، حيث كان كفار مكة ينكرون البعث ، ويستكثرون عودة الأجسام بعد موتها وتفتتها ، وشمول البلى لها ، فبين القرآن أن قدرة الله لا حدود لها ، وأن الله الذى أوجد الإنسان من العدم ، قادر على إعادة خلقه ، قال تعالى: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. (يس : ٧٨ ، ٧٩)

٧ – وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ .

أى : ذلك الذى تقدم من خلق الإنسان ، وإنبات الزرع ، شاهد على قدرة الله تعالى ، وعلى أن الساعة التى وعدكم بها آتية لا شك فيها ، حيث يبعث الله الموتى ويخرجهم من قبوهم ، أحياء إلى الموقف للحساب .

وخلاصة ذلك :

أن القادر على البدء قادر على الإعادة ، فالإنسان يمر بمراحل متعددة فى هذه الحياة ، لكنها ليست دار جزاء ، فلابد من حياة أخرى يستكمل الإنسان بها رحلته ، وتحقق التوازن والتكامل مع الحياة الدنيا ، وتجعل هذا الخلق لحكمة عليا ، هى الابتلاء والاختبار فى الدنيا ، ثم الحساب والجزاء فى الآخرة ، ولذلك فالساعة آتية لا شك فى قدومها ، والله سيبعث الموتى من قبورهم للحساب والجزاء ، حتى تكتمل الحكمة الإلهية من هذا الخلق ، فأفعاله تعالى مبنية على الحكم الباهرة ، والغايات السامية .

قال تعالى : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ . (المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦) .

★ ★ ★

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) ﴾

المفردات :

الهدى : الاستدلال والنظر الصحيح ، الموصل إلى المعرفة .

الكتاب المنير : الوحى المظهر للحق .

ثانى عطفه : لاويا جانبه متكبرًا مختالاً ، ونحوه تصعير الخدّ ، وليّ الجيد .

الخزى : الهوان والذلّ .

عذاب الحريق : عذاب النار التى تحرق داخليها .

التفسير :

٨ - وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ .

تكلم فى الآية الثالثة عن الأتباع والضعفاء المقلّدين ، وتكلم فى هذه الآية عن القادة المتجبرين مثل أبى جهل ، وقد أنذره الله بالذل والهوان فقتل يوم بدر ، أو مثل النضر بن الحارث ، الذى قتل أيضًا يوم بدر ، ومعظم المفسرين على هذا كالآية الثالثة .

ومعنى الآية :

وبعض الناس يجادل فى الله تعالى وصفاته وتوحيده وأفعاله ، بلا عقل صحيح ولا نقل صريح بل بمجرد الرأى والهوى ، فهو لا يستند إلى المعلومات الصحيحة ، ولا إلى هدايات السماء ، ولا إلى كتب الوحى والرسالات التى تنير عقله وقلبه ، وتوضح له سبيل الرشاد .

٩ – ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ .

هذا نموذج للبطر والكبر والغطرسة ، لقد تحدثت الآية الثامنة عن جهله بالعلوم ، وبهدايات السماء ، وبكتب الله .

ثَانِيَ عِطْفِهِۦ .

أى : أمال جانبه كبرًا وتيها ، كما قال تعالى فى وصية لقمان لابنه : وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ... (لقمان : ١٨). أى : لا تتكبر عليهم تيها وعجبا .

لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ .

فهو جاهل مغرور متكبر يرشد الناس إلى الضلال ، ولم يكتف بإضلال نفسه ، بل يحاول إضلال الناس وصرفهم عن طريق الهدى والرشاد ، وحملهم إلى طريق الكفر والفساد .

لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ .

إن عقاب هذا المتكبر هو خزى الدنيا وهوانها ، فلابد أن ينزل به ما يستحقه ولو بعد حين ، وقد قتل أبو جهل يوم بدر ، وكذلك النضر بن الحارث ، وغيرهما من صناديد الشرك ، أما فى الآخرة فإنه يذوق عذاب الإحراق ، ويصطلى بنار جهنم .

١٠ – ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ .

أى : تقول له الملائكة : إن هذا الخزى والعذاب ، بسبب ما قدمت من الكبر والضلالة ، فأنت تستحق العذاب والإحراق فى نار جهنم ، وهذا العذاب عقاب عادل مناسب لك ، والله تعالى لا يظلم مثقال ذرة ، فهو سبحانه عادل رحيم ، يجازى على السيئات ، ويضاعف الحسنات .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا . (النساء : ٤٠) .

قال سبحانه فى مثل هذا المعنى : خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ * ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ * إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ . (الدخان : ٤٧ – ٥٠) .

وقال سبحانه وتعالى : لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى . (النجم : ٣١) .

★ ★ ★

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) ﴾

المفردات :

على حرف : على طرف لا ثبات له فيه .

خير : سعة فى المال وكثرة فى الولد .

فتنة : بلاء ومحنة فى نفسه أو أهله أو ماله ، فِعله : فَتَنَهُ يفتنه فتنة : أى : اختبره وعذّبه .

انقلب على وجهه : ارتد وكفر ، وهو من الكنايات .

خسر الدنيا والآخرة : ضيَّعهما ، إذ فاته فيهما ما يسرُّه .

يدعو من دون الله : يعبد من دون الله .

المولى : الناصر .

العشير : الصاحب والمعاشر .

تمهيد :

تفيد هذه الآيات أن من الناس فريقًا ألف النفاق والتظاهر ، فهو يدخل فى الإسلام من باب التجربة، والنظر إلى المكاسب التى تصيبه ، فإذا كثرت زراعته وربح مالا ، ورزق ولدًا ذكرًا، وأصاب رزقًا واسعًا، قال: هذا دين خير ؛ فاستمر فيه ، وإن اختبره الله بالفقر أو المرض ، أو موت ابن له أو حبيب ، قال: هذا دين شرٌّ؛ فارتدَّ عنه .

التفسير :

١١ - وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ .

ومن الناس من يعبد الله متشككا متخوفًا من الإسلام ، فهو أشبه بالجندى الذى يكون فى طرف الجيش ، إذا أصابت الجيش هزيمة كان أوّل الفارّين ،وإذا أحرز الجيش نصرا ، انضم إليه وأكد تمسكه بالاستمرار معه .

فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ .

روى القرطبى عن ابن عباس قال :

كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلامًا ، وأنتجت خيله ، قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء . وقد أخرجه البخارى فى صحيحه ، وورد ذلك فى مختصر تفسير ابن كثير .

فهو رجل نفعى كأنما العقيدة عنده سلعة ، تُعرض فى حساب الربح والخسارة ، فإذا استفاد مغنمًا من الدنيا ، ثبت على إسلامه ، وإذا امتحنه الله فى ماله أو ولده أو نفسه : ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ . أى ارتد عن الدين وعاد إلى الكفر ، وهى كناية تصوّر هذا الإنسان كالفارّ من الميدان ، قد ولى وانتكس ، وارتد بوجهه مدبرا وعاد من حيث جاء .

خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ .

فلم يربح غنيمة ولا نصرًا ، ولا تفوقًا فى قتال عدو ، أو جهاد نفس ، بل عاد من حيث أتى ، فدخل فى الإيمان قليلا ثم انهزم وارتدَّ ، فخسر موقعه فى الدنيا ، وخسر أيضًا ثوابه فى الآخرة ، لأن الله يعطى الجزاء للمخلصين الصادقين ، وهو فاسد العقيدة ، يتظاهر بالإسلام ، وقلبه غير راسخ فى دين الله .

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ .

هذا هو الخسران الواضح الذى لا خسران مثله .

قال ابن كثير : هذه هى الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة .

١٢ – يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ .

أى : يعبد من دون الله آلهة أخرى كالأصنام والأوثان المخلوقين ، الذى لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ، فضلاً عن أن يملكوه لغيرهم .

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ .

ذلك هو الضلال الموغل فى الضلالة ، البعيد جدًا عن طريق الصواب ، شبه حالهم بحال من أبعد فى التيه ضالا عن الطريق .

١٣ – يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ .

إن بعض الناس عبد الفراعنة ، فقد تأله فرعون وقال : أَنَاْ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ . (النازعات : ٢٤) .

وقال : مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى . (القصص : ٣٨) .

وهذا العابد غلَّب النفع المادِّى على النفع الأخروى ، فعبد من له جاه أو مال أو مملكة ، ليستفيد فى الدنيا ، مع أن هذا المعبود ضرره أكثر من نفعه ، فنفعه فى الدنيا قليل ، ومهما أغدق من النعم على من عبده فى الدنيا ، فمتاع الدنيا قليل ، بالنسبة إلى العذاب الأليم والضرر البليغ الذى ينتظر من آثر الدنيا على الآخرة، وفى يوم القيام يصيح العابد فى وجه من عبده ، ويقول له : بئس الولىّ أنت ، وبئس الصاحب أنت ، فقد خذلتنى وتركتنى ألقى مصيرى .

وخلاصة ذلك : أىُّ عشير هذا ، وأىّ ناصر ذاك ، الذى لا ينفع ولا ينصر من يعاشره ؟ والله لبئس العشير ، ولبئس النصير .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير :

١٤ – إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

لما ذكر فيما سبق أهل الضلالة ، ذكر فى هذه الآية أهل السعادة ، فالله تعالى يدخلهم جنات وبساتين تجرى من تحتها أنهار اللبن والعسل والماء العذب النظيف ، إن الله تعالى يفعل ما يشاء ، فيكافىء الطائع بفضله ، ويعاقب العاصى بعدله ، وهو سبحانه : فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ . (البروج : ١٦) ، فلا رادَّ لأمره ، ولا معقّب لإرادته ، لأنه لا إله سواه .

★ ★ ★

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

بسبب : بحبل .

إلى السماء : إلى سقف بيته ، وكلُّ ما علاك سماء .

ثم ليقطع : ثم ليختنق ، من قطع ، بمعنى اختنق – كذا فسره ابن عباس – ولعلهم أطلقوا القطع عليه لما فيه من قطع النَّفس ، وهذا كقولهم فى المثل العامى : (اشرب البحر) للدلالة على عدم الفائدة من الفعل.

فلينظر : فليقدر فى نفسه النظر .

كيده : فعله .

ما يغيظ : أى غيظه ، والمعنى : هل يذهبن كيده فى عدم نصرة النبى ﷺ غيظه ، أى : فليختنق غيظًا منها فلابد منها .

التفسير :

١٥ – مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ .

أى : من كان يظن أن الله لن ينصر محمدًا ﷺ فى الدنيا والآخرة ، أو لن ينصر دينه وكتابه ورسالته ورسوله ، فليذهب فليقتل نفسه ، إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة .

والمقصود : إن الله ناصر دينه وكتابه ورسوله لا محالة ، فليفعل أهل الغيظ ما شاءوا .

وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى : **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ** . (غافر : ٥١ ، ٥٢) .

قال فى التفسير الوسيط بإشراف الأزهر ، ما خلاصته :

إن الله ناصر رسوله ، ومن كان يغيظه هذا النصر فليبالغ فى استفراغ الجهد ، فغاية أمره خيبة مساعيه ، وقد وضع مقام هذا الجزاء قوله تعالى : ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ . لغرض التحدى والتهكم .

ومعناه : فليمدد بحبل إلى سقف بيته ثم ليختنق بهذا الحبل ، الذى وضعه غلاً فى عنقه ، فلينظر وليتأمل : هل يشفيه من الغيظ قتله نفسه حسرة ، على نصرة الله لرسوله ؟ ا هـ .

﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ .

قال عطاء الخراسانى : فلينظر هل يشفى ذلك ، ما يجد فى صدره من الغيظ .

وقال أبو جعفر النحاس :

من أحسن ما قيل فى هذه الآية أن المعنى : من كان يظن أن الله لن ينصر محمدًا ، وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذى أوتيه ، فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ، ثم ليقطع النصر إن تهيأ له ذلك ، ثم لينظر هل يذهبن كيده وحيلته ما يغيظه من نصر النبى ﷺ ؟ والفائدة فى الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هذا ، لم يصل إلى قطع النصر . ا هـ .

١٦ - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ .

أى : ومثل ذلك الإنزال البليغ الواضح : أنزلنا القرآن آيات بينات الدلالة على معانيها الحكيمة ، وتوجيهاتها السديدة .

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ .

وإرادة الله قد قررت سبق الهدى والضلال ، فمن طلب الهدى تحققت إرادة الله بهدايته ، وفق سنته ، وكذلك من طلب الضلال ، إنما يفرد هنا حالة الهدى بالذكر ، بمناسبة ما فى الآيات من بيان يقتضى الهدى فى القلب السليم .

★ ★ ★

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

المفردات :

الذين هادوا : اليهود .

الصابئين : قوم يعبدون الملائكة ، ويصلُّون إلى القبلة ، ويقرءون الزبور ، وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى : أن الصابئة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام ، ويقال لمقابليهم الحنفاء ، وعمدة مذهبهم تعظيم النجوم ثوابتها وسيَّاراتها .

المجوس : قوم يعبدون الشمس والقمر والنار ، ويقولون : إن هناك إلهين اثنين للخير والشر ، وهما النور والظلمة .

والذين أشركوا : عبدة الأصنام والأوثان ، فالأديان ستة : خمسة للشيطان ، وواحد للرحمان .

يفصل بينهم : يقضى بإظهار المحق من المبطل .

شهيد : عالم بكل الأشياء ومراقب لها .

التفسير :

١٧ - إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ .

إن علم الله ومعرفته ورؤيته ومشاهدته شاملة لكل شىء ، وهو بكل شىء عليم ، وهو سبحانه مطلع وشاهد لأحوال هذه الفرق كلها ، وسيجازى كل فرقة بما تستحق ، فيكافئ الذين آمنوا بالله بدخول الجنة ، ويعاقب الذى كفروا بالله ، بدخول النار ، فإنه تعالى شهيد على أعمالهم ، حفيظ لأقوالهم وأفعالهم ، عليم بسرائرهم ، وما تكن ضمائرهم .

★ ★ ★

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾

المفردات :

ألم تر : ألم تعلم .

يسجد له : يخضع له بما يراد منه ، وهو السجود بالتسخير والانقياد لارادته تعالى ، وهناك سجود بالاختيار وهو خاص بالإنسان ، وبه يستحق الثواب ، وسجود بالتسخير والانقياد لارادته سبحانه ، وهو دال على الذلة والافتقار إلى عظمته جلَّت قدرته .

من فى السماوات : هم الملائكة .

ومن فى الأرض : هم الإنس والجن .

وكثير من الناس : ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة ، فهو فاعل فعل مضمر .

وكثير حق عليه العذاب : وكثير منهم ثبت له العذاب وهم الكافرون .

ومن يهن الله : يجعله شقيا .

فما له من مكرم : فما له أحد يكرمه ويسعده .

إن الله يفعل ما يشاء : من الإهانة والإكرام .

تمهيد :

تفيد الآية أن جميع العوالم خاضعة لقدرة الله ، وسلطانه طوعا وكرها .

التفسير :

١٨ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ .

ألم تشاهد أيها العاقل أن هذا الكون بكل ما فيه ، خاضع لله خضوع القهر والغلبة ، فقد سخر الله هذا الكون وأبدع نظامه ، وهو دال على وجود الخالق وعظمته ، ويسجد لله من فى السماوات : من الملائكة والأبراج والأفلاك وغيرها ، ومن فى الأرض : من الإنسان والجن وغيرهما ، ويسجد له أيضًا : الشمس فى

مسارها وحركتها ، والقمر فى سيره واختفائه ، والنجوم فى ظهورها واختفائها ، والجبال تسجد خاضعة ، والشجر يسجد لله ، والحيوانات تسجد سجود تذلل وخضوع ، وكثير من الناس المؤمنين يسجدون لله سجود عبادة ، عن عقل وإرادة ، وكثير من الناس كفار جحدوا عبادته والسجود له ، فحق عليهم العذاب الدنيوى بالشقاء ، والأخروى فى جهنم وبئس المصير .

ومن يهن الله بإبعاده عن الهداية ، والطمس على قلبه ، فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ . فلن يستطيع أحد إسعاده أو إكرامه.

إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ .

مما تقتضيه حكمته وعدله ، فلا معقب لحكمه ، ولا معارض لمشيئته .

ملحق بتفسير الآية

– أفرد الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب بالذكر ، مع دخولها فى عموم من يسجد لله تعالى ، فى السماوات والأرض ، لأن الناس عبدوها مع الله ، مع أنها مخلوقة له ، وخاضعة لأحكامه .

قال تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . (فصلت : ٣٧) .

وفى الصحيحين عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : «أتدرى أين تذهب هذه الشمس؟» قلت : الله ورسوله أعلم . قال : «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعى من حيث جئت»[٤٠].

وهذا الحديث يدل على خضوع الشمس لأمر الله ، فإنها تستأذن عند الغروب أن تسجد لله فيؤذن لها، ثم تستأذن الله فى الشروق فيؤذن لها ، وعند قيام الساعة تستأذن فى الشروق أو الغروب فلا يؤذن لها ، فذاك قيام الساعة وطلوع الشمس من مغربها ، وهو رمز لاختلال نظام الكون ونهاية الحياة الدنيا .

وقد أورد ابن كثير فى تفسير هذه الآية طائفة من الأحاديث النبوية من بينها ما يأتى :

أخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجة ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله ، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن الله عز وجل إذا تجلّى لشىء منْ خلقه خشع له»[٤١] .

والكسوف والخسوف ظاهرتان طبيعيتان، تدلان على أن كل شىء فى هذا الكون له نظام محكم مرتب، سخره الله ويسره، وهذا رمز تجلّى الله لهذه المخلوقات ، أى تقديره لها وتسييره لها بالنظام الدقيق ، وأما الجبال والشجر فسجودهما بفىء ظلالهما عن اليمين والشمائل .

– روى الترمذى وابن ماجة وابن حبان ، عن ابن عباس قال :

جاء رجل فقال : يا رسول الله إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم كأنى أصلى خلف شجرة ، فسجدتُ ، فسجدت الشجرة لسجودى ، فسمعتها وهى تقول : اللهم اكتب لى بها عندك أجرا ، وضع عنى بها وزرًا ، واجعلها لى عندك ذخرًا ، وتقبلها منّى كما تقبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس : فقرأ رسول الله ﷺ سجدة ثم سجد ، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة[٤٢] .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد لها ؛ اعتزل الشيطان يبكى يقول : يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار»[٤٣] .

★ ★ ★

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾

المفردات :

خصمان : الخصم المخاصم ، مذكرًا أو مؤنثًا ، مفردًا أو مثنى أو جمعا ، وهو من له رأى غير رأيك فى موضوع ما ، وكل منهما يحاجّ صاحبه .

اختصموا فى ربهم : وقع الجدال بينهم فى شأن ربهم .

قطعت لهم : قدّرت لهم .

الحميم : الماء الحار ، الذى بلغت حرارته أقصى الغاية .

يصهر به : يذاب به .

مقامع : جمع مِقمعة كمكنسة ، وهى الأعمدة من الحديد يضرب بها .

عذاب الحريق : عذاب الاحتراق ، ويكون بالغليظ من النار .

من أساور : جمع أسورة ، وهى جمع سوار ، فالأساور جمع الجمع ، وهى حلية تلبسها النساء فى معاصمها .

ولؤلؤا : هو ما يستخرج من البحر من جوف الصَّدف .

الحرير : هو المحرم لبسه على الرجال فى الدنيا .

الطيب من القول : ما يقع فى محاورة أهل الجنة بعضهم بعضا .

صراط الحميد : الصراط المحمود فى آداب المعاشرة والاجتماع .

سبب النزول :

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما ، عن أبى ذر قال : نزلت هذه الآية : ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾. فى حمزة وعبيدة وعلى بن أبى طالب ، وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة ، أى الفريقين اللذين قاما بالمبارزة ، فى بداية معركة بدر[٤٤] .

وأخرج الحاكم عن على بن أبى طالب قال : فينا نزلت هذه الآية ، وفى مبارزتنا يوم بدر .

وأخرج الحاكم من وجه آخر ، عن على قال : نزلت فى الذين بارزوا يوم بدر : حمزة وعلىّ وعبيدة بن الحارث ، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس : أنها نزلت فى أهل الكتاب .

قالوا للمؤمنين : نحن أولى بالله منكم ، وأقدم كتابًا ، ونبينا قبل نبيكم ، فقال المؤمنون : نحن أحق بالله منكم ، آمنا بمحمد وبنبيكم ، وبما أنزل الله من كتاب .

وقد اختار ابن جرير الطبرى وابن كثير : أن المراد بهذه الآية : الجدال بين المؤمنين والكافرين ، وهذا الرأى يشمل الأقوال كلها ، وتنتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل ، والكافرين يريدون إطفاء نور الإيمان ، وخذلان الحق وظهور الباطل[٤٥] .

ولأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فحمل الآية على أنها جدال بين المؤمنين والكافرين أولى . لأنه يمكن أن يندرج فيه ، النقاش بين المسلمين وأهل الكتاب ، وأن تندرج تحته المبارزة بين المسلمين والكافرين يوم بدر ، وكل ما يثار من جدال بين المؤمنين والكافرين إلى يوم الدين .

تمهيد :

تتحدث الآيات عن جزاء الكافرين فى العذاب ، وعن جزاء المؤمنين فى النعيم .

التفسير :

١٩ - هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ .

تنازع الكافرون والمؤمنون فى الله وصفاته وآلائه ، وما يجب له من الكمالات ، وما يستحيل عليه من النقص . أما الكافرون فهم فرق متعددة ، منهم من نسب لله ولدًا ، ومنهم من عبد النجوم أو الشمس أو النار أو الأصنام والأوثان ، وهذا الفريق كله سيدخل جهنم ، وتفصَّل لهم ثياب من النار ، ويصبّ الماء الحارّ شديد الغَليان فوق رءوسهم ، فينفذ من الجمجمة إلى بطونهم ، فيحرقهم من الباطن كما يحرقهم من الظاهر ، وهذه ألوان من العذاب مرعبة مفزعة ، والتعبير بـ ثِيَابٌ للإشارة إلى تراكم طبقات النار المحيطة بهم ، وكون بعضها فوق بعض ، وفى آية أخرى يقول القرآن الكريم : سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ * لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ . (إبراهيم : ٥٠ ، ٥١) .

فالعذاب متنوع ، والذلّ ظاهر ، والهوان ملازم لأهل النار جزاء كفرهم وجحودهم .

٢٠ - يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ .

أى : إن الحميم يصب فوق رءوسهم؛ فينزل إلى باطنهم فيحرقهم من الباطن كما يحرق جلودهم من الظاهر.

قال الإمام الفخر الرازى :

والغرض أن الحميم إذا صبّ على رءوسهم كان تأثيره فى الباطن مثل تأثيره فى الظاهر ، فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم .

قال تعالى : وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ . (محمد : ١٥) .

٢١ - وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ .

ولهم أعمدة من الحديد يضربون بها من خزنة جهنم ، على سبيل التعذيب والإهانة والإذلال .

روى الإمام أحمد ، أن رسول الله ﷺ قال : «لو وضعت مقمعةٌ منها فى الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلُّوها» [٤٦].

٢٢ - كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ .

إن العذاب فى جهنم شديد أليم ؛ فتهوى بهم جهنم وترتفع .

قال الحسن :

إن النار تضربهم بلهبها فترفعهم ، حتى إذا كانوا فى أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا [٤٧] .

إن العذاب له ألوان متعددة منها الحسىّ ومنها المعنوى ، ومن هذا العذاب المعنوى شدة الغم والحزن، وكلما أراد أهل النار الخروج منها من شدة غمها ردُّوا إلى أماكنهم فيها ؛ ويُقال لهم من خزنة جهنم: وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ . أى : ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذى كنتم به تكذبون .

هذه ألوان العذاب الحسى والمعنوى : فالثياب من نار ، والحميم الذى اشتد غليانه يصب فوق رءوسهم، فيذيب أمعاءهم وجلودهم ، والسياط الحديدية تقمعهم وتذلهم ، والهوان والغم يحيط بهم ، فإذا حاولوا الخروج من النار أعيدوا فيها ، وقيل لهم توبيخًا وإذلالا : ذوقوا عذاب الإحراق فى جهنم ، عقوبة على كفركم وعنادكم.

ومن شأن القرآن أن يقرن بين عذاب الكافرين ونعيم المؤمنين ، تسرية للنفوس ومقابلة بين الأضداد، وبضدها تتميز الأشياء .

٢٣- إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ .

تصف الآية نعيم الجنة ، ومن أعلى ألوان هذا النعيم ، أنَّه من عند الله ؛ فالدخول فى الجنة بفضل الله ورحمته ومنته ونعمائه .

وهذا معنى : إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ ... (الحج : ١٤) .

فهم قد آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة ، والله سبحانه تفضّل عليهم فأدخلهم الجنان والبساتين ؛ التى تجرى الأنهار من تحتها ، وتلبسهم الملائكة أساور من ذهب وأساور من لؤلؤ ؛ للتزين والتجمل ؛ كما يلبسون الحرير فى الجنة ، لأن الله حرّمه على الرجال فى الدنيا ؛ وأحله للنساء ، فيلبس المؤمنون حريرا ناعما حسن اللون والصنف ، أغلى وأعلى كثيرا من حرير الدنيا .

٢٤- وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ .

لقد وفق الله أهل الجنة إلى الكلام الحسن ، والردّ الجميل ، وذكر الله وشكره ، وحمد آلائه ، كما هداهم إلى الصراط المستقيم الذى يوصلهم إلى الجنة .

وهناك رأيان فى تفسير هذه الآية :

الأول : أن ذلك فى الدنيا ؛ أى : هداهم الله إلى كلمة التوحيد فى الدنيا ؛ وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وذكر الله وطاعته ، والكلام اللين الحسن ؛ كما هداهم إلى الإسلام والإيمان والطريق المحمود.

الثانى : أن ذلك فى الآخرة ؛ وهذا هو الرأى الأرجح ، لأن السياق فى الحديث عن أهل الجنة ، فهم يشكرون الله على ذهاب الحزن عنهم ، وعلى دخولهم الجنة ، وهم يذكرون الله حيث يلهمهم الله ذكره كما يلهمهم التنفس ، قال تعالى : وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . (فاطر : ٣٤ ، ٣٥) .

قال الشوكانى فى تفسير فتح القدير :

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ .

أى : أرشدوا إليه ، قيل : هو لا إله إلا الله ، وقيل : القرآن ، وقيل : هو ما يأتيهم من الله من بشارات ، وقد ورد فى القرآن ما يدّل على هذا القول المجمل هنا ، وهو قوله سبحانه : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ * وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ . (الزمر : ٧٣ ، ٧٤) .

وقال سبحانه وتعالى :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ . (الأعراف : ٤٢ – ٤٤) .

وهذه الآيات تؤيد رأى من يرى أن أهل الجنة لهم عمل هو : الذكر ، والحمد لله ، والشكر لله ، ومناقشة أصحاب النار ، وهى أعمال كلها تناسب نعيم الجنة ، فى استمرار الترقى والعبادة والشكر والذكر : وهذه العبادة تصدر منهم كما يصدر التنفس أى : بدون تكلف أو إجهاد .

★ ★ ★

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾

المفردات :

المسجد الحرام : المراد به : مكة ، وعبّر بالمسجد الحرام عن مكة ، لأنه المقصود المهم منها .

العاكف : المقيم .

البادى : الطارئ القادم عليها .

الإلحاد : العدول عن الاستقامة .

بظلم : بغير حق بأن ارتكب منهيا عنه .

نذقه من عذاب أليم : يتلقى بعض العذاب المؤلم ، وهو جواب الشرط لـ مَن يُرِدْ ، ويفهم خبر إن من قوله : نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .

سبب النزول :

قال ابن عباس :

نزلت هذه الآية فى أبى سفيان بن حرب وأصحابه ؛ حين صدّوا رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن المسجد الحرام ، وقد كره عليه الصلاة والسلام أن يقاتلهم ، وكان محرما بعمرة، ثم صالحوه على أن يعود فى العام المقبل .

التفسير :

٢٥- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .

تعرض الآية النزاع بين المسلمين والكفار ؛ وكان رسول الله ﷺ قد رأى فى منامه أنه دخل المسجد الحرام معتمرًا، فأخبر أصحابه بذلك، وساق الهدى ، فلما اقترب من مكة منعته قريش من دخول مكة معتمرا، ثم تم الصلح بين رسول الله ﷺ وأهل مكة ؛ على أن يرجع هذا العام ، ثم يأتى فى العام القادم معتمرا ؛ كما اتفقا على وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين ، ثم فُتحت مكة فى العام الثامن من الهجرة .

وتصور الآية عنت المشركين فتقول : إن الذين كفروا بالله ورسوله ، ويمنعون الناس عن الدخول فى الإسلام ، كما يمنعون المسلمين من أداء العمرة حول المسجد الحرام ، مع أن هذا المسجد منطقة أمان ،

والناس جميعا يعظمونه ويحجون إليه ويعتمرون ، سواء أكانوا عاكفين أى : مقيمين من أهل مكة ، أو قادمين من البادية ؛ كل هؤلاء يحق لهم أداء المناسك ، وتعظيم هذا البيت .

ومن تعظيم البيت الحرام ، أن الله ضاعف الثواب والأجر للمقيم حول البيت ، كما ضاعف العذاب والعقاب لمن ارتكب إثما حول البيت . أو عزم على ارتكاب الإثم ، وإن لم يقرن ذلك بالتنفيذ .

والأصل فى ذلك ما ورد فى الحديث الصحيح : «أن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك : فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة ، وإن همَّ بها فعملها كتبت له عشر حسنات ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شىء ، وإن همَّ بسيئة فعملها كتبت عليه سيئة واحدة» [٤٨] .

وهذا فى الحياة العامة ، لكن عندما يكون الإنسان فى المسجد الحرام ؛ يعاقب على الهم أو العزم بعمل سيئة ، وإن لم يقرن ذلك بالتنفيذ ؛ فيعاقب على مجرد العزم على الشر بالمسجد الحرام .

من محاسن الإسلام

أقام الإسلام منطقة أمان وسلام بالمسجد الحرام والحرم المحيط به ، هذه المنطقة يحرم فيها القتال والعدوان ، حتى لو وجد الإنسان قاتل أبيه بالمسجد الحرام ؛ لا يمدّ يده إليه بسوء .

قال تعالى : وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ .

أى : جعلناه للناس على العموم ، يُصلُّون فيه ، ويطوفون به ويحترمونه ، ويستوى تحت سقفه من كان مقيما فى جواره ، وملازما للتردد عليه ، ومن كان زائر له ، وطارئا عليه من أهل البوادى ، أو من أهل البلاد الأخرى سوى مكة ؛ فهذا المسجد الحرام يتساوى فيه عباد الله ، فلا يملكه أحد منهم ، ولا يمتاز فيه أحد منهم ، بل الكل فوق أرضه وتحت سقفه سواء .

وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .

قال مجاهد : بِظُلْمٍ . يعمل فيه عملا سيئا .

وقال ابن أبى حاتم :

وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادى فى الشر إذا كان عازما عليه وإن لم يوقعه ، والفقرة عامة تشمل جميع أنواع المعاصى والظلم .

قال ابن جرير الطبرى :

وأولى الأقوال بالصواب : قول من قال : إن المراد بالظلم فى هذا الموضع كل معصية لله ، وذلك لأن الله عمّ بقوله : وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ. ولم يخصص به ظلما دون ظلم ؛ فى خبر ولا عقل ، فهو على عمومه، وتأويل الكلام : ومن يرد فى المسجد الحرام بأن يميل بظلم فيعصى الله فيه نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له . ا هـ .

والخلاصة :

أن الآية عامة تشمل كل أنواع المعصية ، ويختص الحرم بعقوبة من همّ فيه بسيئة وإن لم يعملها ، كما أن الله تعالى جعل الحرم مفتوحًا ومنسكًا لكل الناس ؛ أى : الذين يقع عليهم اسم الناس ، من غير فارق بين حاضر وباد ، ومقيم وطارئ ، ومكى وآفاقى .

من تفسير ابن كثير :

اختلف الفقهاء فى أرض مكة : هل تُملك وتباع وتوهب وتورث وتؤجر ، أم لا ؟

فذهب أبو حنيفة واسحاق بن راهويه ؛ إلى أنه لا يجوز بيع دور مكة ولا إجارتها ، مستدلين بهذه الآية، وبما رواه ابن ماجة والدارقطنى عن علقمة بن نضْلة ؛ قال : توفى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ؛ وما ترعى رباع مكة إلا السوائب ؛ من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن فكأنها محمية آمنة يلجأ إليها أهل الحواضر والبوادى ؛ فيسكنون ويأمنون .

قال عبد الله بن عمرو : لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها .

وقال : من أكل من أجر بيوت مكة شيئا فإنما يأكل نارًا .

وذهب الشافعى رحمه الله إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر ، واستشهد بأن عمر بن الخطاب، اشترى من صفوان بن أمية دارًا بمكة ؛ فجعلها سجنًا بأربعة آلاف درهم .

وتوسط الإمام أحمد فقال : دور مكة تملك وتورث ؛ ولا تؤجر ؛ جمعا بين الأدلة .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

وإذ بوأنا : واذكر إذ عيناه وبيناه .

مكان البيت : الكعبة ليبنيه ، وكان قد رفع من زمن الطوفان فى عهد نوح .

وطهر بيتى : من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلى فيه .

والقائمين : المقيمين به .

والركع السجود : المصلين . جمع راكع وساجد .

أذن : ناد بالحج أى : بالدعوة إليه .

رجالاً : مشاة راجلين على الأقدام ، جمع راجل ، كتاجر وتجار ، وقائم وقيام .

الضامر : البعير المهزول الذى أتعبته كثرة الأسفار ويطلق على الذكر والأنثى .

فج عميق : طريق بعيد .

ليشهدوا : ليحضروا .

منافع لهم : منافع دينية فى الآخرة ، ودنيوية بالتجارة .

أيام معلومات : قيل : عشرة ذى الحجة ، أو يوم عرفة . أو يوم عيد النحر ويومان بعده وهى أيام التشريق .

بهيمة الأنعام : الإبل والبقر والضأن ، التى تنحر فى يوم العيد وما بعده من الهدايا والضحايا .

فكلوا منها : من لحومها ، وهذا فى المتطوع به ، المستحبّ دون الواجب .

البائس الفقير : أى : الذى أصابه بؤس أى : شدة ، والفقير المحتاج ، والأمر فيه للوجوب .

ليقضوا : ليزيلوا .

تفثهم : أوساخهم ، وشعثهم ، والمراد هنا : قصّ الشعور وتقليم الأظافر .

النذور : ما ينذر من أعمال البر فى الحج .

العتيق : القديم لأنه أوّل بيت وضع للناس .

تمهيد :

تفيد الآيات منزلة البيت العتيق ، فقد هدى الله إبراهيم الخليل ، إلى مكان البيت ، وأمره أن يدعو الناس إلى الحج مشاة وركبانا ، ويمكن للحاج أن يؤدى المناسك فيحظى بالثواب والرضوان ، ويمكنه أن يمارس التجارة فى أيام الحج ، وأن يتعرف إلى إخوانه المسلمين من قارات الدنيا ؛ وبذلك يجمع بين المنافع الدينية والدنيوية .

التفسير :

٢٦- وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

واذكر حين أرشدنا إبراهيم وألهمناه ، مكان البيت ليبنيه للعبادة ، وأنزلناه فيه .

وقال الزجاج : المعنى بينَّا له مكان البيت ليبنيه ، ويكون مباءة له ولعقبه ، يرجعون إليه ويحجونه.

ويقال : إنه كان مبنيا قبل أن يؤمر إبراهيم ببنائه ، ولكنّه كان قد درس وفنى من عوادى الزمن ، فكشف الله لإبراهيم عن أساسه بما أرسله يومئذ من ريح عاتية أزالت عنه ما كان يطمس معالمه ، ويخفى حدوده ، ويستر رسومه .

وسياق الآية يفيد أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم – عليه السلام – وأنه تعالى هداه إليها ، وقد روى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنه .

وقال الآلوسى فى تفسيره :

بنته قريش فى الجاهلية وحضر بناءه رسول الله ﷺ وكان شابًا ، ثم بناه عبد الله بن الزبير ، ثم الحجاج بن يوسف الثقفى وهو البناء الموجود اليوم .

أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا .

أى : قائلين له ، لا تشرك بالله شيئا فى العبادة أنت وأبناؤك ، كأنه قيل : وحِّدنى فى هذا البيت، واجعل العبادة فيه خالصة لوجهى . قال ابن كثير : ابنه على اسمى وحدى .

وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ .

أي : طهر بيتى من الأصنام والأوثان ؛ واجعله خالصا لعبادة الله وحده ، من المتوجهين إليه سبحانه؛ بالعبادة بالطواف والصلاة .

وأهم أركان الصلاة : القيام ، والركوع ، والسجود . فاكتفى هنا بذكر أهم أركان الصلاة للإشارة إليها، وقد دلت الآية على أن الطواف لا يشرع إلاَّ حول البيت ، وأنَّ الاتجاه فى الصلاة لا يكون إلا إليه ، ما لم يمنع من ذلك مانع .

وفى الآية طعن على من أشرك من قطان البيت ، أى : هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده ، وأنتم جعلتم فيه الأصنام فدنَّستموه بها .

٢٧- وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ .

أى : ادع الناس إلى حج بيت الله الحرام ؛ فسوف يلبى دعوتك المشاة والركبان ، الذين يركبون الإبل المهزولة من كثرة السفر وبعد الطريق ، تأتى هذه الإبل من كل طريق بعيد فى أقطار الدنيا .

قال ابن عباس :

لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له : أذِّن فى الناس بالحج ، قال : يا رب ، وما يبلغ صوتى ؟ قال: أذِّن وعلى الإبلاغ ، فصعد إبراهيم على جبل أبى قبيس وصاح : يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة ، ويجيركم من عذاب النار فحجّوا ، فأجابه من كان فى أصلاب الرجال ، وأرحام النساء : لبيك اللهم لبيك [٤١] .

قال القرطبى :

ورد الضمير إلى الإبل يَأْتِينَ تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها ، كما قال وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا . (العاديات : ١) فى خيل الجهاد ؛ تكرمة لها حين سعت فى سبيل الله .

٢٨- لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ .

جعل الله الحج لشهود منافع متعددة ، تعود على الحجيج فى شئون دينهم ودنياهم : فهم يشاهدون البيت العتيق ، وزمزم ، والمقام ، والصفا والمروة ، وجبل عرفات وجبل الرحمة ، ومنى ومزدلفة ، وغيرها من الأماكن والمشاهد ، التى نزل وحى السماء بجوارها .

ويدعون الله تعالى ، ويؤدون مناسك الحج والعمرة ، وهناك ترقّ القلوب وتُسكب العبرات ، وتستجاب الدعوات.

وفى الحج منافع كثيرة أخرى ، منها : تبادل التجارة ، والوقوف على أحوال المسلمين فى أقطار الدنيا، وتبادل الخبرة والمعرفة ، وانتقال العلوم والفنون والآداب بالتزاور والتجاور ، والحج وسيلة من وسائل ترابط المسلمين ؛ وتكاتفهم لتحرير بلادهم ورقيها ، وتخليص بلاد المسلمين من براثن الاستعمار والتجسس.

وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ .

أى : ويذكروا اسم الله تعالى فى أيام الحج ، عند ذبح الهدى من الإبل والبقر والغنم والماعز . والأيام المعلومات هى أيام عشر ذى الحجة ، وأيام العيد الثلاثة أو الأربعة ، أى : يوم العيد ويومان بعده ، أو يوم العيد وثلاثة أيام بعده .

عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ . على ما أعطاهم وملّكهم من بهيمة الأنعام ؛ فيذكرون الله عند ذبحها ويقولون باسم الله والله أكبر .

قال فخر الدين الرازى :

وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلىّ ذكر اسمه تعالى عند الذبح، وأن نخالف المشركين فى ذلك، فإنهم كانوا يذبحونها للنُّصب والأوثان .

فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ .

فيسنّ الأكل من الهدى والأضحية ، مشاركة للآكلين ، وإقناعهم بسلامتها ، والأكل هنا للإباحة أو الندب أو الوجوب ، ففيه عدة آراء ، أما إطعام الفقراء والبائسين فهو للوجوب .

قال ابن عباس :

البائس الذى ظهر بؤسه فى ثيابه وفى وجهه ، والفقير الذى لا يكون كذلك ، ثيابه نقية، ووجهه وجه غنى .

٢٩- ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ .

تأتى هذه الآية فى أعقاب مناسك الحج ، والمحرم بالحج لا يستطيع أن يقص شعره ولا يقلّم ظفره ؛ بل هو فى منطقة سلام وأمان وعبادة ، فإذا أتمّ المناسك يوم عيد الأضحى ، وفيه أربعة أعمال :

رمى جمرة العقبة ، ذبح الهدى ، الحلق أو التقصير ، الطواف بالبيت العتيق – فإن الله يبيح له التحلل من الإحرام بأن يقص شعره ويقلّم أظافره ، وينتف إبطه ، ويهتم بنظافة نفسه ، امتثالا لأمر الله .

جاء فى تفسير ابن كثير عن ابن عباس :

ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ . قال : هو وضع الإحرام من حلق الرأس ، ولبس الثياب وقص الأظافر ، ونحو ذلك .

وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ .

وليوفوا بما ينذرونه من أعمال البرّ فى حجهم ، والوفاء بالنذر واجب مطلقا ، وليس مختصا بالحج ، ولكن الوفاء به فى الحج أحق وآكد .

وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ .

أى : طواف الإفاضة ويسمى طواف الزيارة ، وهو واجب أو ركن من أركان الحج ، فللحج ركنان أساسيان :

١ – الوقوف بعرفة .

٢ – طواف الإفاضة .

قال العلماء : الحج وقفة بعرفة ، وطواف بالبيت ؛ وقيل المراد به : طواف الوداع .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : أن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق وهكذا صنع رسول الله ﷺ ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر ، بدأ برمى جمرة العقبة فرماها بسبع حصيات ، ثمّ نحر هديه ، وحلق رأسه ، ثم أفاض فطاف بالبيت .

وفى الصحيحين : عن ابن عباس أنه قال : أُمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف ، إلا أنَّه خفف عن المرأة الحائض .

والبيت العتيق : أى : القديم لأنه أوّل بيت وضع للناس ، أو لأن الله اعتقه فلم يظهر عليه جبّار قط ، ولم يرده أحد بسوء إلا هلك ، أو لأن الله أعفاه من البلى والدثور ، فلا يزال معمورًا منذ إبراهيم –عليه السلام– ولن يزال .

تلك قصة بناء البيت الحرام ، وذلك أساسه الذى قام عليه .

بيت أمر الله خليله –عليه السلام– بإقامته على التوحيد ، وتطهيره من الشرك، وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج إليه، ليشهدوا منافع متعددة ؛ فى رؤية أماكن سعى فيها إبراهيم الخليل حين بنى البيت، وحين أمر بذبح إسماعيل ، وحين ترك هاجر تسير مسرعة بين الصفا والمروة .

وهناك ذكريات عن ميلاد محمد خاتم النبيين ، ومشاركته فى بناء البيت فى الجاهلية ، ودعوته إلى الله ، ثم فتح مكة ، وتحطيم الأصنام من حول البيت الحرام ، وأداء مناسك الحج ، وفى الحج ذكر اسم الله تعالى – لا أسماء الآلهة المدعاة – عند ذبح بهيمة الأنعام .

والحجاج يأكلون من الهدى ويطعمون الفقراء والبؤساء ، فالبيت الحرام ، حرمات الله فيه مصونة ، وأولاها عقيدة التوحيد ، وفتح أبوابه للطائفين والقائمين والركّع السجود ، إلى جانب حرمة الدماء ، وحرمة العهود والمواثيق ، وحرمة الهدنة والسلام .

★ ★ ★

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

المفردات :

ذلك : الأمر هكذا ، ويقع للفصل بين كلامين أو بين وجهى كلام واحد ، كقوله تعالى : هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ .

حرمات الله : الحرمات : التكاليف الدينية من مناسك الحج وغيرها .

تعظيمها : العلم بوجودها والعمل على موجب ذلك .

فاجتنبوا الرجس من الأوثان : الرجس: كل شىء يستقذر، ويراد به الأوثان ، وهى أصنام من حجر أو خشب أو غيرهما.

الزور : الكذب .

حنفاء : واحدهم حنيف ، وهو المائل عن كل دين زائغ إلى الدّين الحق .

خر : سقط .

الخطف : الاختلاس بسرعة .

تـــهـــوى : تسقط .

ســحــيــق : بعيد .

الشــعــائــر : واحدها شعيرة، وهى العلامة ، والمراد بها : البدن الهدايا ، وتعظيمها أن تختار حسانا سمانا غالية الأثمان .

الأجــل المســمــى : هو أن تنحر وتذبح .

محلــهـــا : مكان نحرها .

إلى البيت العتيق : عنده والمراد : ما يليه ويقرب منه وهو الحرم جميعه .

تمهيد :

الكلام هنا مرتبط بما قبله ، فقد ذكر فيما سبق تكليف إبراهيم بدعوة الناس إلى الحج لشهود المنافع المتعددة .

وهنا أبان ثواب تعظيم حرمات الله وثواب أداء مناسك الحج ، وبين أن ذبح الأنعام وأكلها حلال إلا ما حرم عليكم ، وأنه يجب اجتناب عبادة الأوثان وترك شهادة الزور ، وأن من يشرك بالله فقد هلك ، ثم أوضح كون تعظيم الشعائر من علائم التقوى ودعائمها ، وأن محل نحرها هو الحرم المكى .

التفسير :

٣٠- ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ...

أى : ذلك التشريع الذى سبق بيانه ، يجب تعظيمه ، ومن يعظم تكاليف الله وشرائعه ، بعلمه بقداستها، وعمله بمقتضى هذا العلم ، فهذا التعظيم خير له عند ربه حيث يثيبه عليه ثوابا عظيما فى أخراه ، ولا يحرمه من فضله فى دنياه .

وخص بعضهم ذلك بمناسك الحج ، وقال آخرون : هى عامة فى تعظيم جميع الحرمات ، واتباع المأمورات ، واجتناب المنهيات .

وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ .

أى : أحل الله لكم لحوم الأنعام بعد ذبحها ؛ وهى الإبل والبقر والغنم والماعز .

إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ . أى : إلا ما حرمه الله عليكم فى الكتاب المجيد : كالميتة ، والمنخنقة ، والموقوذة ، وقد ورد ذلك فى الآية الثالثة من سورة المائدة حيث قال سبحانه : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ...

فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ .

أى : فابتعدوا عن عبادة الأوثان ؛ وهى الأصنام التى كانت العرب تتخذها من الأحجار أو الأخشاب أو الذهب أو الفضة أو نحوها ، ويعبدونها إشراكا وكفرا ؛ وقد جعل الله هذه العبادة رجسًا أى : شركا وكفرا؛ ونجاسة وقذارة معنوية ؛ حيث يعبد الإنسان العاقل حجرا أو صنما .

وكلمة الرجس تذكر فى القرآن لكل عمل شائن بغيض ؛ قال تعالى : إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (المائدة : ٩٠) .

أى : ذنب وإثم ونجاسة وقذارة معنوية.

قال ابن كثير :

فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ .

أى : اجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان ، كما تجتنب الأنجاس .

وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ .

واجتنبوا شهادة الزور ، وقد قرن القرآن النهى عن قول الزور بالنهى عن الشرك وعبادة الأوثان ؛ لما لقول الزور من أسوأ الأثر فى إثارة العداوات ، وغرس الأحقاد ، وتفتيت الجماعات .

وفى الصحيحين عن أبى بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ؛ قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» [٥٠] .

وأخرج الإمام أحمد فى المسند ، عن خريم بن فاتك الأسدى قال : صلَّى رسول الله ﷺ الصبح فلما انصرف قام قائما ، فقال : «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عز وجل» ثم تلا هذه الآية : فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ [٥١] .

٣١- حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ .

أى : فاجتنبوا فى إسلامكم ما نهيتم عنه من عبادة الأوثان ، وقول الزور ، فى حال كونكم مائلين عن كل دين زائغ ، وغير مشركين به سبحانه شيئا من الأشياء ، فكل ما سواه فهو مخلوق له فلا يصح أن يعبد معه.

وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ .

هذا مثل ضربه الله للمشرك يبين ضلاله وضياعه وهلاكه ، وبعده عن الهدى ؛ فالمشرك بمنزلة من سقط من السماء فتمزق إربا إربا ؛ وتناثرت أشلاؤه ؛ وتناولت الطير أجزاءه ؛ فلم تبق له أثرا .

أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ .

أو تشبه حال من عصفت به الريح فى مكان بعيد ، فكان من الهالكين ، وفى كلا التشبيهين تيئيس للكافر من النجاة ؛ حيث لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الهلاك ، الذى ينزله الله به فى الآخرة .

٣٢- ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ .

ذَٰلِكَ . أى : ذلك ما أوضحه الله لكم من الأحكام والأمثال .

وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ . وهى المواشى التى تذبح هدية للحرم ؛ بأن يختارها جسيمة سمينة غالية الثمن. وشعائر الله تطلق على أحكام الدين ، وأوامره ونواهيه ، كما تطلق على مناسك الحج، وكذلك تطلق على الأضاحى والهدايا .

فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ . أى : فإن تعظيمها من أفعال المتقين لله .

قال القرطبى :

أضاف التقوى إلى القلوب ؛ لأن حقيقة التقوى فى القلب ، وفى الحديث «التقوى هاهنا» [٥٢] وأشار ﷺ إلى صدره .

قال ابن العربى : فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ . الضمير يعود إلى البدن .

من الآثــار

روى أنه ﷺ أهدى مائة بدنة ، فيها جمل لأبى جهل فى أنفه حلقة من ذهب .

وروى الإمام أحمد وأبو داود : عن عبد الله بن عمر قال : أهدى عمر نجيبًا ، فأُعطى بها ثلاث مائة دينار؛ فأتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله : إنى أهديت نجيبا ، فأعطيت بها ثلاث مائة دينار ، أفأبيعها ستري بثمنها بُدْنا ؟ قال : «لا ، انحرها إياها» [٥٣] .

وكان ابن عمر يسوق البدن مجلَّلة بالقباطى – ثياب مصرية غالية الثمن – فيتصدق بلحومها وجلالها.

٣٣- لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ .

لكم فى هذه الإبل والبقر والغنم وسائر الهدايا ، منافع دنيوية من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها .

إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى .

إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها .

ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ .

أى : ثم مكان حل نحرها عند البيت الحرام ، أى : الحرام جميعه ؛ إذ الحرم كله فى حكم البيت الحرام.

أخرج البخارى فى تاريخه، والترمذى وحسنه، والحاكم وصححه، وابن جرير الطبرى وغيرهم، عن ابن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ : «إنما سماه الله البيت العتيق ، لأنه أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط»[٥٤] .

وإلى هذا ذهب قتادة ، وقد قصده تُبَّع ليهدمه فأصابه الفالج ؛ فأشير عليه أن يكف عنه ، وقيل : إن له ربا يمنعه فتركه ، وهو أوّل من كساه ، وقصده أبرهة فأصابه ما أصابه .

★ ★ ★

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

الأمـــة : الجماعة على مذهب واحد .

المنسك : بكسر السين وفتحها، والنسك فى الأصل العبادة مطلقا ، وشاع استعماله فى أعمال الحج، والمراد به هنا : الذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى .

أسلموا : انقادوا له .

المخبتين : المطيعين الخاشعين المتواضعين .

وجلت : خافت .

ما أصابهم : من البلايا .

والمقيمين الصلاة : فى أوقاتها .

ينفقون : يتصدقون .

تمهيد :

تفيد الآيتان أن لكل أمة مناسك وذبائح ، تذكّر بالله حين ذبحها ، والشكر له على توفيقه لإقامة هذه الشعائر ، فالإله واحد ، والتكاليف تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والمصالح ، وبعدئذ أمر رسوله أن يبشر المتواضعين الخاشعين لله ، الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقناهم ، بجنات من تحتها الأنهار .

التفسير :

٣٤- وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ .

أى : لكل أمة من الأمم من عهد إبراهيم إلى الآن ؛ ولكل دين من الأديان السابقة ، جعلنا لأهله ذِبحا يذبحونه تقربا إلى الله تعالى ، وذلك ليس خاصا بأمة محمد ﷺ ؛ وإنما هو فى كل الملل. والصحيح كما قال ابن العربى : أن المنسك ما يرجع إلى العبادة والتقرب . أى : جعلنا لأهل كل ذى دين منسكا وسبيلا وطريقا فى العبادة والتقرب إلى الله تعالى .

لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ .

أى : شرعنا لهم سنة ذبح الأنعام ؛ لكى يذكروا اسم الله حين الشروع فى ذبحها ؛ ويشكروه على نعمه التى أنعم بها عليهم ، وينبغى أن يكون الذبح خالصا لوجهه تعالى .

قال ابن كثير :

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعا فى جميع الملل .

روى الإمام أحمد وابن ماجه ، عن زيد بن أرقم قال : قلت : يا رسول الله ، ما هذه الأضاحى ؟ قال : «سنة أبيكم إبراهيم ، قالوا : ما لنا منها ؟ قال : بكل شعرة حسنة» [٥٥] .

وفى الصحيحين عن أنس قال : أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ، فسمى وكبر ووضع رجله على صفاحِهِمَا [٥٦] .

فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ .

فربكم أيها الناس ومعبودكم إله واحد فى ذاته، وفى ألوهيته، فأخلصوا له العبادة واستسلموا لحكمه، وانقادوا له فى جميع ما كلفكم به .

وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ . أى : بشّر المتواضعين المطيعين بجنات النعيم .

٣٥- ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ.

تصف الآية المخبتين بأربع صفات وهى :

١ – وجل قلوبهم وخوفها وخشيتها عند ذكر الله .

٢ – الصبر على المصائب وعدم الهلع أو الجزع .

٣ – إقامة الصلاة وأداؤها تامة الأركان فى أوقاتها مستكملة الخشوع والخضوع .

٤ – أداء الزكاة والعطف على الفقراء والمساكين .

★ ★ ★

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

المفردات :

البدن : جمع بَدَنَة (بالتحريك) وأصل الجمع (بُدُن) بضم الباء والدال، ثم خفف بتسكين وسطه، وهى الإبل، وكذا البقر كما قيل، وتطلق على الذكر والأنثى .

شعائر الله : جمع شعيرة، أى : علامة، فالبدن من علامات دين الله فى الحج .

صواف : أى : قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن استعدادًا لنحرها .

وجبت جنوبها : سقطت على الأرض، ويراد بذلك : زهقت أرواحها وفقدت الحركة .

القانع : الراضى بما عنده وبما يعطى من غير مسألة، وفعله من باب فرِح يفرح، ومصدره القناعة.

والمعتر : المتعرض للسؤال .

سخرناها لكم : ذللناها ومكناكم منها .

المحسنين : المخلصين .

تمهيد :

بعد أن حثَّ سبحانه على التقرب بالأنعام كلِّها ، خصّ من بينها الإبل ؛ لأنها أعظمها خلقًا ، وأكثرها نفعًا ، وأنفسها قيمة .

التفسير :

٣٦- وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ... الآية

يمتنُّ الله سبحانه وتعالى على عباده بتسخير الجمال والنياق لهم ؛ فهى مع بدانتها وقوّتها ، قد ذللها الله لنا وسخرها لنا ؛ فنركبها ونأكل لحمها ، ونشرب لبنها ، ونذبحها فلا تفرّ ولا تمتنع ؛ مع أن بعض الوحوش أقل منها حجما وقوة ، ولم يذلل للإنسان ، وإذا جمح البعير وندّ استعصى على الآدمى ، وهى حين تُساق إلى البيت الحرام ، لتذبح فى الحرم من شعائر الله ، ومعالم الدين والنُّسك ؛ حيث تساق قربانا لله تعالى، وتذبح عند البيت الحرام فى منى ومكة ؛ وفى الحديث الشريف : «فجاج مكة كلها منحر» .

لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ .

جملة من المنافع الدينية والدنيوية : فأنتم تركبون عليها ، وتحملون عليها أمتعتكم ، وتشربون ألبانها ، وتأكلون لحومها ، وتقدمونها للهدى أو الأضحية أو التقرب إلى الله تعالى ، فلكم فيها طائفة من المنافع الدنيوية والدينية .

فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ .

أى : عند إرادة الذبح يقول الذابح : باسم الله ، الله أكبر ؛ وبهذا يجمع بين التسمية والتكبير ، ويكون النحر للإبل وهى قائمة ، قد صففن أيديهن وأرجلهن ، وتعقل إحدى يديها ؛ ليسهل وقوعها على الأرض بعد ذبحها.

وقرئ : صوافن . أى : قائمات على ثلاث وتعقل إحدى يديها ، وعقل إحدى يديها سنّة ؛ فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما ، عن ابن عباس : أنه رأى رجلا قد أناخ بدنته وهو ينحرها ؛ فقال : ابعثها قيامًا مقيدة ، سنة رسول الله ﷺ[٥٧] .

فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ .

فإذا سقطت على الأرض ، وزهقت أرواحها ؛ فأتموا سلخها وتقطيعها ، ويباح لكم الأكل منها وإطعام الفقراء القانعين ، الذين يمكثون فى بيوتهم بدون سؤال ، والمتعرضين لكم بالسؤال ؛ سواء طلبوا بألسنتهم ، أو بالمرور عليكم صامتين لتطعموهم من لحمها .

والأكل من الهدايا مباح أو مندوب ، أما إطعام الفقراء فواجب عند الشافعى ؛ حيث أوجب إطعام الفقراء من الهدى ؛ وذهب أبو حنيفة إلى أن الإطعام مندوب ؛ لأنها دماء نسك ، فتتحقق القربة منها بإراقة الدم ، أمّا إطعام الفقراء فهو باق على حكمه العام وهو الندب .

كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

هكذا سخرناها لكم وذللناها لكم ؛ لتستفيدوا منها بالركوب والحلب والأكل ، والهدى والتقرب بها إلى الله تعالى ؛ لتشكروا إنعامنا عليكم ، بالتقرب والإخلاص فى أعمالكم .

٣٧- لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ... الآية

أى : إنما شرع الله لكم نحر هذه الهدايا والضحايا ؛ لتذكروه عند ذبحها ، ولن يصل إليه شىء من لحومها ولا من دمائها ، ولكن يصله التقوى والإخلاص ، وترفع إليه الأعمال الصالحة .

قال ابن عباس :

كان أهل الجاهلية يضرجون البيت بدماء البدن ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ؛ فنزلت الآية : لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا ...

أى : إنه تعالى ليس له حاجة إلى لحومها ودمائها ؛ حتى تضرجوا بها بيته؛ ولكن يناله التقوى منكم فى كل أعمالكم ، ومنها إطعام المساكين من لحومها وقد حث النبى ﷺ على الإخلاص فى الأعمال والقربات ، كما جاء فى حديث مسلم : «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [٥٨] .

كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ .

أى : مثل هذا التسخير العجيب سخرها لك ، وجعلها منقادة خاضعة ، فلا تستعصى عليكم مع ضخامتها .

لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ .

لكى تكبروا الله وتعظموه وتقدسوه ؛ بسبب هدايتكم للإيمان .

وقيل : لتكبروا الله عند الذبح ، وقد أمروا بالتسمية فى قوله تعالى : فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ . وكان ابن عمر يجمع بينهما إذا نحر هديه فيقول : باسم الله والله أكبر .

وفى الحديث الصحيح ، عن أنس قال : ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين [٥٩] أقرنين ، ورأيته يذبحهما بيديه، ورأيته واضعا قدمه على صفاحهما [٦٠] وسمَّى وكبَّر .

وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ .

المخلصين فى أعمالهم بالقيام بها كما شرع الله تعالى من غير منٍّ ولا أذى ، وعن ابن عباس : هم الموحدون .

قال صاحب الظلال :

وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ .

الذين يحسنون التصور ، ويحسنون الشعور ، ويحسنون العبادة ، ويحسنون الصلة بالله فى كل نشاط الحياة ، وهكذا لا يخطو المسلم خطوة، ولا يتحرك حركة ، إلا وهو ينظر فيها إلى الله ويجيش قلبه فيها بتقواه، ويتطلع إلى وجهه ورضاه ؛ فإذا الحياة كلها عبادة ، تتحقق بها إرادة الله ، من خلق العباد ، وتصلح بها الحياة فى الأرض ، وهى موصولة السبب بالسماء .

ملحق بتفسير الآيتين ٣٦ ، ٣٧ الحج

البدنة مفرد البُدْن :

والبُدْن : تطلق فى رأى أبى حنيفة وآخرين من الصحابة والتابعين على الإبل والبقر ، روى مسلم ، عن جابر رضى الله عنه أنه قال : كنّا ننحر البدنة عن سبعة ، فقيل : والبقرة ؟ قال : وهل هى إلا من البُدْن . وقال ابن عمر رضى الله عنهما : لا نعلم البُدْن إلا من الإبل والبقر .

ومذهب الشافعية : أنه لا تطلق البدن فى الحقيقة إلا على الإبل ، وإطلاقها على البقر مجاز ، فلو نذر بدنة لا تجزئه بقرة . وبدليل قوله تعالى : (صَوَآفَّ) و (وَجَبَتْ جُنُوبُهَا) . فنحر الحيوان قائما لم يعهد إلا فى الإبل خاصة . ويؤيده ما رواه أبو داود وغيره ، عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة» [٦١] .

فإن العطف يقتضى المغايرة ، وأمّا قولا جابر وابن عمر المتقدمان ؛ فيحملان على أنهما أرادا اتحاد الحكم فيهما ، وهذا هو الظاهر والأصح لغة .

وجاء فى تفسير القرطبى ما خلاصته :

تطلق البدنة على الإبل والبقر ، وفق ما قاله جمهور العلماء من أن البدنة تجزئ عن سبعة ، والبقرة تجزئ عن سبعة ؛ لذلك جعلا فى الشريعة جنسا واحدًا ؛ لتساويهما فى الإجزاء عن عدد متحد ، فضلا عن تساويهما تقريبا فى البدانة .

وقيل : إن البدن خاص بالإبل ، بدليل الحديث الصحيح في يوم الجمعة : «من راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ؛ ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ...» [٦٢] الحديث .

فتفريقه عليه الصلاة والسلام ، بين البدنة والبقرة ؛ يدل على أن البقرة لا يقال عنها بدنة ؛ وإن كانت تكفى مثلها عن سبعة ، وأيضًا قوله تعالى : فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا . يدل على ذلك ؛ فإن هذا الوصف خاص بالإبل؛ أما البقر فتضجع وتذبح كالغنم .

★ ★ ★

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

المفردات :

خوان كفور : الخوان : الكثير الخيانة ، والكفور : الشديد الكفر .

أذن : رُخِّص .

بأنهم ظلموا : بسبب كونهم مظلومين ، بظلم الكافرين إياهم . ذكر الجمل فى حاشيته أن هذه أوّل آية نزلت فى الجهاد ، بعدما نُهى عنه فى نيف وسبعين آية .

الذين أخرجوا من ديارهم : يعنى مكة .

بغير حق : بغير موجب فى الإخراج .

إلا أن يقولوا : أى بقولهم .

ربنا الله : وحده . وهذا القول حق ، فالإخراج به إخراج بغير حق .

الصوامع : جمع صومعة ، وهى معبد خاص برهبان النصارى فى الصحراء .

الديروالبيع : جمع بِيْعة بزنة حِرْفة ، وهى متعبد النصارى عامة .

وصلوات : جمع صلاة ، وهى كنيسة اليهود ، وأطلق عليها صلاة ، لأنهم يصلون فيها ، وصُلُوتا بالعبرية : معبد اليهود .

مساجد : واحدها مسجد وهو معبد المسلمين .

ولله عاقبة الأمور : أى : له تعالى مرجعها تدبيرًا وحكمًا .

سبب النزول :

إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ ...

روى أنها نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة ، وآذاهم الكفار ، وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة ، أراد بعض مؤمنى مكة أن يقتل من أمكَنَه من الكفار ، ويغتال ويغدر ويحتال ، فنزلت هذه الآية .

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ ...

أخرج أحمد، والترمذى وحسَّنه، والنسائى، والحاكم وصححه، وابن سعد، عن ابن عبَّاس قال : خرج النبى ﷺ من مكة ، فقال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! ليهلكُنّ ، فأنزل الله : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ .

تمهيد :

فى آيات سابقة تحدث القرآن عن الحج ، فهو نُسُك من أيام إبراهيم الخليل ، بيد أن قريشا عذّبت المسلمين واضطرتهم للهجرة إلى الحبشة مرتين ، وإلى المدينة ، ومنعتهم من أداء عمرة الحديبية ، فنزلت هذه الآيات تندد بالمشركين ، وتأذن للمسلمين فى الدفاع عن أنفسهم ، وهو حق كفلته الأعراف الدولية ، والقوانين الدولية ، وتعتبر الآيات قاعدة عامة لمشروعية القتال الدفاعى ، وإن نزلت بسبب خاص .

التفسير :

٣٨ - إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ .

تكفل الله بحماية المؤمنين ورعايتهم ، فهو سبحانه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه ، وأطاعوا أمره ، وأنابوا إليه - شر الأشرار وكيد الفجار ، ويكلؤهم وينصرهم على أعدائهم ، ويكتب لهم الفلاح والنصر .

قال تعالى : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ . (غافر : ٥١) .

وقال تعالى : وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا . (الطلاق : ٣) .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ .

لقد تأذن الله بالدفاع عن المؤمنين ، بسبب خيانة كفار مكة للأمانة ، وكفرهم بالله ، وصدهم المسلمين عن المسجد الحرام فى عمرة الحديبية ، مع أن هذا بيت الله ، وقد دعا إبراهيم الناس إلى الحج ، فلما جاء المسلمون محرمين بالعمرة ، صدهم المشركون ظلمًا وعدوانًا ، فأعلن الله غضبه على الكافرين ، وحبه ودفاعه عن المؤمنين .

والظاهر أن الآية وعد وبشارة للمؤمنين بنصر الله لهم ، وتمكينهم من عدوهم ، وتهديد للمشركين بقهرهم وخذلانهم ، وفيها تمهيد وتوطئة لمشروعية الجهاد .

٣٩ - أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ .

رخَّص الله للمؤمنين المعتدى عليهم ، بالقتال دفاعًا عن أنفسهم ، ومحاربة للظالمين ، وانتصارًا للحق ، وتحملا للمكاره فى سبيل الله ، وفى رأى كثير من المفسرين أن هذه أول آية فى القرآن نزلت تأذن بالجهاد ، بعدما نهى الله عن القتال فى نيف وسبعين آية ، والقتال فى الإسلام لم يكن للبغى ، ولا للعدوان ، ولم يكن من أجل مطامع الدنيا ، بل كان لعدة أسباب منها :

١ - إزالة طواغيت الكفر من وجه الدعوة ، حتى يكون الناس أحرارًا ، فى اعتناق ما يشاءون .

٢ - الدفاع عن النفس ، وردّ العدوان ، وحماية المستضعفين . قال تعالى : وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (الشورى : ٤١ ، ٤٢) .

وقال عز شأنه : وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا . (النساء : ٧٥) .

لقد كان أصحاب النبى ﷺ يؤذون فى مكة أذىً شديدًا ، ويأتون إليه بين مضروب ومشجوج فى رأسه ، ويتظلمون إليه فيقول لهم : صبرًا صبرًا ، فإنى لم أوذن بالقتال ، حتى هاجر إلى المدينة وأنزل الله هذه الآية ، وفيها إذن بالجهاد ، ووعد بالنصر .

وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ .

أى : إن الله قادر على نصر المؤمنين ، وهزيمة الكافرين ، وقد أنجز الله وعده ، فكان النصر حليف المؤمنين فى معظم غزواتهم ، واستمر الجهاد يحقق البطولات ، ويؤيد الحق ، ويدحض الظلم ، ودخل المسلمون مع نبيهم فى ٥٢ غزوة وسرية ، أدت إلى انتصار الإسلام فى شبه جزيرة العرب ، وتتابع الجهاد فى حروب الردة ، وفى فتوحات العراق والشام ومصر وغيرها من البلاد ، وقد حقق الله وعده ، ونصر جنده .

وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ . (آل عمران : ١٢٦) .

٤٠ - ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ .

قال ابن عباس :

ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ . أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق ، يعنى : محمدًا وأصحابه .

إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ .

قال ابن كثير :

ما كان لهم إساءة ولا ذنب ، إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له ، كما قال تعالى : يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ . (الممتحنة : ١) .

وقال تعالى فى قصة أصحاب الأخدود : وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ . (البروج : ٨) .

وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا .

خلق الله الإنسان بيده ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة وزوجه حوّاء ، وأودع فى الإنسان الصفات والإمكانيات ، والاختيار والإرادة ، ما يجعله سيِّد قراره ، فهو يختار الهدى بإرادته ، أو يختار الضلال بإرادته ، وشاء الله أن تكون لهذه الحياة الدنيا نواميس وسنن كونية ، ومن هذه النواميس صراع قوى الخير مع قوى الشر ، وقد يتغلب الشرّ حينا ، لكن العاقبة للمتقين ، من أجل ذلك أنزل الله الكتب ، وأرسل الرسل ، وشرع الجهاد والنضال ، لإيقاف البغى والعدوان ، وكأنَّ القرآن يحثَّ المؤمنين على الجهاد والنضال ، فقد جرت العادة أنه لا يدفع الشر إلا بمثله ، والبادىء أظلم ، يقول شوقى :

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعًا وإن تلقه بالشر ينحسم

ويقول الآخر :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف فى موضع الندى

فلولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين ، من قتال الأعداء ، لهُدِّمت معابدهم ، واستبيحت حرماتهم ، ومن هذه المعابد ما يأتى :

الصوامع : جمع صومعة ، وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى ، وعباد الصابئة ، والمراد بها هنا : متعبد الرهبان .

البيـــــع : جمع بِيْعة بوزن كِسْرة ، وهى مُصلًّى النصارى جميعًا .

الصلوات : جمع صلاة ، وهى كنيسة اليهود .

المساجـد : جمع مسجد ، وأكثر ما يطلق على مصلى المسلمين .

وقيل : المعنى لولا هذا الدفع لهُدّمت فى زمن موسى الكنائس ، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفى زمن محمد ﷺ المساجد .

يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا .

قيل : الضمير راجع إلى المُساجد لأنها أقرب المذكورات .

وقال الضحاك : الجميع يذكر فيها الله كثيرًا .

وقال الطبرى :

الصواب لهدمت صوامع الرهبان ، وبيع النصارى ، وصلوات اليهود – وهى كنائسهم – ومساجد المسلمين ، التى يذكر فيها اسم الله كثيرًا ، لأن هذا هو المستعمل المعروف فى كلام العرب .

وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ .

إن الله تعالى تكفل بالنصر لمن نصر دينه وشريعته .

قال تعالى : إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . (محمد : ٧) .

إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ .

فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرًا ، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب ، بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه ، ومن كان القويُّ العزيز ناصره فهو المنصور ، وعدوُّه هو المقهور .

قال الله تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ . (الصافات : ١٧١ - ١٧٣) .

جاء في تفسير المراغي :

وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ .

أي : وليعينن الله من يقاتل في سبيله ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلي ، ولقد أنجز الله وعده ونصر المسلمين على صناديد قريش ، وأكاسرة العجم ، وقياصرة الروم ، وأورثهم أرضهم وديارهم .

ونحو الآية قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ . (محمد : ٧ ، ٨) .

٤١ - ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ .

تفيد الآيات ٣٨ - ٤١ مشروعية الجهاد ، والإذن به من الله تعالى للدفاع عن الحرمات ، وإزالة طواغيت الكفر ، والحفاظ على الإيمان وأهله ، فإن من سنن الله أن يدفع ظلم الظالمين ، بجهاد المؤمنين ، ولولا ذلك لاشتد طغيان الكافرين وهدّموا دور العبادة ومعابدها ، وقد تكفل الله بنصر المؤمنين ، وإكرام المجاهدين .

ثم تعدد الآية ٤١ من سورة الحج صفات هؤلاء المؤمنين الذين يستحقون نصر الله تعالى ، وهي :

١ - إقام الصلاة والمحافظة عليها بخشوعها وأركانها في أوقاتها .

٢ – إيتاء الزكاة ، ومساعدة المحتاجين وتحقيق التكافل والتراحم .

٣ – الأمر بالمعروف ، والحث على الخير والصلاح وطاعة الله تعالى .

٤ – النهى عن المنكر ، والتحذير من الشر والفساد والمنكرات ومعصية الله .

وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ .

أى : له سبحانه ما تئول إليه أمور الناس من عز وذل ، وفقر وغنى ، وعلو وانحطاط ، قال تعالى : قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

من تفسير مقاتل بن سليمان :

وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ .

يقول : لولا أن يدفع الله المشركين بالمسلمين لغلب المشركون فقتلوا المسلمين .

لَّهُدِّمَتْ . يقول : لخربت صَوَٰمِعُ . الرهبان ، وَبِيَعٌ . النصارى ، وَصَلَوَٰتٌ . اليهود ، وَمَسَـٰجِدُ . المسلمين .

يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا : كل هؤلاء الملل يذكرون الله كثيرًا فى مساجدهم ، فدفع الله عز وجل بالمسلمين عن هذه الملل ، وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ على عدوه مَن يَنصُرُهُۥٓ . من يوحّده ، إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ فى نصر أوليائه عَزِيزٌ . يعنى : منيع فى ملكه وسلطانه ، نظيرها فى الحديد : وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ ... (الحديد : ٢٥) . يعنى من يوحّده . ونظيرها فى الأحزاب[٦٣] ، وهود[٦٤] .

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ .

يعنى : أرض المدينة ، وهم المؤمنون بعد القهر بمكة ، ثم أخبر عنهم فقال تعالى :

أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ .

يعنى : التوحيد الذى يعرف ، وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ . الذى لا يعرف وهو الشرك .

وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ .

يعنى : عاقبة أمر العباد إليه فى الآخرة[٦٥] .

من تفسير القرطبى

وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ.

أى : لولا ما شرعه الله تعالى ، للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لاستولى أهل الشرك ، وعطلوا ما بناه أهل الديانات ، من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب الجهاد ، ليفرغ أهل الدين للعبادة ، فالجهاد أمر متقدم فى الأمم ، وبه صلحت الشرائع ، واجتمعت المتعبدات ، فكأنه قال : أُذن فى القتال ، فليقاتل المؤمنون ، ثم قوّى هذا الأمر فى القتال بقوله :

وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ ...

أى : لولا الجهاد والقتال ، لتغلب أهل الباطل على أهل الحق فى كل أمة .

خلاصة المعنى

فى ختام الآيات نرى أن الجهاد فى الإسلام شرع للدفاع عن النفس ، وتمكين أصحاب الديانات جميعها من عبادة الله ، وتكليف المؤمنين بجهاد الكافرين ، لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وتمكين الله للمؤمنين فى الأرض ، حتى يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ثم هم ينصرون المعروف ، وينهون عن المنكر ، ويحقون الحق ويبطلون الباطل .

★ ★ ★

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾

المفردات :

وأصحاب مدين : أهلها ، وهم قوم شعيب .

فأمليت : أمهلت .

أخذتهم : أهلكتهم .

فكيف كان نكير : فكيف كان إنكارى عليهم ، وعقابى لهم ؟ والاستفهام بكيف للتعجب ، مما عاقبهم الله به من الهلاك المدمِّر .

فكأين من قرية أهلكناها : فكثير من القرى أهلكنا أهلها ، وإيقاع الإهلاك على القرى على سبيل المجاز .

خاوية : ساقطة . من خوى النجم : إذا سقط ، أو خالية مع بقاء عروشها وسلامة بنيانها بعدما هلك أهلها ، من خوت الدار ، تخوى ، خَوَاءً : إذا خلت من أهلها ، وخوى البطن من الطعام .

على عروشها : على سقوفها .

معطلة : عطلت من منافعها لا يستقى منها لهلاك أهلها .

وقصر مشيد : مرفوع البنيان ، أو مبنى بالشِّيد ، وهو الجصّ (الجير) .

تمهيد :

فى آيات سابقة أذن الله للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم ، وفى هذه الآيات تسلية للرسول ﷺ ، وتوضيح بأنه ليس بأوحدى فى تكذيب قومه له ، فقد كذبت قبلهم أمم كثيرة ، فاستحقوا العذاب والدَّمار ، ومن الواجب أن يعتبروا بهم ، ويتعظوا بما أصابهم .

التفسير :

٤٢ - وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ .

إذا كذبك أهل مكة فلا تحزن عليهم ، ولا تبخع نفسك حرصا على تكذيبهم ، فلست وحدك فى هذا المجال ، فكثير من الأمم السابقة كذبت أنبياءها ، بيد أن الله أمهلهم قليلا ، ثم أنزل بهم العذاب الشديد ، وفى الحديث الصحيح : «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ النبى ﷺ : وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ .[٦٦] (هود : ١٠٢) .

قال صاحب الظلال :

فهى سنة مطردة فى الرسالات كلها ، أن يجىء الرسل بالآيات فيكذب بها المكذبون ، فليس الرسول ﷺ ، بدعا من الرسل حين يكذبه المشركون ، والعاقبة معروفة والسنة مطردة . ا هـ .

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ .

قال مقاتل بن سليمان : يعزّى نبيه محمدًا ﷺ ، ليصبر على تكذيبهم إياه .

فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ . يعنى : قبل أهل مكة .

قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ . كل هؤلاء كذبوا رسلهم .

٤٣ – وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ .

كذبوا رسلهم أيضًا .

٤٤ – وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ .

يعنى : قوم شعيب عليه السلام كذبوا نبيهم .

وَكُذِّبَ مُوسَىٰ . من فرعون وقومه ، فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ . أمهلتهم فلم أعجل عليهم بالعقوبة ، لعلهم يرعوون ويثوبون إلى رشدهم .

ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ .

ثم أحللت بهم عقابى ، وأهلكتهم بعد انتهاء مدة إمهالهم وإملائهم ، عقابًا لهم ، وإنكارًا عليهم ، فكيف كان إنكارى عليهم ؟ لقد حوّلت عمارهم خرابًا ، وأهلكتهم عن آخرهم ، فكذلك أفعل بالمكذبين من أهل مكة ، ونحو الآية قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . (هود : ١٠٢) .

٤٥ – فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ .

كَأَيِّن . اسم يراد به التكثير ، مثل (كم) الخبرية ، وخاوية : بمعنى ساقطة أو خالية .

ومعنى الآية :

كثير من القرى أهلكناها حين ظلم أهلها ، فخلت منهم الديار ، وصارت خاوية خالية بلا جليس ولا أنيس . وكم من بئر معطلة لا تجد من يستقى منها لهلاك أهلها ، وكم من قصر مرفوع البنيان ، أو مبنى بالشيد – وهو الجص – أهلكنا أهله فصار خاويا لا يجد من يعْمُره .

٤٦ - أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ .

أفلم يسافر أهل مكة فى البلاد ، ليشاهدوا مصارع الكفار ، فيعتبروا بما حل بهم من النكال والدمار ، وقد كانت قبيلة عاد بالأحقاف فى جنوب الجزيرة ، وكانت قبيلة ثمود فى شمال الجزيرة بين الحجاز والشام ، وكانوا يمرُّون على هذه القرى فى رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف ، لكنه مرور الغافلين ، وهنا يفتح عيونهم ويرشدهم إلى التعقل والتدبر ، أى : هلا تدبرت قلوبهم وعقولهم ما أصاب هذه الأمم ، وهلاَّ وعت أسماعهم أحاديث هلاكهم ، إن القلب الواعى يعتبر ، أما القلب الذى أصابه العمى ، فلم يبصر الحقائق ، ولم يتدبر ولم يتعظ بغيره ، فلا أمل فيه .

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ .

ليس العمى على الحقيقة عمى البصر ، وإنما العمى عمى البصيرة ، فمن كان أعمى القلب ، فلا يعتبر ولا يتدبر مهما كان بصره سليما .

قال الشاعر :

وإذا كان القلب أعمى عن الرشد   فماذا تفيد العينان ؟

وفى الحديث الشريف : «إن النور إذا دخل القلب اتسع له الصدر وانشرح ، قيل : يا رسول الله، هل لذلك من علامة ؟ قال : نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» ثم تلا قوله تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ...[٦٧] (الزمر : ٢٢) .

★ ★ ★

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

المفردات :

الإنـــذار : التخويف .

ســعــوا : أصل السعى : الإسراع فى المشى ، ثم استعمل فى الإصلاح والإفساد ، يقال : سعى فى أمر فلان، إذا أصلحه أو أفسده بسعيه فيه .

معاجزين : مسابقين المؤمنين ومعارضين لهم ، فكلما طلبوا إظهار الحق ، طلب هؤلاء إبطاله ، وأصله من قولهم : عاجَزه فأعْجَزَه ، إذا سابقه فسبقه .

تمهيد :

كان أهل مكة يستعجلون وقوع العذاب بهم ، استهزاءً بالنبى ﷺ ، ولكن الله لايعجل لعجلتهم ، فهناك ميعاد من الله لا يخلف ، وكم من القرى الظالمة أمهلها الله علّها تتوب أو ترجع ، حتى إذا بلغوا الحدّ الأكبر من الكفر ، أخذهم الله أخذًا وبيلا ، ليكون ذلك عبرة للمعتبرين .

ثم أردف القرآن ذلك ببيان وظيفة الرسول ﷺ ، وهى الإنذار والتخويف ، وقد وعد الله المؤمنين بالمغفرة من الذنوب ودخول دار النعيم ، وأوعد المكابرين بنار الجحيم .

التفسير :

٤٧ - وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ .

يتعجب القرآن من جرأة هؤلاء الكافرين ، فقد خوفهم النبى ﷺ ، أن يصيبهم من العذاب مثل ما أصاب الأمم السابقة ، فظنوا أن العذاب لن ينزل بهم ، وقالوا فى سخرية واستهزاء : متى ينزل هذا العذاب ؟

وقد جاء هذا المعنى فى سورة الأنفال ، فى قوله تعالى : وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢) .

لقد وعد الله المكذبين بالعذاب ، ووعد الله لا يتخلف ، وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ . لكن الله لا يعجل لعجلة هؤلاء الكافرين ، وسيلقون هذا العذاب فى الدنيا والآخرة .

وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ .

قال ابن عباس ومجاهد : يعنى : من الأيام التى خلق فيها السماوات والأرض .

وقال عكرمة : يعنى : من أيام الآخرة ، أعلمهم الله إذا استعجلوه بالعذاب فى أيام قصيرة ، أنه يأتيهم فى أيام طويلة .

وقال الفرّاء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم فى الآخرة .

وقيل : المعنى : وإن يومًا فى الخوف والشدة فى الآخرة ، كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدة ، وقد توسع القرطبى فى نقل الآراء فى تفسير هذه الآية .

والخلاصة :

إن سنة الله لابد من نفاذها ، ولابد من إهلاك الظالمين ولو بعد حين ، أممًا وأفرادًا فى الدنيا والآخرة ، أو عذابهم فى الآخرة فقط ، وإذا تأخر عذاب الآخرة أمدًا طويلا ، فلا يكون فى ذلك إخلاف للوعد ، فعشرون يومًا عند ربك كعشرين ألف سنة عندكم .

٤٨ - وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ .

تأتى هذه الآية مؤكدة لما جاء فى الآية التى قبلها ، فالله سبحانه وتعالى ، يمهل الظالمين ، ويملى لهم ولا يهملهم ، وكثير من القرى أمهلهم الله أمدًا طويلاً ، علّهم يثوبون إلى رشدهم ، أو تتفتح بصائرهم ، حتى إذا أمنوا مكر الله ، واستخفوا بعذابه أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وإلى الله تعالى وحده مرجع جميع الناس ، وإليه مصيرهم ، وحكمه نافذ فيهم حين ينادى يوم القيامة : لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

٤٩ - قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

أخبر أيها الرسول قومك أن مهمتك هى تبليغ الرسالة إليهم ، وتحذيرهم من عقاب ربهم ، وليس من مهمة الرسول تحديد العذاب ، الذى يصيب المكذبين ، فذلك إلى الله وحده .

ومهمة الرسول تقتصر على البلاغ ، ويتفرَّع عن ذلك تبشير المؤمنين بالجنة ، وتحذير الكافرين من النار.

٥٠ - فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

فالذين آمنوا إيمانًا صادقًا بقلوبهم ، ثم أثمر الإيمان فقدموا الأعمال الصالحة فى دنياهم ، هؤلاء يشملهم الله بستره ومغفرته فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة رِزْقٌ كَرِيمٌ . فى جنات النعيم .

قال تعالى : وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ . (الزخرف : ٧١) .

وروى الشيخان وأحمد والترمذى وابن ماجة ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»[٦٨] .

٥١ - وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ .

والذين سعوا فى إبطال آياتنا ، فسمَّوها مرة سحرا ومرة شعرا ومرة كهانة ، حال كونهم مسابقين المؤمنين ، يريدون أن يصدوا الناس عن دعوة محمد ﷺ ، ظنا منهم أنهم يعجزوننا ، ويتفلتون من أمرنا وبعثنا لهم ، وأننا لا نقدر عليهم ، فهم أهل النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها ، المقيمون فيها على الدوام كأنهم أصحابها كما قال تعالى : ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ . (النحل : ٨٨) .

★ ★ ★

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ ﴾

المفردات :

الرسول : من جاء بشرع جديد أنزله الله عليه ، وأيده بمعجزة تؤيد رسالته .

النبي : صاحب معجزة تؤيد نبوته ، وقد أمره الله أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله ، ولم ينزل الله عليه كتابا بشرع جديد ، فالرسول صاحب شرع ، والنبيّ حافظ شرع .

تمنى : لها عدة معانٍ ، منها : أراد ، وقرأ .

ينسخ : يزيل ويبطل .

يحكم : يحفظها من التأثر بوساوس الشيطان ، ويجعلها محكمة مثبتة لا تقبل الردّ بحال .

فتنة : اختبارًا وامتحانًا .

مرض : نفاق أو شك أو قلق .

القاسية قلوبهم : الكفار المجاهرون بالكفر .

شقاق بعيد : عداوة شديدة .

فتخبت : تذل وتخضع .

مرية : شك .

بغتة : فجأة .

الساعة : الموت .

يوم عقيم : منفرد عن سائر الأيام ، لا مثيل له فى شدته ، والمراد به : الحرب الضروس .

الملك : التصرف والسلطان .

يحكم بينهم : يقضى بين فريقى المؤمنين والكافرين .

مهين : مذل جزاء استكبارهم عن الحق .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات مواساة للنبى ﷺ من ضلال قومه، وبعدهم عن الحق، واتباعهم للشيطان، وخلاصة معناها ما يأتى :

لا تحزن أيها النبى من محاولات هؤلاء الكفار ، فقد جرت الحوادث من قبلك مع كل رسول من رسلنا، ونبى من أنبيائنا ، أنه كلما قرأ عليهم شيئا يدعوهم به إلى الحق ، تصدّى له شياطين الإنس المتمردون ، لإبطال دعوته ، وتشكيك الناس فيما يتلوه عليهم ، لكى يحولوا بين النبى وبين أمنيته فى إجابة دعوته ، فيزيل الله ما يدبِّرون ، ثم تكون الغلبة فى النهاية للحق ، حيث يثبت الله شريعته ، وينصر رسوله ، وهو عليم بأحوال الناس ومكائدهم ، حكيم فى أفعاله ، وإنما مكن الله المتمردين على الحق من إلقاء الشُّبه والعراقيل، فى سبيل الدعوة ، ليكون فى ذلك امتحان واختبار للناس ، فالكفار الذين تحجرت قلوبهم ، والمنافقون ومرضى القلوب ، يزدادون ضلالا ، بترويج هذه الشبه ومناصرتها ، وليزداد الذين أوتوا علم الشرع والإيمان به ، إيمانًا وعلمًا ، بأن ما يقوله الرُّسل والأنبياء إنما هو الحق المنزل من عند الله تعالى .

التفسير :

٥٢ - وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

كان عليه الصلاة والسلام حريصًا على هداية قومه ، حزينًا من إعراضهم عن الرسالة والدعوة ، وكان إذا قرأ القرآن الكريم ، تصدّى المنافقون ، وشياطين الإنس يؤولونه تأويلاً بعيدًا ، ويلصقون التهم بالقرآن ، فيقولون إنه سحر وشعر وكهانة ، وأساطير الأولين ، والرسول بشر يتمنى لو اتسع نطاق الدعوة ، وكثر المؤمنون ، وربما دخل عليه الشيطان من هذا الباب .

روى البخارى عن ابن عباس فى ذلك : إذا حدَّث – أى : النبى – ألقى الشيطان فى حديثه ، فيبطل الله ما يلقى الشيطان .

والمعنى : أن النبى ﷺ كان إذا حدَّث نفسه ، ألقى الشيطان فى حديثه على جهة الحيلة ، فيقول : لو سألت الله عز وجل أن يغنِّمك ليتسع المسلمون . ويعلم الله عز وجل أن الصلاح فى غير ذلك ، فيبطل ما يلقى الشيطان ، أى : أن المراد حديث النفس .

قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى الآية وأعلاه وأجله .

رأيان فى تفسير الآية

الأول :

تأويل تمنى بمعنى قرأ ، وأُمْنيَّته : بمعنى قراءته ، ويدل على استعمال التمنى بمعنى القراءة ، قول حسان بن ثابت فى عثمان بن عفان بعد قتله :

تمنى كتاب أول ليلة وآخرها لاقى حِمام المقادر

أى : قرأ كتاب الله فى أوّل الليلة ، وفى آخرها قتله الثائرون عليه .

ويكون معنى الآية :

وما أرسلنا قبلك يا محمد – رسولاً ولا نبيًا – إلا إذا قرأ وتلا كلام الله ، ألقى الشيطان فى قراءته وتلاوته ، بعض الأقاويل والأباطيل ، والشُّبه والتخيلات على أوليائه ، ليجادلوه بالباطل ويردُّوا ما جاء به ، تعجيزًا لمسيرة دعوته ، قال تعالى : وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ . (الأنعام : ١٢١) .

فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ .

فيزيل الله ما وسوس به الشيطان ، من الكلمات والخرافات والأباطيل ، التى تعلّق بها بعض الكفار ، ثم يجعل آياته محكمة محصنة مثبتة ، لاتقبل التشويه والتزييف ، أو الزيادة والنقصان .

وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

وهو عليم بكل شىء ، له الحكمة التامة والحجة البالغة ، فيجازى المفترى بافترائه ، ويظهر الحق للمؤمنين .

ومن حكمة الله تمكين الشيطان من إلقاء الشبهات ، ليحاجّ أولياؤه بها ، فيتمكن المؤمنون من ردّها، ودحض المفتريات التى يتشدقون بها ، ويرجع الحق إلى نصابه ، فتظهر الحقيقة ناصعة بيضاء من بين تلك الظلمات[٦٩] .

الرأى الثانى :

تفسير التمنى بمعنى الرغبة والإرادة .

ويكون معنى الآية :

وما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول ولا نبىٍّ ، إلا إذا تمنى ، وأراد هداية قومه إلى الحق ، ألقى الشيطان فيما تمناه ، الشُّبه فى نفوس قومه ، ليصدهم عن سبيله ، ثم يبطل الله ما يلقيه الشيطان من الشُّبه ، فى نفوس الناس ، ثم يحكم الله آياته ، ويحميها ويمنعها من أباطيل المبطلين .

وخلاصة المعنى :

إن الصراع بين الحق والباطل أمر قديم ، عرفه الأنبياء والمرسلون قبلك يا محمد ، وإن الأمر ينتهى بنصر الحق على الباطل ، بتدبير الله وحكمته ، فلا تجزع يا محمد مما يأتى به شياطين قومك من السعى بالباطل ، فى آيات الله معاجزين ، بتسويل الشيطان الرجيم ، أولئك أصحاب الجحيم وأباطيلهم إلى زوال [٧٠] .

من تفسير المراغى

قال الشيخ أحمد مصطفى المراغى فى تفسير المراغى :

هذا وقد دس بعض الزنادقة فى تفسير هذه الآية أحاديث مكذوبة لم ترد فى كتاب من كتب السنة الصحيحة ، وأصول الدين تكذبها ، والعقل السليم يرشد إلى بطلانها ، وأنها ليست من الحق فى شىء . ا هـ .

وخلاصة هذه الآراء المفتراة :

أن النبى ﷺ عندما قرأ سورة النجم وفيها هذه الآيات : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ . (النجم : ١٩ – ٢١) .

ألقى الشيطان عندها كلمات ، فقال : وإنهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى . وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة ، وانطلقت بها ألسنتهم ، واستبشروا بها ، ثم نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظ القرآن من الفرية .

وقال : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

وقد تصدى المفسرون والعلماء لبيان بطلان قصة الغرانيق ، واستدلوا على بطلانها بالقرآن والسنة والمعقول .

فالقرآن حافل بالتنديد بعبادة الأصنام ، وبيان أنها لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تجيب ، وليس لها شفاعة ، بل هى حصب جهنم ، وعبادتها احتقار للعقل ، وتقليد أحمق للآباء والأجداد .

وقد تكفل الله بحفظ كتابه من كل تحريف أو باطل ، قال تعالى : لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . (فصلت : ٤٢) .

وقال سبحانه : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ . (الحجر : ٩) .

من تفسير الفخر الرازى

نقل فخر الدين الرازى كلاما طويلا ، يفيد أن قصة الغرانيق باطلة عند أهل التحقيق ، فحديث الغرانيق واهى الأصل ، لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة .

وقال أبو بكر البزار :

هذا الحديث لا نعلمه يُروى عن النبى ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره ، وهو من ناحية موضوعه يصادم أصلا من أصول العقيدة ، وهو عصمة النبى ﷺ من أن يدس عليه الشيطان شيئا فى تبليغ رسالته [٧١] .

وقد قال الله تعالى : وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ . (النجم : ٣ ، ٤) .

وقال سبحانه : قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ... (يونس : ١٥) .

وقد روى البخارى فى صحيحه أن النبى ﷺ قرأ سورة النجم ، فلما بلغ آية السجدة سجد معه المسلمون والمشركون والإنس والجن ، وليس فيه حديث الغرانيق .

ورُوى حديث البخارى من طرق كثيرة ، وليس فيها البتة حديث الغرانيق .

وقد كان أعظم سعى النبى ﷺ فى نفى الأوثان ، وضلال عبادتها .

ولو جوزنا زيادة شىء على القرآن لارتفع الأمان عن الشرع ، فإنه لا فرق فى العقل بين النقصان من الوحى وبين الزيادة [٧٢] .

وقال سبحانه : وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ . (الحاقة : ٤٤ – ٤٧) .

وقد أولع المستشرقون والطاعنون فى الإسلام بقصة الغرانيق ، والأمر لا يثبت للمناقشة ، فالنص القرآنى يقرر أن هذه قاعدة عامة ، فى الرسالات كلها مع الرسل كلهم ، من حيث تعرضها للجحود والكنود ، والإغراء والوعد والوعيد ، قال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

ومن تأمل سيرة الرسل الكرام ، وسيرة الرسول الأمين محمد ﷺ وجد التفسير واضحا ، فالعقبات فى وجه الدعوة كثيرة ، والرسول بشر ، فربَّما حاول أن يذلل العقبات من طريق الدعوة .

وربما فكر فى عمل مجلس للفقراء ، ومجلس للأغنياء تلبية لرغبات المشركين فتنزل آيات القرآن توجب أن تكون الجلسة عامة ، وأن تفتح الأبواب للناس جميعا على السواء .

قال تعالى : وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا * وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا * وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ... (الكهف: ٢٧-٢٩)، وكذلك فى قصة عبدالله ابن أم مكتوم حين أعرض عنه النبى ﷺ ، وانشغل بأغنياء مكة رجاء أن يؤمنوا ، وأن يؤمن بعدهم الأتباع والأعوان ، فنزلت سورة عبس وتولى . توضح توجيه الله العلى الكبير ، فى عرض الهدى على الناس أجمعين، فليس على الرسول إلا البلاغ ، أما الإيمان فأمره موكول إلى الله تعالى .

قال تعالى : عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ . (عبس : ١ - ١٦) .

٥٣ - لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ .

لقد أراد الله بحكمته البالغة ، أن يخلق الإنسان وأن ينفخ فيه من روحه ، وأن يعطيه العقل والاختيار والإرادة ، وأن يرسل له الرسل ، وأن ينزل له الكتب ، وأن يحقق له أسباب الهداية والإيمان ، كما أوجد بحكمته وساوس الشياطين وإغراءهم ، ووجودهم فى طريق دعوات الرسل والأنبياء ، حتى ينسخ الله كيد الشياطين، ويحكم آياته ، وتظهر الحقيقة واضحة جليّة أمام الأعين ، ويكون دسّ الشيطان وكيده فتنة وامتحانًا ،

واختبارًا وبلاء للمنافقين الذين فى قلوبهم مرض ، وللكافرين الجاحدة قلوبهم والقاسية الغليظة المتكبرة ، مثل قلوب عتاة المشركين كأبى جهل ، أو عتاة اليهود .

وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ .

وإن المنافقين والمشركين لفى عداوة بالغة ، وبعد عن الرشاد والسداد ، وعداء شديد للحق ، فلا تجزع لما يحدث من قومك يا محمد ، فشأنهم معك كشأن سائر الأمم مع الأنبياء والمرسلين قبلك ، والعاقبة للمجاهدين الصابرين .

٥٤ - وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

وليعلم المؤمنون الذين أعطاهم الله العلم النّافع ، الذى يميزون به بين الحق والباطل ، أن القرآن هو الحق النازل من عند الله ، فيزداد إيمانهم ويقينهم به ، فتخشع قلوبهم ، وتمتلىء بالخشية والإيمان ، والله تعالى يرشد المؤمنين إلى الحق والصواب فى الدنيا ، ويرشدهم إلى الصراط المستقيم الموصل إلى الجنة فى الآخرة .

٥٥ - وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ .

أى : لا يزال كفار مكة فى شك وريبة من هذا القرآن ، حتى يأتيهم الموت فجأة دون أن يشعروا ، أو يأتيهم عذاب يوم القيامة ، وقيل : عذاب يوم بدر ، حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون وفرّ الباقون .

وقد رجح العلماء أن المراد بعذاب يوم عقيم : عذاب يوم القيامة ، لأن سياق الآية بعدها يرجح أن المراد به : عذاب يوم القيامة .

قال أبو السعود :

وسمى بعذاب يوم عقيم ، لأنه لا يوم بعده ، كأنّ كل يوم يلد ما بعده من الأيام ، فما لا يوم بعده يكون عقيمًا ، والمراد به الساعة أيضًا ، كأنّه قيل : أو يأتيهم عذابها ، ووضع ذلك موضع الضمير لمزيد التهويل .

٥٦ - ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ .

الملك فى يوم القيامة لله وحده ، وهو الحكم العدل بين الخلائق فى ذلك اليوم ، فهو سبحانه :

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ .

وهو الذى ينادى يوم القيامة : لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

فى ذلك اليوم يجازى المؤمنون الذين عملوا الصالحات بدخول الجنة ، والتمتع بنعيمها ، وبكل ما فيها من نعم وخيرات .

٥٧ - وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِئَايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

والذين كفروا بالله وكذبوا رسله ، وأنبياءه ووحيه ، وعارضوا الحق والرسالة ، والدعوة إلى الإيمان ، هؤلاء لهم عذاب مذل ، حيث يدخلون جهنم صاغرين أذلاء ، جزاء كفرهم وعنادهم وقد تكرر هذا المعنى فى قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ . (غافر : ٦٠) .

★ ★ ★

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

تمهيد :

تتحدث الآيات عن جزاء المهاجرين والمقاتلين والشهداء ، وتوضح أن هذا الجزاء جزاء عظيم ، فلهم جزاء العمل المستمرّ ، كأنهم أحياء يعملون فى مرضاة الله ، ولهم فى الآخرة جنات النعيم ، ومن انتصر لنفسه ودينه ، ورد العدوان بمثله ، ثم بغى عليه المعتدون ، فقد تكفل الله بنصره ، ثم تذكر أدلة القدرة الإلهية فى إدخال الليل فى النهار والنهار فى الليل ، بمعنى زيادة الليل فى الشتاء ، ونقصانه فى الصيف .

التفسير :

٥٨ - وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ .

الذين هاجروا وتركوا الأهل والوطن ، إخلاصا لله وجهادا فى سبيله ، ثم قُتلوا شهداء أو ماتوا على فرشهم ، فإن الله يجرى عليهم جزاء أعمالهم ، ويحميهم من الفتن ، ويرزقهم دخول الجنة ، والتمتع بنعيمها،

والله أفضل الرازقين ، وأنعم به وأكرم ، حيث يعطيهم ما يفوق الخيال ، ولا يخطر لهم على بال ، ويمنحهم بغير حساب ، فهو الذى لا تفنى خزائنه ، ولا تنضب موارد نعمه ، ولا غاية لفضله وكرمه .

٥٩ – لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ .

أى : إن الله تعالى يدخل المقتول فى سبيل الله ، والميت على فراشه ، إذا خرجا مجاهدين فى سبيل الله ، يدخلهما الله جنات النعيم ، ويمتّعهما فيها بالجزاء الحسن الذى يرضيهما ، ويكرمان فى الجنة بالنعيم الدائم ، ويتمتعان فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والله سبحانه عليم بنية المهاجرين والمجاهدين ، فيجازيهم بحسب نيتهم ، فمن خرج مهاجرًا فله الجزاء الأوفى ، سواء قتل شهيدا ، أو مات على فراشه ، ما دام راغبا فى الشهادة ، فمن طلب الشهادة بحق ، أعطاه الله أجر الشهداء وإن مات على فراشه ، «فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى» .

أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، عن سلمان الفارسى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من مات مرابطا أُجرى عليه الرزق ، وأمن من الفتّانين ، واقرءوا إن شئتم : وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ» .

وروى عن أنس أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «المقتول فى سبيل الله ، والمتوفى فى سبيل الله بغير قتل ، هما فى الأجر شريكان» .

وروى النسائى حديثا فى معناه عن العرباض بن سارية .

وقد نزلت الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة الحج فى عثمان بن مظعون وأبى سلمة بن عبد الأسد ، ماتا بالمدينة مهاجرين ، ولم يقتلا فى سبيل الله ، فقال بعض المؤمنين : من قُتل فى سبيل الله أفضل ممن مات حتف أنفه ، فنزلت هاتان الآيتان ، تسويان بينهما ، لأن كليهما عاهد الله على الموت فى سبيله ، بهجرته لنصرة دينه[٧٣] .

٦٠ – ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ .

أى : الأمر ذلك الذى تقدم بيانه ، من حسن جزاء المهاجرين ، الذين قتلوا فى سبيل الله أو ماتوا .

ثم استأنف القرآن فبين حق المسلمين فى رد العدوان ، والانتصاف من الظالمين .

فقال ما معناه :

إن من قوتل ظلما ، فدافع عن نفسه ، وعاقب الظالم بمثل عقوبته ، وجازى من اعتدى عليه ، ثم بُغى عليه بإلجائه إلى الهجرة ، ومفارقة الوطن ، وابتدائه بالقتال ، لينصرنه الله نصرًا مؤزرًا .

إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ .

لمن أخذ بحقه ، وانتقم من ظالمه ، وإن كان العفو أقرب إلى التقوى ، قال تعالى : وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ... (الشورى : ٤٠) .

سبب النزول :

جاء فى تفسير مقاتل بن سليمان ما يأتى :

إن مشركى مكة لقوا المسلمين « لليلة بقيت من المحرم» فقال بعضهم لبعض : إن أصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فاحملوا عليهم ، فناشدهم المسلمون ألا يقاتلوهم فى الشهر الحرام ، فأبى المشركون إلا القتال ، فبغوا على المسلمين فقاتلوهم وحملوا عليهم ، وثبت المسلمون ، فنصر الله المسلمين عليهم ، فوقع فى أنفس المسلمين شىء من القتال فى الشهر الحرام ، فأنزل الله عز وجل : ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ .

إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . يعفو عنهم لقتالهم فى الشهر الحرام(٧٤) .

٦١ - ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ .

أى : إن سنة الله فى نصر من يقع عليه البغى ، وهو يدفع عن نفسه العدوان سنة مطردة ، مثل سننه تعالى الكونية التى تشى بالدقة والنظام فى هذا الكون ، ومن ذلك طول الليل فى الشتاء حتى يصل إلى ١٤ ساعة ، وقصره فى الصيف حتى يصل إلى عشر ساعات ، هذه السنّة الكونية تتكرر كل عام ، ويراها الناس أمام أعينهم ، فى دقة عجيبة لا تختل ، وفى اطراد عجيب لا يتخلف ، وهى تشى بأن وراء هذا الكون البديع، ونظامه الدقيق ، يدا حانية تمسك بنظامه ، وتحفظ توازنه ، وهذه القدرة العالية ، تنصر المظلوم الذى يدافع عن حقه ، وينتصف من ظالمه ، ويدفع البغى والعدوان ، كما أنها تمدّ الليل فى الشتاء حتى يدخل فى النهار ، ويقتطع جزءا منه عند الشروق والغروب ، وتمدّ النهار فى الصيف حتى يأخذ جزءا من الليل ، عند الشروق والغروب .

وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ .

أى : إن الله سميع لكل قول ، بصير بكلِّ حال ، ولذلك ينصر عباده المؤمنين ، ويعلم نظام الكون وسننه المطردة ، فى طول الليل حينا وطول النهار حينا آخر .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (آل عمران : ٢٦ ، ٢٧) .

٦٢ – ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ .

أى : ذلك الاتصاف بكمال القدرة وكمال العلم ، بسبب أن الله هو الإله الذى لا إله معه ، وهو لذلك المعبود بحق ، وأن ما يعبده المشركون من دون الله من الأصنام والأوثان ، وكل ما عبد من غير الله هو باطل لا يقدر على صنع شىء ، ولا يملك ضرًا ولا نفعًا ، لأنه عاجز ضعيف ، ومصنوع مخلوق لربه القادر .

وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ .

أى : ولأن الله هو العظيم الذى لا أعظم منه ، العلىّ الذى لا شىء أعلى منه شأنا ، الكبير الذى لا أكبر منه ولا أعز ولا أكبر منه سلطانًا ، كما قال تعالى : ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ . (الرعد : ٩) .

★ ★ ★

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

تمهيد :

تتحدث الآيات عن دلائل القدرة الإلهية ، فى إنزال المطر الذى يبعث الحياة والخضرة فى الأرض ، وله سبحانه ملك السماوات والأرض ، وقد سخر الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وحفظ نظام الكون كله ، وهو

سبحانه يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وهو الذى أحيانا ثم يميتنا عند انتهاء آجالنا ، ثم يحيينا يوم البعث ، فما أعظم قدرة الله ، وما أشد كفر الإنسان .

التفسير :

٦٣ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .

ألم تعلم أيها السامع أن الله جلّت قدرته ، يسوق السحاب ، وينزل المطر ، الذى يقع على الأرض القاحلة ، فتنبت النبات ، وتكتسى لونًا سُندسيًا أخضر ، وتتزين الأرض بكل لون بهيج ، والله لطيف بأرزاق عباده ، خبير بما فى قلوبهم من القنوط ، والغرض من الآية سوق الدليل على قدرة الله ، فإن الذى يحيى الأرض بعد موتها ، قادر على إحياء الموتى كما قال سبحانه : إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (فصلت : ٣٩) .

٦٤ - لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ .

له سبحانه ما فى الكون كله ، وما فى السماوات وما فى الأرض خلقًا وملكًا وتصرفًا ، والكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه ، وهو سبحانه غنى عن الأشياء كلها ، لا يحتاج لأحد وهو المحمود على كل حال .

٦٥ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

ومن نعم الله العديدة ، أن يسّر الله لكم الانتفاع بما فى الأرض ، من معادن وأشجار ، وحيوان ونبات ، وكنوز من البترول والذهب والحديد ، وسخر لكم الأرض وما عليها ، وذلل لكم الاستفادة بها وبما فيها ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا ركب دابة يقول : سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ . (الزخرف : ١٣) .

وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ .

وسخّر لكم السفن تسير فى البحر ، فتنقل الأشخاص والسلع التجارية ، من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم ، طبقا لسنته فى الأجسام الطافية ، حيث أجراها بالرياح الجارية ، أو بالمحركات الدائرة التى ألهمكم صنعها .

وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ .

ومن رحمته سبحانه بخلقه ، أنه خلق الأجرام والكواكب ، ودفع كلا منها فى مداره المرسوم ، وربطها

برباط الجاذبية طبقا لسنته الكونية ، وهذه الجاذبية ، من شأنها أن تجعل الأرض تجذب إليها بعض كواكب السماء القريبة منها ، لتسقط عليها ، ولكنه سبحانه جعل فى مقابل الجاذبية ما يسميه علماء الفلك بقوة الطرد المركزية ، وهى مساوية لقوة الجاذبية ، فيقع الجرم الفلكى بين قوتين متعادلتين ، مما يتيح له البقاء متوازيا فى فلكه المرسوم ، ولكن حينما يأذن الله بنهاية الخلق ، تضعف إحدى القوتين عن نظيرتها ، فيصطدم بعض الكواكب ببعضها الآخر ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ * وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ . (الانفطار : ١ ، ٢) .

إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

حيث هيأ لهم العيش المناسب ، فوق سطح الأرض وتحت كوكب السماء ، وهم آمنون مطمئنون .

٦٦ - وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ .

أى : خلقكم الله بعد أن لم تكونوا شيئا يذكر ، ثم يميتكم عند انتهاء آجالكم ، والموت نعمة قال تعالى: ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ . (عبس : ٢١ ، ٢٢) .

ثُمَّ يُحْيِيكُمْ . يوم القيامة للبعث والحشر والجزاء والحساب ، فهو سبحانه الخلاق العليم بيده الخلق والأمر : قال تعالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (البقرة : ٢٨).

أى : كنتم فى عالم العدم ، ثم أحياكم الله عند تلقيح الذكر للأنثى ، ونفخ الروح فى الجنين بقدرة الله، وولادته إلى الدنيا ؛ ثم يموت الإنسان عند انتهاء أجله ، ثم يبعث يوم القيامة بقدرة الله .

وقريب من ذلك قوله تعالى : قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ. (غافر : ١١)

الموتة الأولى وجودهم فى عالم العدم ، ثم الحياة الأولى بالولادة إلى الدنيا ، والموتة الثانية عند خروج الروح ، والحياة الثانية عند البعث ، وإحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم ، بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية .

إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ .

أى : جحود لربه ؛ حيث خلقه وصوَّره ، وأحياه ثم أماته ، ثم أحياه بالبعث ، وهو يجحد قدرة الله ، وينكر البعث ، ويقول : لن يحيينى الله بعد موتى .

قال تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس : ٧٨ ، ٧٩) .

وذهب بعض المفسرين إلى أن الحياة الأولى كانت والإنسان فى عالم الذرّ حين أخذ الله العهد على ذرية آدم وهم فى أصلاب آبائهم أن يعبدوه وألا يشركوا به شيئًا ، كما قال سبحانه : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ... (الأعراف : ١٧٢) .

وذهب آخرون إلى أن هناك حياة فى القبر حين تردّ الروح إلى الميت ويُسأل : من ربك ، وما دينك ، ومن نبيك . فيجيب ، ثم تسحب منه الروح ويعود الى الموت .

بيد أن ابن كثير فى تفسيره ذهب إلى ضعف هذين الرأيين إذ يترتب على كل واحد منهما أن تكون هناك ثلاث إحياءات ، ورجح ابن كثير رأى جمهور المفسرين وهو : أن الموتة الأولى وجود الإنسان فى عالم العدم، ثم ولادته فى هذه الدنيا ، ثم موته عند خروج روحه، ثم حياته عند البعث يوم القيامة . والله أعلم.

★ ★ ★

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

المفردات :

منسكا : شريعة ومنهاجا ومتعبدا .

ناسكوه : عاملون به .

فلا ينازعنك : أى : لا ينبغى لهم أن ينازعوك ، فى أمر الدين ، وهو نهى يراد به النفى ، أى : فلا يجوز لهم أن يخاصموك فى أمر الإسلام أو يجادلوك فى أوامره وتكاليفه ؛ لأن أمر دينك أظهر من أن يقبل النزاع .

جادلوك : ناقشوك وخاصموك .

التفسير :

٦٧- لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ...

قيل : نزلت هذه الآية بسبب جدال الكفار فى أمر الذبائح ، وهم كفار خزاعة ، قالوا للمسلمين : تأكلون

ما ذبحتم ، ولا تأكلون ما ذبح الله من الميتة ؟ أو ، ما لكم تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله ؟ فكان ما قتل الله أحق أن تأكلوه ، مما قتلتم أنتم بسكاكينكم ، فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة (٧٥) .

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ .

لكل أمة من الأمم جعلنا شريعة ومنهاجا يتعبدون بهذه الشريعة ؛ ويلتزمون بأحكامها ويتنسكون بتعاليمها ؛ مع تناسب هذه التعاليم مع مقتضيات الزمان والمكان ، فقد أنزل الله التوراة على موسى بنحوٍ من الشدّة ، لعلاج التمسك بالمادة ، ثم أنزل الإنجيل متمما لحكم التوراة ، مع علاج الروح وإشاعة المحبة ، والعناية بجوهر الدّين ، لا بمجرد المظاهر والشكليات والطقوس ، ثم أنزل القرآن حينما نضج العقل البشرى؛ لإرساء معالم دستور الحق ، والجمع بين العناية بالمادة والروح ، والتركيز على معايير العلم ، واستخدام العقل ، فكان أوّل دين يضع أسس الحضارة الإنسانية الشاملة ، وكان تشريعه وسطًا بين الشرائع ؛ وكانت هذه الأديان صالحة للزمان الذى جاءت فيه .

فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ .

أى : إذا كان هذا هو شأن التدرج فى الشرائع ؛ فلا ينبغى لمعاصريك يا محمد أن ينازعوك فى أمر الدين ، فلكل أمة شريعة خاصة ؛ تناسب الزمان الذى جاءت فيه ، ثم جاء القرآن ناسخا لتلك الشرائع ؛ ومهيمنًا عليها ، يقر الصحيح ، وينبه إلى الزيف ، ويحذّر من الباطل ، فلا ينبغى لهم منازعتك فى أمور دينك، والمراد : تهييج النبى ﷺ ، وتثبيته على الحق ، وعدم الالتفات إلى ما يثيره الآخرون ، من شبهات وتشكيك.

وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ .

أى : استمر فى دعوتك إلى منهج الله ، وهو الإسلام ، فإن دينك هو الدين الحق ، وهو الهداية النافعة الناجحة الوسط ، والإسلام هو الصراط المستقيم ، والقرآن هو الركن الركين ، وتلك الدعوة الإسلامية هى الدعوة التى تناسب الزمان والمكان ، وهى دعوة وسط ؛ تناسب حال الناس إلى يوم القيامة ، فقد علم الله أنها خاتمة الرسالات ؛ فضمنها مقومات صلاحها وخلودها ، فهى شريعة خالدة ؛ فيها اليسر ومراعاة المصلحة العامة ، ورفع الحرج عن الناس ، وإعمال العقل ، والدعوة إلى الاجتهاد والاستنباط ، والتفقه فى أحكام الدين ، حتى يستنبط العلماء من روح هذا الدين ونظامه ، ما يناسب مستجدات الأمة إلى يوم القيامة.

آراء فى الآية :

ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالآية : طريقة الذبح ، وأداء المناسك فى موسم الحج ، والمكان الذى يذبحون فيه ذبائحهم .

قال الطبرى :

واختلف أهل التأويل فى معنى المنسك هنا ، فقيل : عيدا ، وقيل : إراقة الدم ... والصواب من القول فى ذلك أن يقال : عنى بذلك إراقة الدم أيام النحر بمنى ، لأن المناسك التى كان المشركون جادلوا فيها رسول الله ﷺ كانت إراقة الدم فى هذه الأيام ، ولذلك قلنا : عنى بالمناسك فى هذا الموضع الذبح. ا هـ .

وعند التأمل ، تجد أن الآية تتحدث عن نظام ومنهج ، لكل أمة من الأمم ، كما أن للإسلام نظامه ومنهجه ، فلا ينبغى لليهود أو النصارى أو المشركين ، مجادلتك أو منازعتك ، وعليك يا محمد ، أن تسير فى طريقك ، وأن تجتهد فى الدعوة إلى دين الله وهو الإسلام ، فإنه خاتمة الرسالات ، وهو الدين الوسط والصراط المستقيم .

٦٨ – وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ .

إذا بلغت رسالتك ودعوتك ، فلا تهتم بجدال المجادلين ، ومماراة أهل الباطل ، واقتصد فى جدالهم ، وقل لهم : قد بلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم .

ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ .

أى : هو العليم بما تعملون وبما أعمل ، وهو مجاز كل واحد بعمله ، فهو الشهيد علىّ وعليكم ، وهو المحاسب والمجازى كل إنسان بما عمله .

قال تعالى : وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ . (يونس : ٤١) .

وقال تعالى : هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ... (الأحقاف : ٨) .

لأنه ليس بعد إيضاح الأدلة إلا هذا اللون من الوعيد والتحذير .

٦٩ – ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

إن الآخرة هى دار الجزاء ، والثواب والعقاب ، وفى يوم القيامة يكون الحق سبحانه هو الحكم العدل ، فيكافئ الأخيار ، ويعاقب الأشرار ، وفى يوم القيامة يتبين من هو على الحق ، ومن هو على الباطل ، وسيجازى سبحانه وتعالى ، كلاً فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

الاقتصاد فى الجدال

والآيات كما ترى دعوة للمؤمنين ، أن ينشروا دعوة الله ، وأن يدعوا الناس إليها ، فإذا لمحوا راغبًا فى المراء والجدال ، جادلوه بالتى هى أحسن ، واقتصدوا فى الرد عليه .

قال القرطبى :

فى هذه الآية أدب حسن ، علمه الله عباده فى الردّ على من جادل تعنتًا ، ومراءً ، ألا يجاب ولا يناظر، ويدفع بهذا القول الذى علمه الله لنبيه ﷺ(٧٦) .

★ ★ ★

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾

المفردات :

يسير : سهل .

سلطانا : حجة وبرهانًا .

نصير : ناصر ومعين .

يسطون : يبطشون بهم من فرط الغيظ .

تمهيد :

تبين الآيات إحاطة علم الله بما فى هذا الكون ، لقد أوضح الله دلائل قدرته وألوهيته ووحدانيته ، ومع وضوح هذه الدلائل فقد عبد المشركون آلهة مدَّعاة ، ولا تستند عبادتهم لها على دليل نقلى أو عقلى ، وإذا تليت على المشركين آيات القرآن الكريم ، ظهر الغضب والإنكار فى وجوه الكافرين ، ومن شدة غضبهم ، يكادون يبطشون بمن يذكِّرهم آلاء الله ، ألا وإن عذاب النار فى الآخرة وآلامها أشد وأكثر غيظًا وألمًا ، من الغم والغيظ حين تلاوة آيات القرآن الكريم .

التفسير :

٧٠ – ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ .

هذا استفهام تقرير ، وقد قيل : إنه استفهام تقرير للغير [٧٧] .

فعلم الله تعالى شامل للسماء وما فيها ، من أفلاك وأبراج وشموس وكواكب وملائكة وغير ذلك ، وعلم الله شامل للأرض بكل ما فيها من إنس وجن ، وبحار وأنهار ، ونبات وسائر المخلوقات ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السماء ولا فى الأرض .

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ .

أى : كل ما يجرى فى العالم فهو مكتوب عند الله فى أم الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ .

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ .

هذه الإحاطة الشاملة بما كان وما يكون ، والرقابة الإلهية على هذا الحشد من الأشياء والأشخاص ، والأعمال والنيّات ، والخواطر والحركات ، فى عالم المنظور وعالم الضمير ، كل ذلك بالنسبة إلى قدرة الله وعلمه أمر يسير ، وقيل : الفصل بين المختلفين على الله يسير .

جاء فى صحيح مسلم ، عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء» [٧٨] .

وفى السنن من حديث جماعة من الصحابة ، أن رسول الله ﷺ قال : «أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب ، قال : وما اكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن . فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة» [٧٩] .

وكتابة القلم تأكيد لمعنى الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومرّه ، وعلم الله واطلاعه ، وإحاطته بكل كبيرة وصغيرة فى هذا الكون ، ثم مجازاته سبحانه على مثقال الذرة من الحسنات والسيئات ، وإحاطته سبحانه إحاطة شاملة لكل ما فى الكون ، وهذه الإحاطة شىء يسير على الله ، فهى جزء من علمه الشامل . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ . (الأنفال : ٧٥) .

قال تعالى : ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ . (لقمان : ١٦) .

وقال تعالى : مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَ ٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . (الحديد : ٢٢ ، ٢٣) .

وقال أبو مسلم الأصفهانى : إِنَّ ذَ ٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ . المراد بالكتاب فى مثل هذا : الحفظ والضبط الشديد بحيث لا يغيب عنه مثقال ذرة .

٧١ - وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ .

يعبد المشركون أوثانًا وأصنامًا من حجارة ، لم ينزل من الله دليل أو بيان يفيد أنَّها آلهة ، فليس لديهم حجة أو دليل نقلى من عند الله على ألوهية الأصنام ، وليس لديهم دليل عقلى يذكرونه يدل على صواب عبادتهم .

قال مقاتل بن سليمان فى تفسيره :

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ . من الآلهة . مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا . يعنى : ما لم ينزِّل به كتابًا من السماء لهم فيه حجة بأنها آلهة .

وجاء فى حاشية الجمل :

وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ . أى : دليل عقلى . اهـ .

وإذا لم يكن هناك دليل نقلى من عند الله ، ولا دليل عقلى يحترم العلم والعقل والفكر والمنطق ، فاتباع الأصنام وعبادتها يكون عن تقليد للآباء والأسلاف ، أو عن جهل وشبهة وكل ذلك باطل .

وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ .

أى : ليس للكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وظلموا المسلمين بالعناد ، وظلموا الرسل بالتكذيب ، ليس لهؤلاء من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العقاب .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ . (المؤمنون : ١١٧) .

وفى الآية دليل على أن الكافر قد يكون كافرا وإن لم يعلم كونه كافرا ، وفى الآية دليل أيضًا على فساد التقليد القائم على الجهل .

٧٢ - وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

وإذا قرأ النبى المرسل القرآن واضحًا بيِّنا ، يخاطب العقل والفطرة السليمة ، فإنهم ينكرون كتاب الله ، ويكرهون سماعه ، وتلحظ ذلك الإنكار على وجوههم ، وفى أقوالهم ، وتمتد أيديهم للبطش والإيذاء للمسلمين.

يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا .

أى : يكادون يبطشون بمن يقرأ القرآن ، ويقعون بمحمد ﷺ من شدة كراهيتهم للقرآن ، ويقولون : ما شأن محمد وأصحابه ، أهم أحق بهذا الأمر منا ، والله إنهم لأشرّ خلق الله .

فأنزل الله تعالى : قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

أى : هل أخبركم بما هو أشرّ من محمد وأتباعه ، هو النار وبئس المصير فى عذابها ، وقد وعدها الله الذين كفروا جزاء كفرهم وعنادهم .

قال تعالى : إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . (الفرقان : ٦٦) .

وجاء فى تفسير المراغى :

قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ .

أى : قل لهم : أتسمعون فأخبركم بشر من ذلكم ، الذى فيكم من الغيظ من التالين للآيات ، حتى قاربتم أن تسطوا بهم ، وتمدّوا إليهم أيديكم وألسنتكم بالسوء ؟

ثم أجاب عن هذا الاستفهام فقال : ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

أى : النار وعذابها أشق وأعظم مما تخوِّفون به أولياء الله المؤمنين فى الدنيا ، ومما تنالون منهم ، إن نلتم بإرادتكم واختياركم .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾

المفردات :

ضُرب : جُعل وبُيِّن لكم حال مستغربة .

المَثَل والمِثْل : الشبه .

لا يستنقذوه : لا يقدروا على استنقاذه .

ما قدروا الله : ما عظموه ، أو ما تبينوا عظمته وقدرته وسلطانه .

قوى : قاهر لا يغلب .

عزيز : منيع لا يضام .

يصطفى : يختار .

ما بين أيديهم : ما يستقبلونه .

وما خلفهم : وما يستدبرونه .

التفسير :

٧٣ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ .

يا كلَّ الناس ، سأحكى لكم قصة عجيبة ، فاستمعوا لها ، بتدبر وتعقل ، والمثل قول سائر يشبَّه مضربه - وهو الذى ضرب فيه - بمورده - وهو الذى ورد فيه أولا - وما ذكر فى الآية ليس مثلا لكنه قصة عجيبة تشبه المثل فى غرابتها واستحسانها[٨٠] .

إن المعبودات الباطلة التى تعبدونها أيها المشركون لن تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة ، حتى لو اشتركت جميعها فى محاولة خلق هذه الذبابة .

روى الشيخان وأحمد ، عن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ قال : «قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ؟ فليخلقوا ذُرة ، فليخلقوا شعيرة»[٨١] .

وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .

أى : فضلاً عن عجز الأصنام مجتمعة عن خلق ذبابة ، فإن الذباب لو اختطف منها شيئا من الأشياء ، لا تستطيع الأصنام استرداده لعجزها عن ذلك .

عن ابن عباس : أنهم كانوا يطلون الأصنام بالزعفران ، ورءوسها بالعسل ، فإذا سلبه الذباب عجزت الأصنام عن أخذه[٨٢] .

ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ .

أى : ضعف الصنم ، فهو عاجز تمامًا عن الحركة ، أو استرداد ما أخذ منه ، وضعف المطلوب وهو الذباب .

قال القرطبى :

وخص الذباب لأربعة أمور تخصّه : لمهانته ، وضعفه ، ولاستقذاره ، وكثرته ، فإذا كان هذا الذى هو أضعف الحيوان وأحقره ، لايقدر من عبدوه من دون الله على خلق مثله ، ودفع أذيته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين ، وأربابا مطاعين ، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان .

وقال السدّى :

ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ .

الطالب العابد الذى يطلب الخير من الصنم ، والمطلوب الذى هو الصنم ، فكل منهما حقير ضعيف .

فالله سبحانه هو القوى المتين ، وهو يمدّ بالقوة والنصر من أطاعه والتزم منهجه ، أما من عصاه فهو هين ضعيف مهين ، وكذلك الصنم الذى يعبد من دون الله .

٧٤ - مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ .

لم يعظموا الله حق عظمته ، حين يرون آثار قدرته وعظمته ، فى ملكوت السماوات والأرض ، وإحاطته بغيب السماوات والأرض ، وضعف الأصنام وعجزها ، ثم يعبدون هذه الأصنام ويسجدون لها ، ويجعلونها آلهة تعبد من دون الله .

إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .

إنه سبحانه لقوى قادر عظيم القدرة والسلطان . وهو سبحانه عزيز غالب على أمره ، وما سواه مهين ضعيف ذليل مغلوب .

٧٥ - ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ .

ومن آثار قدرته وحكمته وعظمته ، اختيار أمناء الوحى من الملائكة ، ليحملوا أمانة الوحى من السماء إلى الأرض ، ويختار للرسالة من البشر من هو أجدر وأولى وأحق بذلك قال تعالى : ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ... (الأنعام : ١٢٤) .

وقال تعالى : وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ . (الدخان : ٣٢) .

يقال : إن الوليد بن المغيرة استكثر الرسالة على محمد ﷺ فقال : أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ... (ص : ٨).

فنزل قوله تعالى : ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ .

فأمر اختيار الرسل من الملائكة ومن الناس ، مفوّض إليه سبحانه لا إلى أحد سواه .

إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ .

فهو سبحانه عظيم السمع ، يسمع ويرى كل صوت ومشهد ، وقد أحاط بكل شىء علما ، وقريب من هذه الآية قوله وتعالى : وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ . (الزخرف : ٣١ ، ٣٢) .

٧٦ - يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ .

يعلم علما تاما بأحوال الملائكة والرسل والمكلفين ، وما يستقبلونه من أحداث ، ويعلم ما يخلفونه من آثار ، فلا يخفى عليه شىء من أمورهم .

وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ .

وإليه سبحانه الملك والقدرة والأمر والنهى ، والحساب والجزاء يوم القيامة .

قال تعالى : لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨) ﴾

المفردات :

فى الله : فى سبيله .

جاهدوا : الجهاد استفراغ الوسع فى مجاهدة العدوّ ، وهو ثلاثة أضرب :

١ – مجاهدة العدو الظاهر كالكفار .

٢ – مجاهدة الشيطان .

٣ – مجاهدة النفس والهوى وهذه أعظمها .

اجتباكم : اختاركم .

حرج : ضيق أو شدة .

ملة : شريعة .

اعتصموا بالله : استعينوا به وتوكلوا عليه .

مولاكم : ربكم ومالك أمركم ومدبر شئونكم .

النصير : المعين .

تمهيد :

تختم السورة بهذه الآيات الحكيمة ، التى تستحث المسلمين على الصلاة والعبادة وأفعال الخير والبر ، رجاء الفلاح والسيادة فى الدنيا والنجاة فى الآخرة ، ثم تدعو المسلمين إلى الجهاد فى سبيل الله حق الجهاد ، فالمسلمون أمة وسط ، فى شريعتها يسر وسهولة ، وفى دينها تعقل وحكمة ، وفى عباداتها ومعاملاتها رعاية لمصالح الناس ، وعقيدة الألوهية الإسلامية ، تتفق مع الرسالات السابقة ، ومع المنقول والمعقول ، من أجل ذلك فالمسلمون مؤهلون لقيادة البشرية ، نحو عقيدة سليمة ، وملّة معتدلة ، وعبادات حقة ، ومعاملات نظيفة ، بشرط أن يلتزم المسلمون بدينهم فى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، واتباع أوامر الله

والتمسك بهديه ، وحين اتبع المسلمون هدى الله آتاهم الله سعادة الدنيا والآخرة ، ثم تتابعت قرون سوداء، ابتعد المسلمون فيها عن تعاليم القرآن ، فسلب الله منهم المنزلة السامية ، وإذا عاد المسلمون إلى هدى القرآن ، وتمسكوا بحبل الله نصرهم الله ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

التفسير :

٧٧ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

تحث الآية على إقامة الصلاة ، وذكرت الركوع والسجود ، لأنهما سمة الخشوع والخضوع والالتزام بأمر الله ، ثم أمرتهم بعبادة الله والتزام أمره ، واجتناب نهيه وتوخِّى رضاه ، ثم أمرتهم بفعل الخير ، وهى جملة عامة تشمل كل أنواع الخير ، من صلاة وزكاة وصيام وحج ، وصلة الرحم وإكرام الجار ورعاية اليتيم ، ومساعدة المحتاج وبر الوالدين ، وزيارة المريض ، والسعى فى تكافل المسلمين وتراحمهم وتعاطفهم ، وإصلاح ذات البين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدفاع عن الإسلام ، والعمل على تبليغ الدعوة الإسلامية على وجهها السليم ، ناصعة مشرقة جديرة بتحريك دواعى القبول ، وفعل الخير سبيل الفلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة .

٧٨ - وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ...

تدعو الآية إلى الجهاد فى سبيل الله ، والقرآن الكريم حافل بالدعوة إلى الجهاد ، والحث على الشهادة ، فى سبيل الإسلام ونصر الدين ومقاومة الكافرين ، وأعداء الدين ، ومن أنواع الجهاد ، جهاد الشيطان ، وسد منافذه وإفساد خططه وحيله .

قال تعالى : إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ... (فاطر : ٦) .

وقال عز شأنه : يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ... (الأعراف : ٢٧) .

وقال تعالى : إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ . (النحل : ٩٩ ، ١٠٠) .

ومن أنواع الجهاد جهاد النفس والهوى وذلك بالمشارطة، والمراقبة، والمعاتبة، والمعاقبة، والمحاسبة، والإخلاص فى الدعاء ، فيشترط على نفسه الاستقامة، والبعد عن المعاصى، ويراقب نفسه فى تصرفاتها، ويلومها على الأخطاء ، فإذا تكررت الأخطاء ، عاقب نفسه بالصيام، أو تلاوة القرآن ، أو غير ذلك.

وعلى المسلم أن يجلس وقتًا مَا فى نهاية كل يوم لتصفية الحساب مع نفسه ، فإن وجد خيرا فليحمد الله ، وإن وجد معصية ، ندم واستغفر ، وجدد التوبة والالتجاء إلى الله تعالى ، طالبًا منه قبول التوبة والهداية والمعونة .

وأفضل الجهاد ، مقاومة الظلم ، قال رسول الله ﷺ : «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[٨٣] .

أخرجه ابن ماجة ، والخطيب، وأحمد ، والطبرانى ، والبيهقى .

هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .

هو سبحانه اختاركم واصطفاكم لحمل خاتم الأديان ، وأرسل إليكم خاتم الرسل ، وأنزل إليكم أكرم الكتب السماوية ، وأتم الله عليكم نعمته بالتأييد والنصر .

وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .

ولم يجعل فى الدين الذى تعبدكم ضيقا لا مخرج منه ، ولم يكلفكم ما يشق عليكم ، بل جعل التكاليف فى حدود الوسع والطاقة لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... (البقرة : ٢٨٦) .

يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ . (البقرة : ١٨٥) .

ومن ذلك التيسير أنه أباح للمسافر قصر الصلاة ، والإفطار فى رمضان ، وأباح لنا التيمم عند فقد الماء ، أو تعذر استعماله ، وأباح فى الصلاة القيام والقعود والنوم على الجنب ، حسب الحالة الصحية للمصلى ، وأباح الفطر فى رمضان للحامل والمرضع والمشتغل فى الأعمال الشاقة ، ولم يوجب علينا الجمعة فى المساجد حين السفر أو المطر ، أو الخوف من عدو أو سبع ، إلى نحو أولئك ، كما فتح الله لنا باب التوبة ، وشرع لنا الكفارات فى حقوقه ، ودفع الدِّية بدل القصاص إذا رضى الولى .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (المائدة : ٦) .

وقوله عز شأنه : رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ . (البقرة : ٢٨٦) .

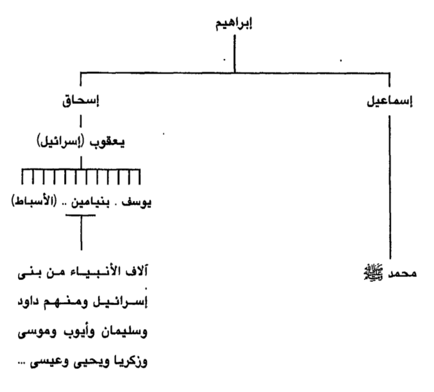
مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ .

أى : وملتكم هى ملة أبيكم إبراهيم الحنيفية السمحة ، وإبراهيم هو الذى بنى البيت الحرام ، ودعا الناس إلى حجه والصلاة فيه ، بتكليف من الله تعالى ، ونحو الآية قوله تعالى : قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . (الأنعام : ١٦١) .

قال ابن جرير : وهو منصوب على تقدير : الزموا ملة أبيكم إبراهيم .

والمعنى :

إن دينكم الذى لا حرج فيه هو دين إبراهيم ، فالزموه لأنه الدين القيم ، ووصف سبحانه إبراهيم عليه السلام بالأبوّة لهذه الأمة ، لأن إبراهيم أب لشجرة الأنبياء ، فهو أبو الملة الإبراهيمية الحنيفية السمحة ، المائلة عن الباطل إلى الحق ، ومن نسل إبراهيم إسماعيل ، وكان من ذريته نبى واحد هو محمد ﷺ ، ومن نسل إبراهيم إسحاق ومن نسله يعقوب الملقب بإسرائيل ومن نسله الأسباط وهم الأحفاد ، أحفاد إبراهيم ، وكان من نسلهم آلاف الأنبياء لبنى إسرائيل . كما يتضح ذلك من الآتى :



هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا .

أى : الله سمّاكم بهذا الاسم الأكرم من قبل فى الكتب المقدسة وَفِى هَٰذَا . يعنى : القرآن .

وقال بعض المفسرين : الضمير يعود إلى إبراهيم وذلك لقوله : رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ... (البقرة : ١٢٨) .

ورجح ابن كثير الرأى الأول فإن الله تعالى هو الذى اختار هذه الأمة وجعلها خير أمة أخرجت للناس ، وسماها أمة المسلمين بدليل ما جاء بعد هذه الفقرة ، من امتياز هذه الأمة بالشهادة على الناس، فمعها الدين الحق والشريعة السمحاء .

لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ .

أى : إنما جعلكم هكذا أمة وسطا عدولاً ، مشهودا بعدالتكم بين الأمم ، ليكون محمد ﷺ شهيدا عليكم يوم القيامة ، بأنه قد بلغكم ما أرسل به إليكم ، وتكونوا شهداء على الناس بأن الرسل قد بلغوهم ما أرسلوا به إليهم ، وإنما قبلت شهادة الأمة الإسلامية على الناس لسائر الأنبياء ، لأنهم لم يفرّقوا بين أحد منهم ، وعلموا أخبارهم من كتابهم على لسان نبيهم .

روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : «يدعى نوح – عليه السلام – يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب ، فيقال له : هل بلّغت ما أرسلت به ؟ فيقول : نعم ، فيقال لأمّته : هل بلغكم؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، فيقال له من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . فيشهدون بأنه قد بلغ»[٨١] .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... (البقرة : ١٤٣) .

فالأمة الإسلامية أمة وسط .

حيث إن مكة فيها البيت الحرام وهو فى منطقة وسط ، أشبه بمنتصف الدائرة حيث يتجه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها فى الصلاة إلى البيت الحرام ، والإسلام رسالة كاملة ، ساسها القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والاجتهاد الذى يعتمد على فهم النصوص وروح التشريع والقياس والاستحسان وأعمال الصحابة وسد الذرائع والمصالح المرسلة وغير ذلك من القواعد ، التى تكسب الفقه الإسلامى مرونة ، وصلاحية للتطبيق فى كل زمان ومكان . وكان اليهود قد بالغوا فى المادية ، فنزلت التوراة مشتملة على تشريعات فيها بعض العقوبات وتحريم بعض الطيبات .

قال تعالى : فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ... (النساء : ١٦٠) .

ثم جاءت المسيحية تهتم بالنواحي الروحية : ويعتبر العهد الجديد – أى : الأناجيل – متمما للعهد القديم أى : للتوراة والتلمود . (والتلمود) كتاب صعب وهو مقدس عند اليهود كتقديس التوراة ويقول المسيح عليه السلام : (ما جئت لأنقض الناموس بل لأتممه) ، ثم جاء الإسلام ، جامعا بين المادة والروح ، والعناية بالإلهيات والنبوات والعبادات والمعاملات ، مع العناية بالتقوى ويقظة الضمير ونظافة القلب ، وحسن العلاقة مع الله ، أى أن الإسلام اشتمل على محاسن المبادىء والدعوات ، وتخلّص من مساوئها .

فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ .

أى : قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها ، فأدوا حقَّ الله عليكم فى أداء ما افترض ، وترك ما حرم، ومن أهم ذلك : إقام الصلاة كاملة فى أوقاتها بخشوعها ، وإيتاء الزكاة التى كلفكم الله بها إلى مستحقيها .

وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ .

استعينوا بالله وتمسكوا بحبله وتوكلوا عليه وتأيَّدوا به ، هو حافظكم وناصركم على أعدائكم .

فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ .

نعم الولى ونعم المعين ، فمن تولاه كفاه كل ما أهمه ، وإذا نصر أحدًا أعلاه على كل من خاصمه ، إذ لا ناصر فى الحقيقة سواه ، ولا ولىّ غيره ، فله الحمد وهو رب العالمين .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة الحج

١ – وصف أهوال يوم القيامة .

٢ – جدال عبدة الأوثان بدون حجة أو برهان .

٣ – تطور خلق الجنين فى بطن أمّه .

٤ – دلائل القدرة الإلهية .

٥ – الله يحكم بين عباده يوم القيامة ، ويجازى كل فريق بما يستحق .

٦ – منزلة المسجد الحرام .

٧ – تكليف إبراهيم بدعوة الناس إلى الحج

٨ – بعض مناسك الحج .

٩ – حكمة مشروعية الجهاد .

١٠ – تسلية الرسول ﷺ ليصبر على أذى قومه ، وذكر ما أصاب المكذبين من الأمم السابقة .

١١ – شياطين الجن والإنس يقفون فى وجه دعوات الرسل والمصلحين .

١٢ – فضل الهجرة ، وفضل الدفاع عن النفس والدِّين .

١٣ – ألوان من تعنت المشركين ، وبطشهم بالمؤمنين .

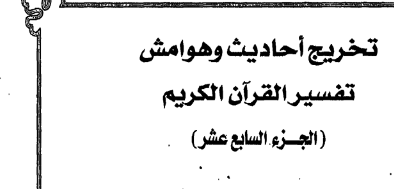
١٤ – ضعف الأصنام ، وعظيم قدرة الله .

١٥ – اصطفاء جبريل من الملائكة ، واصطفاء الرسل من الناس .

١٦ – أفضلية الأمة المحمدية وشهادتها على الناس يوم القيامة .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير الجزء (السابع عشر) ويليه تفسير الجزء (الثامن عشر) إن شاء الله



تخريج أحاديث وهوامش تفسير القرآن الكريم

(الجـــزء السابع عشر)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

جمال سعيد فهمي

(١) تفسير ابن كثير ١٧٥/٣ .

(٢) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب .

(٣) إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ :

رواه البخارى (١ ، ٦٦٨٩ ، ٦٩٥٣) ومسلم فى كتاب الإمارة حديث رقم (٣٥٣٠) ، والترمذى فى كتاب فضائل الجهاد حديث رقم (١٥٧١) والنسائى فى كتاب الطهارة حديث رقم (٧٤) والطلاق حديث رقم (٣٣٨٣) والأيمان والنذور حديث رقم (٣٧٣٤) ، وأبو داود فى كتاب الطلاق حديث رقم (١٨٨٢) ، وابن ماجة فى كتاب الزهد حديث رقم (٤٢١٧) وأحمد فى مسنده حديث رقم (١٦٣ ، ٢٨٣) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

(٤) التفسير الوسيط د . محمد سيد طنطاوى ٢٥٤/١٧ .

(٥) ضيزى : جائرة غير عادلة .

(٦) انظر تفسير النص السادس ، والعبارة من تفسير المنار .

(٧) الأنعام ١٤ ، وانظر تفسير القاسمى ١١-٤٢٦٦ .

(٨) تفسير القاسمى ١١-٤٢٦٧ .

(٩) الروم : ١٩ .

(١٠) انظر تفسير القاسمى ١١-٤٢٦٨ .

(١١) تفسير الآيات ٣٠-٣٣ من كتاب تفسير الآيات الكونية د. عبد الله شحاته .

(١٢) عجبًا لأمر المؤمن :

أخرجه مسلم (٢٩٩٩) ، وأحمد (١٨٤٥٥ ، ١٨٤٦٠ ، ٢٣٤٠٦ ، ٢٣٤١٢) ، والدارمى (٢٧٧٧) ، من حديث صهيب بن سنان قال : قال رسول الله ﷺ : «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له» .

(١٣) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٢٨/١٧.

(١٤) ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب :

رواه البخارى فى المرضى باب : ما جاء فى كفارة المرضى (٥٦٤٢) ومسلم فى البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٣) عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر الله بها عنه ، حتى الشوكة يُشاكها». ورواه البخارى فيما تقدم (٥٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى ، وعن أبى هريرة،

عن النبى ﷺ قال : «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حَزَن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يُشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياه» . رواه الترمذى فى تفسير القرآن باب : ومن سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبى هريرة قال : «لما نزلت : ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ : شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبى ﷺ ، فقال : «قاربوا وسددوا ، وكل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها» . هذا حديث حسن غريب .

(١٥) لا حسد إلا فى اثنتين :

رواه البخارى فى العلم (٧٣) ، والزكاة (١٤٠٩) ، والأحكام (٧١٤١) والاعتصام (٧٣١٦) ومسلم فى صلاة المسافرين (٨١٦) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٠٨) وأحمد (٤٠٩٨) من حديث عبد الله بن مسعود . ورواه البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٢٦) وأحمد (٩٨٥٧) من حديث أبى هريرة . رواه البخارى فى التوحيد (٧٥٢٩) ومسلم فى صلاة المسافرين (٨١٥) والترمذى فى البر والصلة (١٩٣٦) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٠٩) وأحمد (٦٣٦٧،٤٥٣٦) من حديث ابن عمر .

(١٦) خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة :

رواه مالك فى الموطأ كتاب النداء للصلاة (٢٤٣) ومسلم فى كتاب الجمعة (٨٥٤) وأبو داود فى كتاب الصلاة (١٠٤٦) والترمذى فى كتاب الجمعة (٤٨٨ ، ٤٩١) والنسائى فى كتاب الجمعة (١٣٧٣) (٨٩٥٤ ، ٢٧٦٠) من حديث أبى هريرة.

(١٧) ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله :

رواه البخارى فى الزكاة (١٤٦٩) والرقاق (٦٤٧٠) ومسلم فى الزكاة (١٠٥٣) ومالك فى الموطأ كتاب الجامع (١٨٨٠) والترمذى فى البر (٢٠٢٤) والنسائى فى الزكاة (٢٥٨٨) والدارمى فى الزكاة (١٦٤٦) وأحمد فى مسنده (١٠٧٠٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده : فقال : «ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر». ورواه البخارى فى الزكاة (١٤٢٨) وأحمد فى مسنده (١٤٩٠٢ ، ١٥١٥٠) من حديث حكيم بن حزام رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول ، وخير الصدقة عن ظهر غنى ، ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله» . وعن وهيب قال : أخبرنا هشام ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ بهذا .

(١٨) فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة :

رواه الترمذى فى الإيمان (٢٦٣٩) ، وابن ماجة فى الزهد (٤٣٠٠) وأحمد (٦٩٥٥) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله سيخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة : فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : احضر وزنك ، فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال : إنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شىء» . واللفظ للترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب . وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» وزاد نسبته لابن حبان، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، واللالكائى ، والبيهقى فى البعث عن عبدالله بن عمرو .

(١٩) كلمتان خفيفتان على اللسان :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٤٠٦) والأيمان والنذور (٦٦٨٢) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٦٩٤) والترمذى فى الدعوات (٣٤٦٧) وابن ماجة فى الأدب (٣٨٠٦) وأحمد فى مسنده (٧١٢٧) من حديث أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمان : سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده» .

(٢٠) تفسير القرطبى ١١/٣٠٠ .

(٢١) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار :

رواه البخارى فى التفسير (٤٥٦٣) من حديث ابن عباس : ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ .

(٢٢) انظر تفسيرى القرطبى والآلوسى .

(٢٣) إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب :

رواه البخارى فى الاعتصام (٧٣٥٢) ومسلم فى الأقضية (١٧١٦) وأبو داود فى الأقضية (٣٥٧٤) وابن ماجة فى الأحكام (٢٣١٤) وأحمد فى مسنده (١٧٣٢٠) من حديث عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب ؛ فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ ؛ فله أجر» .

(٢٤) كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٢٧) والفرائض (٦٧٦٩) ومسلم فى الأقضية (١٧٢٠) وأحمد فى مسنده (٨٠٨١) من حديث أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «مثلى ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا فجعل الفراش وهذه الدواب تقع فى النار وقال : كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتها : إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داود ؛ فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه، فقال : ائتونى بالسكين أشقه بينهما فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله ، هو ابنها فقضى به للصغرى». قال أبو هريرة: والله إن سمعت بالسكين إلا يومئذ وما كنا نقول إلا المدية .

(٢٥) لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود :

رواه البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٤٨) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٣) والترمذى فى المناقب (٣٨٥٥) من حديث أبى موسى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال له : «يا أبا موسى ، لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود» .

(٢٦) لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب:

رواه البخارى فى الزكاة (١٤٧٠ ، ١٤٨٠) والترمذى فى الزكاة (٦٨٠) والنسائى فى الزكاة (٢٥٨٩) وأحمد فى مسنده (٧٢٧٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره ، خير له من أن يأتى رجلا فيسأله أعطاه أو منعه» .

(٢٧) أشدكم بلاء الأنبياء:

بوّب به البخارى كتاب المرضى ، ورواه الترمذى فى الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجة فى الفتن (٤٠٢٣) ، وأحمد (١٤٨٤ ، ١٤٩٧، ١٥٥٨ ، ١٦١٠) ، والدارمى فى الرقاق (٢٧٨٣) ، من حديث سعد بن أبى وقاص ، وقال الترمذى : حسن صحيح.

(٢٨) دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت :

الترمذى فى الدعوات (٣٥٠٥) وأحمد فى مسنده (١٤٦٥) من حديث سعد قال : قال رسول الله ﷺ : «دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له» .

(٢٩) لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٦٩، ٣٤١٢ ، ٣٤١٣) والتفسير (٤٦٣٠) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٧) وأحمد فى مسنده (٢١٦٨) من حديث ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : «لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى» . ورواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٦) والتفسير (٤٦٣١) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٦) من حديث أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : «لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى». ورواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٤٦٠٣) وأحمد فى مسنده (٣٦٩٥) من حديث عبد الله بن مسعود ، عن النبى ﷺ قال : «ما ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس ابن متى» .

(٣٠) الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣) وأحمد فى مسنده (٩٠١٧) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» .

(٣١) تفسير الكشاف للزمخشرى ، مصطفى البابى الحلبى بمصر ٥٨٣/٢ .

(٣٢) إنكم محشورون حفاة عراة غرلا :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٦٠) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٣) وتفسير القرآن (٣٣٣٢) والنسائى فى الجنائز (٢٠٨١) والدارمى فى الرقاق (٢٨٠٢) وأحمد فى مسنده (١٩١٦، ٢٠٩٧) من حديث ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : «إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ثم قرأ ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾ وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم وإن أناسًا من أصحابى يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابى أصحابى، فيقول : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى...﴾ إلى قوله : ﴿العزيز الحكيم﴾ . ورواه البخارى فى الرقاق (٦٥٢٧) ومسلم فى الجنة (٢٨٥٩) والنسائى فى الجنائز (٢٠٨٣) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٨٦) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٤٤) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول ﷺ : «تحشرون حفاة عراة غرلا، قالت عائشة : فقلت: يارسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ، فقال : الأمر أشد من أن يهمهم ذاك» . ورواه الدارمى فى الرقاق (٢٨٠٠) من حديث ابن مسعود أن النبى ﷺ قيل له : ما المقام المحمود ، قال : «ذاك يوم ينزل الله تعالى على كرسيه يئط كما يئط الرحل الجديد من تضايقه به وهو كسعة ما بين السماء والأرض ويجاء بكم حفاة عراة

غرلا ، فيكون أول من يكسى إبراهيم ، يقول الله تعالى : اكسوا خليلى : فيؤتى بريطتين بيضاوين من رياط الجنة، ثم أكسى على إثره ، ثم أقوم عن يمين الله مقاما يغبطنى الأولون والآخرون» .

(٣٣) تفسير ابن كثير ٢٠٢/٣ طبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر .

(٣٤) بصائر ذوى التمييز للفيروزبادى تحقيق النجار ، وقد ذهب إلى أن السورة مكية بالاتفاق . والنظم الفنى فى القرآن لعبد المتعال الصعيدى ص ٢٠٤ .

(٣٥) انظر بصائر ذوى التمييز للفيروزبادى تحقيق النجار ٣٢٣/١ ، وفى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٧١/١٧ .

(٣٦) انظر بصائر ذوى التمييز للفيروزبادى ٣٢٣/١ .

(٣٧) تحشرون حفاة عراة غرلا :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٢٧) ومسلم فى الجنة (٢٨٥٩) والنسائى فى الجنائز (٢٠٨٣) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٨٦) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٤٤) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «تحشرون حفاة عراة غرلا ، قالت عائشة : فقلت : يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ، فقال : الأمر أشد من أن يهمهم ذاك» .

(٣٨) أما عند ثلاث فلا :

رواه أحمد فى مسنده (٢٤٢٧٢) من حديث عائشة قالت : قلت : يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة قال : يا عائشة أما عند ثلاث فلا : أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا ، وأما عند تطاير الكتب فإما أن يعطى بيمينه أو يعطى بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار فينطوى عليهم ويتغيظ عليهم ، ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة : وكلت بمن ادعى مع الله إلها آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد، قال : فينطوى عليهم ويرمى بهم فى غمرات ، ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف عليه كلاليب وحسك يأخذون من شاء الله والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : رب سلم ، فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ومكور فى النار على وجهه .

(٣٩) إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٢٩٦٩) ، ومسلم فى القدر (٤٧٨١) ، وأحمد (٣٤٤١ ، ٣٨٨٢) ، والترمذى فى القدر (٢٠٦٣) .

(٤٠) أتدرى أين تذهب :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٩) والتفسير (٤٨٠٢، ٤٨٠٣) والتوحيد (٧٤٣٣) ومسلم فى الإيمان (١٥٩) وأحمد فى مسنده (٢٠٧٩٣) من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ لأبى ذر حين غربت الشمس : «أتدرى أين تذهب ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها ، يقال لها : ارجعى من حيث جئت : فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى : ﴿والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ .

(٤١) إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد :

رواه البخارى فى الجمعة (١٠٤٣، ١٠٦١) من حديث المغيرة بن شعبة قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله يوم مات إبراهيم فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال رسول الله ﷺ : «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا الله» . ورواه البخارى فى الجمعة (١٠٤٠، ١٠٤٨) ومسلم فى الكسوف (٩١٥) من حديث أبى بكرة قال : كنا عند رسول الله ﷺ فانكسفت الشمس فقام النبى ﷺ يجر رداءه حتى دخل المسجد فدخلنا فصلى بنا ركعتين حتى انجلت الشمس فقال ﷺ : «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا حتى يكشف ما بكم» .

ورواه البخارى فى الجمعة (١٠٤١، ١٠٥٧) وبدء الخلق (٣٢٠٤) ومسلم فى الكسوف (٩١١) من حديث أبى مسعود، قال النبى ﷺ : «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد من الناس ولكنهما آيتان من آيات الله فإذا رأيتموهما فقوموا فصلوا» . ورواه مسلم فى الكسوف (٩٠٤)من حديث جابر قال : انكسفت الشمس فى عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ فقال الناس : إنما انكسفت لموت إبراهيم ، فقام النبى ﷺ فصلى بالناس ست ركعات بأربع سجدات . . الحديث، وفيه : فقال : «يا أيها الناس إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس – وقال أبو بكر : لموت بشر – فإذا رأيتم شيئا من ذلك فصلوا حتى تنجلى، ما من شىء توعدونه إلا قد رأيته فى صلاتى هذه لقد جىء بالنار .. الحديث . ورواه مسلم فى الكسوف (٩٠٧) من حديث ابن عباس قال : انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلى رسول الله ﷺ والناس معه فقام قياما طويلا.. الحديث ، وفيه : ثم انصرف وقد انجلت الشمس فقال : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله» قالوا : يا رسول الله ، رأيناك تناولت شيئًا فى مقامك هذا . . الحديث .

(٤٢) اللهم اكتب لى بها عندك أجرا :

رواه الترمذى فى الجمعة (٥٧٩) والدعوات (٣٤٢٤) من حديث ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله، إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم كأنى أصلى خلف شجرة فسجدت فسجدت لسجودى؛ فسمعتها وهى تقول: اللهم اكتب لى بها عندك أجرا ، وضع عنى بها وزرا ، واجعلها لى عندك ذخرا ، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود ، قال الحسن : قال لى ابن جريج : قال لى جدك : قال ابن عباس : فقرأ النبى ﷺ سجدة ثم سجد قال : فقال ابن عباس : فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة ، قال : قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من حديث ابن عباس لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٤٣) إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى :

رواه مسلم فى الإيمان (٨١) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٠٥٢) وأحمد فى مسنده (٩٤٢٠) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى ، يقول : يا ويله». ورواية أبى كريب: «يا ويلى أُمر ابن آدم بالسجود فسجد ؛ فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار» .

(٤٤) هذان خصمان اختصموا فى ربهم :

رواه البخارى فى المغازى (٣٩٦٦ ، ٣٩٦٩) والتفسير (٤٧٤٣) ومسلم فى التفسير(٣٠٣٣) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٣٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال : نزلت ﴿هذان خصمان اختصموا فى ربهم﴾ فى ستة من قريش : على وحمزة وعبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة . ورواه البخارى فى المغازى (٣٩٦٥،

٣٩٦٧) والتفسير (٤٧٤٤) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : أنا أول من يجثو بين يدى الرحمان للخصومة يوم القيامة ، وقال قيس بن عباد : وفيهم أنزلت ﴿هذان خصمان اختصموا فى ربهم﴾ قال هم الذين تبارزوا يوم بدر : حمزة وعلى وعبيدة أو أبو عبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة .

(٤٥) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ٢/٥٣٦ .

(٤٦) لو أن مقمعا من حديد :

رواه أحمد فى مسنده (٢٧٦٢٣) من حديث أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال : «لو أن مقمعا من حديد وضع فى الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض». وذكره السيوطى فى «الدر المنثور»، ونسبه لأبى يعلى وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقى فى البعث ، وزاد فيه : «ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان» .

(٤٧) تفسير الفخر الرازى .

(٤٨) إن الله كتب الحسنات والسيئات :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٩١) ومسلم فى الإيمان (١٣١) وأحمد فى مسنده (٢٥١٥) وأحمد فى مسنده (٢٧٨٦) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل قال : «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة» . ورواه البخارى فى التوحيد (٧٥٠١) ومسلم فى الإيمان (١٢٨ ، ١٣٠) وأحمد فى مسنده (٧١٥٥) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن علمها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف» . ورواه مسلم فى الإيمان (١٦٢) من حديث أنس أثناء ذكره لحديث الإسراء والمعراج وفيه : «حتى قال يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرا ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا فإن عملها كتبت سيئة واحدة قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ...» الحديث .

(٤٩) تفسير الفخر الرازى .

(٥٠) ألا أنبئكم بأكبر الكبائر :

رواه البخارى فى الشهادات (٢٤٦٠) ، والأدب (٥٥١٩ ، ٥٥٢٠) ، ومسلم فى الإيمان (١٢٦ ، ١٢٨) ، وأحمد (١١٨٨٦ ، ١٩٤٩١ ، ١٩٤٩٩) .

(٥١) عدلت شهادة الزور بالشرك بالله :

رواه أبو داود فى الأقضية (٣٥٩٩) والترمذى فى الشهادات (٢٣٠٠) وابن ماجة فى الأحكام (٢٣٧٢) (١٨٤١٩) من حديث خريم بن فاتك الأسدى أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح فلما انصرف قام قائما فقال : «عدلت

شهادة الزور بالشرك بالله» . ثلاث مرات ، ثم تلا هذه الآية ﴿واجتنبوا قول الزور﴾ إلى آخر الآية . قال أبو عيسى : هذا عندى أصح ، وخريم بن فاتك له صحبة وقد روى عن النبى ﷺ أحاديث وهو مشهور. ورواه الترمذى فى الشهادات (٢٢٩٩) وأحمد فى مسنده (١٧٥١) من حديث أيمن بن خريم أن النبى ﷺ قام خطيبًا فقال : «أيها الناس، عدلت شهادة الزور إشراكا بالله». ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ . قال أبو عيسى : وهذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد ، واختلفوا فى رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعا من النبى ﷺ .

(٥٢) التقوى هاهنا :

رواه مسلم فى البر (٢٥٦٤) والترمذى فى البر (١٩٢٧) وأحمد فى مسنده (٧٦٧٠ ، ٨٠٤٢) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى هاهنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» .

(٥٣) أهدى عمر بن الخطاب نجيبا :

رواه أبو داود فى المناسك (١٧٥٦) وأحمد فى مسنده (٦٢٨٩) من حديث ابن عمر قال : أهدى عمر بن الخطاب نجيبا فأعطى بها ثلاث مائة دينار فأتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إنى أهديت نجيبا فأعطيت بها ثلاث مائة دينار أفأبيعها وأشترى بثمنها بدنا ، قال : «لا ، انحرها إياها» .

(٥٤) إنما سمى الله البيت العتيق :

رواه الترمذى فى التفسير (٣١٧٠) من حديث عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ : «إنما سمى البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . قال السيوطى فى «الدر المنثور» : وأخرج البخارى فى تاريخه، والترمذى وحسنه، وابن جرير، والطبرانى، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقى فى الدلائل، عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إنما سمى البيت العتيق ؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط» . قال المناوى فى الفيض : قال الحاكم : على شرط مسلم ، وأقره الذهبى ، وأقول: فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث ، ضعفه الأئمة ، وبقية رجاله ثقات .

(٥٥) سنة أبيكم إبراهيم :

رواه ابن ماجة فى الأضاحى (٣٢١٧) وأحمد فى مسنده (١٨٧٩٧) من حديث زيد بن أرقم ، قال أصحاب رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ما هذه الأضاحى ؟ قال : «سنة أبيكم إبراهيم» قالوا : فما لنا فيها يارسول الله ؟ قال : «بكل شعرة حسنة». قالوا : فالصوف يا رسول الله ؟ قال : «بكل شعرة من الصوف حسنة» . وذكره الترمذى فى الأضاحى تعليقا بقوله : ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «الأضحية لصاحبها بكل شعرة حسنة». ويروى بقرونها .

(٥٦) بكبشين أملحين :

رواه البخارى فى الأضاحى (٥٥٥٨ – ٥٥٦٤ ، ٥٥٦٥) ومسلم فى الأضاحى (١٩٦٦) من حديث أنس قال : ضحى النبى ﷺ بكبشين أملحين ، فرأيته واضعا قدمه على صفاحهما يسمى ويكبر فذبحهما بيده .

(٥٧) ابعثها قياما مقيدة :

رواه البخارى فى الحج (١٧١٣) ومسلم فى الحج (١٣٢٠) من حديث زياد بن جبير قال : رأيت ابن عمر رضى الله عنهما أتى على رجل قد أناخ بدنته ينحرها ، قال : ابعثها قياما مقيدة سنة محمد ﷺ .

(٥٨) إن الله لا ينظر إلى صوركم :

رواه مسلم فى البر (٢٥٦٤) وابن ماجة فى الزهد (٤١٤٣) وأحمد فى مسنده (٧٧٦٨) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» .

(٥٩) الأملح : الذى بياضه أكثر من سواده .

(٦٠) الصفاح : الجوانب ، والمراد : الجانب الواحد من وجه الأضحية ، وإنما ثنّى إشارة إلى أنه فعل ذلك فى كل منهما .

(٦١) البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة :

رواه مسلم فى الحج (١٣١٨) وأبو داود فى الضحايا (٢٨٠٩) والترمذى فى الحج (٩٠٤) والأضاحى (١٥٠٢) وابن ماجة فى الأضاحى (٣١٣٢) وأحمد فى مسنده (١٣٧١٣) من حديث جابر بن عبد الله قال : نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة .

(٦٢) راح فكأنما قرب بدنة :

رواه البخارى فى الجمعة (٨٨١) ومسلم فى الجمعة (٨٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرب بدنة ، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» .

(٦٣) علّه يشير إلى الآية ٩ من سورة الأحزاب ، وكذلك الآيات ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ من سورة الأحزاب حيث يقول سبحانه : ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا﴾ (الأحزاب : ٢٥) .

(٦٤) فى سورة هود ذكر القرآن قصة نوح مع قومه ، وهود مع عاد ، وصالح مع ثمود ، ولوط مع قومه ، وشعيب مع مدين ، وموسى مع فرعون ، وقد نصر الله فى هذا القصص الرسل وأهلك المكذبين ، وانظر الآية (١٢٠ هود) .

(٦٥) تفسير مقاتل بن سليمان ، (٨٠ - ١٥٠هـ) تحقيق د . عبد الله شحاته ، المجلد الثالث طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م ، ص ١٣٠ .

(٦٦) إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :

رواه البخارى فى التفسير باب : قوله : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ (٤٤٠٩) ومسلم فى البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم (٢٥٨٣) وابن ماجة فى الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته» . قال : ثم قرأ : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ .

٦٧) إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر والشرح :

قال السيوطى فى «الدر المنثور» : وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ فقلنا : يارسول الله، كيف انشراح صدره ؟ قال : «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح . قلنا يارسول الله ، فما علامة ذلك ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت» . قال العراقى فى تخريج الإحياء : رواه الحاكم فى المستدرك، من حديث ابن مسعود .

٦٨) أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٤٤) ، والتفسير (٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠) ، والتوحيد (٧٤٩٨) ومسلم فى الجنة (٢٨٢٤)، والترمذى فى التفسير (٣١٩٧ ، ٣٢٩٢) وابن ماجة فى الزهد (٤٣٢٨) ، وأحمد (٩٣٦٥ ، ٩٦٨٨ ، ١٠٠٥١)، والدارمى فى الرقاق (٢٨٢٨) من حديث أبى هريرة .

٦٩) تفسير المراغى ١٣٠/١٧ .

٧٠) التفسير الوسيط ، تأليف لجنة من العلماء بالأزهر ، حزب ٣٤ ، ص ١٢٣٩ .

٧١) انظر أيضًا تفسير فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب .

٧٢) انظر تفسير الفخر الرازى للآية .

٧٣) التفسير الوسيط ، تأليف لجنة من علماء الأزهر ، ص ١٢٤٦ بتصرف .

٧٤) تفسير مقاتل بن سليمان ، تحقيق د. عبد الله شحاته ١٣٥/٣ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٧٥) تفسير مقاتل بن سليمان ، تحقيق د. عبد الله شحاته ١٣٧/٣ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٧٦) تفسير القرطبى ٤٦١٣/٥ ط ٢ دار الغد العربى ٣ ش دانش العباسية القاهرة .

٧٧) تفسير القرطبى ٤٦١٣/٥ دار الغد العربى ٣ ش دانش العباسية القاهرة .

٧٨) كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات :

رواه مسلم فى القدر (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعرشه على الماء» .

٧٩) أول ما خلق الله القلم :

أخرجه الترمذى (٢١٥٥ ، ٣٣١٩) ، وأبو داود (٤٧٠٠) ، وأحمد (٢٢١٩٧ و ٢٢١٩٩) ، من حديث عبادة بن الصامت – رضى الله عنه – . وقال الترمذى : حسن غريب . وقال الشيخ الألبانى : صحيح .

(٨٠) انظر تفسير الكشاف حيث قال : «فإن قلت : الذى جاء به سبحانه ليس بمثل ، فكيف سماه مثلا ؟ قلت : قد سميت الصفة أو القصة الرائعة المتلقاة بالاستغراب مثلا ، تشبيها لها ببعض الأمثال السائرة لكونها مستحسنة مستغربة» .

(٨١) ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى :

رواه البخارى فى اللباس (٥٩٥٣) وأحمد فى مسنده (٧١٢٦) من حديث أبى هريرة أنه رأى مصورا يصور قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة». ثم دعا بتور من ماء فغسل يديه حتى بلغ إبطه فقلت : يا أبا هريرة شىء سمعته من رسول الله ﷺ قال : منتهى الحلية .

(٨٢) تفسير النسفى ١١١/٣ .

(٨٣) أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر :

رواه أبو داود فى الملاحم (٤٣٤٤) والترمذى فى الفتن (٢١٧٤) وابن ماجة فى الفتن (٤٠١١) وأحمد فى مسنده (١٠٧٥٩) من حديث أبى سعيد . وقال الترمذى : حديث غريب . ورواه النسائى فى البيعة (٤٢٠٩) وأحمد فى مسنده (١٨٣٤٩ ، ١٨٣٥١) من حديث طارق بن شهاب . ورواه ابن ماجة فى الفتن (٤٠١٢) وأحمد فى مسنده (٢١٦٥٤) من حديث أبى أمامة .

(٨٤) يجىء نوح وأمته :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٣٩) والتفسير (٤٤٨٧) من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «يجىء نوح وأمته فيقول الله تعالى : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، أى رب ، فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا، ما جاءنا من نبى ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد ﷺ وأمته ، فنشهد أنه قد بلغ ، وهو قوله جل ذكره: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾ . والوسط : العدل .



تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله وبها تم الجزء (السابع عشر)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله الجزء (السابع عشر)

ويليه الجزء (الثامن عشر) بإذن الله

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثامن عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته







تفسير سورة المؤمنون

أهداف سورة المؤمنون

سورة «المؤمنون» مكية ، وآياتها ١١٨ آية ، نزلت بعد الأنبياء ، وسميت سورة «المؤمنون» لافتتاحها بفلاح المؤمنين .

المؤمنون والإيمان :

تبدأ السورة بذكر صفات المؤمنين ثم يستطرد السياق فيها إلى دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق ، ثم إلى حقيقة الإيمان كما عرضها رسل الله – صلوات الله عليهم – من لدن نوح – عليه السلام – إلى محمد ﷺ خاتم الرسل والنبيين ، وشبهات المكذبين حول هذه الحقيقة واعتراضاتهم عليها ؛ ووقوفهم فى وجهها؛ حتى يستنصر الرسل ربهم ، فيهلك المكذبين وينجى المؤمنين ... ثم يستطرد إلى اختلاف الناس بعد الرسل فى تلك الحقيقة الواحدة التى لا تتعدد ... ومن هنا يتحدث عن موقف المشركين من الرسول ﷺ ويستنكر هذا الموقف الذى ليس له مبرر وتنتهى السورة بمشهد من مشاهد القيامة يلقون فيه عاقبة التكذيب ، ويؤنبون على ذلك الموقف المريب ، وتختم السورة بتعقيب يقرر التوحيد المطلق والتوجه إلى الله بطلب الرحمة والغفران ... فهى سورة «المؤمنون» أو هى سورة الإيمان بكل قضاياه ودلائله وصفاته وهو موضوع السورة ومحورها الأصيل .

الأقسام الرئيسية فى السورة :

يمضى سياق سورة «المؤمنون» فى أربعة أقسام رئيسية تتناول تاريخ الدعوة وحاضرها وتسوق الأدلة الحسية والنفسية على الإيمان بالله .

القسم الأول :

يبدأ القسم الأول بتقرير الفلاح للمؤمنين :

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ .

ويبين صفات المؤمنين هؤلاء الذين كتب لهم الفلاح ، ويثنى بدلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق فيعرض أطوار الحياة الإنسانية منذ نشأتها الأولى إلى نهايتها فى الحياة الدنيا ، متوسعا فى عرض أطوار الجنين ، مجملا فى عرض المراحل الأخرى ... ثم يتابع خط الحياة البشرية إلى البعث يوم القيامة ، وبعد ذلك ينتقل من الحياة الإنسانية إلى الدلائل الكونية : فى إنزال الماء ، وفى إنبات الزرع والثمار ، ثم إلى الأنعام المسخرة للإنسان ، والفلك التى يُحْمَل عليها ، وعلى الحيوان .

ويستغرق هذا القسم من أول السورة إلى الآية ٢٢.

القسم الثانى :

يشير القسم الثانى إلى قصة نوح – عليه السلام – وهلاك الكافرين ، ثم يتبع ذلك ببيان سنة الله فى إرسال الرسل لهداية الناس ، وإبلاغهم كلمة الحق والإيمان ، ودعوتهم إلى الله ، فيقول نوح لقومه : يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ... (المؤمنون : ٢٣) .

ويقول هذه الحقيقة كل نبى ورسول : يقولها موسى ، ويقولها عيسى ، ويقولها محمد ﷺ ، ويكون اعتراض المكذبين دائما : مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ... (المؤمنون : ٣٣) .

ويقدم الكفار عددا من الحجج والأدلة على تكذيبهم ، فيلجأ الرسل إلى ربهم يطلبون نصره ؛ فيستجيب سبحانه وينجى المؤمنين ويهلك الكافرين .

قال تعالى : ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ . (المؤمنون : ٤٤) .

وينتهى هذا القسم ببيان وحدة الرسالات ووحدة الأمم المؤمنة ، فالرب واحد ، والإيمان واحد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

قال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ . (المؤمنون : ٥١ ، ٥٢) .

ويستغرق هذا القسم الآيات من ٢٣ – ٥٢ .

القسم الثالث :

يتحدث القسم الثالث عن تفرق الناس بعد وصول الرسل إليهم ، وتنازعهم حول تلك الحقيقة الواحدة التى جاء بها الرسل : فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ . (المؤمنون : ٥٣) .

ثم يتحدث عن غفلتهم عن ابتلاء الله لهم بالنعمة ، واغترارهم بما هم فيه من متاع ، بينما المؤمنون مشفقون من خشية ربهم يعبدونه ولا يشركون به ، ويخشون غضبه ويرجون رحمته ، وهنا يرسم مشهدا لأولئك الغافلين المغرورين يوم يأخذهم العذاب فإذا بهم يجأرون ، فيأخذهم التوبيخ والتأنيب :

قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ . (المؤمنون : ٦٦ ، ٦٧).

ويستنكر السياق موقفهم العجيب من رسولهم الأمين ، وهم يعرفونه ولا ينكرونه ، وقد جاءهم بالحق لا يسألهم عليه أجرا ، فماذا ينكرون منه ومن الحق الذى جاءهم به ؟ وهم يسلمون بملكية الله لمن فى السماوات والأرض ، وربوبيته للسماوات والأرض ، وسيطرته على كل شىء فى السماوات والأرض ، وبعد هذا التسليم هم ينكرون البعث ويزعمون لله ولدًا سبحانه ! ويشركون به آلهة أخرى : عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ . (المؤمنون : ٩٢) .

ويستغرق هذا القسم الآيات من ٥٣ – ٩٢.

القسم الرابع :

فى القسم الرابع والأخير حث للرسول أن يدعهم وشركهم وزعمهم ، وأن يدفع السيئة بالتى هى أحسن وأن يستعيذ بالله من الشياطين فلا يغضب ولا يضيق صدره بما يقولون .. ثم يرسم السياق مشهدا من مشاهد القيامة يصور ما ينتظرهم هناك من عذاب ومهانة وتأنيب . ويختم السورة بتنزيه الله سبحانه : فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ . (المؤمنون : ١١٦) .

وينفى الفلاح عن الكافرين ، ليناسب ابتداءها بإثباته للمؤمنين ، وفى آخر آية أمر للنبى ﷺ أن يتوجه إلى الله بطلب المغفرة والرحمة : وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ . (المؤمنون : ١١٨) .

ويستغرق هذا القسم الآيات من ٩٣ – ١١٨ .

مظاهر عامة للسورة

جو السورة كلها جو البيان والتقرير ، وجو الجدل الهادئ ، والمنطق الوجدانى واللمسات الموحية للفكر والضمير ، والروح السارية فى السورة هى روح الإيمان ففى مطلعها مشهد الخشوع فى الصلاة ، وفى وسطها مدح للإيمان والإحسان : وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ . (المؤمنون : ٦٠) .

وفى اللمسات الوجدانية تجد قوله سبحانه : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ . (المؤمنون : ٧٨) .

وكلها مظللة بذلك الظل الإيمانى اللطيف [1] .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

الفلاح : الظفر بالمراد ، والإفلاح : الدخول فى الفلاح ، كالإبشار الدخول فى البشارة .

خاشعون : خاضعون متذللون .

اللغو : هجر القول وقبيحه .

الزكاة : تزكية النفس وطهارتها بفعل العبادة المالية .

الفرج : سوءة الرجل والمرأة .

حافظون : متعففون عن الحرام .

وراء ذلك : غير ذلك .

العادون : المبالغون فى العدوان ومجاوزة الحدود الشرعية .

راعون : حافظون ، وأصل الرعى : حفظ الحيوان وتغذيته ، ثم استعمل فى الحفظ مطلقا .

الفردوس : أعلى درجات الجنان فى الآخرة .

التفسير :

١، ٢– قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ .

هذه سورة «المؤمنون» ، وقد بدأت السورة بذكر صفات المؤمنين ؛ وهى :

١ – الخشوع فى الصلاة .
٢ – البعد عن اللغو .
٣ – إيتاء الزكاة .
٤ – البعد عن الزنا واللواط والانحراف .
٥ – أداء الأمانة .
٦ – الوفاء بالعهد .
٧ – المحافظة على الصلاة .

وجزاؤهم هو الفردوس الأعلى فى الجنة ، وهى منزلة سامية تستحق كل تضحية ، فلنتأمل الصفات التى استحقوا بها هذه المنزلة .

الخشوع فى الصلاة :

خشوع الصلاة روحها وحقيقتها ، ويقصد به حضور القلب ، والتأمل فى تلاوة القرآن ، وفى أداء الأركان ، واليقظة والتفهم لما يؤديه المسلم ، وهو واقف أمام الله تعالى .

جاء فى تفسير ابن كثير :

والخشوع فى الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها ، وآثرها على غيرها؛ وحينئذ تكون راحة له ، وقرة عين .

روى الإمام أحمد ، والترمذى ، والنسائى : أن رسول الله ﷺ قال : «لقد أنزل علىّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة» ، ثم قرأ : قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ . حتى ختم العشر [٢] .

وقال النسائى فى تفسيره ، عن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة أم المؤمنين : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ؛ فقرأت : قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ . – حتى انتهت إلى : وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ . قالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ [٣] .

إن الفلاح والنجاح والسعادة الحقة فى التزام المؤمن بأمر الله ، وتركيز ذهنه فى الصلاة ، ومراقبة مولاه ؛ وهو قائم بين يديه؛ فيتذكر عظمة الله وفضله ، ونعمه عند قراءة الفاتحة، ويؤدى الركوع فى خضوع، وكذلك يشكر الله ويحمده عند الرفع من الركوع ، ويقيم صلبه فى الصلاة حتى يعود كلّ فقار إلى موضعه ، ثم يسجد على سبعة أعظم ، وهى : الجبهة، واليدين، والركبتين، والرجلين ، ويكون سعيدًا بمناجاة الله ومناداته وعبادته ، وإذا سها أو انشغل فى الصلاة ، عاد واسترد الخشوع والاستقرار ؛ ومما يساعد على

الخشوع ، نظر المصلّى إلى موضع سجوده قائما ، وإلى قدميه راكعا ، وإلى حجره جالسًا ، وإلى أرنبة أنفه ساجدًا ، ويحاول استحضار عظمة الله ومناجاته .

أخرج الإمام أحمد ، والنسائى ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ قال : «حُبب إلى الطيب ، والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة» [٤] .

وقال أبو الدرداء : الخشوع هو : إخلاص المقال ، وإعظام المقام ، واليقين التام ، وجمع الاهتمام .

٣ - وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ .

لقد استفادوا من خشوع الصلاة ، وحسن سَمْتهم ، وإخلاصهم لربِّهم ، وتجردهم فى مقابلة الله ، والانشغال به عن كل ما سواه . استفادوا من ذلك ، الجدّ والعمل والاستقامة ، والإعراض عن اللغو والسبّ والشتم وكل ما يعيب .

إن المؤمن على ثغرة من ثغور الإسلام ؛ فهو ذاكر لله تعالى ، أو قارئ للقرآن، أو دارس للسنة المطهرة، أو متفقّه فى شئون الدين ، أو متدارس مع إخوانه عوامل نفع المؤمنين وجمع كلمتهم ، ودفع العدوان عليهم، وللمؤمن من إيمانه بالله ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ؛ ما يعصمه عن اللغو ، وهو كل كلام ساقط حقه أن يلغى ، كالكذب والهزل والسبّ ، وعن كل ما لا فائدة فيه ، ومن الأسف أن يضيع وقت المسلمين فى لعب النرد ، والجلوس على المقاهى ، وارتياد الملاهى ، والانشغال بالسفاسف ، وترك الجدّ والعمل والتقدم والنشاط والانشغال بالعلوم والفنون .

حتى أصبحت جماهير المسلمين تصنف ضمن العالم الثالث ، ولا سبيل إلى التقدم ، إلا بالعمل والأمل، والجدّ وإعداد العدة والقوة .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف : ٣٠) .

٤ - وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ .

من صفات المؤمنين إخراج الزكاة ، وهى لغة : النماء والزيادة ، وشرعا : تمليك مال مخصوص ، لشخص مخصوص ، وهى فى معناها البسيط : معونة الفقير بجزء من المال ، وهى فريضة محكمة ، ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنة والإجماع ، وقد حث الدين على أدائها ، وتوعَّد تارك الزكاة بعذاب السعير ، كما تكرر الأمر بها فى القرآن الكريم ، وقرنت بالصلاة فى اثنتين وثمانين آية .

قال تعالى : وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . (البقرة : ١١٠) .

والزكاة طريق للتكافل الاجتماعي، والتراحم والتعاون بين الأغنياء والفقراء، والمؤمن يؤدي زكاة ماله، ويتطوع بالصدقات؛ تفاديا للشح والبخل ونفورا من طاعة الشيطان، الذي يحث على الإمساك والبخل.

قال تعالى : ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة : ٢٦٨).

وقال ﷺ : «بني الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا» (٥) .

أنواع الزكاة

الأنواع التي تجب فيها الزكاة شرعا خمسة :

١ – الذهب والفضة ، ويلحق بها النقود والأوراق المالية بأنواعها ، وأسهم الشركات ؛ فتجب فيها الزكاة على أساس قيمتها .

٢ – البضائع التجارية .

٣ – المحصولات الزراعية وثمار الأشجار والكروم .

٤ – الحيوانات السائمة وغير السائمة من الإبل والبقر والغنم .

٥ – المعادن والكنوز والبترول .

ويشترط في المال الذي تجب فيه الزكاة ما يأتي :

(أ) أن يكون مملوكا لصاحبه ملكا تاما .

(ب) أن يبلغ هذا المال النصاب .

(جـ) أن تمضي سنة قمرية على هذا النصاب ، وهو مملوك لصاحبه ملكا تاما .

أما زكاة الزروع والثمار فإنها تجب عند الحصاد .

قال تعالى : وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ... (الأنعام : ١٤١) .

٥،٦،٧- وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ .

ومن صفات المؤمنين العفة والاستقامة ، والبعد عن الزنا واللواطة ، وفى الحديث الشريف : «من يضمن ما بين لحييه ورجليه أضمن له الجنة» [٦] .

فالمؤمن يحفظ فرجه عن الحرام ، وكذلك المؤمنة ، والتسامى بالغرائز ، والبعد عن الشهوات ؛ أمر دعا إليه القرآن الكريم ، وحث عليه الرسول الأمين ، قال تعالى : وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ... (النور : ٣٣) .

وقال رسول الله ﷺ : «ما ظهرت الفاحشة فى قوم يُتعامل بها علانية ؛ إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فيمن قبلهم» [٧] .

وقال عليه الصلاة والسلام : «يا معشر الناس ، اتقوا الزنا ، فإن فيه ست خصال ، ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة ، أما التى فى الدنيا : فيورث الفقر ، ويذهب البهاء ، وينقص العمر ، وأما التى فى الآخرة: فسخط الله ، وسوء الحساب ، وعذاب النار» .

وقد أحل الله الزواج وحث عليه ، قال تعالى : وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . (النور : ٣٢) .

وحرمَ الله الزنا ونهى عنه ، قال تعالى : وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا . (الإسراء : ٣٢) .

وقال تعالى : ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . (النور : ٢) .

والآيات ٥ - ٧ من سورة «المؤمنون» ترسم طريقا للعفة والاستقامة ، والمتعة الحلال ؛ فالمؤمنون يحفظون فروجهم ، وهو كناية عن ستر الفرج وعدم كشف العورة ، وكناية عن البعد عن الزنا واللواطة وكل جماع محرّم .

لكن يباح للمؤمن جماع زوجته ، كما يباح للمؤمنة جماع زوجها ، وهذا أمر معروف ، وفى الأثر : «احفظ فرجك إلا عن زوجتك» [٨] .

وملك اليمين : هى الجارية التى تسبى فى قتال بين المسلمين والمشركين ، وكان الفرس والروم يعاملون المسلمين بمثل ذلك ، وجاء الإسلام والرقّ نهر يجرى ، فضيّق الإسلام منابعه ، ووسع مصباته ، حتى يجف ذلك النهر ؛ فحرّم الاسترقاق للأحرار ، وحرّم خطف الأطفال ، وحرّم جميع أنواع الاسترقاق ، إلا لأسرى الحرب ، معاملة بالمثل ، وحث الإسلام على عتق الرقاب ، وتحرير الأرقاء ، وجعل تحرير الأرقاء كفارة عن كثير من المخالفات .

قال تعالى : فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ . (البلد : ١١ - ١٣) .

وقال تعالى : لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ... (المائدة : ٨٩) .

وخلاصة معنى الآيات ما يأتى :

١ - من صفات المؤمنين الاستقامة والعفة .

٢ - يباح للمسلم الزواج وجماع زوجته الحلال .

٣ - يباح للرجل الاستمتاع بالجارية التى يملكها ، فإذا أنجبت منه صارت أم ولد ، ولا يباح بيعها ، وتعتق إذا مات مالكها .

٤ - المجتمع الإسلامى مجتمع نظيف ، ملتزم بما أحل الله ، مبتعد عما حرم الله .

٥ - من وقع فى الزنا أو اللواط ؛ صار معتديا على أعراض الآخرين ، مستحقا للعقوبة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

٦ - الاستمتاع بالإماء خاص بالرجال ، فلا يباح للمرأة الاستمتاع بالعبد بالإجماع ، لأنه مملوك لها ، وليس مالكا فهى قوامة عليه ، بخلاف استمتاع السيد بأمته ، فإنه مالك لها وقوام عليها .

مختصر من تفسير القرطبى :

فى الآيات ١ - ١١ من سورة «المؤمنون» تسع مسائل .

المسألة السابعة :

قوله تعالى : فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ . فسمى من نكح ما لا يحل عاديا ، وأوجب عليه الحدّ لعدوانه ...

والإجماع منعقد على أن قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . خص به الرجال دون النساء ؛ فقد روى معمر ، عن قتادة قال : تسررت امرأة غلامها [٩] فذُكر ذلك لعُمر فسألها : ما حملك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحل لي بملك يميني ، كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين، فاستشار عمر في رجمها ، أصحابَ رسول الله ﷺ، فقالوا : تأولت كتاب الله على غير تأويله ، فلا رجم عليها، فقال عمر : لا جرم ، والله لا أُحِلُّكِ لحرٍّ بعدها أبدًا . عاقبها بذلك ، ودرأ الحدّ عنها ، وأمر العبد ألا يقربها .

وعن أبي بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : أنا حضرتُ عمر بن عبد العزيز، حين جاءته امرأة بغلام لها وضيء ، فقالت : إني استسْرَرْتُه ؛ فمنعني بنو عمي من ذلك ، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها ؛ فانْه عني بني عمي ، فقال عمر : أتزوجت قبله ؟ قالت : نعم . فقال : أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة ، ولكن اذهبوا به فبيعوه إلى من يخرج به إلى غير بلدها .

٨ - وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ .

أي : من صفات المؤمنين أداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وهذا يشمل أداء الأمانة التي أمرهم بها الله ، والتي ائتمنهم عليها الناس ، والوفاء بالعهد : الصدق فيه والالتزام به ، والأمة لا يرتفع قدرها ، ولا يسمو شأنها ، إلا إذا كان فيها أداء الأمانة ، والوفاء بالعهد .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ... (النساء : ٥٨)

وقال عز شأنه : وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا . (الإسراء : ٣٤) .

وإذا فشا في الأمة خيانة الأمانة وخلف العهد ؛ فذلك إيذان باضمحلال شأنها ؛ لأن هذه صفات المنافقين المخادعين .

قال ﷺ : «ثلاث من كن فيه كان منافقا : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» (رواه البخاري).

وفي رواية : «وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» [١٠] .

والخلاصة : إن المؤمنين يؤدون الأمانات ويحافظون عليها ، وكذلك يحافظون على العهود ويلتزمون بها.

٩ - وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ .

والذين يواظبون على الصلاة على أكمل وجه ، في الأوقات التي رسمها الدين ، وقد بدأ الله صفات المؤمنين بالخشوع في الصلاة ، وختمها بالمحافظة على الصلاة ؛ أي : الالتزام بأدائها في أوقاتها ، مستكملة الأركان .

قال فى التسهيل :

فإن قيل : كيف كرر ذكر الصلوات أولا وآخرا ؟ فالجواب : أنه ليس بتكرار ، لأنه قد ذكر أولاً الخشوع فيها ، وذكر هنا المحافظة عليها فهما مختلفان ، وكل ذلك يدل على أهمية الصلاة ، فهى أول الأركان ، وهى أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ، وهى آخر ما وصى به رسول الله ﷺ أمّته ، حيث كان آخر وصيته: «الصلاة الصلاة ، واستوصوا بالنساء خيرا ، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم» (١١) .

وروى الشيخان ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : «الصلاة على وقتها» ، قلت : ثم أيٌّ ؟ قال : «بر الوالدين» ، قلت : ثم أى ؟ قال : «الجهاد فى سبيل الله» (١٢).

١٠ - أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ .

أى : هؤلاء المتصفون بالصفات السابقة ، أهل لميراث الجنة كأنها حق لهم ، كما يحق للابن مثلا أن يرث والده ، فشبه استحقاقهم للجنة بالميراث ، فالجزاء الحق من جنس العمل .

١١ - ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ .

الذين يرثون أعالى الجنة ، ويرزقون الخلود فيها ، خلودًا سرمديًا أبديًا ، كفاء ما زينوا به أنفسهم ، من الأخلاق الفاضلة ، والآداب العالية .

أخرج البخارى ، ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن» (١٣) .

خلاصة معنى الآيات

١ – المؤمنون هم عباد الله المتقون ، لهم فى الدنيا الفلاح والرشاد والسيادة ، وفى الآخرة الجنة .

٢ – إنهم خاشعون فى صلاتهم ، بحضور القلب ، والتبتل إلى الله وحصر الذهن ، والتأمل فى كلماتهم وعبادتهم وحسن مناجاتهم لربهم .

٣ – وهم فى معيّة ربهم ، فلا يتكلمون الفحش ، ولا ينطقون السبّ أو الشتم أو السوء ، لقد عاشوا جادّين صالحين ، عن اللغو معرضين ، وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ... (الفرقان : ٧٢) .

٤ – وهم يؤدون زكاة أموالهم حسبة لله ، ورغبة فى تزكية أنفسهم ، وتطهيرها من الشحّ والبخل .

٥،٦– وهم محافظون على العفة والاستقامة ، لا يكشفون سوءاتهم إلا لأزواجهم أو جواريهم .

٧ – من طلب قضاء شهوة فى غير زوجة له أو جارية يملكها؛ فهو معتد جائر ، مخالف للحق، هاتك للأعراض، «ومن زنى يزنى به ولو بجداره» .

٨ – والمؤمنون محافظون على الأمانة ، وأداء حقوق الناس ، والوفاء بالعهد ، والقيام بما يجب عليهم نحو خالقهم ، ونحو عباد الله .

٩ – وهم يحافظون على الصلاة فى أوقاتها، ويؤدونها كاملة الأركان والشروط، فى تبتل وإنابة وطاعة لله.

١٠، ١١– هؤلاء المؤمنون أهلٌ لميراث الجنة ، والنزول فى الفردوس الأعلى ، والخلود الأبدى السرمدى ، فى جنة عالية لا تسمع فيها لاغية .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

السلالة : ما سُلّ من الشيء واستخرج منه ، وتارة تكون مقصودة كخلاصات الأشياء ، كالزبد من اللبن، وتارة تكون غير مقصودة كقلامة الظفر ، وكناسة البيت .

ثم جعلناه : جعلنا نسله – نسل آدم – فحذف المُضاف .

نطفة : منيا ؛ بأن خلقناه من النطفة وهى المنّى .

قرار مكين : مستقر حصين أو متمكن ، يعنى : الرحم .

العلقة : الدم الجامد .

المضغة : قطعة اللحم قدر ما يمضغ .

خلقا آخر : بنفخ الروح فيه .

تبارك الله : تعالى شأنه فى قدرته وحكمته ، وتقدّس .

الخالـــقين : المقدّرين تقديرًا .

التفسير :

١٢- وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ.

أى : خلقنا آدم عليه السلام وهو أصل الإنسان، خلقه الله من خلاصة سُلّت من طين ، أو خلقنا جنس الإنسان من الطين ، باعتبار أن النطفة التى خلقوا منها، خلاصة مستلة ومأخوذة من أغذية ناشئة من الطين

والراجح أن المراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام ، لأنه استلّ من الطين وخلق منه ، كما قال تعالى وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ . (الروم : ٢٠) .

١٣- ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ.

ثم جعلنا نسله نطفة ، من منى فى أصلاب الذكور ، ثم قُذفت إلى أرحام الإناث ، فصار فى حرز مستقر متمكن حصين ، ابتداء من الحمل إلى الولادة .

قال تعالى : وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ. (السجدة : ٧ ، ٨) .

أى : من ماء ضعيف .

كما قال تعالى : أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ (المرسلات : ٢٠ – ٢٣

القرار المكين

القرار المكين هو الرَّحم ، ومن يدرس تشريح الرحم ، وموضعه المكين الأمين فى أسفل بطن المرأة ويرى ذلك الوعاء ، ذا الجدار العريض السميك ، ثم يرى هذه الأربطة العريضة والأربطة المستديرة ، وهذه الأجزاء من البريتون ، التى تشدّ إلى المثانة والمستقيم ، وكلها تحفظ توازن الرحم وتشد أزره ، وتحميه من الميل أو السقوط ، وتطول معه إذا ارتفع عند تقدم الحمل ، وتقصر إلى طولها الطبيعى تدريجيا بعد الولادة وكذلك من يدرس تكوين الحوض وعظامه ؛ يعرف جليا صدق قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ.

وكذلك فى الرحم سائل أمينوس ، داخل جيب المياه يعوم فيه الجنين بحريّة ، ويدفع عن الجنين ما قد تلاقيه الأم من صدمات وهزّات عنيفة ، قد تصل إليه فتؤذيه ، إن لم يهدئ هذا السائل من قوتها ويضعف من شدتها ، ثم هو يحتفظ للجنين بحرارة مناسبة ، حيث إنه موصل ردىء للحرارة ، وكذلك يقوم بعملية

تحديد عنق الرحم ، وتوسيعه وقت الولادة (القرن) كما يقوم بعملية التطهير أمام الجنين بما فيه من خواص مطهرة ، فكل ذلك يزيد الرحم مكنة وأمنًا» [١٤] .

وهكذا يظهر لنا مع تقدم العلم إعجاز هذا الكتاب ، وصدقه ، خصوصا أنه نزل على نبى أمِّى ، فى عصر لم تكتشف فيه هذه المعارف .

قال تعالى : سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... (فصلت : ٥٣) .

١٤ – ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ .

ثم حولنا النطفة البيضاء ، إلى علقة حمراء ، تعلق بجدار الرحم متشبثة به .

فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً .

أى : جعلنا العلقة قطعة كالمضغة من اللحم ، لا شكل فيها ولا تخطيط .

فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا .

صيرنا قطعة اللحم عظاما صلبة ؛ لتكون عمودًا للبدن .

قال ابن كثير :

شكَّلناها ذات رأس ويدين ورجلين ، بعظامها وعصبها وعروقها .

وفى الصحيح : «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجْبَ الذَّنَب ؛ منه خلق وفيه يركَّب» [١٥] .

فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا .

أى : جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويّه ؛ فأشبه الكسوة الساترة للجسم .

ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ .

أى : نفخنا فيه الروح ، فدَّبت فيه الحياة ، وتحول خلقًا مباينا للخلق الأوَّل .

قال الفخر الرازى :

حيث صار إنسانا وكان جمادًا ، وناطقًا وكان أبكم ، وسميعا وكان أصم ، وبصيرًا وكان أكمه ، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطره ، وغرائب حِكمه ؛ لا يحيط بها وصف الواصفين .

فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ .

فتعالى الله أحسن الخالقين خلقا ، وتقدّس أعظم المقدّرين المبدعين تقديرا وإبداعًا وصُنعًا ، حيث أنشأ هذا الجمال الإنسانى من تراب ؛ ثم من نطفة ثم من علقة فمضغة .

١٥- ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ .

ثم إنكم يا بنى آدم بعد هذه النَّشأة العجيبة ، والخلقة التى أبدعها الله بقدرته لابدّ صائرون إلى الموت، فهو حقيقة أزلية أبدية . كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ... (آل عمران : ١٨٥) .

١٦- ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ .

أى : بعد الموت ، يأتى البعث والحشر والحساب والجزاء ، والجنة والنار ، فالله تعالى أحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، وهذه الحياة الأخيرة ، للحساب والجزاء .

قال تعالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (البقرة : ٢٨) .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

سبع طرائق: سبع سماوات طباقا بعضها فوق بعض ، والطرائق : جمع طريقة ، سميت بذلك لأنه طورق بعضها فوق بعض ، مطارقة النعل للنعل ، وكل ما فوقه مثله فهو طريقة ، أو لأنها طرق الملائكة ، وقيل : المراد بالطرائق : الأفلاك ، لأنها طرائق الكواكب ، فيها سيرها . والأول أصح.

الخلــــق : المخلوقات التى منها السماوات السبع .

غــافـــلين : مهملين أمرها ، بل نحفظها من الزوال والاختلال ؛ وندبر أمرها حتى تبلغ منتهى ما قدّر لها من الكمال .

التفسير :

١٧- وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ .

فى الآيات السابقة حديث عن خلق الإنسان ، ومروره بمراحل متعددة : نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم

عظام ثم تكسى العظام لحما، ثم تنفخ فيه الروح ، وتدب فيه الحياة فيصبح إنسانا فيه السمع والبصر ، والبطش والعقل والحياة ، وكثيرا ما يقرن القرآن بين خلق الإنسان وخلق السماوات والأرض .

قال تعالى : لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ... (غافر : ٥٧) .

ومعنى الآية : ولقد خلقنا فوقكم سبع سماوات متطابقة ، كل سماء تشبه الأخرى، وهي أيضا طرق للملائكة ، وطرق للكواكب .

وفي معنى الآية قوله تعالى : أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا . (نوح : ١٥) .

وقوله سبحانه : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا . (الطلاق : ١٢) .

وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ .

لقد خلقنا الإنسان ، وخلقنا كل شيء بحكمة وقدر ، ولم نخلق الخلق ثم نهمله أو ننساه كما ادعى بعض الفلاسفة ، بل استمرت عنايتنا بالمخلوقات ، واستمر حفظنا لها ؛ لكفالة بقائها واستمرارها ، ونحن نعلم ما يحدث فيها من صغير أو كبير .

قال تعالى : وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ . (الأنعام : ٥٩).

وقال تعالى : يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . (الحديد : ٤) .

★ ★ ★

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

السماء : السماء في اللغة : كلُّ ما علاك ؛ والمراد بالسماء هنا : إما السحاب، فمنه ينزل المطر . وإما السماء المعروفة ، والمقصود من إنزال المطر من السماء ، إنزاله بسببها ؛ فإن المطر أصله أبخرة صاعدة من البحار ، بسبب تسلط حرارة الشمس عليها ، والشمس من السماء .

بقدر : بتقدير خاص ، وهو مقدار كفايتهم .

فأسكناه في الأرض : جعلناه ثابتا قارًا في الأرض .

الذهاب : الإزالة ، بأن نحبس المطر عنكم ، أو ننقله إلى جهات أخرى ، أو نجعله يغور في الأرض ، إلى أماكن بعيدة لا تقدرون على استنباطه منها .

الشجرة : شجرة الزيتون .

طور سَيْنَاء : هو جبل الطور الذي ناجى فيه موسى ، ويسمى طور سينين .

وصبغ للآكلين : إدام يصبغ فيه الخبز ؛ أي : يُغمس فيه ، ويلوّن به ، كالخل والزيت .

تمهيد :

يمتن الله على عباده بنزول المطر ، وإنبات البساتين والنخيل والأعناب ، والفواكه والحبوب ؛ وسائر الزروع والثمار ، كما يمتن عليهم بشجرة الزيتون في طور سيناء ؛ التي تنبت الزيت الذي يستخدم في الإنارة وفي الطعام .

التفسير :

١٨- وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ .

أنزلنا من السحاب ماءً بتقدير الإله الحكيم ، ليس أكثر من اللازم ؛ فيتحول إلى سيول وطوفان يتلف ويُغرق ، وليس أقل من اللازم ؛ فينتشر التصحُّر ، وتجدب الأرض ، ولكن الله أنزل الماء بقدر حتى إن الأرضين التي تحتاج إلى ماء كثير لزرعها ، ولا تحتمل تربتها إنزال المطر عليها ، يساق إليها الماء من بلاد أخرى

كما فى أرض مصر ، ويقال لمثلها : (الأرض الجرز) فيساق إليها ماء النيل ، من بلاد الحبشة مارًا بالسودان، ويستفيد بهذا الماء الإنسان والحيوان والنبات .

فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ .

جعلنا الماء يستقر فى الأرض ، ويخزن فيها ، ومن هذا الماء تنبع العيون والأنهار والآبار .

وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ .

لو شئنا أن نغوِّره فى بعد سحيق لفعلنا ، ولو شئنا أن نُحوِّله إلى ملح أجاج لفعلنا، ولو شئنا أن نحمله إلى بلاد أخرى لفعلنا ، ولو شئنا أن نمسك إنزاله من السماء لفعلنا ؛ فبقدرتنا ونعمتنا ننزل عليكم المطر ؛ لتستفيدوا به فى الزراعة والشرب والطهارة والاغتسال ، وبقدرتنا نحفظ جانبا منه فى الأرض ، لتستفيدوا به عند الحاجة .

ومن الواجب على العباد أن يتذكروا هذه النعمة ، وأن يديموا شكر الله عليها ، ويظهر وجه الإعجاز فى هذه الآية عندما نلمح أن الحروب القادمة ، ستكون بسبب التنازع على الماء ، وأن أفضال الله على العباد لا حصر لها ولا عدد ، وعندما نقارن بين النطفة وهى تستقر فى مكان أمين ، وهو الرحم الذى يحافظ عليها ، وكذلك ماء السماء الذى يستقر فى الأرض ، ويستفاد به عند الحاجة ، ويغذى العيون والآبار ؛ نلمح الإعجاز فى كلمة : فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ . أى : مكنّاه فى الأرض ؛ وجعلناها له قرارًا ومهدًا ؛ وسكنًا وموئلاً ، كما جعلنا رحم الأم سكنًا ومهدًا ، وموئلا للنطفة حتى يتم تخليقها بقدرة الله العلى القدير .

١٩- فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ .

فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات ، أى : بساتين وحدائق ذات بهجة ومنظر حسن ، وفيها النخيل والأعناب ، وهى أغلب فواكه العرب ، ولكم فى الجنات فواكه كثيرة متنوعة من جميع الثمار ، عدا النخيل والأعناب ، وتأكلون من ثمار الجنات وتنتفعون ، وترزقون وتتعيشون ؛ بأن تبيعوا ما زاد عن حاجتكم ، ومنه فلان يأكل من حرفته أى : يتعيش منها .

٢٠- وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ .

أى : وأنشأنا وأخرجنا لكم بالماء شجرة ، هى شجرة الزيتون ، تخرج من طور سيناء فى هذا المكان المبارك ؛ حيث كلّم الله موسى عليه السلام ، هذه الشجرة تنبت وفيها خاصية إخراج ثمر يجمع بين نعمتين:

إحداهما : نعمة الدُّهن وهو الزيت ، الذى تستعملونه فى سراجكم وسائر أموركم التى تحتاج إليه .

وثانيتهما : أنه أدم ؛ تصبغون به الخبز وتغمسونه فيه عند الأكل ؛ فاشكروا الله المنعم والمتفضل بهذه النِّعم.

فائدة :

سَيْنَآءَ . بفتح السين والمدّ معناها : الحسن باللغة النبطية ، أو معناها : الجبل المليء بالأشجار ، وقيل: مأخوذ من السَّنا بمعنى الارتفاع ، وخُصت شجرة الزيتون بالذكر ، لأنها من أكثر الأشجار فائدة بزيتها وطعامها وخشبها ، وهى من أقل الأشجار تكلفة لزراعتها .

وجمهور العرب والقرَّاء على فتح السين مع مدّ الهمزة ، وقُرئ بكسرها مع المدّ أيضًا ، وهى لغة بنى كنانة، وفيه لغات وقراءات أخرى ، كطور سينين .

★ ★ ★

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

تمهيد :

تتابع الآيات ذكر نعم الله تعالى فى خلق الحيوان ، وانتفاع الإنسان بألبانه وبركوبه ، والاستفادة بلحمه وأوباره وشعره وصوفه ، وتسخيره ليكون سفينة متنقلة فى البر ، كما أن الفلك تجرى فى البحر حتى قالوا : الجمل سفينة الصحراء .

التفسير :

٢١- وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ .

العبرة هى العظة والاعتبار ، فقد سخر الله للإنسان الحيوان ، وذلله له ليستفيد به ومن هذه الفوائد ما يأتى :

١ - الدم المتولد من الأغذية ، يتحول فى الغدد التى فى الضرع إلى شراب طيب لذيذ الطعم صالح للتغذية ، وهذا اللبن مستخلص من بين فرث ودم ، وهذا دليل القدرة واللطف الإلهى .

٢ - منافع متعددة للإنسان من الحيوانات، منها : الركوب، والاستفادة بأشعارها وأوبارها وأصوافها، وأكل لحومها.

وقريب من هذه الآية ما ورد فى آيات أخرى عن فوائد الحيوانات ومنافعها ، مثل قوله تعالى :

وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ . (النحل : ٦٦).

وقال تعالى : أَوَ لَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ * وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . (يس : ٧١ – ٧٣) .

وقال تعالى : وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ . (الزخرف : ١٢ – ١٤)

وقال عز شأنه : وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (النحل : ٥ – ٧) .

٢٢– وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ .

أى : تحملون أثقالكم وأحمالكم على الجمال فتنقل أمتعتكم وأشخاصكم من بلد إلى آخر ، مما ييسر عليكم الانتقال والتجارة . ويجعل التنقل سهلا ميسورا . كما ذكر سبحانه : وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ... (النحل : ٧) .

ومن نعم الله تسخير الفلك ، وهى السفن التى تطفو فوق الماء ، وتحركها الرياح ، وتنقل المتاع والإنسان، وتيسر الحياة ، فالسفينة تنقل الإنسان والأشياء فى البحر ، والجمل ينقل الإنسان والأشياء فى البر .

وقصارى ذلك : أن فى خلق الأنعام عبرا ونعمًا من وجوه شتَّى ، ففيها دلائل على قدرة الخالق ، بخلق الألبان من مصادر هى أبعد ما تكون منها ، ونعما لنا فى مرافقها وأعيانها ، فننتفع بألبانها وأصوافها ولحومها ، ونجعلها مطايا لنا فى أسفارنا ، إلى نحو أولئك من شتى المنافع .

★ ★ ★

قصة نوح عليه السلام

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

المــلأ : أشراف القوم .

يتفضــل : يدَّعى الفضل والسيادة .

جــنــة : جنون أو ضعف عقل .

تــربصــوا : انتظروا واحتملوا .

حــتــى حين : إلى زمن ، لعله يفيق من جنونه ، أو إلى موته .

بــأعــيــنــنــا : بحفظنا ورعايتنا .

ووحــيــنــا : أمرنا وتعليمنا .

فإذا جاء أمرنا : بالركوب ، أو نزول العذاب والإهلاك .

وفــار : نبع .

التــنــور : مكان خبز الخباز ، أو وجه الأرض ، وكان نبع الماء منه علامة لنوح عليه السلام .

فاسلك فيها : أدخل فيها .

من كل زوجين : من كل نوع زوجين : ذكرًا ، وأنثى ، من أنواع الحيوان الموجودة وقتئذ .

اثنين : تأكيد أوزيادة تأكيد .

وأهلك : أهل بيتك .

القول : القضاء بهلاكه لكفره .

استويت : علوت .

لآيات : عبرًا .

لمبتلين : مختبرين وممتحنين لهم ، أى : معامليهم معاملة من يختبر ، بإرسال نوح إليهم ووعظه لهم .

تمهيد :

تأتى قصة نوح وبعده عدد من الرسل لبيان سنة الله فى خلقه ، فقد ذكر الله فى صدر السورة عددًا من أدلة الإيمان ، منها صفات المؤمنين ، ومنها تطور خلق الجنين فى بطن أمه ، ومنها خلق الأنعام والفُلْك .

ثم ذكر قصة بعض الرسل ، وعاقبة المكذبين ؛ لتحقيق العبرة والعظة من هذا القصص ؛ ومن هذه العبر اتعاظ الغافلين، وتهديد الكافرين، وتثبيت المؤمنين، وتسجيل كفاح المرسلين، وإحياء ذكراهم وتمجيد جهادهم.

قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (يوسف : ١١١) .

التفسير :

٢٣ – وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

ولقد بعثنا نوحا رسولا منَّا إلى قومه ؛ ليدعوهم إلى توحيد الله ، ونبذ الأصنام والأوثان ؛ فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده ، فهو الإله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وليس هناك إله إلا هو ، فهو المتفضل عليكم بالنعم جليلها وقليلها ، فاتقوا عقابه واحذروا غضبه ، فأنتم فى نعمته وعافيته ؛ فاشكروه ولا تكفروا به.

٢٤ – فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ .

واجهوا دعوة الحق والهدى ، باتهام شخص الداعية ، ولم يتأملوا فى موضوع الدعوة .

والمعنى :

قال أشراف القوم وأغنياؤهم ووجهاؤهم : إن نوحًا رجل منا لا يزيد عنا فى شىء ، وهو يريد أن يميِّز نفسه ويدّعى لها منزلة سامية بهذه الدعوة ، ولو أراد الله أن يرسل رسولاً ، لجعله من الملائكة المقربين ، فهم أقرب وأكرم على الله ، فما سمعنا بهذا الذى يقوله نوح فى آبائنا الذين مضوا قبلنا حتى نصدقه .

فهم يريدون أن يجردوا البشرية كلها من فضل الرسالة وأن يقصروها على الملائكة ، مع أن الحكمة أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ؛ ليكون نموذجًا عمليا وقدوة حسنة لهم .

قال تعالى : لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... (الأحزاب : ٢١) .

٢٥- إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ .

ما نوح إلاَّ رجل به مسٌ من الجنّ ، أو هو مجنون يتخيل أنه يوحى إليه ، فيقول ما يقول ، فاصبروا عليه لعلَّه أن يفيق من جنونه ، أو ينزل به الموت فنستريح منه .

وهذه الفرية ترددت مع الأنبياء والرسل ، ومع سيدنا محمد ﷺ ، وهى تدل على تخبط هؤلاء الكفار فى دعواهم واتهامهم للرسل .

قال تعالى : بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ . (الأنبياء : ٥) .

وقال سبحانه : كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . (الذاريات : ٥٢) .

وقال تعالى : وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . (الحجر : ٦) .

وقال تعالى : وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ * بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ .
(الصافات : ٣٦ ، ٣٧)

٢٦- قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ .

قال نوح بعد أن يئس من إيمانهم ، وبعد أن مكث يدعوهم ، ويحثهم على الإيمان بكل سبيل ، وقد مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وما آمن معه إلا عدد قليل ، قيل : عشرون وقيل : ثمانون ، وأوحى الله إليه: أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ... (هود : ٣٦) .

فدعا ربَّه متبتلا راجيا أن ينصره اللَّهُ على قومه فقد كذبوه وسخروا منه ، وأصرُّوا على كفرهم وعنادهم .

قال تعالى : فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ * فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ . (القمر : ١٠ ، ١١) .

وقال عز شأنه على لسان نوح : رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا . (نوح ٢٦ ، ٢٧) .

٢٧- فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ .

أجبنا دعاء نوح ، ويسرنا له سبيل النصر ، فأمرناه أن يصنع سفينة النجاة بأمرنا وعنايتنا ؛ وحفظنا وتعليمنا ، وسيجيء الموعد لهلاك الظالمين، ومن علامة بدء الطوفان (فوران التنور) أي : تدفق الماء من الموقد ، أو الفرن الذي يخبز به الطعام ، ويطلق التنور على وجه الأرض ، كما يطلق على طلوع الفجر .

ورجح الإمام ابن جرير الطبري أن يكون المراد بقوله تعالى : وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ . أن ينبع الماء من الفرن الذي يخبز فيه ، ويفور فورانا شديدًا ، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب .

وهذه علامة على بدء الطوفان، فعلى نوح عندئذ، أن يحمل في السفينة من كل نوع يتوالد زوجين اثنين: ذكرا ، وأنثى ؛ حتى يتم التوالد بين أجناس النبات ، والطير ، والحيوان ، والإنسان ؛ وتبدأ الحياة من جديد.

كما أمر نوح أن يحمل في السفينة ، أهله المؤمنين وزوجاتهم ؛ فحمل معه أولاده الثلاثة : سام، وحام، ويافث، وزوجاتهم ، وكانت له زوجة مؤمنة فحملها معه، أمّا ابنه كنعان وأمُّه الكافرة ، فلا مكان لهما في السفينة لكفرهما، وهذا معنى قوله تعالى: فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ...

أي : إلا من سبق عليه قولنا وقضاؤنا أولاً بإهلاكه منهم ، وهما ابنك وزوجتك الكافران . ثم أمر نوح ألا يتشفع للكافرين ، ولا يحزن على هلاكهم أو غرقهم ، فقوانين الله عادلة فهو لا يحابي أحدًا ، بل يعاقب كل كافر ، وإن اشتدت قرابته من المرسلين ، ويكافئ كل مؤمن مهما كان نسبه أو ضعف منزلته .

قال تعالى : وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ .

أي : لا تشفع لمن كفر وظلم فقد قضى الأمر بهلاكهم ؛ جزاء كفرهم ، والأرجح أن المراد بهم : زوجته الكافرة ، وابنه الكافر كنعان .

٢٨- فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

فإذا استقر بك المقام ، أنت ومن معك من المؤمنين على السفينة ؛ فاشكر الله كثيرا على نجاتك أنت ومن معك من المؤمنين ، وقل : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ . الشكر الجزيل لله الذى أغرق الكافرين الظالمين ، ونجانا ومن معنا من المؤمنين .

قال ابن عباس :

كان فى السفينة ثمانون إنسانا : نوح وامرأته سوى التى غرقت ، وثلاثة بنين : سام، وحام، ويافث، وثلاث نسوة لهم ، واثنان وسبعون إنسانا ؛ فكل الخلائق نسل من كان فى السفينة .

٢٩- وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ .

أى : قل عند النزول من السفينة : يا ربِّ وفقنى إلى النزول فى أرض مباركة ، فيها البركات والخيرات والثمار ، وأعطنى الزيادة والبركة فى خير الدارين ، وأنت خير من أنزل عباده المنازل الطيبة بفضله وكرمه.

٣٠- إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ .

فى نجاة المؤمنين ، وهلاك الكافرين ، عظة وعبرة ، ودليل على أن الله تعالى يمتحن المؤمنين ويمحق الكافرين ، والابتلاء أنواع : منه لتكفير السيئات ، ومنه لرفع الدرجات ، ومنه للتمحيص والامتحان ، ومنه للابتلاء والاختبار .

قال تعالى : وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ . (آل عمران : ١٤١) .

أى : هذه سنتنا مع رسلنا نرسلهم مجاهدين ، ونختبرهم بعناد قومهم ، ثم ننجى المؤمنين ونهلك الكافرين ، ونختبر عبادنا الصالحين بالخير والشر فتنة وامتحانا .

قال تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ . (البقرة : ١٥٥ – ١٥٧) .

★ ★ ★

قصة هود عليه السلام

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

المفردات :

القـــرن : الأمة، والمراد بهم: عاد قوم هود ؛ لقوله تعالى: وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ... (الأعراف : ٦٩)

وقـــال المـــلأ : أشراف القوم ورؤساؤهم .

وكذبوا بلقاء الآخرة : بالمصير إليها ، أو لقاء ما فيها من الثواب والعقاب .

أتـــرفـــنـــاهـــم : وسَّعْنا عليهم ، وجعلناهم في ترف ونعيم .

لخاســــــرون : مغبونون في آرائكم ، حيث أذللتم أنفسكم لأمثالكم .

أنكم مخرجـون : من الأجداث ، أو من العدم تارة أخرى إلى الوجود .

هـــيـــهـــات : بَعُد .

مـــا تـــوعـــدون : البعث والحساب .

بمؤمـــــنين : بمصدقين .

عـــمـــا قـــلـــيـــل : بعد زمان قليل .

لـــيـــصـــبـــحـــن : ليصيرنّ .

الصيحة : العذاب الشديد ، كما قال الشاعر :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خرّوا لشدتها على الأذقان

الغثاء : ما يحمله السيل من الورق والعيدان البالية ، وأصل الغثاء : نبت يبس ، أى : صيرناهم مثله فى اليبس .

بُعدا : من الرحمة وهلاكا .

للقوم الظالمين : المكذبين .

التفسير :

٣١- ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ .

أرسل الله نوحا إلى قومه فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته سبحانه وعدم عبادة الأصنام ، وقد مكث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وما آمن معه إلا قليل ؛ ثم أهلك الله قومه بالطوفان .

وتبدأ من هذه الآية قصة قوم آخرين، هم على الأرجح عاد قوم هود ، والمراد بقوله تعالى : قَرْنًا ءَاخَرِينَ. أمة أو جماعة مجتمعة فى زمان واحد ، سمُّوا بذلك لتقدمهم على من بعدهم ، تقدم القرن على الحيوان .

وقال بعض المفسرين : هم ثمود قوم صالح ، لأنهم هم الذين جاء ذكرهم فى القرآن بأنهم أهلكوا بالصيحة ؛ أى : صاح بهم الملاك صيحة ؛ تقطعت لها قلوبهم فماتوا .

قال تعالى : فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ . (المؤمنون : ٤١) .

وقد يكونون أمةً أخرى غيرهما ، ولهذا لم يصرح باسمهم ولا باسم رسولهم ، لأن المراد بيان رسالة الرسل ، وتكذيب أقوامهم ، حتى لتتشابه كلمات الرسل وجوهرها : ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ وتتشابه كلمات الأمم المكذبة ، وتتلخص فيما يأتى :

١ – الرسول بشر مثلنا لا يمتاز علينا .

٢ – لماذا نتبعه ونجعل له الفضل والسبق علينا وهو مثلنا .

٣ – البعث والحساب والجزاء أمر بعيد غير متوقع .

لهذا لم تهتم هذه السورة بذكر اسم الرسول ، ولا ذكر اسم الأمة المرسل إليها ؛ لبيان أن هذا شأن من شئون الرسل مع أقوامهم ، وقد تحدثت سورة «المؤمنون» عن عدد من الرسل ، ولم تهتم بالتفصيلات التى وردت فى سور أخرى ، كسورتى : الأعراف وهود ، لأن المراد هنا ليس التقصِّى والتفصيل ، إنما هو لتقرير

الكلمة الواحدة التى جاء بها الجميع ، والاستقبال الواحد الذى لقوه من الجميع ، ومن ثم بدأ بذكر نوح - عليه السلام - ليحدد نقطة البدء ، وانتهى بموسى وعيسى ليحدد النقطة الأخيرة ، قبل الرسالة الخاتمة .

ولم يذكر الأسماء فى وسط السلسلة الطويلة ، كى يدل على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية ، إنما ذكر الكلمة الواحدة فى كل حلقة ، والاستقبال الواحد ، لأن هذا هو المقصود .

٣٢- فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

أى : أرسلنا فى هذه الأمة رسولا من بينهم ، نشأ فيهم وعرفوا سلوكه وحُسْنَ أخلاقه ونسبه ، فالرسل تُبعث فى أنساب قومها [١٦] .

فقال لقومه : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، ولا تعبدوا معه صنما ولا وثنا ، فإنه ليس لكم من إله سواه، حتى تشركوه معه فى العبادة ، أفلا تتقون الله وتخافون عقابه ، وعندئذ تجرِّدونه وحده بالعبادة ، ولا تعبدون سواه .

٣٣- وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ .

تصدَّى أشراف القوم ورؤساؤهم للتكذيب بدعوة الرسول ، وقد وصفتهم الآية بثلاث صفات :

١ - الكفر بالله وجحود نعمته وعدم الإيمان به .

٢ - التكذيب باليوم الآخر .

٣ - الترف والانغماس فى الملذات والشهوات ، وهو أسوأ ما تصاب به أمّة من الأمم ، وقد حذر القرآن من الترف ، وبين أنه طريق الهلاك والدمار .

وقد وصفوا الرسول بأنه بشر عادى ، لا ميزة له على غيره ، بل هو شبيه لنا فى صفاته وأحواله ، فكيف يدَّعى الفضل علينا ، ويزعم أنه رسول من الله إلينا ؟ ثم هو يأكل من طعامنا ، ويشرب من الماء الذى نشرب منه، فلماذا يُختص دوننا بالرسالة؟ فهو الحسد والحقد الذى أعمى الأشراف والأغنياء عن اتباع الحق، والاهتداء بهداية الإيمان .

٣٤- وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ .

إذا أطعتم إنسانا مثلكم فى المخبر والمظهر ، وسلمتم له بالقيادة والرئاسة ؛ إنكم حينئذ تخسرون

عقولكم ، وتضيِّعون مجدكم وشرفكم ، بترككم آلهتكم ، واتباعكم إياه . وما علموا أن الرسالة فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

وفى كتاب الجوهرة – وهو منظومة فنية فى علم التوحيد – يقول الشيخ اللقانى :

ولم تكن نبوة مكتسبة ولو رقى فى الخير أعلى عقبه
بل ذاك فضل الله يؤتيه من يشاء جل الله واهب المنن

٣٥– أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ .

إن هذا الذى يدعى الرسالة ، يخبركم أنكم إذا متم وصرتم ترابا ، وتحولت أجسادكم إلى تراب وعظام نخرة بالية ، أنكم تُبعثون من قبوركم أحياء كما كنتم فى دنياكم ، فاستبعدوا البعث والحشر والحساب والجزاء .

ونلحظ أن القرآن هنا لم يردّ على شبهاتهم ، بل ذكرها مجردة من التعقيب ، كأنها لا تستحق التعقيب، أو اكتفاء بما ذكره فى سور أخرى من الردّ على شبهات المشركين حيث قال تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ . (الأنعام : ٩) .

وقال سبحانه وتعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً... (الرعد : ٣٨) .

وقال تعالى فى الردّ على استبعاد البعث والجزاء : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٧٨ – ٨٣) .

٣٦– هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ .

أى : بَعُد بُعد ما توعدون به أيها القوم ، من حدوث البعث الجثمانى ، وإخراج الموتى من قبورهم ، وحسابهم وجزائهم ، هذا أمر بعيد الاحتمال ، لا يتصوره العقل ، ولا نوافق على حصوله .

٣٧– إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ .

ليست هناك آخرة ولا بعث كما يّدعى هذا الرسول ، بل هى أجيال تعيش ثم تموت ، وتنشأ بعدها أجيال تحيا ، كما ينشأ الزرع وينقرض وينشأ مكانه زرع آخر : فما هى إلا أرحام تدفع ، وقبور تبلع ، وما يهلكنا

إلا الدهر ، وليس هناك بعث ولا حشر ولا جزاء ، إنما هى الدنيا ونحن نملك المال والمتاع والجاه والسلطان، ونريد الاستمتاع بالحياة والدنيا ، ولا نريد من أحد أن ينغص علينا هذه المتعة .

٣٨- إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ .

ما هو إلا رجل تقوّل على الله كذبا ، وادعى أنه رسول من عند الله ، واختلق الأكاذيب ؛ فتارة يدعى أن الإله إله واحد ، وتارة يدعى أن البعث والحشر والحساب والجزاء حق واقع ، ونحن لا نصدقه ولا نؤمن به ولا نتبعه .

٣٩- قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ .

لجأ هود إلى ربّه مستغيثًا مستنصرًا من تكذيبهم له ، وكفرهم بدعوته ، فدعا الله قائلا : رب انصرنى عليهم بسبب تكذيبهم لى .

٤٠- قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ .

قال الله عز وجل لرسوله : بعد زمن قليل ، سينزل بهم العذاب الشديد ، وحينئذ يندمون ولات ساعة مندم.

٤١- فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

فأخذهم العذاب العادل جزاء كفرهم وعنادهم ، حيث صاح بهم جبريل صيحة رجفت لها الأرض من تحتهم ؛ فصاروا لشدتها غثاء كغثاء السيل ، وهو الشيء التافه الحقير الذى لا ينتفع منه بشيء .

فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

أى : فأبعد الله القوم الكافرين بهلاكهم ، إذ كفروا بربِّهم وعصوا رسوله وظلموا أنفسهم ، ولفظ : بُعْدًا قد يراد به الدعاءُ أى : فهلاكا لهم ، بمعنى : أهلِكْهم يا الله إهلاكا ، وقد يراد به الإخبار بمعنى : فبعدوا بُعدًا من رحمة الله القريبة من المحسنين ، بعدوا بهلاكهم من كل خير أو من النجاة .

ونلحظ أن القرآن الكريم لم يقل : فبعدًا لهم ، وإنما قال : فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ . لبيان أن علَّة إبعادهم هى ظلمهم لأنفسهم ، بتكذيب رسولهم وعدم الاستجابة لدعوته .

★ ★ ★

قصص صالح ولوط وشعيب وغيرهم

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

المفردات :

تترى : من المواترة ، وهى التتابع بين الأشياء ، مع فترة ومهلة بينها .

أحاديث : واحدها أحدوثة ، وهى ما يتحدث به تعجبا منه وتلهيا به ، وقد جمعت العرب ألفاظا على أفاعيل كأباطيل وأقاطيع ، وقال الزمخشرى : الأحاديث اسم جمع للحديث ، ومنه أحاديث رسول الله ﷺ ، ولكن الجمهور على أنه جمع .

التفسير :

٤٢ - ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ .

أى : أوجدنا من بعد هلاك هؤلاء ، أمما وخلائق آخرين ، كقوم صالح وقوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب وغيرهم.

قال ابن عباس : هم بنو إسرائيل، وفى الكلام حذف تقديره: فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم، دل عليه قوله تعالى:

٤٣ - مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ . (١٧)

ما تسبق أمة من الأمم التى قدّر الله إهلاكها، الوقت المقدر أزلا لإهلاكها ، وما تتأخر عنه ، فهلاكها مرهون بوقته ، لا يسبقه ولا يتأخر عنه ، وذلك مثل قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (الأعراف : ٣٤) .

٤٤ - ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ...

ثم أرسلنا رسلنا متتابعين ، يتبع بعضهم بعضا ، إلى الأمم التى جاءت بعد هلاك من سبقوهم ، فقد أرسلنا إلى كل أمة رسولا خاصًّا بهم .

كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ...

أى : سلكت كلُّ أمة فى تكذيب رسولها مسلك من سبقها من المكذبين ، كأنما وصَّى السابق منهم اللاحق بأن يكذب الرسل .

قال تعالى : أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . (الذاريات : ٥٣) .

وقال سبحانه : وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ . (إبراهيم : ١٣) .

والظاهرة الملحوظة اجتماع الكفار على مقولة واحدة مع أن الواقع أن قوم نوح كذبوا نوحا ، وأن قوم هود كذبوا هودًا وحده ، وكذلك قوم صالح وقوم شعيب وقوم موسى وقوم عيسى وقوم محمد ﷺ ؛ لكن التكذيب لما كان واحدًا فى مضمونه ؛ جمعه الله على لسان الكافرين ، وكأن كل أمة حين تكذب رسولها ، قد كذبت بالرسالات جميعها ، وهذا التكذيب ، والإهلاك للمكذبين ، تكرر فى آيات القرآن ؛ لتثبيت فؤاد النبى ، وشدّ أزره ، ومواساته على تكذيب قومه ، وقريب من ذلك قوله تعالى : مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء : ٦) .

أى : لم تؤمن الأمم السابقة التى قدّر الله إهلاكها عقوبة لها ، فقد أغرق قوم نوح لتكذيبهم نوحا، وكذلك أهلك قوم هود وقوم صالح وقوم شعيب ومن بعدهم، وكذلك قوم محمد اشتد عنادهم وتكذيبهم فى مكة، شأنهم شأن من سبقهم من المكذبين بيد أن الله أمهلهم، وقال سبحانه: وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ... (الأنفال : ٣٣)

فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ...

فأهلكنا بعضهم فى أثر بعض حين تألّبوا على رسلهم وكذبوهم .

وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ... أى : أخبارًا تروى وأحاديث تذكر ، يتحدث الناس بما جرى عليهم تعجبا وتسلية.

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ... (سبأ : ١٩) .

وهذه الجملة : فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ... إنما تقال فى الشر ، ولا تقال فى الخير ، كما يقال : صار فلان حديثا، أى : عبرة .

فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ .

أى : فأبعد الله قومًا لا يؤمنون به ولا يصدقون برسوله .

★ ★ ★

قصة موسى وهارون عليهما السلام

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

المفردات :

الآيـــــــات : هى الآيات التسع كاليد والعصا، وهى المذكورة فى سورة الأعراف، قال تعالى : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ ... (الأعراف : ١٣٣) . وقال تعالى : فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ ... (النمل : ١٢) وهى : العصا، واليد، والسنون، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم .

وسلطان مبين : وحجة واضحة ملزمة للخصم ، والمراد بالسلطان المبين : إما الآيات أنفسها ، أى : هى آيات وحجة بينة ، وإما العصا لأنها كانت أم الآيات وأولاها ، وتعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها حبال السحرة ، وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها بها.

قوما عالين : متجبرين متكبرين .

عـــابـــدون : خدم منقادون ، قال أبو عبيدة : العرب تسمى كل من دان للملك عابدًا . وقال المبرد : العابد : المطيع الخاضع .

المهـــلـــكين : المغرقين .

الـــكـــتـــاب : التوراة .

تمهيد :

هذه هى القصة الرابعة فى هذه السورة ، ويلاحظ فيها وحدة الموضوع والهدف ، وشبهة إنكار النبوة : لأن الرسول بشر ، وما علموا أن البشر يتفاوتون فى مداركهم واستعدادهم .

قال تعالى : ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ... (الحج : ٧٥) .

التفسير :

٤٥ - ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ .

أرسل الله موسى وأخاه هارون ، ومعهما آيات تسع وقد اختلف المفسرون حولها فمنهم من قال : هى اليد والعصا، والسنون، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وقد رجح ذلك ابن كثير ، وقيل : هى العصا، واليد، والسنون ، والطمس، والطوفان ، والجراد ، والقمل، والضفادع، والدم .

وعن الحسن :

المراد من الآيات : التكاليف الدينية التى أمروا بها ، ومن السلطان : كل معجزة أتيا بها . ويمكن أن يراد بالسلطان: تسلط موسى فى المحاورة، ووضوح الدلالة على الخالق سبحانه وتعالى والقوة والإقدام .

٤٦ - إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ .

أرسلنا موسى وهارون إلى فرعون وحاشيته، وخص الملأ لأنهم أصحاب المشورة والرأى ، ويجوز أن يراد بالملأ : قوم فرعون جميعا ، فقد ورد استعمال الملأ بمعنى الجماعة مطلقا .

فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ .

أى : امتنعوا عن الإيمان تكبرا وعتوا وظلما وعنادًا ، وحسدًا وبغيًا ، وكانت تلك عادتهم ، وما فطروا عليه، فقد كان من دأبهم البغى والعدوان على الناس ، وظلمهم كبرًا وعلوا فى الأرض .

٤٧ - فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ .

أنكر فرعون وقومه رسالة موسى وهارون ، وحجتهم فى ذلك أمران :

الأول: أنهما من البشر ، لا يمتازان بشيء على من أرسلا إليهم ؛ فلماذا يتبعونهما ، وهى حجة متكررة : **أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا .** (الإسراء : ٩٤) .

الثانى: أن بنى إسرائيل قوم موسى وهارون ، كانوا خاضعين لفرعون وقومه ، وكان فرعون يقتل الذكور ، ويستحيى الإناث، ويسخّرهم فى المهن الحقيرة، ويعرِّضهم لصنوف الذل والهوان والبلاء .

لقد نظر فرعون وقومه إلى المظاهر، وما علموا أن التفاوت بين البشر كبير ، فمن البشر من يسمو فى الخير والروحانية وصنوف الهداية ، ومنهم من يرتكس فى الرذيلة والضلال إلى الحضيض ، والله يختار لرسالته أهل الصفاء الروحى ، والرقىّ النفسى ، فيمنحهم الرسالة لحكمة إلهية عالية . بفضله تعالى وكرمه.

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ... ﴾ (الأنعام : ١٢٤) .

وقريب من اعتراض فرعون وقومه قول كفار قريش : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ . (الزخرف : ٣١ ، ٣٢) .

٤٨ - ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾ .

فأصرَّ فرعون وملؤه على تكذيب موسى وهارون ؛ فأهلكهم الله بالغرق فى بحر القُلزم (البحر الأحمر) كما أهلك مَن قبلهم من الأمم بتكذيبهم لرسلهم .

٤٩ - ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

أى : لقد أنزلنا على موسى التوراة ، المشتملة على الأحكام والأوامر والنواهى ، وقد كان ذلك بعد إهلاك فرعون وقومه ، وإنجاء بنى إسرائيل ، لعل من أرسل إليهم من قوم فرعون وبنى اسرائيل يهتدون بالتوراة إلى الحق المبين .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ . (القصص : ٤٣) .

جاء فى تفسير ابن كثير :

وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة ، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين .

تذييل

كان موسى من أولى العزم من الرسل ، ومعه هارون ، وأعطاهما الله المعجزات ، لكن فرعون وقومه استكبروا وعاندوا : فأغرقهم الله أجمعين فى البحر الأحمر .

وأنزل الله التوراة على موسى فى الطُّور ، فيها هدًى ونور وتشريع وأحكام ، وخص موسى بالذكر هنا من باب الاقتصار على الأصل وحده ، فقد كان موسى الأصل فى النبوة ، وكان هارون وزيره ومعينه فى دعوته ، وذلك لايمنع من إرادة هارون معه .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ... ﴾ (الأنبياء : ٤٨) .

★ ★ ★

قصة عيسى عليه السلام إجمالاً

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

المفردات :

آيـــــة : دلالة بينة على كمال قدرته تعالى .

آويناهما : جعلنا مأواهما ومنزلهما .

ربـــوة : هى المكان المرتفع من الأرض ، قيل : كانت فى مصر ، أو فى بيت المقدس ، أو فى دمشق .

ذات قـرار : ذات استقرار ، يستقر عليها ساكنوها ، لأجل ما فيها من الثمار والزروع .

مــــعين : ماء جار ظاهر للنَّاس .

تمهيد :

سبق إيراد قصة عيسى وأمّه مفصلة فى سورة آل عمران وسورة مريم ، ووردت هنا موجزة لبيان قدرة الله تعالى فيها ؛ فهو سبحانه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى .

التفسير :

٥٠- وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ...

وجعلنا عيسى ابن مريم آية ، وجعلنا أمَّه آية ، وهى مريم الطاهرة البتول ، وقد بشرها جبريل – عليه السلام – بغلام طاهر يكون رسولا ، وتم الحمل بقدرة الله ، الذى خلق آدم .

قال تعالى : **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** . (آل عمران : ٥٩) .

وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ .

وأنزلناهما فى مكان مرتفع من الأرض ، به عيون وزروع وثمار ، وهواء طيب وحياة مريحة ، والآية تدل على رعاية الله وعنايته بعيسى ، وهو وليد بدون أب ، ورعايته لأمّه ، وتيسير كفالته وحمايته ، والإنعام عليه بنعم عديدة ، من بينها الإقامة فى مكان صحى مرتفع ، يفيض بالخيرات والزروع والثمار لتوفير الحياة الكريمة .

وسبب الإيواء أن مريم أم عيسى فرت بابنها عيسى إلى الربوة ، وبقيت بها اثنتى عشرة سنة ، وقد ذهب بها ابن عمها يوسف النجار ثمَّ رجعت إلى أهلها بعد أن مات ملكهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

المفردات :

الطيبات : ما يستطاب ويستلذ من المباحات فى المأكل والفواكه .

واعملوا صالحا : من فَرْض ونفل .

أمتكم : ملتكم وشريعتكم .

فاتقون : فاحذرون .

فتقطعوا : أى : الأتباع قطعوا ومزقوا .

أمرهم : أمر دينهم .

زبرا : قطعًا وأحزابًا متخالفين ، كاليهود والنصارى وغيرهم ، جمع زبور .

بما لديهم : عندهم من الدين .

فرحون : مسرورون معجبون ، معتقدون أنهم على الحق ، كما هى حال قريش .

ذرهم : دعهم واتركهم .

فى غمرتهم : فى جهالتهم أو عماهم ، وأصل الغمرة : الماء الذى يغمر القامة ويسترها ، ويمنعها من رؤية الحقيقة والواقع .

حتى حين : إلى حين موتهم أو قتلهم .

أنما نمدهم به : ما نعطيهم ونجعله مددا لهم .

بل لا يشعرون : أن ذلك استدراج لهم ، وإنما هم كالبهائم لا فطنة عندهم ولا شعور ليتأملوا فيعلموا أن ذلك الإمداد استدراج .

تمهيد :

بعد أن قص الله تعالى قصص بعض الأنبياء السابقين ، عقب ذلك بتوصية الرسل جميعا بالأكل من الطيبات والعمل الصالح ، والمراد بذلك أتباع الرسل أيضًا ، ثم أرشدهم إلى أن الدين واحد وهو الدعوة إلى

توحيد الله ، والتمسك بالعمل الصالح ، لكن أتباع الرسل فرقوا دينهم ، وتمسكت كل فرقة بما تدين به كما هي حال قريش ، وهم في حيرة وعمى ، يظنون أن ما أنعم الله به عليهم من النعمة لرضاه عليهم ، وما يشعرون أنه استدراج لا مسارعة في الخيرات .

التفسير :

٥١- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ...

هذا نداء من الله تعالى للرسل وأتباعهم ، بالأكل من الطيبات ، وهو ما تستطيبه النفس من الطعام والفاكهة ؛ بشرط أن يكون حلالا ، ويتبع الأكل من الطيبات ، العمل الصالح ؛ شكرًا لله على النعمة ، وامتثالا لأمره تعالى ، حيث قدّم الأكل من الطيبات على العمل الصالح .

إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ .

إني مطلع على جميع أعمالكم ، ومجازيكم بالإحسان إحسانًا ، وبالسوء سوءا ، حيث لا يخفى عليّ شيء من أعمالكم . **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

وقد حَفِلت كتب السنّة الصحيحة بأهمية الأكل من الحلال الطيب وتأكيد ذلك ، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، كما نهى النبي ﷺ عن الأكل من الحرام وحذّر منه .

أخرج مسلم ، وأحمد ، والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يا أيها الناس، إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** . وقال : **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ...** (البقرة : ١٧٢)

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام، يمدّ يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، فأنى يستجاب له» ؟ [١٨] .

وأخرج أحمد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم ، عن أُمّ عبد الله أخت شداد بن أوس رضي الله عنها أنها بعثت إلى النبي ﷺ بقدح لبن حين فطره وهو صائم ، فردّ إليها رسولها، وقال : «من أين لك هذا»؟ فقالت : من شاة لي ، ثم رده ، وقال : «من أين هذه الشاة؟» فقالت : اشتريتها بمالي ، فأخذه ، فلما كان من الغد أمّته ، وقالت : يا رسول الله ، لم رددت اللبن ؟ فقال ﷺ : «أمرت الرّسل ألا يأكلوا إلا طيبا ، ولا يعملوا إلا صالحا» .

وجاء في بعض الأخبار : «إن الله تعالى لا يقبل عبادة من في جوفه لقمة من حرام» .

وصح أيضًا : «أيما لحم نبت من سُحت فالنار أولى به» [١٩].

٥٢- وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ .

أى : دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد ، وملة واحدة ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؛ واختلاف الشرائع والأحكام بحسب اختلاف الأزمان والأحوال لا يسمّى اختلافا فى الدين ، لأن الأصول واحدة.

وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ .

أنا خالقكم وإلهكم وحدى لا شريك لى فى الربوبية ؛ فاحذروا عقابى وخافوا عذابى. وإذا كان هذا مع الرسل والأنبياء فما ظنّ كل الناس بأنفسهم .

٥٣- فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .

فتفرق أتباع الأنبياء فرقا وجماعات وأصبح كل فريق معجبا بنفسه ، فرحًا بما عنده ، معتقدًا أنه الحق الذى لا معدل عنه .

وزُبُرًا . أى : قطعًا ، جمع : زُبْرة ، وهى القطعة . ويجوز أن يكون المعنى : أن أتباع الأنبياء فرقوا دينهم بعد أنبيائهم ، فآمنوا ببعض ما أنزل عليهم وكفروا بما سواه ، اتباعًا لأهوائهم ، أو أنهم وضعوا كتبا وألفوها ونسبوا تلك الضلالات إلى الله .

وقيل : إنهم فرقوا بين الكتب المنزلة ، فأخذ كل منهم كتابا آمن به وكفر بما سواه .

كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .

كل جماعة أو هيئة أخذت قطعة أو جانبًا أو مزقة من الدين ، ومضت بالمزقة أو القطعة التى خرجت فى يدها لا تفكر فى شىء ، ولا تلتفت إلى شىء ، مضت وأغلقت جميع المنافذ ، وسدّت كل نسمة طليقة ، وكل فكر أو رأى أو نصيحة أو حوار رشيد .

فيا أتباع الأديان ، أما آن الأوان فى الاجتماع على كلمة سواء ، ما دام أصل الدين واحدًا ، وأساسه واحدًا ، وهو الإيمان بالله ربا واتباع هدايات السماء ؛ ويا أتباع محمد ﷺ ، أما آن الأوان إلى التلاقى على جوهر الإسلام وحقائقه ، وسماحته وأصوله العامة ، والعودة به إلى منابعه الصافية ، واجتهادات الأئمة المشهود لهم بالعلم والرأى والإخلاص والاجتهاد المقبول ، والفتيا بما يتوافق مع أصول الدين ومصالح العباد المعتبرة .

٥٤- فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ.

أى : اترك - أيها النبى - هؤلاء على حالهم من الغفلة والضلال الذى لا ضلال بعده ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فقد بلّغت الرسالة التى أمرت بتبليغها حق الأداء . مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ... (المائدة : ٩٩) .

حَتَّىٰ حِينٍ. إلى موتهم أو قتلهم ورؤيتهم مقدمات العذاب وبوادره .

ونقل القرطبى فى تفسيره عن مجاهد ، قال : حَتَّىٰ حِينٍ: حتى الموت ، فهو تهديد لا توقيت ، كما يقال: سيأتى لك يوم .

٥٥، ٥٦- أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ .

أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ، ومعزتهم عندنا ، كلًّا ليس الأمر كما يزعمون فى قولهم : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . (سبأ : ٣٥) .

لقد أخطأوا فى ذلك وخاب رجاؤهم ، بل إنما نفعل ذلك استدراجا ، وإنظارًا ، وإمهالاً .

بَل لَّا يَشْعُرُونَ .

لا يحسون ولا يعلمون أن ما هم فيه من نعمة ومال وبنين إنما هو اختبار وابتلاء واستدراج ، وأخذ بأيديهم إلى العذاب .

كما قال تعالى : فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ... (التوبة : ٥٥).

وقال تعالى : فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ. (القلم : ٤٤،٤٥)

أخرج أحمد، والطبرانى، والبيهقى فى شعب الإيمان، عن عقبة بن عامر : أن النبى ﷺ قال : «إذا رأيت الله تعالى يعطى العبد من الدنيا ما يحب ، وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج» [٢٠] .

والخلاصة :

أن هذا الإمداد للكفار ليس إلا استدراجا لهم إلى المعاصى ، واستجرارًا إلى زيادة الإثم ، وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات إكراما لهم ، وتعجيلا للثواب قبل وقته .

روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قسّم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدّين إلا من أحب،

فمن أعطاه الله الدين فقد أحبّه ، والذى نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يُسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قالوا : وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال : غشمه وظلمه ، ولا يكسب عبد مالا من حرام ، فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولكن يمحو السيئ بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث» .

★ ★ ★

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

المفردات :

الخشية : الخوف من العقاب .

الإشفاق : نهاية الخوف ، والمراد لازمه ، وهو دوام الطاعة .

الآيات : هى الآيات الكونية فى الأنفس والآفاق ، والآيات المنزلة .

وجلة : خائفة .

سابقون : ظافرون بنيلها .

تمهيد :

من شأن القرآن أن يقابل بين الباطل والحق ، وبين صفات الكافرين وعقابهم ، وصفات المتقين وثوابهم .

وقد وصف المتقين هنا بأربع صفات :

١ – خشية الله والخوف منه .

٢ – الإيمان بآيات الله .

٣ – نفى الشريك عن الله .

٤ – أداء الواجبات كالزكاة والكفارة والصدقة ، وقلوبهم خائفة ألا يتقبل ذلك منهم .

التفسير :

٥٧ - إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ .

إن الذين هم فى إشفاق وخوف من التقصير فى حق ربهم ، مع صدق إيمانهم وصالح عملهم .

قال الحسن البصرى : إن المؤمن جمع إحسانا وإشفاقا ، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا .

٥٨ - وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ .

أى : هم يؤمنون بآيات الله الكونية التى نصبها فى الأنفس والآفاق ، فيتأملون فى خلق السماوات والأرض، وحركة الليل والنهار والشمس والقمر ، والنبات والشجر والمطر، وغير ذلك من آيات الله التى يتأملها المؤمنون ويغفل عنها الغافلون .

كما فى قوله تعالى : **وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** . (يوسف : ١٠٥) .

والمؤمنون يؤمنون أيضًا بآيات الله المنزلة على رسله ، كالتوراة والإنجيل والقرآن .

٥٩ - وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ .

هم يؤمنون بالله كما سبق ، وهم يخلصون له العبادة ، ولا يعبدون سواه ، ويعلمون أنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

فالآية السابقة وصف لله بتوحيد الربوبية ، وهذه الآية وصف له بتوحيد الألوهية ، ولم يقتصر على الأول ، لأن كثيرا من المشركين يعترفون بتوحيد الربوبية ، كما قال تعالى : **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ** ... (الزخرف : ٨٧) . ولا يعترفون بتوحيد الألوهية والعبادة ، ومن ثم عبدوا الأصنام والأوثان على طرائق شتى ، وعبدوا معبودات مختلفة .

٦٠ - وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ .

هم يقومون بإخراج الزكاة ومساعدة المحتاجين ، وإخراج الصدقة والقيام بما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه ، حال كونهم خائفين من ربهم ، خشية أن يكون قد صدر منهم تقصير ، فى أى حق من حقوق الله أو حقوق العباد ، كالزكاة والكفارة والودائع والديون ، والعدل بين الناس .

أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ .

أى : وجلت قلوبهم وأشفقت وخافت ، لتيقنها بالرجوع إلى الله يوم القيامة ، فتنكشف لهم الحقائق ، وتظهر حاجة العبد إلى عمل تام مقبول ، ينجيه يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

قال تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ، . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

٦١ - أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ .

هؤلاء الموصوفون بما سبق تفصيله من الأوصاف الجليلة ، يبادرون إلى نيل الخيرات ، ويحرصون على السبق إلى صلاة الجماعة ، وإخراج الزكاة عند استحقاقها ، ويبادرون إلى كل عمل صالح بهمة عالية، كأنما يسبقون أنفسهم ، أو وهم لأجلها سابقون إلى الطاعات .

وقال ابن عباس : وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ . سبقت من الله لهم السعادة ، فسارعوا فى الخيرات .

جاء فى تفسير المراغى :

ومعنى هُمْ لَهَا : أنهم مُعدُّون لفعل مثلها ، من الأمور العظيمة ، كقولك لمن يُطلب منه حاجة لا ترجى من غيره : أنت لها ، وعلى هذا قوله :

مشكلات أعضلت ودهت ... يا رسول الله أنت لها

وخلاصة ذلك :

إن النعم ليست هى السعادة الدنيوية ونيل الحظوظ فيها ، بل هى العمل الطيب ، بإيتاء الصدقات ونحوها ، مع إحاطة ذلك بالخوف والخشية .

★ ★ ★

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

المفردات :

الوسع : ما يتسع على الإنسان فعله ، ولا يضيق عليه .

الكتاب : هو صحائف الأعمال .

بالحق : بالصدق .

التفسير :

٦٢ – وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

أنزل الله كتبه وأرسل رسله وشرع شرائعه بما يوافق الفطرة السليمة ، ويكون فى وسع النفوس البشرية وطاقتها بلا حرج ولا مشقة ، فالأصل فى التكليف رفع الحرج ، والتكليف بما فى الوسع والطاقة ، فإذا سلب الله العقل أسقط التكليف ، وإذا كان الإنسان فقيرا يسقط عنه الزكاة والحج ، ويظهر ذلك فى قوله تعالى : **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَـٰهَا** . (الطلاق : ٧) . لأنه سبحانه عليم حكيم حليم رحيم ، فلا يحاسب الناس إلا على ما فى وسعهم وطاقتهم وإمكانياتهم .

وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ .

إن كتاب صحائف الأعمال ، يسجل فيه أعمال الإنسان بالحق وبالصدق ، وكل كبيرة وصغيرة ، وكل خير أو شر يجده الإنسان فى كتابه يوم القيامة .

قال تعالى : **مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَـٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** . (الكهف : ٤٩) .

وقال عز شأنه : **هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** . (الجاثية : ٢٩) .

وقال تعالى : **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

والله تعالى يقول فى الحديث القدسى : «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا»[٢١] .

فالله تعالى عادل ، لا يظلم أحدا .

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

لا يُبخسون فى الجزاء من الخير شيئا ، بل يثابون على ما قدموا من الأعمال القليلة والكثيرة ، ولا يزاد فى عقابهم ، فهم لا يظلمون بزيادة عقاب أو نقصان ، بل يعفو الله عن كثير من السيئات .

★ ★ ★

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) ﴾

المفردات :

الغمرة : الغفلة والجهالة .

من دون ذلك : غير ذلك .

المترف : المتوسع فى النعمة .

جأر الرجل : صاح ورفع صوته .

لا تنصرون : لا يجيركم أحد ولا ينصركم .

تنكصون : تُعرضون عن سماعها ، وأصل النكوص : الرجوع على الأعقاب ، ورجوع الشخص على عقبه : رجوعه فى طريقه الأولى ، كما يقال : رجع عوده على بدئه .

سامرا : تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه .

الهُجـــــــر : بضم الهاء ، الهذيان ، أو النطق بالهجر وهو الفحش .

الجِنَّـــــة : الجنون .

الــذكـــر : القرآن الذى هو فخرهم .

عـن ذكـرهـم : عن فخرهم .

خرْجـــا : جعلاً - وأجرًا .

صراط مستقيم : طريق لا عوج فيه .

نـاكـبـون : عادلون عن طريق الرشاد ، يقال : نكب عن الطريق : إذا زاغ عنه .

لـج فـى الأمـر : تمادى فيه .

يـعـمـهـون : يتحيرون ويترددون فى الضلال .

اسـتـكـانـوا : خضعوا وذلوا .

وما يتضرعون : وما يتذللون إلى الله ويدعونه مخلصين أن يرحمهم .

مـبـلـسـون : متحيرون آيسون من كل خير .

تمهيد :

تتحدث الآيات عن جملة من رذائل المشركين ، من بينها ما يأتى :

١ – غفلة قلوبهم عن القرآن .

٢ – سمرهم بالليل طاعنين فى القرآن مستهزئين بالنبى ﷺ .

٣ – دعا النبى ﷺ على المشركين فأصابهم الجدب والجوع ؛ حتى أكلوا العلهز يعنى : الوبر بالدم ، ولكنهم لم يؤمنوا بالله ولم يتضرعوا إليه . فأنزل الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ .

٤ – استمر نفورهم وإعراضهم عن الهدى واستكبارهم .

٥ – افتروا على النبى ﷺ واتهموه بالجنون .

٦ – لم يطلب النبى ﷺ منهم أجرا ولا خرجا على تبليغ الرسالة .

٧ – بل دعاهم إلى الهدى والطريق القويم .

٨ – ثم ابتلاهم الله بالجوع والقتل يوم بدر ، فما خضعوا ولا ذلّوا .

التفسير :

٦٣ - بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ .

بل قلوب المشركين فى غفلة عن هدى القرآن وما فيه من هداية وصلاح ، وهم يجمعون بين جحو الخالق ، وظلم المخلوقين ، فقد أنكروا رسالة النبى محمد ﷺ ، ولم يصدّقوا بالحق الذى جاء به ، وإذا سهرو فى نواديهم ، عملوا أعمالاً سيئة من السخرية بالنبى ﷺ، والتكذيب بالقرآن الكريم ، فقالوا عن القرآن الكريم ما هو إلا سحر مفترى ، وما هو إلا أساطير الأولين ، وقالوا عن النبى: ما هو إلا شاعر ، وزعموا أن به جِنَّة وأنه قد تعلم القرآن من غيره من أهل الكتاب ، وانغمس المشركون فى عبادة الأوثان والأصنام ، وإذا جاءهـ الهدى أعرضوا عنه ، وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون .

٦٤ - حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ .

لقد أُترف المشركون بالنعمة والمال والغنى ، وغطى ذلك على قلوبهم وجعلهم فى غفلة ، وسيعجل الله عقوبتهم بالعذاب فيجأرون ويصيحون ويستغيثون حين نزول العذاب بهم .

وقال بعض المفسرين :

المراد بالعذاب فى الآية : عذاب الآخرة ، أى : إذا نزل بهم العذاب يوم القيامة ، سمع لهم جؤار وصراخ وخوار ، وأصوات استغاثة .

٦٥ - لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ .

لا تصرخوا ولا تستغيثوا ، فقد أسرفتم على أنفسكم بالمعاصى فى الدنيا ، ولا تنصرون منا بقبول توبتكم ، أو يقال لهم يوم القيامة : لن يفيدكم الصراخ والعويل ، ولا يجديكم البكاء والاستغاثة ، فهذا وقت الجزاء ، ولا ناصر يحول بينكم وبين بأس الله وعقوبته .

٦٦ - قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ .

لقد عاقبناكم عقابًا عادلاً ، فإنكم كنتم متى سمعتم آيات القرآن تتلى عليكم أعرضتم عنها ، ونفرتم من سماعها ، شأنكم شأن من يترك الطريق الواضح أمامه ، ويرجع القهقرى ناكصا ناحية عقبه ، والنكوص أقبح المشى ، لأن الناكص لا يرى ما وراءه .

٦٧ - مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ .

الضمير فى بِهِ عائد على البيت الحرام ، فقد كان أهل مكة يرون أنفسهم سدنة البيت الحرام ، وأهل رعاية الحجيج وسقايتهم ، وأهل عمارة المسجد الحرام ، فاستكبروا وتعاظمت إليهم أنفسهم بالمسجد الحرام ، ومنعوا المسلمين من الصلاة فى المسجد الحرام ، أو أداء شعائر الإسلام حول الكعبة ، وإذا جلس المشركون للسمر حول البيت ، تكلموا بالهجر من القول ، وقيل : الضمير فى بِهِ. عائد إلى القرآن ، أو إلى محمد ﷺ ، فإنهم كانوا يصفون القرآن بأنه سحر أو شعر أو كهانة ، ويقولون عن النبى ﷺ : إنه شاعر أو كاهن أو كذاب أو مجنون ، وكل ذلك باطل .

والخلاصة :

إنكم كنتم عن سماع آياتى معرضين ، مستعظمين بأنكم خُدَّام البيت وجيرانه ، فلا تضامون ، وتقولون الهجر والفحش والكذب فى أمر القرآن ، وتقولون عنه ما ليس فيه مسحة من حق أو صواب .

٦٨ - أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ...

أفلا يتفهم المشركون هذا القرآن العظيم؟ مع أنهم خُصُّوا به، وهو مشتمل على التشريع والآداب والعظات، والفصاحة والبيان ، ولم ينزل على رسولٍ أكمل ولا أشرف منه ، فكان اللائق بهم تفهمه والعمل بمقتضاه .

أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ .

أم اعتقدوا أن مجىء الرسل أمر على خلاف العادة ، مع أنهم عرفوا بالتواتر أن الرسل توالت على الأمم ، مؤيدة بالمعجزات ، أفلا يدعوهم ذلك إلى تصديق هذا الرسول ، فمحمد ﷺ ليس بدعًا من الرسل ، فقد أرسل الله قبله إبراهيم وإسماعيل وهما جدًّا العرب ، قال تعالى : قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ... (الأحقاف : ٩) .

وقال سبحانه وتعالى : شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ... (الشورى : ١٣) .

٦٩ - أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ .

أى : أيكون سبب عدم إيمانهم ، عدم معرفتهم بالرسول محمد ﷺ ، وأمانته وصدقه وجميل خصاله؟ كلا ، فقد شهدوا له بالصدق والأمانة ، واشتهر بينهم بالصادق الأمين ، وقبلوا حكمه فى وضع الحجر الأسود عند إعادة بناء الكعبة فى الجاهلية ، وقالوا : هو الأمين رضيناه حكما . فكيف ينكرون رسالته الآن؟! .

ولقد قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى : إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه ، ونعرف صدقه وأمانته . وكذلك قال أبو سفيان لملك الروم حين سأله وأصحابه عن نسبه ، وصدقه وأمانته ، وقد كانوا بعدُ كفارا لم يسلموا ، فإذا كان محمد معروفا عندهم بالصفات الحميدة ، فما الذى منعهم من الإيمان به ، إلا البغى والحسد .

قال سفيان الثورى : بل قد عرفوه ، ولكنهم حسدوه .

٧٠ - أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ .

انتقلت السورة إلى توبيخهم للمرة الرابعة ، فى إضراب انتقالى لتوبيخ الكافرين ، أى : بل أيحتجون فى ترك الإيمان بأن محمدًا مجنون ؟ وهذا باطل ينكره الواقع ، فقد كان محمد ﷺ راجح العقل ، ذكى الفؤاد، حكيمًا رزينًا أمينًا شريفًا .

بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ ...

أى : بالدين الحق وهو الإسلام ، أو بالتوحيد والإيمان .

وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ .

معظمهم كره الإسلام تعنتا وحسدًا ، وكبرا وعنادًا وبغيًا ، وإنما قال : **أَكْثَرُهُمْ** . لأن بعضًا منهم تركوا الإيمان أنفة واستعلاء ، وتخوفا من توبيخ القوم وتعْييرهم ، لا كراهة للحق ، كما أثر عن أبى طالب من قوله:

فوالله لولا أن أجىء بسبة تجرّ على أشياخنا فى القبائل

إذًا لاتبعناه على كل حالة من الدّهر جدًّا غير قول التخاذل

٧١ - وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ...

لقد جاء النبى محمد ﷺ بالقرآن وهو وحى السماء ، معلنا توحيد الله نابذًا للشرك ، داعيا إلى مكارم الأخلاق محذرا من الفحشاء والمنكر ، لقد كان القرآن حربا على الشرك والوثنية ، والبغى والعدوان ، وَرَسَم الطريق القويم ، ودعا إلى مكارم الأخلاق ، وحذّر من الجنوح والرذيلة ، والزنا والرّبا وأكل مال اليتيم ، والبغى والعدوان .

إن القرآن حق ، والحق لا يتبع الهوى ، بل الواجب على الإنسان ترك الهوى واتباع الحق ، فإن اتباع الهوى يؤدى إلى استباحة الأموال والأعراض ، والشرك بالله .. ولو اتبع القرآن أهواء الناس فأباح الشرك

بالله ، والزنا والربا ، وأقر السلب والنهب والسرقة ، وأهمل القيم الخلقية ، لاختل نظام العالم ، ووقع التناقض وانتشرت الفوضى والفساد ، واختلطت الأنساب وتهدمت الأسر .

وقال القرطبى : إن الحق هنا هو الله سبحانه وتعالى ، وتقديره فى العربية : ولو اتبع صاحب الحق أهواءهم .

وقيل : المعنى : ولو كان الحق ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى ، لتنافست الآلهة وأراد بعضهم مالا يريده بعض ، فاضطرب التدبير وفسدت السماوات والأرض ، وإذا فسدتا فسد من فيهما .

وَمَن فِيهِنَّ .

إشارة إلى من يعقل من ملائكة السماوات وإنس الأرض وجنها ، وأمَّا ما لا يعقل فهو تابع لما يعقل[٢٢].

ثم شنَّع القرآن عليهم ، لإعراضهم عن معالم الحق والخير والهدى فقال :

بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ

لقد جاء القرآن عظة وهداية ، ومجدًا وشرفًا لهم ، وكان الأولى أن يهتدوا به ويلتفوا حوله . قال تعالى : وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ . (الزخرف : ٤٤) . أى : القرآن شرف لك يا محمد ولقومك ؛ لأنه وحّد العرب وجمعهم وعلمهم وطهرهم ، ولم يكن للعرب فى الجاهلية كبير شأن ، فكانوا بالإسلام خير أمة أخرجت للناس ، وكان القرآن روحا وحياة لأمة العرب ، ولما دخلوا فى الإسلام زلزلوا عروش الأكاسرة والقياصرة ، وفتح الله بهم البلاد ونصرهم على العباد ، وكلما اقترب المسلمون من القرآن ، وعملوا بأحكام الإسلام ؛ ارتفع شأنهم وعلا أمرهم ، وكلما بعدوا عن هدى القرآن ؛ ضعف شأنهم .

وخلاصة المعنى :

بل جئناهم بالقرآن الذى هو عزهم وشرفهم ، وفخرهم وإعلاء سمعتهم ، ولكنهم معرضون عن هذا الذكر الذى سطر لهم الخلود والمجد .

٧٢ - أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ .

انتقال إلى توبيخ آخر يوبِّخ به سبحانه وتعالى الكافرين ، على عدم إيمانهم بما جاء به الرسول من الحق دون أن يسألهم عليه أجرا ، أى : أتسألهم أجرا على تبليغ الرسالة ، فبسبب ذلك لا يؤمنون بك ، ولأجله يعرضون عن رسالتك ؟

والمراد : أنك لا تسألهم أجرًا ، فإن ما رزقك الله فى الدنيا والعقبى خيرٌ من ذلك ، لسعته ودوامه ، ولأنك تحتسب أجره عند الله لا عندهم ، وكيف ينتظر أجر المخلوقين ، من تعلّق قلبه بما عند الله ، وما عند الله خير وأبقى وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ . فعطاء الله تعالى لا يماثله عطاء ؛ لأن الأرزاق المادية والمعنوية منه تعالى ، ولا يقدر أحد أن يرزق مثل رزقه ، ولن يستطيع أن ينعم قدر إنعامه .

٧٣ - وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

وإنك يا محمد لتدعو الناس إلى دين الإسلام ، وهو دين الفطرة السليمة ، ومكارم الأخلاق ، وهو الدين الكفيل بحل مشاكل البشرية ، وهو العلاج لأدوائها ، كما شهدت بذلك العقول السليمة والدراسات الحيادية المجردة من أعداء الإسلام وعباقرة العلم والمعرفة .

٧٤ - وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ .

والكافرون المكذبون بالآخرة ، معرضون عن الصراط المستقيم ، متنكبون عن الجادة ، منحرفون عن هدى السماء ، لأنهم تركوا الإسلام والإيمان بمحمد ﷺ ، والإسلام هو الطريق القويم ، والكفر انحراف عن الجادة .

٧٥ - وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ .

لقد غلب عليهم العناد ، وغلبت على طبيعتهم المكابرة ، فإن أصيبوا بالقحط والبلاء لم تلن قناتهم ، ولم يتضرعوا إلى ربهم ، ولو أسبغنا عليهم واسع رحمتنا ، وأزحنا عنهم الضرَّ لما آمنوا بالقرآن ، ولما انقادوا له ، ولتمادوا فى ضلالهم ، ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم ، وكان النبى ﷺ قد دعا عليهم فقال : «اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنىّ يوسف»[٢٣] .

وقد حقق الله دعاء نبيه ، فأصاب أهل مكة القحط والجوع ، فجاء أبو سفيان إلى النبى ﷺ يسأله صلة الرحم ، والشفقة بأهل مكة ، وكتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تقول له : ألست تزعم أنك بُعثت رحمة للعالمين ، فقد قتلت الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع ، وأنك تأمر بصلة الرحم ، وإنك قد قطعت أرحامنا . وكان ذلك قبل الفتح بقليل ، وكان ثمامة بن أثال الحنفى قد أسلم ، وتسبب فى منع الميرة من اليمامة إلى أهل مكة حتى أضر بهم الجوع ، وأكلت قريش العلهز - وهو طعام يؤكل فى المجاعة من الدم والوبر، ويطلق أيضًا على القراد الضخم - فكتب رسول الله ﷺ إلى ثمامة - رضى الله عنه -: «خلِّ بين قومى وبين ميرتهم». ففعل ، وقد نزلت الآية الكريمة ، لتبين أن كشف الضرّ عنهم ، بسعى رسول الله ﷺ ، وكتابته إلى ثمامة ، لن يؤثر فى قلوبهم المريضة ، بل سيستمرون على عنادهم وطغيانهم وكفرهم ، وسيظلون متحيرين مترددين .

قال تعالى : وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ . (الأنفال : ٢٣) .

٧٦ - وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ .

أخذنا أهل مكة بعذاب الجوع والقحط ، أو القتل يوم بدر ، فما خضعوا لربهم ، ولا انقادوا لأمره ، ولا تضرعوا إليه ، ولا تذللوا لمرضاته ، فقلوبهم مع أوثانهم ، وليست مع خالقهم .

وفى معنى الآية قوله تعالى : فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ... (الأنعام : ٤٣) .

ثم أبان حالهم إذا جاءتهم وفجأتهم القيامة .

٧٧ - حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ .

حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة . ونزل بهم عذاب السماء ، خاب أملهم ، وانقطع رجاؤهم ، وأصيبوا باليأس والإحباط ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ . (الروم : ١٢) .

ويقول تعالى : لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . (الزخرف : ٧٥) .

وقيل : المراد بالعذاب الشديد : فتح مكة ، وانتصار الإسلام ، ودخول الناس فى دين الله أفواجًا ، عندئذ أصيب أهل مكة بالإحباط واليأس من الانتصار على الإسلام .

وخلاصة الآيات ٦٣ - ٧٧ ، إصرار الكفار على الشرك بالرغم من وضوح الأدلة أمامهم ، ومعرفتهم بمحمد ﷺ الصادق الأمين ، وأنه كامل العقل ، وقد جاء بالحق الواضح ، ولم يطلب منهم أجرا على تبليغ الرسالة ، ودعاهم إلى الصراط المستقيم ، ولكنهم تحجرت قلوبهم ، فلا يفيدهم البلاء ولا كشفه ونزول رحمة الله بهم .

★ ★ ★

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

المفردات :

أنشـــــأ : خلق .

الأفـــئـــدة : القلوب ، مفردها فؤاد ، وقد خلقها للتفكر والتدبر والتأمل .

ذرأكــــــــم : خلقكم وبثكم .

اختلاف الليل النهار : تعاقبهما بالسواد والبياض ، والزيادة والنقصان ، وذلك مختص بالله تعالى ، لا يقدر عليه غيره ، كما يقال : فلان يختلف إلى فلان ، أى : يتردد عليه بالمجىء والذهاب .

تمهيد :

يعدد الله تعالى فى هذه الآيات ، مظاهر نعمه على عباده ، فهو الذى أنعم علينا بنعم السمع والبصر والعقل ، وهو الذى أوجدنا ويميتنا ثم يحيينا ، وبيد الله اختلاف الليل والنهار وتتابعهما كما أن بيده الحياة والموت والبدء والانتهاء للكون والإنسان .

التفسير :

٧٨ - وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ .

من شأن القرآن الكريم أن يتخوَّل الناس بالموعظة بين الحين والحين ، فقد استعرض حال أهل مكة، وإصرارهم على الكفر والعناد فيما سبق ، وهنا يذكّرهم بأنعم الله تعالى عليهم ، فالله تعالى أوجدهم إلى الدنيا ، لا يعلمون شيئا ، ثم أنعم عليهم بحاسة السمع ، والطفل يبدأ فى السمع خلال الأسابيع الأولى من ولادته ، وخلال الشهر الثالث يبدأ فى الإبصار ، ولا يتم تركيز الإبصار إلا بعد الشهر السادس ، وأما الإدراك بالعقل فلا يكون إلا بعد ذلك .

وهذه الأجهزة العجيبة ، التى يتمتع بها الإنسان ، وكيفية عملها وأدائها لوظائفها ، أمر يدير الرءوس، وقد كان اكتشاف طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها ، يعدّ كشفًا عظيمًا فى عالم البشر ، فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذى يعيش فيه الإنسان ؟

ونلاحظ أن القرآن الكريم يقدم السمع على البصر ، ويدل ذلك على أهمية السمع فى حياة الإنسان ، وكأن اختراع الإذاعة والتليفون ، والتليفون المحمول مما يبين أهمية السمع ، والسمع مرتبط بالفكر ، والأعمى يعتمد على السمع والفكر وهما وسيلة تميز الإنسان ، وفى الحديث الصحيح : أن الله اختبر ثلاثة من البشر ، كانوا مرضى وفقراء فشفاهم الله ، وأعطاهم المال ؛ ثم اختبرهم فى حال الصحة والغنى ، وكان أحدهم أبرص والثانى أقرع ، والثالث أعمى ، فرسب الأبرص والأقرع فى الامتحان ، ونجح الأعمى لأن الأول ضن بالمال ورفض مساعدة مريض فقير ، وكذلك الثانى ، أما الأعمى فقد قال : لقد كنت مثلك أعمى فشفانى الله ، وكنت فقيرًا فأغنانى الله ، خذ ما تشاء من أغنامى فلا أمنعك مالاً أخذته فى سبيل الله ، فقال له الملاك : أمسك عليك مالك ، لقد رُضى عنك وسُخط على صاحبيك[٢٤] .

وهذا الحديث الصحيح يبين أهمية البصيرة الداخلية ، وأهمية القيام بشكر الله تعالى على ما أنعم به .

وفى معنى الآية قوله تعالى : وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (النحل : ٧٨) .

وقد خص الله تعالى نعم السمع والبصر والعقل بالذكر ، لأن النظر العقلى والإيمان متوقف عليها ، ثم قال سبحانه وتعالى فى ختام الآية :

قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ .

أى : إن الناس لم يستخدموا هذه النعم فى معرفة الحق سبحانه ، ولذلك آمن قليلهم وكفر أكثرهم .

قال تعالى : وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ . (يوسف : ١٠٣) .

وقال عز شأنه : وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ... (ص : ٢٤) .

وقال تعالى : وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ . (سبأ : ١٣) .

وقيل : إن المعنى أن الناس يشكرون الله شكرا قليلا ، وكان أولى بهم أن يكثروا من شكرهم لربهم عرفانا بفضله ، وذكرًا لآلائه، وتلبية لأوامره، وتبتلا إليه، قال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . (الأحزاب : ٤١ ، ٤٢) .

وقال تعالى : لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ . (إبراهيم : ٧) .

٧٩ - وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

فقد خلق الله آدم وخلق منه حوّاء، وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء، ونشر الخلق فى سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، ثم يميتهم الله تعالى وينزع أرواحهم ، ثم يوم القيامة يجمعون للحساب والجزاء العادل المنصف ، وكلها أنعم منه سبحانه .

٨٠ - وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

والله تعالى هو الذى يملك الحياة والموت ، وفى كل لحظة نجد ملايين الأحياء تدب فيهم الحياة ، وملايين الموتى تنزع أرواحهم ، والحياة نعمة الوجود ، والموت نعمة تكريم الإنسان والأحياء ، والإنسان ربما

ظن أنه يمكنه الإحياء والإماتة ولكنها أمور ظاهرية ، لأن واهب الروح هو الله ، وقابضها هو الله بواسطة الملائكة ، قال تعالى : وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً . (الإسراء : ٨٥) .

وقال تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ . (الأنعام : ٦١) .

وَلَهُ اخْتِلَٰفُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ ...

أى : مجىء أحدهما عقب الآخر بلا توانٍ ولا تخلّف ، أو تميز أحدهما عن الآخر ، فالنَّهار مضىء ، فيه حياة وحركة وسعى وضجيج ، والليل ظلام وسكون ونوم وراحة ، أو المعنى : زيادة أحدهما عن الآخر ، فالليل يطول فى الشتاء والنهار يقصر فيه ، والليل يقصر فى الصيف ويطول النهار فيه .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أترون هذه الآيات والدلائل ، فلا تتحرك عقولكم للتأمل فى خلق الكون والإنسان ، والتبصّر بأن وراء هذا الكون ، ووراء اختلاف الليل والنهار ، يدا حانية تمسك بنظام الكون وتحفظ توازنه ، وأن العقل يرشد إلى قدرة الله ووحدانيته ، ويرشد إلى الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد .

★ ★ ★

﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

المفردات :

أساطير الأولين : أباطيلهم وأكاذيبهم وأعاجيبهم ، التى سطروها للتلهى بها ، وأساطير جمع أسطورة ، مثل: أحاديث جمع أحدوثة ، وأعاجيب جمع أعجوبة .

تمهيد :

ذكر الله فيما سبق أدلة التوحيد المبثوثة فى الأنفس والآفاق ، ثم ذكر هنا شبه المشركين ، فهم يستبعدون البعث بعد الموت ، لأنهم إذا ماتوا وصاروا عظامًا وترابًا ، كانوا أبعد ما يكون عن الحياة ، والرسل السابقون وعدونا بالبعث والحشر ، ولم يتحقق ذلك فالبعث أكاذيب الأولين .

التفسير :

٨١ - بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ .

أى : مع كل ما سبق من أدلة على وجود الخالق ، فإن هؤلاء المشركين أنكروا البعث واستبعدوه، وأعادوا مقالة أسلافهم الذين كذبوا رسلهم ، تقليدًا أعمى لهم دون برهان .

٨٢ - قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .

أى : هل إذا متنا وصرنا إلى الفناء والتراب والعظام البالية ، التى هى أبعد ما تكون عن الحياة ، هل نعود إلى البعث والحياة مرة ثانية ؟ فهم يستبعدون وقوع البعث بعد البلى .

٨٣ - لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ .

لقد وعدتنا يا محمد بالبعث بعد الموت ، وكذلك وُعد آباؤنا ، على ألسنة رسلهم السابقين بهذا البعث والحشر والجزاء ، ولم يتحقق شىء من ذلك البعث الموعود ، فما هذا الحديث عن البعث إلا أكاذيب من أكاذيب السابقين ، لا وجود لها فى عالم الحقيقة والواقع .

وفى معنى الآيات السابقة ، نجد قوله تعالى حكاية عن المكذّبين : أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً * قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ . (النازعات : ١١ - ١٤) .

وقوله سبحانه : أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٧٧ - ٨٣) .

★ ★ ★

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

المفردات :

تذكرون : أصله : تتذكرون ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفا ، والتذكّر : الاعتبار .

ملكوت : صيغة الملكوت للمبالغة فى الملك ، فالمراد به : الملك العظيم الشامل .

وهو يجير : وهو يمنع ويحفظ من يشاء ممن يشاء .

ولا يجار عليه : لا يعين أحد منه أحدا .

تسحرون : تخدعون وتصرفون عن الرشد .

التفسير :

٨٤ - قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

فى الآيات السابقة أنكر المشركون البعث، وفى هذه الآيات يدل الله على قدرته وعظمته بثلاثة أدلة:

الأول : ملكيته للأرض ومن فيها .

الثانى : ملكيته للسماوات السبع .

الثالث : ملكيته لكل شىء فى الكون .

ومعنى الآية :

أى : قل أيها الرسول الكريم لمنكرى البعث : من خالق الأرض ومن فيها من إنسان وحيوان ونبات وبحار وأشجار وأنهار ، وغير ذلك من المخلوقات ؟

إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

إن كان عندكم علم فأظهروه واشهدوا بمقتضاه .

٨٥ - سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

سيعترفون بما دلّ عليه العقل بداهة ، من أن ذلك ملك لله ، فلم يدع أحد أنه هو خالق هذه الأشياء .

قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

أفلا تتعظون أن خالق هذا الفضاء والجبال والأنهار والثمار والأشجار ، إله قادر خالق رازق يستحق أن يفرد بالعبادة ، وألا يشرك به أحد ، وألا يعبد معه أوثان أو أصنام .

٨٦ ، ٨٧ - قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

قل أيها الرسول الكريم وكرر القول والأدلة والاستفهام منهم مرة بعد مرة ، قل لهم أيضًا : من خالق السماوات السبع ، وما فيها من أفلاك وأملاك ومجرات وكواكب ونجوم ، وعوالم تتحير العقول فى نظامها ودقتها ؟ ويسوق التأمل إلى عظمة خالقها وكماله ووحدانيته ، فيقول : واسألهم من هو رب العرش العظيم، المالك للعرش الكريم ؟ والعرش أصل الملك ودليله ، ورمز القدرة والعظمة ، قال رسول ﷺ : «ما السماوات السبع والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن الكرسى بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة»[٢٥] .

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

سيعترفون بأن ذلك خلق الله القدير ، قل لهم عندئذ : أفلا تتقون الله وتراقبونه وتلجأون إليه عابدين خاضعين لا تشركون به شيئا .

٨٨ - قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

أى : توجه إليهم بسؤال ثالث ، من بيده ملك كل شىء منظور أو مستور ؟

كما قال تعالى : مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ... (هود : ٥٦) . أى : متصرف فيها . وهو السيد الأعظم الذى يغيث من يشاء ، ويحمى من يشاء ، ولا يغيث أحد منه أحدًا ، فلا ممانع ولا مخالف ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، إن كنتم من أهل العلم بذلك .

٨٩ - سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ .

سيعترفون بأن الملك لله . وفى قراءة .

سَيَقُولُونَ اللَّهُ .

أى : سيعترفون بأن المالك المدبر هو الله لا غيره ، فلا معقب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه .

قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ .

أى : كيف تصرفون عن عبادته وتُخدعون ؟ والخادع هو الشيطان الذى زيَّن لهم الباطل وصرفهم عن الحق ، أى : فكيف تتقبل عقولكم أن تعبد مع الله غيره ، مع اعترافكم بأنه الخالق المالك المدبِّر ؟

٩٠ - بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ .

بل جئناهم بالقول الحق ، والدليل الصدق ، والإعلام الثابت بأنه لا إله إلا الله ، وأقمنا الأدلة الصحيحة القاطعة على ذلك ، وإنهم مع ذلك لكاذبون فى إنكار الحق ، والإصرار على عبادة الأصنام ، وإنكار البعث ، وإنكار نبوة محمد ﷺ .

وقال القرطبى : وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ . فى قولهم : إن الملائكة بنات الله . ا هـ .

وإذا تأملت وجدت أن المشركين لا يكابرون ، ولا يعبدون الأوثان ، أو ينكرون نبوة محمد ﷺ عن دليل وبرهان ، وإنما اتباعًا لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال .

وإذا أعدت النظر فى الآيات ، وتأملت تكرار كلمة : قُلْ بهذا الأسلوب القوى المتحدِّى ، علمت منها جواز جدال الكفار ، وإقامة الحجة عليهم ، والتدليل على أنَّ من ابتدأ بالخلق والاختراع ، والإيجاد والإبداع ، هو المستحق للألوهية والعبادة .

وتذييل الآيات بقوله تعالى : أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . أَفَلَا تَتَّقُونَ . إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ . يعد حملة شديدة على المشركين للإقلاع عما هم عليه من الشرك ، إذ كيف تقبل عقولهم عبادة أحد مع الله مع اعترافهم الصريح بأن الله هو المالك للخلق المدبِّر له .

★ ★ ★

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

التفسير :

٩١ – مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ .

لقد نفى القرآن الولد عن الله تعالى فى كثير من الآيات ، مثل سورة مريم : وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۞ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا . (مريم : ٨٨ – ٩٣) .

وفى هذه الآية ٩١ من سورة «المؤمنون» ينفى سبحانه أن يكون له ولد كما زعم المشركون، كما ينفى أن يكون مع الله إله آخر ، ثم يحتكم إلى العقل والمنطق فى إبطال ذلك فلو أن اثنين اشتركا فى خلق الكون ، لانفرد كل واحد منهما بإدارة الجزء الذى خلقه ، ووضع له نظامًا وناموسًا يختلف عن نظام الجزء الآخر وإذا تعددت الآلهة لاتجه كل واحد منهم إلى قهر الآخر والتسلط عليه ، لتظهر قوة القوى على الضعيف، كما هو شأن ملوك الدنيا ، ولو حدث هذا التغالب والانقسام ، لاختل نظام الكون ولفسدت السماوات والأرض ومن فيهن . إلا أن المشاهد أن الوجود منتظم متسق ، وفى غاية النظام والكمال ، وارتباط كل من العالم السفلى بالعالم العلوى دون تصادم ولا اضطراب كما قال تعالى : مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ . (الملك : ٣) .

ولما ثبت كون التعدد فى الآلهة مستحيلا ؛ بطل قول الكافرين فى عبادة الأصنام والأوثان ، وبطلت حجتهم فى قولهم : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ... (الزمر : ٣) .

فلو كانت هناك آلهة مع الله لتقربت إليه تعالى بعبادته وحده ، فأولى بالإنسان أن يعبد ربه وحده، قال تعالى : قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا . (الإسراء : ٤٢) .

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ .

تنزه الله الحق الواحد الأحد عما يقول الظالمون فى دعواهم الولد أو الشريك .

٩٢ - عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

أى : هو سبحانه المتفرد بعلم الغيب ، والغيب كل ما غاب عنك، فالسماء والنجوم والأبراج والأفلاك والملائكة والجن والساعة والآخرة كلها يعلمها الله وحده ، ولا يشاركه فى علمها أحد ، لذلك فهو أهل للتفرد بالألوهية، وكما أنه هو المتفرد بعلم الغيب، فهو سبحانه يعلم كل شيء عن عالم الشهادة المشاهد الملحوظ فالخلق وإن علموا جانبا من عالم الشهادة إلا أنهم لايستطيعون الإحاطة بعلم كل ما فى الدنيا من بشر وشجر وحجر ومدر، وبحار وأنهار، وفضاء وهواء، وإنسان وحيوان، فالله وحده هو الذى أحاط بكل شيء علما.

فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

وهو سبحانه منزه عن الشريك والمثيل والنظير .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (لقمان : ٣٤) .

وقال عز شأنه : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . (المجادلة : ٧) .

تعليق على الآيتين ٩١ - ٩٢

يذكر علماء الكلام هنا دليل التمانع : وهو أنه لو فرض صانعان خالقان فصاعدا ، فأراد واحد تحريك جسم ، والآخر أراد سكونه ، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين ، والإله الواجب الوجود لا يكون عاجزًا ، ويمتنع اجتماع مراديهما وتحقيق رغبتيهما فى آن واحد للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالاً .

فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر ، كان الغالب هو الواجب الوجود المستحق للألوهية ، والآخر المغلوب لا يكون كذلك ، لأنه لا يليق بصفة الواجب الوجود أن يكون مقهورًا .

★ ★ ★

إرشادات إلى النبى ﷺ

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

المفردات :

إما تريني ما يوعدون : إن كان ولابد من أن تريني ما يوعدون من العذاب فى الدنيا والآخرة .

فلا تجعلنى فى القوم الظالمين : أى : قريبا لهم فأهلك بهلاكهم ، لأن شؤم الظلمة قد يحيق بما وراءهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ... ﴾ (الأنفال : ٢٥) .

الهمزات : الوساوس المغرية بمخالفة ما أمرنا به ، واحدها : هُمزة ، وأصل الهمز : النخس والدفع بيد أو غيرها ، ومنه : مهماز الرائض (حديدة توضع فى مؤخر الرجل ينخس بها الدابة لتسرع) .

كلا : كلمة تستعمل للردع والزجر عن حصول ما يطلب .

من ورائهم : من أمامهم .

برزخ : حاجز بينهم وبين الرجعة .

تمهيد :

تحدثت الآيات السابقة عن تنزيه الله عن الشريك والولد ، وهنا يوجه الله تعالى الرسول الأمين ، بأن يلجأ إلى الله بالدعاء فى الشدائد ، حتى لا يجعله مع القوم الظالمين فتحل به عقوبتهم ، وأن يتعوذ بالله من وسوسة الشياطين ، الذين يزينون للكفار الشرك فيطيعونهم ، وهؤلاء الكفار يتبينون الحقيقة عند الموت فيتمنون الرجوع إلى الدنيا لتدارك الموقف ، لكن لا يجابون إلى طلبهم وبين الدعاءين الأول والأخير يتوسط توجيه سماوى بمقابلة الإساءة بالإحسان .

التفسير :

٩٣ ، ٩٤ - قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

عند الشدائد والمحن يلجأ المؤمن إلى ربّه ، طالبا النجاة ، وهنا يوجه الله الرسول الأمين بأن يدعو الله قائلاً : إن كان ولابد من مشاهدتى عذاب الكافرين ، فى الدنيا أو فى الآخرة ، فلا تجعلنى فيهم ، ونجنى منهم ولا تعذبنى بعذابهم، ونجنى من عذابك للظالمين، واجعلنى مع من رضيت عنهم، من أوليائك المؤمنين.

فإن العذاب قد يصيب غير أهله ، كما قال تعالى : وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ... (الأنفال : ٢٥) .

وروى الإمام أحمد ، والترمذى وصححه : أن النبى ﷺ كان يقول : «وإذا أردت بقوم فتنة ، فتوفنى إليك غير مفتون»[٢٦] .

وعن الحسن : أنه تعالى أخبر نبيه أن له فى أمته نقمة ، ولم يطلعه على وقتها ، فأمره بهذا الدعاء ، والإرشاد إلى هذا الدعاء ليعظم أجره ، وليكون دائما ذاكرًا ربّه ، ولتعليمنا ذلك .

٩٥ - وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ .

لو شئنا لأطلعناك أيها الرسول الكريم على العذاب الذى ينتظرهم ، وعلى الوقت الذى سيقع فيه عليهم لكن لحكمة إلهية أخفى الله ذلك ، إلى حين ، لعل بعض ذرياتهم يؤمن .

وسورة «المؤمنون» مكية ، والتوجه كان فى مكة إلى الصبر والاحتمال ، ولذلك ستأتى آيات تحث على مقابلة السيئة بالحسنة ، وقد كشف الله لرسوله بعد ذلك عن عذاب الكافرين فى غزوة بدر وفى فتح مكة .

٩٦ - ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ .

أى : قابل السيئة بالحسنة ، وتحمل ما تتعرض له من أذى الكفار وتكذيبهم ، وادفع بالخصلة التى هى أحسن ، بالصفح والعفو ، والصبر على الأذى ، والكلام الجميل كالسلام ، نحن أعلم بحالهم وبما يصفوننا به من الشرك والتكذيب .

ونظير الآية قوله تعالى : ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . (فصلت : ٣٤ ، ٣٥) .

أى : قابل الإساءة بالخصلة التى هى أحسن وهى الإحسان والعفو والصفح ، فإن الإحسان يحوِّل العدو إلى صديق ، والبغيض إلى حبيب ، ولا يقدر على ذلك إلا الصابر عظيم الحظ فى الدنيا والآخرة .

وقيل : هذه الآية منسوخة ، نسختها آية السيف .

أشار بدر الدين الزركشى إلى أنها غير منسوخة لأنها تأمر بمكارم الأخلاق ، وبالصبر والاحتمال والمداراة وهى أمور مرغوب فيها ما لم تتعارض مع الدين والمروءة .

قال الزركشى ، والشاطبى فى الموافقات : ليست هذه الآية منسوخة بآية السيف ، وإنما هذا من باب التدرج فى التشريع ، فعندما كان المسلمون ضعافا فى مكة أمرهم الله بالصبر والمداراة ، وعندما صاروا أقوياء فى المدينة أمرهم الله بالجهاد ، وهكذا كلما كان المسلمون ضعافًا أمروا بالصبر ، وكلما كانوا أقوياء أمروا بالدفاع والجهاد .

٩٧ ، ٩٨ - وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ .

وقل : يارب إنى ألجأ إليك وأتحصن بك وأتمسك بعنايتك وفضلك من وساوس الشياطين وتزيينهم للشر والمعصية ، وألتجىء إليك وأتمسك بفضلك ورجائك أن تعصمنى من حضور الشياطين فى أى أمر من أمورى، أو حضورهم سكرات موتى .

وكان النبى ﷺ دائم الذكر لله تعالى، متذكرا فضله ونعمته فى كل أمر من أمور حياته، فكان يذكر الله عند النوم واليقظة والأكل والجماع والذبح وغير ذلك ، وهذا الذكر لرفع الدرجة ، وزيادة الشكر ، وتعليم الأمة .

روى أحمد، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، والبيهقى، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع : «بسم الله ، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون»[٢٧] .

فكان عبدالله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ، ومن كان صغيرا لا يعقل أن يحفظها ؛ كتبها له ، فعلّقها فى عنقه .

وأخرج أحمد ، عن الوليد بن الوليد أنه قال : يا رسول الله ، إنى أجد وحشة ، قال : «إذا أخذت مضجعك فقل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، فإنه لا يحضرك وبالحرِىِّ لا يضرك»[٢٨] .

وروى أبو داود ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : «اللهم إنى أعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من الهدم ، ومن الغرق ، وأعوذ بك أن تتخبطنى الشياطين عند الموت»[٢٩] .

وفى هذا المعنى علمنا القرآن الالتجاء والتَّحصُّن والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم فى المعوذتين وغيرهما ، مثل قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ . (النحل : ٩٨) .

٩٩ ، ١٠٠ - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ...﴾

يظل الكافر والمؤمن العاصى فى عمل السيئات ، وطاعة الشياطين ، حتى إذا نزل الموت بساحته وشاهد ما أعدّه الله للعصاة ، تحركت فيه الرغبة فى أن يعود للدنيا ، ليعمل عملاً صالحًا، وتتكرر هذه الرغبة عند الحشر ، وعند معاينة جهنم ، وعند العذاب فى نار جهنم ، يطلبون فى كل هذه المواقف الرجعة إلى الدنيا لتدارك ما فاتهم من العمل الصالح ، لكن الحق سبحانه لا يجيبهم إلى طلبهم ، بل يخبرهم أن طلبهم هذا مرفوض ، ويستمرون فى عذاب القبر ، إلى البعث ، ثم يتم الحشر والحساب ، ثم يتوجهون إلى جهنم لاستكمال العذاب .

وقد كرر القرآن مشاهد القيامة وأهوالها ، ومشاهد النار وعذابها ، وتمنّى الكافرين أن يعودوا إلى الدنيا ، ليؤمنوا بالله ويصدقوا برسله ، لكنهم لا يجابون إلى ذلك .

قال تعالى : ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ . (إبراهيم : ٤٤) .

وقال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ . (الأنعام : ٢٧) .

وتجد ذلك فى الآية ٥٣ من سورة الأعراف، والآية ١٢ من سورة السجدة، والآية ٤٤ من سورة الشورى، والآية ٣٧ من سورة فاطر ، وهذا كله يدل على أن تمنى العودة إلى الدنيا يحدث حال المعاينة للعذاب عند الاحتضار ، وحين النشور وحين الحساب ، وحين العرض على النار ، وبعد دخولهم النار ، ولا يجابون إلى ذلك أبدًا قال تعالى :

﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ .

أى : لا جواب لهؤلاء ولا كرامة لهم ، إنها كلمة تخرج من أفواههم ، لا تلقى ترحيبًا ولا جوابًا، ويستمرون محبوسين تعذب أرواحهم فى البرزخ ، ومن أمامهم حاجز يحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا، فلا رجعة بعد البعث إلّا إلى الآخرة ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ . (المنافقون : ١٠ ، ١١) .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) ﴾

المفردات :

الصـــــور : يطلق على البوق فيكون مفردًا، ويطلق على الصُّوَر (بفتح الواو) فيكون جمعا لصورة، مثل: بُسْر وبُسْرة .

فلا أنساب بينهم : فلا تنفعهم الأنساب ، وهى القرابات .

ولا يتساءلون : ولا يسأل بعضهم بعضا عن حاله .

فمن ثقلت موازينه : فمن رجحت موزوناته من الأعمال الصالحة .

تلفح : تحرق .

كالحون : عابسون متقلصو الشفاة .

شقوتنا : الشقوة والشقاوة : سوء العاقبة ، وهى ضدّ السعادة .

اخسأوا : اسكتوا سكوت ذلة وهوان .

سخريا : هزوا .

ذكرى : خوف عقابى .

تمهيد :

تصف الآيات مشاهد القيامة حيث ينفخ فى الصور ، وتعود الأرواح إلى الأجسام ، ويتم البعث والحشر والحساب ، ولا تنفع الأحساب فى ذلك اليوم ، وإنما تنفع الأعمال ، فالسعداء فى الجنة والأشقياء فى جهنم ،

ويتم سؤال هؤلاء الأشقياء توبيخا لهم ، فيقال لهم : ألم أرسل إليكم الرسل ؟ ألم أنزل على الرسل كتبى وهداياتى ؟

فيعترفون بذلك ، ويعترفون بشقوتهم وضلالهم فى الدنيا ، ويطلبون مهلة ليرجعوا إلى الدنيا مرة أخرى فيتداركوا ما فاتهم ، فيجيبهم ربهم: امكثوا فى النار صاغرين أذلاء ، ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا ، إنكم كنتم تستهزئون بعبادى المؤمنين ، وكنتم منهم تضحكون ، إنهم اليوم هم الفائزون جزاء صبرهم على أذاكم واستهزائكم بهم .

التفسير :

١٠١ - فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ .

إذا نفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية ؛ قام الناس للحساب ، وقد اشتد الهول ، وعظم الخطب ، وانشغل كل إنسان بنفسه ، ولم يعد هناك مجال للتفاخر بالأحساب والأنساب التى كان يفتخر بها فى الدنيا، لأن الفخر حينئذ بالعمل الصالح وهو معيار التفاضل فى ذلك اليوم .

وَلَا يَتَسَآءَلُونَ .

لا يسأل بعضهم بعضا عن أحوالهم لشدة الهول ، ولانشغال كل إنسان بنفسه ، حتى الرسل وهم صفوة الله من خلقه يقول كل واحد منهم : نفسى نفسى ، حين يطلب منهم الشفاعة لإراحة الناس من هول الموقف .

فإن قيل : قد ورد فى القرآن أن الناس توقف للسؤال فى آيات أخرى ، مثل قوله تعالى : وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ . (الصافات : ٢٤) .

وقوله سبحانه : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ .(الطور : ٢٥) .

فالجواب : أن يوم القيامة فيه مواقف متعددة ، فى بعضها يسمح للإنسان بالكلام والسؤال والتساؤل، وفى بعضها لا يسمح له بالكلام ولا بالتساؤل .

وذلك شبيه بإنسان فى ساحة القضاء فى الدنيا ، يسمح له من يحقق معه بإبداء رأيه ودفاعه عن نفسه فإذا حجزت القضية للنطق بالحكم ؛ لم يعد يسمح له بالكلام .

فى أعقاب الآية

قرأ ابن عباس : فإذا نفخ فى ٱلصُّوَرِ . بواو مفتوحة ، وهى جمع صورة ، والمراد بها : إطلاق الأرواح من البرزخ لتلحق بأجسادها .

قال الآلوسى : ولا تنافى بين النفخ فى الصور بمعنى القرن ، الذى جاء به الخبر ودلت عليه آيات أخر ، وبين النفخ فى الصُّوَر جمع صورة ، فقد جاء أن هذا النفخ عند ذاك .

ويكون معنى الآية :

إذا نفخ فى الصُّوَر وعادت الأرواح إلى أجسادها، وقام الناس من قبورهم للبعث والحشر والحساب؛ فلا تنفعهم قراباتهم وأحسابهم كما كانت تنفعهم فى الدنيا ، إذ لا ينفع الإنسان حينئذ إلا عمله .

ومن جهة أخرى فكل إنسان مشغول بنفسه عن الآخرين قال تعالى : يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ . (عبس : ٣٤ – ٣٧) .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن مسعود قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ؛ ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقه ، قال : فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا ، ومصداق ذلك فى كتاب الله ، قال الله تعالى : فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ . [٣٠].

وروى الإمام أحمد ، عن المسور بن مخرمة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «فاطمة بضعة منى ، يغيظنى ما يغيظها ، وينشطنى ما ينشطها ، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى وصهرى» .

قال ابن كثير فى التفسير : وهذا الحديث له أصل فى الصحيحين : «فاطمة بضعة منّى يريبنى ما يريبها ويؤذينى ما آذاها»[٣١] .

١٠٢ – فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

أى : من ثقلت ورجحت حسناته على سيئاته ؛ فأولئك هم الذين فازوا بالجنة والنعيم المقيم .

١٠٣ – وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ .

ومن زادت سيئاته على حسناته ؛ فهؤلاء هم الذين خسروا أنفسهم وضيعوها بكفرهم ، فهم بسبب ذلك خالدون فى جهنم مخلدون فى عذابها ، يشقون فيها شقاء لا سعادة بعده أبدا .

قال تعالى : أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا . (الكهف : ١٠٥) .

١٠٤ – تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ .

تحرق النار وجوههم ، وهم فيها متقلصو الشفاة عن الأسنان من أثر احتراق الوجوه ، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ، فبيان سوء حالها أدل على بيان سوء سواها .

١٠٥ – أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ .

يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : ألم أرسل لكم الرسل ، ألم أنزل عليهم الكتب ، ليبلغوكم ويوضحوا لكم الرسالات وسُبُل الإيمان والهداية ، فأعرضتم عنهم وكذبتم بهم ؟

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ... (الملك : ٨ ، ٩) .

١٠٦ – قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ .

قالوا : يا ربنا غلبت علينا أهواؤنا ونزعاتنا وسوء الظن برسلنا ، فكذبنا بآياتك فى دنيانا ، وآثرنا الباطل على الحق ، وتركنا الإيمان بالرسل عنادًا وكبرًا وبطرًا ، وظلمًا وعدوانًا ؛ فظلمنا أنفسنا فى الدنيا، وحق علينا الشقاء فى الآخرة .

١٠٧ – رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ .

لقد اعترفوا بخطئهم تمهيدا لرجائهم من الله أن يعيدهم إلى الدنيا مرة أخرى؛ حتى يصدقوا المرسلين ويؤمنوا بالله رب العالمين، وما لهم لا يؤمنون وقد شاهدوا عذاب النار وذاقوا ويلها وسعيرها ، لذلك قالوا: فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ .

أى : فإن عدنا إلى التكذيب والجحود والعدوان ؛ فإنا متجاوزون الحدّ فى الظلم .

١٠٨ – قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ .

أى : قال الله تعالى لهم جوابا على طلبهم الرجعة إلى الدنيا: انزجروا وامكثوا فى النار فى ذل وهوان، ولا تكلمونى فى شأن الرجوع إلى الدنيا .

وقد جاء فى الأثر: إذا قال الكفار : رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ . يسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم : ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . فوالله ، ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة ، وما هو إلا الزفير

والشهيق فى نار جهنم ، فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق ، وقال ابن مسعود : إذا قال الله لهم : ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ؛ أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد[٣٢] .

١٠٩ – إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ .

أى : كان جماعة من ضعفاء المؤمنين يتضرعون إلى الله تعالى ، سائلين منه المغفرة والرحمة والثبات على الإيمان ، فسخرتم بهم .

قال مجاهد : هم بلال، وخباب، وصهيب، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، كان أبوجهل وأصحابه يهزءون بهم .

١١٠ – فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ .

فتشاغلتم بهم ، ساخرين منهم ، مستهزئين بهم حتى نسيتم عبادتى ودعائى ، وشغلكم بغضهم والتفنن فى إيذائهم عن النظر فى رسالة رسولى ، أو التفكير فى الإيمان بى .

وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ .

أى : من صنيعهم وعبادتهم ، ونحو الآية قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . (المطففين : ٢٩ ، ٣٠) .

١١١ – إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ .

لقد جازيت هؤلاء الضعفاء من المؤمنين أحسن الجزاء ، بسبب صبرهم فى الدنيا على أذاكم ، حيث جعلتهم أهلاً للفوز بنعيم الجنة ورضوان الله رب العالمين .

وقد ورد هذا المعنى فى سورة المطففين ، حيث بين القرآن أن المؤمنين يثأرون لأنفسهم فى الجنة فقال سبحانه : فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ . (المطففين : ٣٤ – ٣٦) .

أى : هل جوزى الكفار بسبب سخريتهم بالمؤمنين فى الدنيا أن صار الكفار من أهل النار ، وصار المؤمنون يضحكون مسرورين ، وهم يجلسون على الأرائك ويتمتعون بالنعيم ، ويشاهدون ذل الكافرين فى جهنم ؟

★ ★ ★

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

المفردات :

اللبث : الإقامة .

إن لبثتم إلا قليلا : ما لبثتم فى الأرض إلا زمنا قليلاً .

العادين : الحفظة العادّين لأعمال العباد وأعمارهم .

العبث : ما خلا من الفائدة .

تعالى الله : ترفع الله بذاته وتنزه .

الملك الحق : المالك الثابت الملك دون سواه .

العرش : العرش فى اللغة: سرير الملك، ويكنى به عن العزّ والسلطان، والعرش كائن عظيم يحيط بالكون، وتصدر من جهته أوامر الله تعالى إلى ملائكته دون أن يكون الله فيه ؛ لاستحالة أن يكون لله مكان.
قال المراغى : العرش مركز تدبير العالم .

الكريم : الشريف ، وكل ما كرم فى جنسه يوصف بالكرم مثل : وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . (الدخان : ٢٦) .
وقوله تعالى : وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا . (الإسراء : ٢٣) .

يدع : يعبد .

حسابه : جزاؤه .

تمهيد :

إذا استقر أهل النار فى النار ، وأيقنوا أنهم مخلدون فيها أبدا ، يسألون سؤال تقريع وتوبيخ عن مدة لبثهم فى الأرض ، أى : المدة التى قضوها فى الدنيا ، ليتبين لهم أن ما ظنوه أمدًا طويلاً ، يسير بالنسبة إلى ما أنكروه ، وحينئذ يزدادون حسرة وألما على ما كانوا يعتقدون فى الدنيا ، حين رأوا خلاف ما ظنّوا ، ثم

بين بعد ذلك ما هو كالدليل على وجود البعث ، وهو تمييز المطيع من العاصى ، ولولاه لكان خلق العالم عبثا ، تنزه الله تعالى عن ذلك .

التفسير :

١١٢ - قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ .

أراد الله تبكيتهم وزجرهم على استهانتهم بالآخرة وعدم العمل لها ، وإقبالهم على الدنيا وشهواتها واعتبارها الهدف والأمل ، فوجه إليهم هذا السؤال إمّا مباشرة ، وإما على لسان ملك كلّفه الله به .

والمعنى : قال الله للكافرين : كم عدد السنين التى لبثتموها فى دار الدنيا وأرضها واغتررتم بنعيمها وتوهمتم البقاء فيها ؟

١١٣ - قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ .

أجاب الكافرون : بأن مدة مكثنا فى الدنيا كانت قصيرة جدًا بالنسبة لما نراه من طول أيام الآخرة، وما نتخيله إلا يومًا أو بعض يوم ، وقد دهتنا الدواهى وشغلتنا الشواغل وأهوال القيامة ، فاسأل الملائكة المحاسبين لأعمال العباد فهم أقدر منا على معرفة مدة مكثنا فى الدنيا .

١١٤ - قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

قال الله جوابا على كلام الكافرين : إن مكثكم فى الدنيا كان قليلا حقا بالنسبة لما ينتظر الناس هنا من عذاب دائم أو نعيم دائم ، ولو أنكم كنتم من أهل العلم والتدبر لأدركتم فى الدنيا ما أدركتموه اليوم من إيثار ما يبقى على ما يفنى .

وقد ورد فى الأثر: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى؛ لوجب إيثار ما يبقى على ما يفنى، فكيف والحال أن الدنيا من خزف يفنى والآخرة من ذهب يبقى .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن أيفع بن عبد الكلاعى مرفوعا إلى رسول الله ﷺ أنه قال : «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ؛ قال : يا أهل الجنة ، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يومًا أو بعض يوم ، قال : لنعم ما أنجزتم فى يوم أو بعض يوم ، رحمتى ورضوانى وجنتى ، امكثوا فيها خالدين مخلدين ، ثم يقول : يا أهل النار ، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم ، فيقول: بئس ما أنجزتم فى يوم أو بعض يوم ، نارى وسخطى ، امكثوا فيها خالدين مخلدين»[٣٣] .

وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى : كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَـٰهَا . (النازعات : ٤٦) .

١١٥ - أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ .

هذه الآية من تمام ردّ الله تعالى على أهل النار ، والمعنى : أجهلتم الحكمة في الخلق والحساب والجزاء ، فظننتم أن الدنيا هي الغاية ، وأنكم خلقتم للعبث واللهو والترف دون حساب أو جزاء ، وظننتم أنه لا حساب ولا جزاء ولا بعث ولا حشر .

١١٦ - فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ .

فتنزه الله بذاته عن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح الحميدة فهو سبحانه حكيم في أفعاله ، وكل عاقل لا يعمل عملاً إلا لحكمة ، ومن باب أولى الله المتصف بكل كمال والمنزه عن كل نقص ، فهو الملك الحق ذو الملك والملكوت الذي لا يفني ملكه ، وهو الإله الحق الواحد الأحد الفرد الصمد ، وهو الذي لا يفنى والإنس والجن يموتون ، وهو سبحانه مالك العرش العظيم في مكانته وشرفه .

قال ابن كثير :

فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ، ووصفه بأنه كريم ، أي : حسن المنظر بهي الشكل ، كما قال تعالى : فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . (لقمان : ١٠) . وكانت آخر خطبة خطبها عمر بن عبدالعزيز ، أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس ، إنكم لم تخلقوا عبثا ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معادًا ينزل الله فيه للحكم بينكم ، والفصل بينكم ، فخاب وخسر وشقي عبد أخرجه الله من رحمته ، وحرم جنة عرضها السماوات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمن من عذاب الله غدا إلا من حذر هذا اليوم وخافه ، وباع نافدًا بباق ، وقليلا بكثير ، وخوفا بأمان ، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين ، وسيكون مَن بعدكم الباقين ، حتى تردّوا إلى خير الوارثين ؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل ، قد قضى نحبه ، وانقضى أجله ، حتى تغيبوه في صدع من الأرض ، في بطن صدع غير ممهد ولا موسد ، قد فارق الأحباب ، وباشر التراب ، وواجه الحساب ، مرتهن بعمله ، غني عما ترك ، فقير إلى ما قدم ، فاتقوا الله عباد الله ، قبل انقضاء مواثيقه ، ونزول الموت بكم ، ثم جعل طرف ردائه على وجهه ، فبكى وأبكى من حوله[٣٤] .

وروى أبو نعيم ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية ، وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . قال : فقرأناها فغنمنا وسلمنا[٣٥] .

١١٧ - وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ .

ومن يعبد آلهة أخرى مع الله كالأصنام والأحجار ، لا يمكن أن يكون له أى دليل على ربوبيتها وصحة عبادته لها ، فما حسابه وجزاؤه وعقابه إلا عند الله .

إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ .

إنه لا يسعد أهل الشرك ولا ينجيهم من العذاب . وما ألطف افتتاح السورة بفلاح المؤمنين وختمها بعدم فلاح الكافرين وخيبتهم وعدم فوزهم بما يؤملون .

١١٨ - وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ .

أى : قل أيها النبى أنت وأمتك : رب استر وامح ذنوبى بعفوك عنها ، وارحمنى بقبول توبتى وترك عقابى على ما اجترحت من آثام وأوزار .

وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ .

أنت خير من رحم ذا ذنب فقبل توبته وتجاوز عن عقابه ، إنك ربنا خير غافر ، وإنك المرجو لإصلاح الضمائر ، وأنت الذى تمنح السداد والتوفيق فى الأقوال والأفعال .

أخرج البخارى ، ومسلم ، وغيرهما ، عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ، قال : «قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا ، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم»[٣٦] .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة «المؤمنون»

١ – فوز المؤمنين ذوى الصفات الفاضلة بدخول الجنة خالدين فيها أبدا .

٢ – ذكر حال النشأة الأولى ، وتكوين الجنين فى بطن أمّه .

٣ – خلق السماوات السبع وإنزال المطر من السماء ، وإنشاء الجنات من النخيل والأعناب، وذكر مناف الحيوان للإنسان .

٤ – قصص بعض الأنبياء كنوح ، وشعيب ، وموسى ، وهارون ، وعيسى عليهم السلام ، ثم أمرهم جميعـ بأكل الطيبات وعمل الصالحات .

٥ – وصف ما يلقاه الكافرون من العذاب والنكال يوم القيامة .

٦ – ذكر ما أنعم الله به على عباده من الحواس والمشاعر .

٧ – إنكار المشركين للبعث والجزاء ، والحجاج على إثبات ذلك .

٨ – تعليم نبيه ﷺ الأدب فى معاملة الناس ، وأمره أن يدعوه بدفع همزات الشياطين .

٩ – طلب الكفار العودة إلى الدنيا حين رؤية العذاب ، لعلهم إذا عادوا عملوا صالحًا ، وتأنيب القرآن لهم .

١٠– وصف أهوال القيامة وما فيها من الشدائد .

١١– أوصاف السعداء والأشقياء .

★ ★ ★


تفسير سورة النور

بين يدى سورة النور

اسم السورة :

سورة النور مدنية، وآياتها ٦٤ آية ، ونزلت بعد سورة الحشر، وسميت بهذا الاسم لكثرة ذكر النور فيها :

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ... (النور : ٣٥) .

نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ... (النور : ٣٥) .

وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ... (النور : ٤٠) .

روح السورة :

هذه سورة الآداب والأخلاق والتربية الإسلامية الهادفة .

وقد ذكر النور فى هذه السورة بلفظه ، كما ذكر بمظاهره وآثاره فى القلوب والأرواح ، ممثلة هذه الآثار فى بيان الفرائض والأحكام التى يقوم عليها بناء السورة ، وهى أحكام وآداب نفسية ، وعائلية وجماعية ، تؤدى إلى طهارة الفرد وسلامة المجتمع .

والمحور الذى تدور عليه السورة كلها هو محور التربية ، التربية التى تشتد فى وسائلها إلى درجة الحدود ، وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرقيقة التى تصل القلب بنور الله .

وتتداخل الآداب النفسية الفردية ، وآداب البيت والأسرة ، وآداب الجماعة والقيادة ، بوصفها نابعة كلها من معين واحد ، هو العقيدة والاهتداء بنور الله .

تاريخ نزول السورة :

نزلت سورة النور فى مرحلة متأخرة من حياة المسلمين فى المدينة ، بعد أن استقر الإيمان فى القلوب ، واستعدت نفوس المسلمين لتقبل أحكام هذه السورة .

وأحكام الحجاب فى الإسلام ، نزلت فى سورتين فحسب من سور القرآن ، هما : سورة الأحزاب ، وسورة النور.

وقد اختلف العلماء فى ترتيب نزولهما ، كما اختلفوا فى ترتيب حدوث غزوتين شهيرتين ، ارتبطت كل غزوة منهما بإحدى السورتين .

فغزوة الأحزاب ارتبطت بسورة الأحزاب ، وغزوة بنى المصطلق ارتبطت بسورة النور ، وفى إثر غزوة بنى المصطلق تخلفت عائشة – رضى الله عنها – عن الجيش، وتكلم المنافقون بحديث الإفك ، ونزلت ثلاث عشرة آية فى سورة النور بشأن ذلك الموضوع .

الخلاف بين المؤرخين هو :

هل كانت غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة قبل غزوة الأحزاب ، أم بعدها فى السنة السادسة من الهجرة ؟ .

فإن كانت غزوة الأحزاب قبل غزوة بنى المصطلق ، فمعناه أن أحكام الحجاب فى الإسلام ، كان بدؤها بالتعليمات التى وردت فى سورة الأحزاب ، وكمالها بالأحكام التى وردت فى سورة النور . وأما إذا كانت غزوة بنى المصطلق قبل غزوة الأحزاب ، انعكس الترتيب فى نزول أحكام الحجاب ، وصار بدؤها بسورة النور ، وكمالها بسورة الأحزاب .

يقول ابن سعد :

إن غزوة بنى المصطلق وقعت فى شعبان من سنة خمس ، ووقعت بعدها غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق ، فى ذى القعدة من السنة نفسها .

ويقول ابن إسحاق :

إن غزوة الأحزاب وقعت فى شوال من سنة خمس ، وغزوة بنى المصطلق فى شعبان من سنة ست .

وقد جزم ابن حزم وابن القيم وغيرهما من العلماء المحققين بصحة رواية ابن إسحاق ، ورجحانها على رواية ابن سعد .

وتفيد روايات صحيح البخارى وغيره أن أحكام الحجاب كانت قد نزلت قبل قصة الإفك ، أى : فى سورة الأحزاب ، ومما تفيده هذه الروايات كذلك ، أن النبى ﷺ كان قد تزوج زينب بنت جحش – رضى الله عنها – قبل ذلك ، فى ذى القعدة من سنة خمس ، وجاء ذكره فى سورة الأحزاب ، بل مما تفيده هذه الروايات كذلك أن حمنة أخت زينب بنت جحش ، إنما شاركت فى رمى عائشة لأنها ضرة أختها ، والظاهر أنه لابد من أن تمضى مدة من الزمن – ولو يسيرة – على صلة الضرارة بين امرأتين ، حتى تنشأ فى القلوب مثل هذه النزعات ، فهذه الأمور كلها مما يؤكد رواية ابن إسحاق ويقويها ، وتجعلنا نختار أن سورة النور نزلت بعد سورة الأحزاب بأشهر ، فى النصف الأخير من سنة ست للهجرة[٣٧] .

قيام الدولة الإسلامية :

نزلت سورة النور فى مرحلة قويت فيها سواعد المسلمين ، وارتفعت راياتهم ، وتأكدت أُخوتهم ، وترابطت صفوفهم ، وأصبحوا يدا واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

وكان عدد المسلمين قليلا لا يزيد على عُشر العرب كلها ، وكان سلاحهم قليلا ، ويتمتع أعداؤهم بتفوق فى المال والسلاح ، والمكانة والتجارة .

وكان المسلمون يتميزون بسمو العقيدة ، وطهارة القلب ، ودقة النظام ، واحترام تعاليم السماء ، مما جعلهم ينتصرون على أعدائهم .

وإذ هُزم المشركون والمنافقون فى معركة السلاح والحرب ، فإنهم قد ولجوا من باب آخر هو الدس والوقيعة والفتنة ، فتحدث المنافقون عن السيدة عائشة واتهموها فى طهارتها وعفتها ، وكان قصدهم إحراج النبى ، وإحداث الفتنة والبلبلة بين المسلمين ، ولكن الله أنزل أحكامه العادلة فى هذه السورة ، لحفظ المجتمع وحفظ المسلمين ، وإحكام بناء الدولة الإسلامية ، والجماعة الإسلامية ، وتربية الفرد والمجتمع ، بما يحقق السمو النفسى والروحى ، ويغلق منافذ الشر ، ويقود الأمة إلى التماسك والتعاون على البر والتقوى ، والبعد عن الإثم والعدوان .

من أحكام سورة الأحزاب :

تعتبر سورة الأحزاب مقدمة وممهدة لسورة النور ، ولذلك سنذكر بعض ما اشتملت عليه سورة الأحزاب من أحكام تتصل بحماية المرأة وسد ذرائع الفتنة :

١ – أمرت أزواج النبى ﷺ أن يلزمن بيوتهن ولا يخرجن منها بغير حاجة ، ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وإذا احتجن إلى الكلام مع غير المحارم من الرجال ؛ فلا يخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض .

٢ – منع الرجال أن يدخلوا بيت النبى ﷺ إلا أن يؤذن لهم ، وإذا أرادوا أن يسألوا أزواجه شيئا ؛ فليسألوهن من وراء حجاب .

٣ – أقيم الفرق بين المحارم وغير المحارم من الرجال .

٤ – قيل للمؤمنين إن أزواج النبى ﷺ أمهاتهم ، وإن حرمتهن عليهم أبدية ، فعلى المؤمنين جميعا أن يكونوا طاهرى القلوب والنيات نحوهن .

٥ – أمرت أزواج النبى ﷺ وبناته ونساء جميع المسلمين أن يدنين عليهن من جلابيبهن ، والمراد : تغطية الوجه من فوق الرأس إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة .

من أحكام سورة النور :

١ – اعتبار الزنا جريمة جنائية ، وجعل حد الزانى مائة جلدة .

٢ – نهى المؤمنين عن أن يرتبطوا بالفاسقين والفاسقات بصلة الزواج .

٣ – جعل حد من يرمى المحصن أو المحصنة بالزنا ، ثم لا يأتى عليه بأربعة شهداء ثمانين جلدة .

٤ – جعل اللعان لمن يرمى زوجته بالزنا .

٥ – تحريم ظن السوء بالآخرين ، والتحريض على كبت الشائعة الباطلة والافتراءات الكاذبة .

٦ – وجوب الاستئناس والاستئذان قبل دخول بيوت الآخرين .

٧ – أمر الرجال بالغض من أبصارهم ، وأمرت النساء بالغض من أبصارهن .

٨ – أمرت النساء بأن يضربن بخمرهن على نحورهن وصدورهن ورءوسهن .

٩ – أمرت النساء ألا يواجهن أحدا من غير المحارم وخدام البيت بزينتهن .

١٠ – إذا خرجت النساء من بيوتهن لحاجة فليسترن زينتهن ، بل لا يلبسن ما له صوت من حليهن .

١١ – فيها حث الرجال والنساء على الزواج ، وحث العبيد والإماء عليه ، وتأكيد أن الرزق من عند الله ، ليقبل الجميع على الزواج ، وإشباع النفس من الطريق الشرعى السليم ، وبقاء الرجال والنساء بدون نكاح مولد للفحشاء ، وأقل ما يكون من هؤلاء الأفراد الذين لا أزواج لهم أنهم لا يتمالكون أنفسهم ، من تحسس الأخبار الفاحشة والتلذذ بنقلها فى المجتمع .

١٢ – جعلت المكاتبة لتحرير العبيد والإماء ، وأمر السادة بأن يجيبوهم إلى طلبهم إذا أرادوا منهم المكاتبة ، وأمر عامة المسلمين بأن يساعدوا المكاتبين مساعدة مالية .

١٣ – نهى عن إكراه الفتيات – وهن الإماء – على البغاء ، ولما كانت مهنة البغاء فى العرب مقصورة على الإماء ؛ فما كان هذا النهى عنها إلا سدا قانونيا للبغاء ، وبيع الأعراض .

١٤ – وجوب استئذان الخدم والأطفال دون البلوغ فى ثلاثة أوقات : قبل صلاة الفجر ، عند الظهيرة ، بعد صلاة العشاء . فيجب أن يعوّد الإنسان أطفاله على هذه القاعدة ، ويربيهم عليها ، فإذا بلغ الأطفال سن البلوغ وجب أن يستأذنوا فى جميع الأوقات .

١٥ – سمح للعجائز اللاتى لا أَرَبَ لهن فى الرجال ، أن يتخففن من ثيابهن ، وأن يخلعن الخمر من رءوسهن ووجوههن .

١٦ – جعل من حق الأقرباء الأدنين ، والأصدقاء الذين لا كلفة بينهم ، أن يأكل بعضهم من بيت بعض من دون إذنه ، وبهذا طوى ما بين أفراد المجتمع من التباعد والتحاسد ، وأزيلت الوحشة ليحل محلها الحب والإخلاص .

١٧ – أماطت السورة اللثام عن علامات المؤمنين والمنافقين ، واتجهت بكل قوتها إلى تربية المسلمين وتنظيم حياتهم ، وتهذيب سلوكهم ، وغرس مفاهيم الإيمان فى قلوبهم ، وسد الطريق أمام فتن المنافقين وألاعيبهم .

١٨ – سلكت السورة سبيل الحكمة فى تشريع الأحكام ، وخلت من المرارة التى قد تنشأ فى الأذهان والقلوب ، عند رد الحملات الشنيعة، واتسمت بالرزانة والتدبير المعتدل، فى معالجة أقسى الظروف المثيرة للعواطف، إنها تشريع الحكيم العليم ، الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، وهو يشاهد أحوال الناس ومعاملاتهم دقيقها وجليلها من مقام رفيع ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ . (المائدة : ٥٠) .

فقرات السورة

يجرى سياق سورة النور فى خمس فقرات :

الفقرة الأولى :

وفيها بيان حد الزنا ، وحد القذف ، وأحكام اللعان ، ثم حديث الإفك وقصته ، وتستغرق هذه الفقرة من أول السورة إلى الآية ٢٦ .

الفقرة الثانية :

وفيها وسائل الوقاية من الجريمة ، وتجنيب النفوس أسباب الإغراء والغواية ، وفيها آداب البيوت ، والاستئذان على أهلها ، والأمر بغض البصر ، والنهى عن إبداء الزينة لغير المحارم ، والحض على إنكاح الأيامى ، والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء ، وتستغرق هذه الفقرة الآيات من ٢٧ – ٣٤.

الفقرة الثالثة :

اشتملت على مجموعة من الآداب النفسية والقلبية ، فتحدثت عن تعمير بيوت الله ، وتسبيح الخلائق لله ، وإزجاء السحاب، وتقليب الليل والنهار، وخلق كل دابة من ماء ، ثم اختلاف أشكالها ووظائفها وأنواعها وأجناسها مما هو معروف فى صفحة الكون للبصائر والأبصار ، وتستغرق هذه الفقرة الآيات من ٣٥ – ٤٦ .

الفقرة الرابعة :

تتحدث عن مجافاة المنافقين للأدب الواجب مع الرسول ﷺ فى الطاعة والتحاكم ، وتصور أدب المؤمنين الخالص وطاعتهم لله والرسول ، وتعدهم على هذا بالاستخلاف فى الأرض، والتمكين فى الدين، والنصر على الكافرين ، وتستغرق هذه الفقرة الآيات من ٤٧ - ٥٧ .

الفقرة الخامسة :

تستأنف هذه الفقرة الحديث عن آداب الاستئذان والضيافة ، فى محيط البيوت بين الأقارب والأصدقاء، وتتحدث عن آداب الجماعة المسلمة كلها ، كأسرة واحدة مع رئيسها ومربيها رسول الله ﷺ ، وتتم السورة بإعلان ملكية الله فى السماوات والأرض ، وعلمه بواقع الناس ، وما تنطوى عليه حناياهم ، ورجعتهم إليه، وحسابهم على ما يعلمه من أمرهم ، وهو بكل شىء عليم ، وتستغرق هذه الفقرة الآيات من ٥٨ - ٦٤ .

وبصفة عامة فهى ، سورة النور ، نور يضىء القلب بتقوى الله ، ونور يرشد الفرد والمجتمع إلى أسباب العفة والتصوّن ، فهى سياج للفرد والمجتمع من الانحلال والتردى فى الخطيئة ، وفيها أحكام فقهية ، وأحكام كونية ، ولمسات وجدانية ، وحث على التوبة والاستقامة والطهارة ، وبيان اطلاع الله على كل خافية ، وفى ختام السورة نجد هذه الآية الكريمة : ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ . (النور : ٦٤) .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾

التفسير :

١ - سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

يقول تعالى : هذه سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ، وفيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفى ما عداها ، وَفَرَضْنَاهَا . أى : فرضنا أحكامها التى فيها .

قال مجاهد : أى بينا الحلال والحرام ، والأمر والنهى والحدود .

وقال البخارى : فرضناها عليكم وعلى من بعدكم . ونلمح من فرضية أحكام هذه السورة إشارة إلى أن ما تحتوى عليه من الآداب والأحكام فى الحلال والحرام ، والأمر والنهى والحدود ؛ ليست بمثابة التوصيات بل إنها أحكام قاطعة لابد أن تتبعوها ، وتكيفوا شئون حياتكم الفردية والاجتماعية على حسبها، إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر .

وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .

أى : مفسرات واضحات ليس فيها شيء من الالتباس والإبهام ، بل هى أحكام واضحة بينة لا يمكنكم أن تعتذروا عن العمل بها بأنكم لا تفهمونها .

لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . لكى تتعظوا . فهذه الآية كأنها مقدمة لمرسوم ملكى ، وفيها التنبيه على مدى اهتمام الرب - سبحانه وتعالى - بما جاء فى سورة النور من الأحكام والآداب ، ولا تساويها فى هذا الشأن مقدمة أى سورة أخرى .

٢ - ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

١ - فى هذه الآية بيان لحد الزانى البكر ، وفى السنة الصحيحة بيان لحدّ الزانى المتزوج وهو الرجم، وقد بينت الآية وجوب الصرامة فى إقامة الحدّ ، وعدم الرأفة فى أخذ الفاعلين بجرمهما ، وعدم تعطيل الحد أو الترفق فى إقامته ، تراخيًا فى دين الله وحقه ، وإقامته فى مشهد عام تحضره طائفة من المؤمنين ، فيكون أوجع وأوقع فى نفوس الفاعلين ونفوس المشاهدين .

٢ - فى بيان حكم السرقة بدأ الله تعالى بالرجل فقال سبحانه : ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . (المائدة : ٣٨) .

وفى بيان حكم الزنا بدأ الله تعالى بالمرأة ؛ لأن السرقة يغلب وقوعها من الرجال وهم عليها أجرأ من النساء وأجلد وأخطر فقدموا عليهن لذلك . أما الزنا من المرأة فهو أشد خطرا لما يترتب عليه من فساد الأنساب وتلطيخ فراش الرجل ، وهو عار على عشيرة المرأة وأشد وألزم ، والفضيحة بالحمل منه أظهر وأدوم؛ فلهذا كان تقديمها على الرجل أهم .

قال القرطبى :

قدمت الزانية فى هذه الآية حيث كان زنا النساء فاشيًا فى ذلك الزمان، وكان لإماء العرب وبغايا الوقت رايات ، كن مجاهرات بذلك ، وقيل : لأن الزنا فى النساء أعر وهو لأجل الحبل أضر ، وقيل : لأن الشهوة فى المرأة أكثر وعليها أغلب ؛ فصدرها تغليظا لتردع شهوتها ، وإن كان قد ركب فيها حياء ، لكنها إذا زنت ذهب الحياء كله ، وأيضًا : فإن العار بالنساء ألحق ، إذ موضعهن الحجاب والصيانة ، فقدم ذكرهن تغليظًا واهتمامًا[٣٨] .

٣ - بدأت دعوة الإسلام ببيان حكم العقيدة والدعوة إلى الإيمان بالله ، ولو بدأت بتحريم الزنا لقال الناس: لا نترك الزنا أبدا ، ولو بدأت بتحريم الخمر لقال الناس : لا نترك الخمر أبدا ، كما قالت عائشة - رضى الله عنها - : فلما استقر الإيمان فى القلوب ؛ بين الله بالتدريج أحكام الحلال والحرام .

وفى الآية الخامسة عشرة من سورة النساء ذكر القرآن أن الزنا جريمة اجتماعية أو عائلية .

ثم بين القرآن فى سورة النور ، أن الزنا جريمة جنائية ، يجلد الزانى مائة جلدة إذا كان بكرا ، وهناك مواصفات لطريقة الجلد منها : أن يضرب بسوط لا ثمرة فيه ، وأن يكون السوط وسطا ، وأن يوزع الجلد على

جسمه لينال الألم كل عضو تمتع باللذة الحرام ؛ ولا يضرب على وجهه لأنه مجمع المحاسن ، ولا يضرب فى فرجه لأنه مقتل .

٤ – لقد حرم الزنا فى جميع الشرائع ، وبذلت المجتمعات الإنسانية سعيها لسد باب الزنا ، فهو رذيلة من ناحية الأخلاق ، وإثم من ناحية الدين ، وعيب وعار من ناحية الاجتماع ، وهذا أمر مازالت المجتمعات البشرية مجمعة عليه منذ أقدم عصور التاريخ إلى يومنا الحاضر ، ولم يخالفها فيه حتى اليوم إلا شرذمة قليلة من الذين جعلوا عقولهم تابعة لأهوائهم وشهواتهم البهيمية ، ويظنون كل مخالفة للنظام والعرف الجارى اختراعا لفلسفة جديدة .

والعلة فى هذا الإجماع العالمى ، أن الفطرة الإنسانية بنفسها تقتضى حرمة الزنا ، لأن التمدن الإنسانى لم يتكون إلا بمعاشرة الرجل والمرأة معا ، وإنشائهما أسرة ثم امتداد وشائج النسب والطهر بين تلك الأسرة ، «فالأسرة هى المحضن الصالح للتربية ، وهى الجو الملائم لتربية الأطفال ، ورعايتهم وتهذيب غرائزهم ، ورعاية نموهم النفسى والبدنى والاجتماعى»[٣٩] .

وإذا رجعنا إلى تاريخ البشرية الطويل ، رأينا أنه ما من أمة من الأمم فشت فيها الفاحشة ؛ إلا صارت إلى انحلال وهزيمة .

٥ – الزنا المحض :

رغم اتفاق الشرائع على أن الزنا رذيلة ، إلا أن بعضها فرق بين الزنا المحض والزنا بزوجة الغير ، فاعتبر الأول خطيئة أو زلة يسيرة ، واعتبر الثانى جريمة مستلزمة للعقوبة .

والزنا المحض عندهم : أن يجامع رجل – بكرا كان أو متزوجا – امرأة ليست بزوجة أحد . فالعبرة هنا بحال المرأة ، فإذا كانت غير متزوجة فعقوبة هذه الخطيئة هين جدا فى قوانين مصر القديمة وبابل وآشور والهند ، وهذه القاعدة هى التى أخذت بها اليونان والروم ، وبها تأثر اليهود أخيرًا ، فهى لم تذكر فى الكتاب المقدس لليهود ، إلا كخطيئة يلزم الرجل عليها غرامة مالية لا غير .

فقد جاء فى كتاب الخروج : «وإذا راود رجل عذراء لم تخطب فاضطجع معها يمهرها لنفسه زوجة، إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذارى»[٤٠] . وجاء هذا الحكم بعينه فى كتاب الاستثناء بشىء من الاختلاف فى ألفاظه، وبعده التصريح بأنه: «إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة، فأمسكها واضطجع معها فوجدا ، يعطى الرجل الذى اضطجع معها لأبى الفتاة خمسين مثقالا من الفضة ، وتكون هى له زوجة من أجل أنه قد أذلها»[٤١] . غير أنه إذا زنى أحد ببنت القسيس عوقب بالشنق بموجب القانون اليهودى ، وعوقبت البنت بالإحراق .

٦ - إن القوانين الغربية - وهى التى يتبعها معظم بلاد المسلمين فى هذا الزمان - إنما تقوم على هذه التصورات المختلفة ، فالزنا فى نظرها وإن كان عيبا أو رذيلة خلقية أو ذنبا ، ولكنه ليس بجريمة على كل حال . وإن الشىء الوحيد الذى يحوله إلى جريمة ، هو الجبر والإكراه ، أى : أن يجامع الرجل المرأة بدون رضاها ، أما الرجل المتزوج فإن كان ارتكابه لفعلة الزنا سببا للنزاع والشكوى ، فإنما هو كذلك لزوجته وحدها ، فلها - إن شاءت - أن تطلب من المحكمة تخليصها منه . وأما إذا كانت المرتكبة للزنا امرأة متزوجة ، فإن لزوجها أن يشكوها إلى المحكمة ويطلقها ، بل له أن يشكو إلى المحكمة ذلك الرجل الذى ارتكب الزنا بزوجته وينال منه غرامة مالية .

٧ - الزنا فى الإسلام :

يقرر الإسلام أن الزنا جريمة مستلزمة للمؤاخذة والعقوبة ، وقد عرف الفقهاء الزنا بأنه : وطء الرجل المرأة فى القبل حراما ، كالميل فى المكحلة ، أو القلم فى الدواة .

وجاء فى كتاب الاختيار فى الفقه الحنفى ما يأتى : يثبت الزنا بالبينة والإقرار ، والبينة أن يشهد أربعة على رجل أو امرأة بالزنا ، فإذا شهدوا يسألهم القاضى عن ماهيته ، ومكانه وزمانه ، والمزنى بها ، فإذا بينوا ذلك ، وذكروا أنها محرمة عليه من كل وجه ، وشهدوا به كالميل فى المكحلة ، والقلم فى الدواة ، وعُدّلوا فى السر والعلانية ؛ حكم القاضى عليه بالحدّ ، وحد الزانى إذا كان محصنا[٤٢] الرجم بالحجارة حتى يموت ، يخرج إلى أرض فضاء ، فإن كان ثبت بالبينة يبتدأ بالشهود ثم الإمام ثم الناس ، فإذا امتنع الشهود أو بعضهم لا يرجم ، وإذا ثبت بالإقرار ابتدأ الإمام ثم الناس . وإن لم يكن محصنا فحده الجلد مائة جلدة يضرب بسوط لا ثمرة له ، ضربًا متوسطًا[٤٣] ، يفرقه على أعضائه إلا رأسه ووجهه وفرجه ، ويجرد من ثيابه إلا الإزار ، ولا تجرد المرأة إلا عن الفرو والحشو[٤٤] .

٨ - التدرج فى التشريع :

نبه القرآن المكى إلى ضرر الزنا وحذر المؤمنين من آثامه ، ومثال ذلك ما نجده فى سورة الفرقان :
وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا.
(الفرقان : ٦٨)

ومن سورة الإسراء المكية يقول سبحانه : وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا . (الإسراء : ٣٢) .

وفى السنة الثالثة بعد الهجرة النبوية ، قرر القرآن أن الزنا جريمة مستلزمة للعقوبة ، ولكنه ما كان إذ ذاك جريمة قانونية ، حيث يكون لشرطة الدولة ومحكمتها أن تؤاخذ عليها الناس ، وإنما كان بمثابة جريمة اجتماعية أو عائلية لأهل الأسرة أن يعاقبوا من يأتيها منهم بأنفسهم ، وهذا الحكم قد جاء فى

الآيات ١٥، ١٦، ١٧ من سورة النساء . قال تعالى : وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا * إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . (النساء : ١٥ – ١٧) .

وفى الآية الأولى إشارة واضحة إلى أن هذا الحكم مؤقت ، وسيأتى الحكم النهائى لحدّ الزنا فى المستقبل ، وهذا الحكم هو الذى نزل بعد سنتين ونصف فى سورة النور ، وقد نسخ الحكم السابق ، وجعل الزنا جريمة قانونية مستلزمة لمؤاخذة الشرطة والمحكمة [٤٥] .

٩ – رجم المحصن :

الحدّ الذى أشارت إليه الآية الثانية فى سورة النور ، إنما هو حدّ الزانى البكر الذى لم يتزوج ، أما حدّ الزنا بعد الإحصان والزواج فهو الرجم ، وقد ثبت من السنة الصحيحة بغير واحدة ولا اثنتين من الروايات الصحيحة ، أن النبى ﷺ أقام حد الرجم على الزانى المحصن ، ثم أقامه بعده خلفاؤه الراشدون – رضى الله عنهم – فى عهودهم ، وأجمع على ذلك الصحابة والتابعون ، حيث لا نكاد نجد لأحد منهم قولا ، يدل على أنه كان فى القرن الأول رجل عنده شك فى كون الرجم من الأحكام الشرعية الثابتة ، ثم ظل فقهاء الإسلام فى كل عصر ومصر ، على كونه سنة ثابتة ، بأدلة متضافرة قوية لا مجال لأحد من أهل العلم أن يشك فى صحتها . وقد خالف الجمهور فى هذه القضية الخوارج وبعض المعتزلة . فرأوا أن لا عقوبة فى الزنا غير مائة جلدة ، للمتزوج وغير المتزوج [٤٦] .

١٠ – الرجم فى التوراة :

ورد فى التوراة أن عقوبة الزانى المحصن الرجم ، جاء فى سفر التثنية : «وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل بالمدينة فاضطجع معها فأخرجوهما كليهما من المدينة وارجموهما حتى يموتا ، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ فى المدينة ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه ، فينتزع الشر من المدينة ، ولكن إن وجد الرجل الفتاة المخطوبة فى الحقل وأمسكها الرجل واضطجع معها ؛ يموت الذى اضطجع معها وحده ، وأما الفتاة فلا يفعل بها شىء» [٤٧] .

١١ – وردت أحاديث فى صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، تفيد أن النبى ﷺ أقام حد الرجم على الزانى المحصن .

أخرج البخارى ، ومسلم : أن أعرابيين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما : يا رسول الله ، إن ابنى كان عسيفا – يعنى أجيرًا – على هذا فزنى بامرأته فافتديت ابنى منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم

فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى : الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام، واغد يا أنيس – لرجل من أسلم – إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» فغدا عليها فاعترفت فرجمها[٤٨] .

وعن ابن عباس : أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد .. أيها الناس ، فإن الله تعالى بعث محمدا ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها ووعيناها ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجد آية الرجم فى كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها ، فالرجم فى كتاب الله حق على من زنى ، إذا أحصن من الرجال ومن النساء ، إذا قامت البينة أو الحمل أو الاعتراف[٤٩] .

وفى رواية عنه : ولولا أن يقول قائل أو يتكلم متكلم أن عمر زاد فى كتاب الله ما ليس منه لأثبتها كما نزلت[٥٠] .

وهناك طرق أخرى لهذه الرواية ، كلها متعددة ومتعاضدة ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة ، فنُسخت تلاوتها وبقى حكمها معمولاً به ، والله أعلم . وقد رجم رسول الله ﷺ (ماعزا) و(الغامدية) ، ولم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدهما قبل الرجم ، ولهذا كان ذلك مذهب جمهور العلماء ، وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعى[٥١] – رحمهم الله – وذهب الإمام أحمد إلى أنه يجمع على الزانى المحصن بين الجلد للآية والرجم للسنة ، كما روى الإمام أحمد ، وأهل السنن ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : «خذوا عنى خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»[٥٢] . وقد تمسك الإمام أبو حنيفة – رحمه الله – بظاهر الآية فلم يجعل التغريب من الحد فى شىء، إنما هو مفوض إلى رأى الإمام وحكمه فى ذلك حكم سائر التعزيرات .

وذهب الأئمة : مالك، والشافعى، وأحمد، والثورى، والحسن بن صالح ، إلى أن التغريب من تمام الحد ، على تفصيل فى ذلك .

١٢ – رُوى عن على – رضى الله عنه – أنه قال فى البكرين إذا زنيا : إنهما يجلدان ولا ينفيان ، وأن نفيهما من الفتنة . والأخبار المثبتة للنفى معارضة بغيرها، وهى بعدُ لم تخرج عن كونها أخبار آحاد، فليس بجائز أن تزيد فى حكم الآية بهذه الأخبار ، لأنه يوجب النسخ ، خاصة أنه يمكن استعمالهما على وجه لا يوجب النسخ فى الآية ، ولا يدفع حكم الأخبار ، وذلك بإبقاء الآية على حكمها ، وأن الجلد هو تمام الحد ، وجعل النفى على وجه التعزير ، ويكون النبى ﷺ قد رأى فى ذلك الوقت نفى البكر ، لأنهم كانوا حديثى عهد بالجاهلية ، فرأى ردعهم بالنفى بعد الجلد ، كما أمر بشق روايا الخمر وكسر الأوانى ، لأنه أبلغ فى الزجر وأحرى بقطع العادة[٥٣] .

١٣ – اللواط والسحاق :

ذهب الشافعية إلى أن حكم اللواط كحكم الزنا ، وقال بعض أصحاب الشافعى : إن اللواط زنا ، لأنه مثل الزنا فى الصورة ، وفى المعنى ، فيكون اللائط زانيا فيدخل فى عموم الآية ، وهى قوله تعالى : ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ ، وقال بعض آخر من الشافعية : اللواط غير الزنا إلا أنه يقاس عليه، بجامع كون الطبع داعيا إليه فيناسب الزاجر :

وقال أبو حنيفة : ليس فى اللواط حد بل فيه تعزير ، لأنه وطء لا يتعلق به الحد ، ولأنه لا يساوى الزنا فى الحاجة إلى شرع الحد ، لأن اللواط لا يرغب فيه المفعول به طبعا ، وليس فيه إضاعة النسب ، وأيضًا فقوله ﷺ : «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : زنا بعد إحصان ، وكفر بعد إيمان ، وقتل نفس بغير حق»[٥٤] . قد حظر قتل المسلم إلا بإحدى هذه الثلاث ، وفاعل اللواط خارج عن ذلك لأنه لا يسمى زانيًا[٥٥] .

وقد اختلف الصحابة – رضوان الله عليهم – فى حكم عمل قوم لوط وعقوبته ، فلو كانوا يعدونه من الزنا حسب الاصطلاح الإسلامى ، لما وجدنا بينهم أى خلاف فى حكمه[٥٦] .

والمعلوم أنه لم يثبت عنه ﷺ أنه قضى فى اللواط بشىء ، لأن هذا المنكر لم تعرفه العرب ، ولم يرفع إليه ﷺ حادثة منه ، ولكن ثبت عنه ﷺ أنه قال : «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[٥٧] . رواه أصحاب السنن الأربعة وإسناده صحيح ، وقال الترمذى : حديث حسن . وحكم أبوبكر الصديق بقتل اللائط ، وكتب به إلى خالد بن الوليد بعد مشاورة الصحابة .

ونقل بعض الحنابلة إجماع الصحابة على أن الحد فى اللواط القتل ، وإنما اختلفوا فى كيفيته، فمنهم من قال : يرمى من شاهق ، ومنهم من قال : يهدم عليه حائط ، ومنهم من قال : يقتل رميا بالحجارة.

هذا ولا نعلم خلافًا بين الفقهاء فى أن السحاق لم يشرع فيه إلا التعزير[٥٨] .

١٤ – الفعل الفاضح :

إذا وُجد رجل مع امرأة فى صورة مريبة ، ولم يثبت عليهما فعل الزنا فإنه يعاقب على هذا الفعل الفاضح بالتعزير ، والتعزير تأديب دون الحد ويرجع إلى تقدير القاضى للشخص ولطبيعة المخالفة . وإذا كان التعزير بالجلد فيجب أن يكون أقل من عشر جلدات ، لقوله ﷺ : «لا يجلد فوق عشر جلدات إلا فى حد من حدود الله» رواه البخارى، ومسلم، وأبو داود . وأما إذا جاء الشخص بنفسه إلى الحاكم ، معترفا بذنب دون فعل الزنا الكامل ، ومعلنا ندمه عليه ؛ فيكفى أن يلقن الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله . روى مسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، عن عبدالله بن مسعود – رضى الله عنه – قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى عالجت[٥٩] امرأة فى أقصى المدينة ، وإنى أصبت منها ما دون أن ألمسها[٦٠] فأنا هذا

فاقض فيَّ ما شئت ، فقال له عمر : لقد سترك الله ، لو سترت نفسك . قال : ولم يرد النبى ﷺ عليه شيئا . فقام الرجل فانطلق ، فأتبعه النبى ﷺ رجلا فدعاه ، وتلا عليه هذه الآية : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ . (هود : ١١٤) . فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ فقال : «بل للناس كافة»[٦١] .

بل لا تتيح الشريعة إذا جاء أحد إلى الحاكم معترفا بذنبه ولكن بألفاظ غير واضحة ، أن يكرهه الحاكم على التصريح بذنبه ، روى البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، عن أنس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله، إنى أصبت حدا فأقمه على ، قال : ولم يسأله عنه ، وحضرت الصلاة ؛ فصلى مع رسول الله ﷺ، فلما قضى النبى ﷺ الصلاة قام الرجل فقال : يا رسول الله ، أصبت حدا فأقم فيَّ كتاب الله ، قال : «ألست قد صليت معنا ؟» قال : بلى ، قال : «فإن الله قد غفر ذنبك أو حدّك»[٦٢] .

١٥ – شروط جلد البكر :

(أ) أن يكون عاقلاً .

(ب) أن يكون بالغا . فإذا اقترف الزنا مجنون أو صبى ؛ فلا يقام عليه الحد .

شروط رجم المحصن :

(أ) أن يكون عاقلاً بالغًا ، كما سبق فى البكر .

(ب) أن يكون الجانى حرًا ، فإن كان عبدًا جلد خمسين جلدة .

(جـ) ألا يكون الجانى قد عقد قرانه فحسب ، بل يكون قد تمتع بالدخول الصحيح على زوجته بعد زواجه .

(د) أن يكون الجانى مسلمًا ، وفيه الخلاف بين الفقهاء ، يقول الشافعى، وأحمد بن حنبل، وأبويوسف– رحمهم الله– : إن كل من ارتكب الزنا بعد الزواج ، فإنه يرجم مسلمًا كان أو غير مسلم . ولكن أبا حنيفة ومالكًا – رحمهما الله – متفقان على أن الرجم إنما هو للمسلم ، إذا ارتكب الزنا بعد زواجه .

وأقوى الدلائل على ذلك أنه لابد لإقامة عقوبة شديدة كالرجم على أحد أن يكون فى الإحصان الكامل ثم لا يرتدع عن الزنا ، ومعنى الإحصان الكامل : الإحصان الخلقى ، ويقين الفرد بالإيمان بالله ، وبأن الله مطلع عليه وعلى أعماله ، واليقين بالحساب والجزاء والثواب والعقاب فى الآخرة .

رُوى عن ابن عمر – رضى الله عنه – قال : من أشرك بالله فليس بمحصن . رواه ابن إسحاق فى مسنده ، والدارقطنى فى سننه . أما الاستدلال بحكم النبى ﷺ بالرجم على يهوديين زنيا فى عهده فلا يصح،

لأن النبى ﷺ حكم عليهما بما فى التوراة ، وقد توافق حكم التوراة مع حكم الإسلام ، روى مسلم : أن النبى ﷺ قال عند القضاء على اليهوديين : «اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه»[٦٣] .

١٦ - الإكراه على الزنا :

من شروط إقامة الحد عدم الإكراه على الزنا ، فلو أكره رجل امرأة على الزنا ، أقيم الحد على الرجل دون المرأة . روى البخارى ، عن صفية بنت عبيد : أن عبدا من رقيق الإمارة ، وقع على وليدة من الخمس فاستكرهها حتى أفتقها ؛ فجلده عمر ولم يجلدها من أجل أنه استكرهها [٦٤]

١٧ - إقامة الحد مسئولية الحكومة :

إن القانون الإسلامى لا يجيز أحدا غير الحكومة أن يؤاخذ الزانى والزانية ، ولا يجيز أحدا غير المحكمة أن يقيم عليهما الحد ، فقد أجمع فقهاء الأمة على أن الخطاب فى قوله تعالى : فَٱجْلِدُواْ . فى الآية الثانية من سورة النور إنما هو لحكام الدولة الإسلامية وقضاتها ، وليس لعامة الناس وآحادهم .

١٨ - حكم التراضى بين المعتدى والمعتدى عليه :

إذا رفع الزانى إلى المحكمة ، فلا مجال لتراضى الناس فيما بينهم فى جريمة الزنا ، لأن إقامة الحد حق من حقوق الله تعالى ، وهو وسيلة لطهارة المجتمع ونظافته ، فلا يملك الزوج أن يتنازل عن دعوى الزنا على زوجته أو يسقطها عنها ، كما نجد ذلك فى القوانين الغربية ، التى يُتعامل بها فى كثير من البلاد الإسلامية ، وهى قوانين تقوم على الديوثة وقلة الحياء .

١٩ - عدالة الشهود :

(أ) يجب أن يكون الشهود فى الزنا عدولا صادقين غير متهمين فى قضية سالفة ، وغير خائنين ، وألا يكون قد أقيم عليهم الحدّ من قبل ، وألا تكون بينهم وبين المتهم خصومة ، وعلى كل فإنه لا يجوز أن يرجم أو يجلد أحد بمجرد شهادة غير صحيحة .

(ب) يجب أن يكون الشهود متفقين على أنهم رأوا فلانا يزنى بفلانة بمكان كذا وساعة كذا .

(جـ) يجب أن تكون شهادتهم بأنهم رأوهما يزنيان ، وفرجه فى فرجها كالميل فى المكحلة ، أو القلم فى الدّواة، أو الرشاء فى البئر ، وإلا فاختلافهم فى أحد هذه الأمور يسقط شهادتهم .

وشروط هذه الشهادة تدل بنفسها ، على أن القانون الإسلامى ليس سيفا مصلتا ، ولا سوطا مضروبا على ظهور الناس ، بل الحق أنه لا يعاقب بعقوبة شديدة كالجلد أو الرجم ، إلا إذا وُجد فى المجتمع الإسلامى رجل وامرأة لا يقيمان أدنى وزن للحياء ، ويأتيان بالفاحشة علنا على مرأى من الناس .

٢٠ – حكم إقرار الزانى بالزنا :

يثبت الزنا بإقرار الجانى بجنايته ، ومن اللازم أن يكون هذا الإقرار بكلمات صريحة بارتكاب فعلة الزنا ، أى : على الجانى أن يقر بأنه قد زنى بامرأة محرمة عليه كالميل فى المكحلة ، وعلى المحكمة أن تكون على ثقة بأن الجانى إنما يقر بجنايته بنفسه ، أى بدون أى ضغط خارجى ، وليس به شىء من الجنون أو الاختلال فى العقل .

وهنا اختلاف يسير بين الفقهاء ، فيقول أبو حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، وابن أبى يعلى ، وإسحاق بن راهويه – رحمهم الله – : إن على الجانى أن يقر بجنايته أربع مرات بأربعة مجالس ، ويقول مالك ، والشافعى، وعثمان البتى، والحسن البصرى – رحمهم الله – : إنه يكفى أن يقر الجانى بجنايته مرة واحدة.

وقد أقر ماعز ، فرده النبى ﷺ مرارا وقال له : «لعلك قبلت ، أو غمزت ، أو نظرت» ، قال : لا . فسأله النبى ﷺ : «هل تعرف الزنا» ؟ فقال : نعم ، أتيت منها حرامًا ما يأتى الرجل من أهله حلالاً . فعند ذلك أمر برجمه فرجم خارج المدينة[٦٥] . واعترفت الغامدية وكانت حبلى من الزنا ، فردها النبى ﷺ حتى ولدت، ثم ردّها ترضعه وتفطمه ، ثم جاءت به وفى يده كسرة خبز ، وقالت : يا نبى الله ، قد فطمته وقد أكل الطعام. فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها[٦٦] .

٢١ – صفة الجلد :

أمر الله تعالى بجلد الزناة ، والمراد : أن يصل السوط إلى الجلد ، فلا يجوز أن يكون شديدًا حتى يصل إلى اللحم ، فكل ضرب يقطع اللحم أو ينزع الجلد ويجرح اللحم مخالف لحكم القرآن . ويجب أن يكون السوط وسطًا ، لا رقيقًا جدًا ولا شديدًا جدًا ، بل يجب أن يكون بين اللين والشدة .

روى أبو عثمان النهدى قال : أتى عمر بسوط فيه شدة ، فقال : أريد ألين من هذا . فأُتى بسوط فيه لين ، فقال : أريد أشدّ من هذا . فأتى بسوط بين السوطين ، فقال : اضرب ولا يُرى إبطك – أى : لا تضرب بكل قوة يدك – وأعط كل عضو حقه . ورُوى مثل ذلك عن ابن مسعود ، وأنس بن مالك – رضى الله عنهما – والفقهاء متفقون على أن الضرب لا ينبغى أن يكون مبرحًا أى موجعًا ، ولا ينبغى أن يكون فى موضع واحد من الجسد ، بل ينبغى أن يفرق على الجسد كله : حيث يأخذ كل عضو من أعضائه حقه ، إلا الوجه والفرج والرأس .

ولا ينبغى أن يتولى الجلد والضرب جلادون من الجهال غلاظ الأكباد ، بل يجب أن يتولاه رجال من أهل العلم والبصيرة ، يعلمون كيفية الضرب لتحقيق مقتضى الشريعة .

والجانى إذا كان مريضًا لا يرجى شفاؤه أو كان فانيا ، يكفى أن يضرب بضربة واحدة بغصن عليه مائة فرع ، أو مكنسة فيها مائة عود ، حتى يتحقق مقتضى القانون . انظر نظرة فى هذه التفاصيل لقانون جلد الزانى فى الإسلام ، ثم اعجب لجرأة الذين يقولون إنه عقوبة وحشية ، ويرون التهذيب كل التهذيب فى عقوبة الضرب التى تجرى اليوم فى السجون ، ثم لا يخفى ما تنزل الشرطة اليوم من عقوبات قاسية ، تقشعر لسماعها الجلود ، لا على الجناة الذين تثبت جرائمهم فحسب ، بل على المشتبهين – ولا سيما السياسيين منهم – لغرض التفتيش والاستجواب .

٢٢ – تحريم الشفاعة فى الحدود :

ينبغى للحاكم إذا انتهى إليه الحد أن يقيمه ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ . وهو نهى عن التخفيف فى الجلد ، أو ترك الحد وإسقاطه ، وفيه دليل على أنه لا تجوز الشفاعة فى إسقاط حدّ الزنا ، لأن فيه تعطيلا لإقامة حدود الله ، ليس لخصوصية فى الزنا ، بل مثله مثل سائر الحدود تحرم الشفاعة فيها ، فقد صح أنه ﷺ أنكر على حبه أسامة بن زيد ، حين شفع فى فاطمة بنت الأسود المخزومية وكانت قد سرقت قطيفة وحليا ، فقال له : «أتشفع فى حد من حدود الله تعالى»؟[٦٧] .

وفى الصحيحين أن الرسول ﷺ خطب فقال : «أيها الناس ، إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[٦٨] .

وعن ابن عمر – رضى الله عنه – أنه سمع النبى ﷺ يقول : «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله تعالى ؛ فقد ضادّ الله عز وجل»[٦٩] أخرجه أبو داود .

فلا يجوز أن يُترك الجانى بعد ثبوت الجريمة عليه ، ولا أن يخفف من حده ، بل يجب أن يضرب مائة جلدة كاملة تحقيقا لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ .

٢٣ – إقامة الحدود علنا :

يجب أن يقام الحد علنا على مرأى من عامة الناس ومشهدهم ، قال تعالى : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، والطائفة اثنان فصاعدا ، وقيل : أربعة بعدد شهود الزنا ، وقيل : عشرة ، وأولى الأقوال بالصواب أن المراد هنا : جماعة يحصل بهم التشهير والزجر، وتختلف قلة وكثرة بحسب اختلاف الأماكن والأشخاص، ونلحظ هنا أن أغراض الحدود فى القانون الإسلامى ثلاثة :

١ – أن ينتقم من الجانى لاعتدائه .

٢ – أن يردع عن إعادة الجريمة .

٣ - أن تجعل من عقوبته عبرة ، حتى تجرى مجرى عملية الجراحة الذهنية ، على أناس فى المجتمع ، قد تكون فى قلوبهم غرائز سيئة ، فلا يجترئون على ارتكاب مثل هذه الجريمة فى المستقبل ، ومن فوائد إقامة الحدود علنا ، أن الحكام قلما يجترئون على التخفيف من العقوبة ، أو الزيادة فيها على وجه غير مشروع.

٢٤ - الزنا بالمحارم :

الزنا بالمحارم كالأخت والبنت ، جناية مغلظة تؤاخذ عليها شرطة الدولة ، وقد جاءت عدة روايات فى سنن أبى داود ، والنسائى ، ومسند أحمد ، تفيد أن النبى ﷺ عاقب من ارتكب هذه الجناية بالقتل ومصادرة الأموال ، وأما الرواية التى نقلها ابن ماجة عن ابن عباس ، فقد بين فيها الرسول ﷺ القاعدة الكلية الآتية : «من وقع على ذات محرم فاقتلوه»[٧٠] .

والفقهاء بينهم خلاف حول هذه المسألة ، فالذى يراه الإمام أحمد أن يقتل الرجل وتصادر أمواله حسب ما جاء فى روايته ، وروايات أبى داود والنسائى ، ويرى أبو حنيفة ومالك والشافعى- رحمهم الله- أنه إن زنى بذات محرم من محارمه أقيم عليه حد الزنا ، وإن نكحها ووطئها عوقب عقابا أليما يعتبر به غيره.

٢٥ - الشذوذ :

حرم الإسلام اللواط لأنه خروج على الفطرة ، فالله خلق الزوجين الذكر والأنثى ، وجعل الاستمتاع بينهما طبيعيا وفطريا ، وخلق الرجل والمرأة ليكمل كل منهما صاحبه بالزواج ، فاستغناء الرجال بالرجال، يقابله استغناء النساء بالنساء ، وهو لون من الشذوذ والخروج على أوامر الله .

ومن المحرم شرعًا أن يأتى الرجل عمل قوم لوط بامرأته ، ففى سنن أبى داود عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ملعون من أتى المرأة فى دبرها»[٧١] . ونقل ابن ماجة ، وأحمد ، أنه ﷺ قال : «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته فى دبرها» ، وفى رواية للترمذى أنه ﷺ قال . «من أتى حائضا ، أو امرأة فى دبرها ، أو كاهنا فصدقه : فقد كفر بما أنزل على محمد»[٧٢] .

أما إتيان البهيمة ، فيعده بعض الفقهاء من الزنا ويرون عليه حدّه ، إلا أن أبا حنيفة ، وأبا يوسف، ومحمدًا ، وزفرًا ، ومالكًا ، والشافعى - رحمهم الله - يقولون : إنه ليس بالزنا فلا يستحق مرتكبه الحدّ ، وإنما يستحق التعزير ، والتعزير موكول إلى القاضى ، أو لمجلس الشورى فى الدولة أن يقرر له حدا إن رأى إليه حاجة . وينبغى للدولة أن تسهر على حماية أبنائها من الانحراف ومن شيوع الفاحشة ، وأن تعمل على تيسير الحلال ، وأن تغلق منافذ الشرور والآثام .

٢٦ – من هدى السنة :

بينت أحاديث الرسول ﷺ أضرار الزنا الصحية والنفسية والدينية ، فالزانى يتعرض لأمراض خطيرة مثل الزهرى والسيلان وغير ذلك من الأمراض الفتاكة ، ويتعرض الزانى لأمراض نفسية لأنه عنصر فاسد ينتهك الأعراض ، ويرتكب الموبقات ، وعقوبة الزنا شديدة فى الآخرة ، لمخالفة الزانى لأمر الله ، وتعدّيه على حدود الله .

١ – قال رسول الله ﷺ :

«يا معشر الناس ، اضمنوا لى ستا أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا عاهدتم ، وأدوا الأمانة إذا اؤتمنتم ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم»[٧٣] .

٢ – روى البخارى فى صحيحه أن الرسول ﷺ قال :

«لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، بل ينزع إيمانه كالظلة فإذا نزع عاد إليه»[٧٤] .

٣ – روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال :

«إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، والرجلان تزنيان وزناهما الخطا ، واليدان تزنيان وزناهما اللمس ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدّق ذلك الفرج أو يكذبه»[٧٥] .

٤ – وفى الأثر :

«يا معشر الناس ، اتقوا الزنا ، فإن فيه ست خصال ، ثلاث فى الدنيا ، وثلاث فى الآخرة ، أما التى فى الدنيا : فيورث الفقر ، ويذهب البهاء ، وينقص العمر ، وأما التى فى الآخرة : فسخط الله ، وسوء الحساب، وعذاب النار» .

٣ – ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ .

سبب نزول الآية :

وردت روايات عدة فى سبب نزول هذه الآية ، ولا يبعد أن يكون هناك أكثر من سبب لنزول الآية ، فقد ذكر العلماء أنه إذا تعددت أسباب النزول ، وفيها الصحيح والضعيف ، أخذنا بالصحيح وتركنا الضعيف .

وإذا تعددت أسباب النزول وكلها صحيح ، وأمكن الجمع بينها لتقارب حدوثها ، حملنا ذلك على تعدد السبب والنازل واحد ، وهذه ثلاث روايات فى سبب نزول الآية :

١ – روى الترمذى ، وأبو داود ، والنسائى ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال :

كان رجل يقال له : مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وكان رجلا يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة ، قال : وكانت امرأة بغى بمكة ، يقال لها : عناق ، وكانت صديقة له فى الجاهلية ، وأنه واعد رجلا من أسارى مكة يحمله ، قال : فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة فى ليلة مقمرة، قال : فجاءت عناق فأبصرت سواد ظلى تحت الحائط ، فلما انتهت إلىّ عرفتنى ، فقالت : مرثد؟ فقلت: مرثد . فقالت : مرحبًا وأهلاً ، هلم فبت عندنا الليلة . فقلت : يا عناق حرم الله الزنا ، فقالت : يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم. قال : فتبعنى ثمانية ، ودخلت الحديقة فانتهيت إلى غار ، أو كهف، فدخلت فيه ، فجاءوا حتى أقاموا على رأسى ، فبالوا فظل بولهم على رأسى ، فأعماهم الله عنى ، ثم رجعوا ، فرجعت إلى صاحبى ، فحملته وكان رجلا ثقيلا، حتى انتهيت إلى الأذخر، ففككت عنه أحبله، فجعلت أحمله ويعيننى ، حتى أتيت به المدينة فأتيت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله : أنكح عناقًا ؟ أنكح عناقًا ؟ مرتين ، فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد على شيئا . حتى نزلت : ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ...﴾ فقال رسول الله ﷺ : «يا مرثد ، الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها»[٧٦] .

٢ – وروى النسائى ، وأحمد ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

كانت امرأة يقال لها : أم مهزول ، وكانت تسافح – أى : تحترف البغاء – فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها ، واشترطت له أن تنفق عليه ، فأنزل الله – عز وجل – هذه الآية[٧٧] .

٣ – رُوى أنها نزلت فى جماعة من فقراء المهاجرين ، استأذنوا النبى ﷺ فى التزوج ببغايا من الكتابيات والإماء ، اللاتى كن بالمدينة ، فأنزل الله فيهم هذه الآية[٧٨] .

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ...﴾

وللمفسرين فى معنى هذه الآية أقوال شتى :

١ – قال النسفى :

الخبيث الذى من شأنه الزنا ، لا يرغب فى نكاح الصوالح من النساء ، وإنما يرغب فى خبيثة من شكله، أو فى مشركة .

والخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال ، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين ، فالآية تزهيد فى نكاح البغايا ، إذ الزنا عديل الشرك فى القبح ، والإيمان قرين العفاف والتحصين ، وهو نظير قوله : ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ . (النور : ٢٦) .

٢ - وقيل :

إن الكلام نهى جيء به فى صورة الخبر للمبالغة ، ويؤيده قراءة عمر بن عبيد : لا يَنكِحْ . بالجزم ، ويكون التحريم على ظاهره ، والإشارة إلى النكاح المفهوم من الفعل ، وكان الحكم كذلك فى صدر الإسلام ثم نسخ ، قال سعيد بن المسيب : كان الحكم عاما فى الزناة ألا يتزوج أحدهم إلا زانية ، ثم جاءت الرخصة ونسخ ذلك بقوله تعالى : وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ ... (النور : ٣٢) . والزانية من أيامى المسلمين ، وبهذا القول قال مجاهد : والشافعى ، والجبائى ، وغيرهم[٧٩] .

قال ابن عمر : دخلت الزانية فى أيامى المسلمين . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا القول عليه أكثر العلماء[٨٠] .

٣ - ذهب الإمام أحمد إلى أن زواج الزانى المعروف بالفسوق باطل غير صحيح ، ولا يجوز نكاحه حتى يتوب ، وقد رجح ابن تيمية رأى الإمام أحمد .

وقال ابن تيمية : يدل قوله تعالى : ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً . على أن الزانى لا يتزوج إلا زانية أو مشركة ، وأن ذلك حرام على المؤمنين ، وليس هذا لمجرد كونه فاجرا ، بل لخصوص كونه زانيا ، وكذلك فى المرأة ليس لمجرد فجورها بل لخصوص زناها ، بدليل أنه جعل المرأة زانية إذا تزوجت زانيا ، كما جعل الرجل زانيا إذا تزوج زانية ، هذا إذا كانا مسلمين يعتقدان تحريم الزنا ، وإذا كانا مشركين فينبغى أن يعلم ذلك ، ومضمونه أن الرجل الزانى لا يجوز نكاحه حتى يتوب ، وذلك بأن يوافق اشتراطه الإحصان ، والمرأة إذا كانت زانية لا تحصن فرجها عن غير زوجها ، بل يأتيها هو وغيره ، وإذا كان الزوج زانيا هو وغيره يشتركون فى وطئها كما يشترك الزناة فى المرأة الواحدة ، ولهذا يجب عليه نفى الولد الذى ليس منه ، فمن نكح زانية فهو زان ، أى تزوجها ، ومن نكحت زانيا فهى زانية ، أى تزوجته ، فإن كثيرًا من الزناة قصروا أنفسهم على الزوانى ، فتكون المرأة خدنا وخليلا له لا يأتى غيرها ، فالرجل إذا كان زانيا لا يعف امرأته ، وإذا لم يعفها تشوقت هى إلى غيره فزنت به ، كما هو الغالب على نساء الزوانى ، أو من يلوط بالصبيان ، فإن نساءه يزنين ليقضين أربهن ووطرهن ، ويراغمن أزواجهن بذلك ، حيث لم يعفوا أنفسهم عن غير أزواجهم ، فهن أيضًا لم يعففن أنفسهن عن غير أزواجهن ، ولهذا يقال : «عفوا تعف نساؤكم وأبناؤكم ، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم» وكما تدين تدان .

ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها ، فإن الرجل إذا رضى أن ينكح زانية ، رضى أن تزنى امرأته ، والله تعالى قد جعل بين الزوجين مودة ورحمة ، فأحدهما يحب لنفسه ما يحب للآخر ، فإذا رضيت المرأة أن تنكح زانيا ؛ فقد رضيت عمله ، وكذلك إن رضى الرجل أن ينكح زانية : فقد رضى عملها ، ومن رضى الزنا

كان بمنزلة الزانى ، فإن أصل الفعل هو الإرادة ، ولهذا جاء فى الأثر : «من غاب عن معصية فرضيها : كان كمن شهدها أو فعلها» .

وفى الحديث : «المرء على دين خليله»[٨١] وأعظم الخلة خلة الزوجين[٨٢] .

وفى الغالب أن الرجل لا يزنى بغير امرأته إلا إذا أعجبه ذلك الغير ، فلا يزال يزنى بمن يعجبه ، وتبقى امرأته بمنزلة المعلقة ، التى لا هى أيم ولا ذات زوج ، فيدعوها بذلك إلى الزنا ، ويكون الباعث لها على ذلك مقابلة زوجها على وجه القصاص ، مكايدة له ومغايظة ، فإنه ما لم يحفظ غيبتها لم تحفظ غيبته ، ولها فى بضعه حق ، كما له فى بضعها حق ، فإن كان من العادين ، لخروجه عما أباح الله لم يكن أحصن نفسه، وأيضًا فإن داعية الزنا تشتغل بمن يختاره من البغايا ، فلا تبقى داعيته إلى الحلال تامة ، ولا غيرته كافية فى إحصانه المرأة ، فتكون عنده كالزانية المتخذة خدنا ، وهذه معان شريفة لا ينبغى إهمالها[٨٣] .

٤ - جاء فى تفسير القرطبى ما يأتى :

روى أن رجلا زنى بامرأة فى زمن أبى بكر - رضى الله عنه - فجلدهما مائة جلدة ، ثم زوج أحدهما من الآخر ، ونفاهما سنة ، وروى مثل ذلك عن عمر ، وابن مسعود ، وجابر - رضى الله عنهم - وقال ابن عباس : أوله سفاح وآخره نكاح . ومثل ذلك مثل رجل سرق من حائط ثمرة ، ثم أتى صاحب البستان فاشترى منه ثمرة ، فما سرق حرام وما اشترى حلال ، وبهذا أخذ الشافعى وأبو حنيفة ورأوا أن الماء لا حرمة له[٨٤]

ورُوى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال : إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك ؛ فهما زانيان أبدا ، وبهذا أخذ مالك - رضى الله عنه - فرأى أنه لا ينكحها حتى يستبرئها من مائه الفاسد ، لأن النكاح له حرمة ، ومن حرمته ألا يصب على ماء السفاح ، فيختلط الحرام بالحلال ، ويمتزج ماء المهانة بماء العزة[٨٥] .

٥ - بدأت الآية هنا بالحديث عن الزانى ، وفى الآية السابقة بدأت بالحديث عن الزانية .

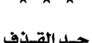
لأن الآية الثانية من سورة النور تتكلم عن حد الزناة ، والزنا من المرأة أشنع ، لما يترتب عليه من اختلاط الأنساب وغيره ، فقال : ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ ...

أما الآية الثالثة فتتحدث عن الزواج ، والرجل فيه هو الأصل ، لأن إبداء الرغبة والتماس النكاح بالخطبة، إنما يكون من الرجل لا من المرأة فى مجرى العرف والعادة ، فبدأت الآية بالزانى لا بالزانية، حيث قالت : ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٦ – قال أبو الأعلى المودودى :

ومقصود الآية أن الفجار الذين يظهرون فجورهم ويعلنون خلاعتهم فى المجتمع ، ليس الميل إليهم والاتصال بهم بصلة النكاح ، إلا ذنبا يجب أن يجتنبه أهل الإيمان ، لأن ذلك مما يشجع الفجار ، إذ إن الشريعة تريد أن تجعلهم فى المجتمع عنصرا قبيحا يعافه الناس ، وكذلك ليس معنى الآية أن نكاح الزانى المسلم لامرأة مشركة ، أو نكاح الزانية المسلمة لرجل مشرك ، صحيح ، وإنما معنى الآية : أن الزنا فعل شنيع، إذا ارتكبه أحد مع كونه مسلما ، لا يجدر بأن يرتبط بالصالحين الأعفاء ، من أفراد المجتمع ، بل عليه أن يرتبط إما بأمثاله من الزناة والفجار ، أو بالمشركين الذين لا يعتقدون أصلا بالأحكام الإلهية[٨٦] .

★ ★ ★



﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

المفردات :

الـرمـى : معروف، يقال : رمى بالحجر فى الماء ، أى : قذف به ، ثم استعير لنسبة أمر غير مرضى إلى الإنسان كالزنا والسرقة ، والرمى هو القذف ، والسياق يشهد أن المراد به نسبة الزنا إلى المرأة المحصنة .

المحصنات : العفيفات الحرائر البالغات والعاقلات المسلمات ، وأشهر معانى الكلمة : العفيفات المنزهات عن الزنا .

وأصل الإحصان : المنع ، والمحصَن – بالفتح – يكون بمعنى : الفاعل والمفعول ، وهى إحدى الكلمات الثلاث اللاتى جئن نوادر . يقال : أحصن فهو محصن ، وأسهب فهو مسهب ، وأفلج – إذا افتقر – فهو مفلج ، الفاعل والمفعول فى هذه الأحرف الثلاثة سواء .

تمهيد :

أراد الإسلام أن يحفظ المجتمع من إشاعة السوء ، وإلقاء التهم وقذف الآخرين بسوء السلوك ، فإن هذا القول إذا انتشر فى المجتمع ، هوّن الجريمة ، وأوهم المستقيم أن الانحراف منتشر، وأنه سهل التناول فتشيع الفاحشة وتنتشر قالة السوء بين الناس .

من أجل هذا أمر الإسلام بكبت الشائعات المغرضة ، وحفظ الألسن من الولوغ فى أعراض الناس .

التفسير :

٤ - وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ .

والذين يقذفون المحصنات من النساء بالزنا ، ثم لم يقيموا أربعة من الشهود على صدقهم فى قذفهم ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، على قذفهم أعراض الناس دون وجه حق .

وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا .

وردوا شهادتهم ، ولا تقبلوها فى أى واقعة كانت لظهور كذبهم .

وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ .

الخارجون عما وجب عليهم من رعاية حقوق المحصنات .

فالإنسان إذا رأى منكرا ولم يكن معه شهود ، وجب أن يسكت سترا على الآخرين ، وحفاظًا على سلامة المجتمع ، حتى لا يوقع الناس فى شك وحيرة وبلبلة .

والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة ، كما تخسر بشيوع الاتهام والترخص فيه ، وعدم التحرج من الإذاعة به[٨٧] .

قال السيوطى فى (الإكليل) :

فى هذه الآية تحريم القذف ، وأنه فسق ، وأن القاذف لا تقبل شهادته ، وأنه يجلد ثمانين جلدة ، إذا قذف محصنة أى عفيفة ، ومفهومه : أنه إذا قذف من عرفت بالزنا لا يحد للقذف ، ويصرح بذلك قوله : ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ . وفيها أن الزنا لا يقبل فيه إلا أربعة رجال لا أقل ، ولا نساء ، وسواء شهدوا مجتمعين أو متفرقين ، واستدل بعموم الآية من قال : يحد العبد أيضًا ثمانين ، ومن قال : يحد قاذف الكافر ، والرقيق ، وغير البالغ ، والمجنون ، وولده .

واحتج بها على أن من قذف نفسه ثم رجع لا يحد لنفسه ، لأنه لم يرم أحدا ، واستدل بها من قال : إن حد القذف من حقوق الله تعالى ، فلا يجوز العفو عنه . ا هـ[٨٨] .

وقال ابن تيمية :

وقوله تعالى : وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا . نص فى أن هؤلاء القذفة لا تقبل شهادتهم ، واحدا كانوا أو عددا ، بل لفظ الآية ينتظم العدد على سبيل الجمع والبدل ، لأنها نزلت فى أهل الإفك باتفاق أهل العلم والحديث

والفقه والتفسير ، وكان الذين قذفوا عائشة عددا ، ولم يكونوا واحدًا لما رأوها قدمت فى صحبة صفوان بن المعطل، بعد قفول العسكر ، وكانت قد ذهبت تطلب قلادة لها فُقدت ، فرفعوا هودجها معتقدين أنها فيه لخفتها، ولم تكن فيه فلما رجعت لم تجد أحدا فمكثت مكانها ، وكان صَفوان قد تخلف وراء الجيش ، فلما رآها أعرض بوجهه عنها ، وأناخ راحلته حتى ركبتها ، ثم ذهب إلى العسكر ، فكانت خلوته بها للضرورة ، كما يجوز للمرأة أن تسافر بلا محرم للضرورة كسفر الهجرة ، مثلما قدمت أم كلثوم بنت عقبة مهاجرة ، وقصة عائشة .

ودلت الآية على أن القاذفين لا تقبل شهادتهم ، مجتمعين ولا متفرقين ، ودلت الآية على أن شهادتهم بعد التوبة مقبولة كما هو مذهب الجمهور ، فإنه كان من جملتهم مسطح ، وحسان ، وحمنة ، ومعلوم أنه ﷺ لم يرد شهادة أحد منهم ، ولا المسلمين بعده ، لأنهم كلهم تابوا لما نزل القرآن ببراءتها ، ومن لم يتب حينئذ فإنه كافر مكذب بالقرآن ، وهؤلاء مازالوا مسلمين ، وقد نهى القرآن عن قطع صلتهم .

من أحكام الآية ما يأتى :

١ – أجمع الفقهاء على أن حكم الآية غير مقصور على قذف الرجال للنساء ، بل إنه حكم شامل ، سواء كان القذف من الرجال أو النساء ، للرجال أو النساء .

٢ – هناك شروط لابد من استيفائها فى القاذف ، والمقذوف ، وفعلة القذف . قال القرطبى : للقذف شروط عند العلماء تسعة :

شرطان فى القاذف ، وهما : العقل ، والبلوغ ، لأنهما أصل التكليف ، إذ التكليف ساقط دونهما .

وشرطان فى المقذوف به ، وهو أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحد وهو الزنا واللواط ، أو بنفيه عن أبيه دون سائر المعاصى .

وخمسة فى المقذوف ، وهى : العقل ، والبلوغ ، والإسلام ، والحرية ، والعفة عن الفاحشة التى رمى بها ، كان عفيفا عن غيرها أو لا ، وإنما شرطنا فى المقذوف العقل والبلوغ كما شرطناهما فى القاذف ، وإن لم يكونا من معانى الإحصان ، لأجل أن الحد إنما وضع للزجر عن الأذى بالمضرة الداخلة على المقذوف ، ولا مضرة على من عدم العقل والبلوغ[٨٩] .

٣ – اختلف العلماء فى حد القذف ، فقال بعضهم : هو حق الله تعالى ، فتقوم شرطة الدولة ومحكمتها بتنفيذه ، سواء أطالب به المقذوف أم لم يطالب به ، وهذا قول ابن أبى ليلى .

وهو من حق الله تعالى ، ولكن للمقذوف فيه حق من حيث دفع العار عنه عند أبى حنيفة وأصحابه .

وذهب الشافعى ، والأوزاعى إلى أنه إذا ثبتت الجريمة على أحد وجب أن يقام عليه الحد ، ولكن يتوقف رفع أمره إلى الحكام على إرادة المقذوف ومطالبته ، فهو من هذه الجهة من حقوق العباد .

قال القرطبى :

اختلف العلماء فى حد القذف ... هل هو من حقوق الله ، أو من حقوق الآدميين ، أو فيه شائبة منهما ، الأول قول أبى حنيفة ، والثانى : قول مالك ، والشافعى ، والثالث : قول بعض المتأخرين .

وفائدة الخلاف أنه إن كان حقا لله تعالى وبلغ الإمام : أقامه وإن لم يطلب ذلك المقذوف ، ونفعت القاذف التوبة فيما بينه وبين الله تعالى ، وينشطر فيه الحد بالرق كالزنا .

وإن كان حقًا للآدمى ؛ فلا يقيمه الإمام إلا بمطالبة المقذوف ، ويسقط بعفوه ، ولم تنفع القاذف التوبة حتى يحلله المقذوف .

٤ – إذا ثبت عن رجل أنه ارتكب القذف ، فإن الشىء الوحيد الذى ينقذه من الحد ، هو شهادة أربعة شهداء فى المحكمة بأنهم قد رأوا المقذوف يزنى بفلانة[٩٠] .

٥ – من لم يستطع أن يقدم للمحكمة أربعة شهود يؤيدون قوله ، فقد حكم عليه القرآن بثلاثة أحكام هى :

(أ) أن يجلد ثمانين جلدة .

(ب) ألا تقبل له شهادة أبدا .

(جـ) ثبوت الفسق عليه .

٦ – مرتكب القذف بدون شهادة الشهود فاسق، ولو كان صادقا فى حد ذاته، لأنه أشاع التهم وبلبل المجتمع، بدون دليل حاسم يخرج الناس من الشك إلى اليقين، ولو سكت وستر لكان أولى به وأفضل .

٧ – يرى فقهاء الحنفية فى حد القذف ، أن يكون ضرب القاذف أخف من ضرب الزانى ، لأن الجريمة التى يعاقب فيها ، ليس كذبه فيها بمتيقن على كل حال .

٥ – إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ .

فإذا تاب القاذف وندم واستقام : قبل الله توبته وعفا عنه .

★ ★ ★

اللعان

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

يرمون أزواجهم : يقذفونهن بالريبة وتهمة الزنا .

لعنة الله : الطرد من رحمته .

يدرأ : يدفع .

غضب الله : سخطه والبعد عن فضله وإحسانه .

التفسير :

٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ – وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ ... الآيات .

سبب النزول :

تعددت روايات أسباب نزول آيات اللعان ، ويمكن أن يجمع بينها بتعدد السبب والنازل واحد .

١ – أخرج البخارى من طريق عكرمة، عن ابن عباس : أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك ابن سحماء ، فقال النبى ﷺ : «البينة أو حد فى ظهرك»[٩١] ، فقال: يا رسول الله ، إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلا ، ينطلق يلتمس البينة ؟. وفى رواية أنه قال: والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، ولينزلن الله تعالى ما يبرئ ظهرى من الحد ، فنزل جبريل – عليه السلام – وأنزل عليه : **وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ** . حتى بلغ : **إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ** . اهـ . وهى الآيات ٦ – ١٠ من سورة النور.

٢ – وأخرج الشيخان (واللفظ للبخارى) عن سهل بن سعد : أن عويمرا أتى عاصم بن عدى وكان سيد بنى عجلان ، فقال : كيف تقولون فى رجل وجد مع امرأته رجلا ، أيقتله فتقتلونه ، أم كيف يصنع ؟ سل لى رسول الله ﷺ عن ذلك، فسأل عاصم رسول الله ﷺ ، فكره رسوله الله ﷺ المسائل وعابها ، فقال

عويمر : والله ، لا أنتهى حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك ، فجاءه عويمر ، فقال : يا رسول ، رجل وجد مع امرأته رجلا ، أيقتله فتقتلونه ، أم كيف يصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : «قد أنزل الله القرآن فيك وفى صاحبك» ، فأمرهما رسول ﷺ بالملاعنة بما سمى الله فى كتابه فلاعنها .[٩٢] فهاتان الروايتان صحيحتان ، ولهما شواهد كثيرة فى الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة ، وتفيدان تأخر الجواب إلى وقت الحاجة إليه .

كيفية اللعان :

١ – روى أصحاب الصحاح الستة، والإمام أحمد فى مسنده، وابن جرير الطبرى فى تفسيره، عن ابن عباس، وأنس بن مالك – رضى الله عنهما –: أن هلال بن أمية وزوجته [٩٣]، أرسل إليهما بعد نزول هذه الآية، فتلاها عليهما رسول الله ﷺ فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا ، فقال هلال : والله ، يا رسول الله ، لقد صدقت عليها . فقالت : كذب . فقال رسول الله ﷺ : «لاعنوا بينهما» . فقيل لهلال: اشهد . فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كانت الخامسة قيل له : يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب . وأيضا قال لهما رسول الله ﷺ مرارا : «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب» ؟ فقال هلال : والله لا يعذبنى الله عليها ، كما لم يجلدنى عليها . فشهد فى الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين[٩٤] .

ثم قيل للمرأة : اشهدى أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، وقيل لها عند الخامسة : اتقى الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب ، فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف، ثم قالت : والله لا أفضح قومى. فشهدت فى الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرق بينهما رسول الله ﷺ وقضى ألا يدعى ولدها لأب ، ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد ، وقضى أن لا بيت لها عليه ، ولا قوت لها من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ، ولا متوفى عنها .

ثم قال للناس : «إن جاءت به أصيهب[٩٥] أريشح[٩٦] حمش الساقين[٩٧] فهو لهلال ، وإن جاءت به أورق[٩٨] جعدا[٩٩] حماليا[١٠٠] خدلج الساقين[١٠١] سابغ الإليتين[١٠٢] فهو للذى رميت به» . فجاءت به أورق ، حماليا، خدلج الساقين، سابغ الإليتين ، فقال رسول الله ﷺ : «لولا الأيمان – وفى رواية أخرى – لولا ما مضى من كتاب الله ، لكان لى ولها شأن»[١٠٣] .

٢ – جاءت قصة عويمر العجلانى التى سبق ذكرها فى الصحيحين [١٠٤] وفيها أن رسول الله ﷺ دعا عويمرًا وزوجته فذكرهما ، وقال لهما ثلاثا : «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب ... فهل منكما تائب»؟ فلما لم يتب أحدهما لاعن بينهما .

قال عويمر : إن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها ، فطلقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ . قال سهل بن سعد فنفّذها رسول الله ﷺ وفرق بينهما ، وقال : «لا يجتمعان أبدا» . وزاد سهل بن سعد : وكانت حاملا فأنكر حملها ، وكان ابنها يدعى إليها ، ثم جرت السنة فى الميراث أن يرثها وترث منه ما فرض الله لهما .

٣ - ولهاتين القضيتين شواهد كثيرة فى الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة . وليس فيها التصريح بأسماء المتلاعنين ، فقد تكون بعضها متعلقة بهاتين القضيتين ، ولكن قد جاء فى بعضها ذكر قضايا أخرى ، فهذه التفاصيل تزودنا بكثير من الأمور الموضحة لأحكام اللعان :

(أ) روى الجماعة عن ابن عمر ، أن رجلا رمى امرأته فانتفى من ولدها ، فى زمان رسول الله ﷺ فتلاعنا كما قال الله ، ثم قضى بالولد للمرأة وفرق بينهما .

(ب) روى البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : «حسابكما على الله ، أحدكما كاذب ولا سبيل لك عليها» . قال : يا رسول الله مالى ؟ قال : «لا مال لك ، إن كنت صدقت عليها فهو بما استحللت من فرجها ، وإن كنت كذبت فذلك أبعد لك منها» .

(جـ) روى البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، وأبو داود ، عن أبى هريرة : أن رجلا قال للنبى ﷺ : إن امرأتى ولدت غلاما أسود . فقال : «هل لك من إبل ؟» قال : نعم . قال : «ما لونها» ؟ قال : حمر . قال : «فهل فيها أورق» ؟ قال : نعم . قال : «فكيف ذاك»؟ قال : نزعة عرق . قال : «فلعل هذا نزعة عرق»[١٠٥] .

فلم يقبل نفيه لولده ، ولم يحمل قوله على الرمى بالزنا .

(د) روى أبو داود ، والنسائى ، والدارمى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم ؛ فليست من الله فى شىء ، ولن يدخلها الله جنته ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه ؛ احتجب الله منه يوم القيامة ، وفضحه على رءوس الأشهاد من الأولين والآخرين» .

فآيات اللعان ؛ وهذه الروايات والشواهد ، ومبادئ الشرع العامة هى المصادر لقانون اللعان فى الإسلام ، وهى التى على ضوئها وضع الفقهاء ضوابط مفصلة للعان .

ومن أهم هذه الضوابط ما يأتى :

١ - أجمع الفقهاء على أن اللعان كالشهادة ، فلا يثبت إلا فى المحكمة .

٢ - ليس الحق فى المطالبة باللعان للرجل فحسب ، بل هو للمرأة أيضًا ، إذا اتهمها زوجها بالفاحشة أو أنكر ولدها .

٣ – اختلف العلماء من السلف فى من وجد مع امرأته رجلا فقتله ، هل يقتل به أم لا ؟ فقال بعضهم : يقتل به ، لأنه ليس له أن يقيم الحد بغير إذن من الحاكم ، وقال بعضهم : لا يقتل ، ويعذر فيما فعله إذا ظهرت أمارات صدقه ، وشرط أحمد وإسحاق رحمهما الله ، أن يأتى بشاهدين على أنه قتله بسبب ذلك ، وقد وافقهما على هذا الشرط ابن القاسم وابن حبيب من المالكية ، ولكن زاد عليه أن يكون المقتول محصنا ، وإلا فإن القاتل عليه القصاص إن كان بكرا ، أما الجمهور فذهبوا إلى أنه لا يعفى من القصاص ، إلا أن يأتى بأربعة يشهدون على الزنا ، أو يعترف به المقتول قبل موته بشرط أن يكون محصنا .

٤ – أن اللعان لا يجب بمجرد الكناية أو إظهار الشبهة ، وإنما يجب بأن يرمى الزوج زوجته بالزنا صراحة ، أو ينكر أن ولدها منه بألفاظ واضحة ، وقد زاد مالك ، والليث بن سعد – رحمهما الله – أن الزوج عليه أن يصرح عند اللعان بأنه قد رأى بعينيه زوجته تزنى ، ولكن لا أصل لهذه الزيادة فى القرآن ولا فى السنة.

٥ – أخذ العلماء من أحاديث اللعان ، أنه يندب أن يقام الرجل حتى يشهد والمرأة قاعدة ، وتقام المرأة والرجل قاعد حتى تشهد ، وأن يعظهما القاضى أو نائبه ، بمثل قوله لكل منهما عند الانتهاء إلى اللعنة والغضب : اتق الله فإنها موجبة ، ولعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة . كما يستحب التغليظ بالزمان والمكان ، وحضور جمع من عدول المسلمين ، على خلاف فى ذلك بين الفقهاء ومحله كتب الفروع .

٦ – قال القرطبى :

اللعان يفتقر إلى أربعة أشياء :

عدد الألفاظ : وهو أربع شهادات ، والمكان : وهو أن يقصد به أشرف البقاع بالبلدان ، إن كان بمكة فعند الركن والمقام ، وإن كان بالمدينة فعند المنبر ، وإن كان ببيت المقدس فعند الصخرة ، وإن كان فى سائر البلدان ففى مساجدها .

والوقت : وذلك بعد صلاة العصر .

وجمع الناس : وذلك أن يكون هناك أربعة أنفس فصاعدا ، فاللفظ وجمع الناس مشروطان ، والزمان والمكان مستحبان[١٠٦] .

٧ – من نتائج اللعان ما يأتى :

(أ) أن الرجل والمرأة لا يستحق أحدهما شيئا من العقوبة .

(ب) إن كان الرجل منكرا لولد المرأة ، ألحق الولد بها ، ولا يدعى إليه ولا يرثه ، وإنما يرث أمه وترث منه.

(جـ) لا يجوز لأحد أن يقول للمرأة زانية ، ولولدها ولد الزنا ، ولو كانت عند اللعان حيث لا يشك أحد فى زناها .

(د) من أعاد إليها الاتهام السابق ، وجب عليه حد القذف .

(هـ) لا يسقط عن الرجل صداق المرأة .

(و) لا نفقة ولا بيت للمرأة على الرجل .

(ز) تحرم المرأة على الرجل .

٨ – ذكر القرطبى فى تفسيره أن آيات اللعان فيها ثلاثون مسألة ، منها كيفية وقوع الفرقة فى اللعان :

قال مالك وأصحابه : وبتمام اللعان تقع الفرقة بين المتلاعنين ، فلا يجتمعان أبدا ولا يتوارثان ، ولا يحل له مراجعتها أبدا لا قبل زوج ولا بعده ، وهو قول الليث بن سعد، وزفر بن الهذيل، والأوزاعى.

وقال أبو حنيفة، وأبو يوسف، ومحمد بن الحسن : لا تقع الفرقة بعد فراغها من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما ، وهو قول الثورى ، لقول ابن عمر : فرق رسول الله ﷺ بين المتلاعنين . فأضاف الفرقة إليه ، ولقوله ﷺ : «لا سبيل لك عليها» . وقال الشافعى : إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان ، فقد زال فراش امرأته ، التغنت أو لم تلتعن . قال : وأما التعانها فإنما هو لدرء الحد عنها لا غير[١٠٧] .

«والذى تقتضيه حكمة اللعان أن يكون التحريم مؤبدا ، فإن لعنة الله وغضبه قد حلًا بأحدهما لا محالة، ولا يُعلم على من حل به ذلك منهما يقينا ، فوجب التفريق بينهما ، خشية أن يكون الزوج هو الذى قد وجبت عليه لعنة الله وباء بها ، فيعلو امرأة غير ملعونة ، وحكمة الشرع تأبى ذلك ، كما تأبى أن يعلو الكافر المسلمة ، وأيضًا فإن النفرة الحاصلة من إساءة كل واحد منهما إلى صاحبه لا تزول أبدا»[١٠٨] .

٩ – قال العلماء : لا يحل للرجل قذف زوجته ، إلا إذا علم زناها ، أو ظنه ظنا مؤكدًا ، كأن شاع زناها بفلان وصدّقت القرائن ذلك ، والأولى به تطليقها سترا عليها ما لم يترتب على فراقها مفسدة ، هذا إذا لم يكن هناك ولد ، فإن أتت بولد علم أنه ليس منه ، أو ظنه ظنا مؤكدًا ، وجب عليه نفيه ، وإلا لكان بسكوته مستلحقا لمن ليس منه وهو حرام ، كما يحرم عليه نفى من هو منه ، وإنما يعلم أن الولد ليس منه ، إذا لم يطأها أصلا ، أو وطئها وأتت به لدون ستة أشهر من الوطء[١٠٩] .

١٠ – قال تعالى فى آخر آيات اللعان :

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ .

وهى تعقيب على هذا التخفيف والتيسير ، ومراعاة الأحوال والظروف ، فقد بين الله أحكام اللعان عند الحاجة إليها ، ليُعلِّم المؤمنين التزام أحكام الوحى ، وليثق المؤمن برعاية الله ، واستجابته لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، كما قال هلال بن أمية : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجا ، والله يعلم أنى لصادق.

قال النسفى : وجواب لولا محذوف ، أى : لعاجلكم بالعقوبة أو لفضحكم .

والحكمة فى حذفه أن تذهب النفس فى تصوره كل مذهب . أى : ولكن الله ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان ، إذ لو لم يشرع لكم ذلك لوجب على الزوج حد القذف ، مع أن قرائن الأحوال تدل على صدقه ، لأنه أعرف بحال زوجه ، وأنه لا يفترى عليها ، لاشتراكهما فى الفضيحة ، ولو جعل شهادته موجبة لحد الزنا عليها ، لأهمل أمرها وكثر افتراء الزوج عليها ، لضغينة قد تكون فى نفسه من أهلها ، وفى كل هذا خروج من سبق الحكمة والفضل والرحمة .

ومن ثم جعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما ، دارئة عنه العقوبة الدنيوية ، وإن كان قد ابتلى الكاذب منهما فى تضاعيف شهادته ، بأشد مما درأه عن نفسه ، وهو العقاب الأخروى[١١٠] .

صيغة اللعان فى كتب الفقه

جاء فى كتاب الاختيار (فقه حنفى) ما يأتى :

«وصفة اللعان أن يبتدئ القاضى بالزوج فيشهد أربع مرات ، يقول فى كل مرة : أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميتك به من الزنا . ويقول فى الخامسة : أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فيما رميتك به من الزنا .

وإن كان القذف بولد يقول : فيما رميتك به من نفى الولد ، وإن كان بهما يقول : فيما رميتك به من الزنا ومن نفى الولد ، لأنه المقصود باليمين .

ثم تشهد المرأة أربع شهادات ، تقول فى كل مرة : أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنا ، وتقول فى الخامسة : غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، فيما رمانى به من الزنا ، وفى نفى الولد تذكره كما تقدم .

فإذا التعنا فرق الحاكم بينهما ، فإذا فرق بينها كانت تطليقة بائنة .

فإن كان القذف بولد نفى القاضى نسبه وألحقه بأمه ؛ لأنه ﷺ نفى ولد امرأة هلال وألحقه بأمه .

ويصبح نفى الولد عقب الولادة ، وفى حالة التهنئة ، وابتياع آلة الولادة فيلاعن وينفيه القاضى .

ومعلوم أن الإنسان لا يشهد عليه بنسب ولده ، وإنما يستدل على ذلك بقبوله التهنئة ، وابتياع متاع الولادة ، وقبول هدية الأصدقاء ، فإذا فعل ذلك أو مضى مدة يفعل فيه ذلك عادة ، وهو ممسك كان اعترافًا ظاهرًا ، فلا يصح نفيه بعده ، وإن كان غائبا فعلم فكأنها ولدت حال علمه»[١١١] .

خاتمة :

ألا ليت قومي يعلمون أحكام دينهم ، وتشريع ربهم ، فيخلعون عن أنفسهم أوضار الجاهلية ، ونظام القوانين الوضعية ، ويستعدون لقبول نظام الخالق ، وأحكام الإله العادل .

فهو العليم بحال عباده ، الحكيم فيما شرع لهم ، ولو أن المسلمين عادوا لأحكام الإسلام ، ونفذوا أوامره ، وحكموا مبادئه لعادت لهم وحدة الصف ، وقوة الكلمة ، وجلال الهيبة ، ولصاروا بنعمة الله إخوانًا تباركهم السماء ، وتخشاهم قوى الشر والشرك .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ . (المائدة : ٦٦) .

* * *

حديث الإفك على أم المؤمنين عائشة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾

المفردات :

الإفـــك : أبلغ الكذب والافتراء .

العصبة : الجماعة ، وكثر إطلاقها على العشرة فما فوقها إلى الأربعين ، وقد عدَّت عائشة منها المنافق

عبد الله بن أُبى بن سلول وقد تولى كبره ، وحمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب - رضى الله عنها - وزوج طلحة بن عبيد الله ، ومسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت .

كبره : «بكسر الكاف وضمها وسكون الباء» أى : معظمه ، فقد كان يجمعه ويذيعه ويشيعه .

لولا : كلمة بمعنى هلا ، تفيد الحث على فعل ما بعدها .

مبين : ظاهر مكشوف .

أفضتم : خضتم فى حديث الإفك .

تلقونه : تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض ، يقال : تلقى القول ، وتلقنه ، وتلقفه . ومنه : فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ ... (البقرة : ٣٧) .

سبحانك : تعجب ممن تفوه به .

بهتان : كذب يبهت سامعه ويحيره لفظاعته .

يعظكم : ينصحكم .

تشيع : تنتشر .

الفاحشة : الخصلة المفرطة فى القبح ، وهى الزنا .

خطوات : واحدها خطوة «بالضم» ، ما بين القدمين من المسافة ، ويراد بها : نزعات الشيطان ووساوسه .

المنكر : ما تنكره النفوس فتنفر منه .

زكا : طهر من دنس الذنوب .

لا يأتل : لا يحلف .

الفضل : الزيادة فى الدين .

السعة : الغنى .

قصة الآيات :

بعد أن ذكر - سبحانه - حكم من قذف الأجنبيات ، وحكم من قذف الزوجات ، ذكر فى الآيات العشر براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك والبهتان من المنافقين ، صيانة لعرض رسول الله ﷺ .

ومجمل القصص ما رواه البخارى وغيره ، عن عروة بن الزبير ، عن خالته أم المؤمنين عائشة قالت:

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأيتهن خرجت قرعتها استصحبها ، فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج سهمى «نصيبى» ؛ فخرجت معه بعد نزول آية الحجاب ، فحملت فى هودج فسرنا حتى

إذا قفلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ثم نودى بالرحيل ، فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى ، فلمست صدرى فإذا عقدى من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمسته فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوا على بعيرى وهم يحسبون أنى فيه لخفتى ، فلم يستنكروا خفة الهودج وذهبوا بالبعير ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى وظننت أنهم سيفقدوننى ويعودون فى طلبى ، فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى من وراء الجيش ، فلما رآنى عرفنى فاستيقظت باسترجاعه ، فخمرت وجهى بجلبابى ، ووالله ما تكلمت بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطئ على يديها ، فقمت إليها فركبتها وانطلق يقود بالراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا فى حر الظهيرة ، وافتقدنى الناس حين نزلوا وماج القوم فى ذكرى ، فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم فخاضوا فى حديثى فهلك من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبدالله بن أُبى ، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا ، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشىء من ذلك ، ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى . إنما يدخل فيسلم ، يقول : «كيف تيكم» ؟ فذلك يريبنى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعدما نقهت ، وخرجت مع أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل قبل أن تتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه فى البرية ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح «هى ابنة أبى رهم بن المطلب بن عبدالمطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق» قبل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت : أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ فقالت : أى هنتاه ، أولم تسمعى ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضى فلما رجعت إلى منزلى ودخل علىَّ رسول الله ﷺ ثم قال : «كيف تيكم ؟» قلت : أتأذن لى أن آتى أبوىّ ؟ قال : «نعم» . قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قبلهما ، فجئت أبوى ، فقلت لأمى : أى أماه، ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أى بنية ، هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، قلت : سبحان الله ، أوقد تحدث الناس بهذا ، وبلغ رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم. قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت فدخل علىَّ أبو بكر وأنا أبكى ، فقال لأمى : ما يبكيها ؟ قالت : لم تكن علمت ما قيل لها . فأكب يبكى ، فبكى ساعة ثم قال : اسكتى يابنية . فبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلى المقبل لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، حتى ظن أبواى أن البكاء سيفلق كبدى ، ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله ، قالت : فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى فى نفسه من الود ، فقال : يا رسول الله ، هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا . وأما على فقال : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية (يعنى بريرة) تصدقك ، فدعا رسول الله ﷺ بريرة

فقال : «هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟» قالت : والذى بعثك بالحق ما رأيت أمرا أغمضه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبدالله بن أبى . فقال وهو على المنبر : «يا معشر المسلمين ، من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى ، فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى» . فقام سعد بن معاذ الأنصارى - رضى الله عنه - فقال : أنا أعذرك يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحًا ولكن احتملته الحمية - فقال : أى سعد بن معاذ ، لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من أهلك ما أحببت أن يقتل . فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة : كذبت ، لعمر الله لنقتله ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ، ثم أتانى رسول الله ﷺ وأنا فى بيت أبوى ، فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت علىّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها ؛ فجلست تبكى معى ، قالت : فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس عندى ، ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه فى شأنى بشيء ، قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : «أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه» . فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه دمعة ، قلت لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ فيما قال. قال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ﷺ ، فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن : إنى والله قد عرفت أن قد سمعتم بهذا حتى استقر فى أنفسكم حتى كدتم أن تصدقوا به ، فإن قلت لكم إنى بريئة - والله يعلم أنى بريئة - لا تصدقونى بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى بريئة لتصدقنى ، وإنى والله لا أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ . (يوسف : ١٨) . ثم توليت فاضطجعت على فراشى وأنا - والله - أعلم أنى بريئة ، وأن الله سيبرئنى ببراءتى ، ولكن - والله - ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فىَّ بأمر يتلى ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئنى الله بها ، قالت : والله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من البيت حتى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذى ينزل عليه ، قالت : فلما سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، كان أول كلمة تكلم بها أن قال : «أبشرى يا عائشة ، إن الله قد برأك» ، فقالت لى أمى : قومى إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ، هو الذى أنزل براءتى ، فأنزل الله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ ...

عشر الآيات كلها ، فلما أنزل الله هذا فى براءتى ؛ قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله : وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ . - إلى قوله - غَفُورٌ رَّحِيمٌ . فقال أبو بكر : إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه . وقال: لا أنزعها منه أبدا .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمرى وما سمعت ، فقالت : يا رسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، والله ما رأيت إلا خيرًا .

قالت عائشة : وهى التى كانت تساميني ، فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك[١١٢] .

وكان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول : حدثتنى الصديقة بنت الصديق ، حبيبة رسول الله ﷺ ، المبرأة من السماء .

التفسير :

١١ - إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

تبدأ هذه الآية الحديث عن موضوع الإفك ، وتبين أن الله خبأ فيه الخير من حيث ظن المسلمون أن فيه الشر .

لقد كان حديث الإفك محنة شديدة مرت بالنبى الكريم ، فهو القائد الموحى إليه يُتهم فى عرضه وفى أحب نسائه إليه ، وكان محنة للصديق الذى أخلص للإسلام ولنبى الإسلام ، ثم يُتهم فى كريمته ، ويجدها تبكى ذات يوم لما أصابها فيبكى لبكائها ، ويقول : ما وقع منا ذلك فى الجاهلية ، فكيف نُتهم به فى الإسلام ؟ وكان محنة - أى محنة - لعائشة فهى الحَصَان الرَّزان المؤمنة الغافلة عن الإثم ، تعود مريضة من غزوة بنى المصطلق ثم تشفى من مرضها ، فتعرف أن القوم يتحدثون عنها ، وهى بريئة ولكنها لا تملك إلا البكاء والألم .

وكان محنة لصفوان بن المعطل الصحابى الجليل الذى شهد بدرا ، وكان من ساقة الرسول والمدافعين عنه ، ولا يُعلم عنه إلا كل خير . وكان محنة للشرفاء والمخلصين من المسلمين ، فهذا أبو أيوب الأنصارى يقول لزوجته : يا أم أيوب ، ألا ترين ما يقال ؟ فقالت : لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءا ؟ قال : لا . قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة - رضى الله عنها - ما خنت رسول الله ﷺ ، فعائشة خير منى ، وصفوان خير منك[١١٣] .

لقد كشف حديث الإفك عن المنافقين ، وكان درسًا عمليًا خاض فيه الناس شهرًا كاملاً ، وملأ المجالس والمنتديات ، ولم يتحرج بعض المسلمين من إطلاق ألسنتهم بهذه المقالة ، وبعد شهر كامل نزل الوحى من السماء ، يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف ، وأخذ القاذفين بالحد الذى فرضه الله .

أما الآلام التى عاناها رسول الله ﷺ وأهل بيته ، والجماعة المسلمة كلها ، فهى ثمن التجربة وضريبة الابتلاء ، وفى الحديث الصحيح : «أشدكم بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه»(١١٤) .

لقد نجح الرسول ﷺ فى هذا الامتحان ، فاجتنب أهله ، ولم تصدر منه كلمة جارحة لأحد ، ونجح الصديق وأهل بيته فى الصبر والاحتساب ، وكانت هذه الآيات وسامًا لعائشة .

ثم هى آيات ترسم الطريق للمسلمين ، فيما يجب عليهم أن يفعلوه إزاء مثل هذه الشائعات .

أما الذين خاضوا فى الإفك ، ونشروا هذه المقالة الآثمة ؛ فلكل منهم عقوبته فى الدنيا .

وكان عبدالله بن أُبى بن سلول كبير المنافقين ، هو الذى روج هذا الأمر وبدأ به ، وأشاعه بين أتباعه ، فادخر الله له عقابه الأليم يوم القيامة .

رُوى أنه لما مر صفوان بن المعطل بهودج أم المؤمنين ، وعبدالله بن أُبى بن سلول فى ملأ من قومه قال : من هذه ؟ فقالوا : عائشة – رضى الله عنها – فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها . وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها .

وقد وردت فى الروايات أسماء الذين كانوا يتناقلون حديث الإفك فى المجتمع وهم : عبدالله بن أُبى ، وزيد بن رفاعة – والغالب أنه ابن رفاعة بن زيد من اليهود المنافقين – ومسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش . فكان عبد الله بن أُبى وزيد بن رفاعة من المنافقين ، ومسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش من المؤمنين ، ولكن انخدعوا لمكائد الأولين ، وخاضوا فى حديث الإفك على خطأ منهم وضعف ، ولا نعلم من كتب الحديث والسيرة أسماء غير هؤلاء ممن خاضوا فى حديث الإفك وإشاعة أخباره.

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ...

إن الذين تقوّلوا بالإثم هم جماعة منكم ، تعاونوا على إعلانه وإذاعته بين الناس .

لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ...

أى : لا تظنوا أن فيه فتنة وشرا ، بل هو خير لكم لما حمل فى طياته من الابتلاء والامتحان ، ونزول آيات القرآن .

قال الزمخشرى :

ومعنى كونه خيرًا لهم ، أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم ، لأنه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة ، وأنه نزلت فيه ثمانى عشرة آية ، كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له ، وتنزيه لأم المؤمنين – رضوان الله عليها – وتطهير لأهل البيت ، وتهويل لمن تكلم فى ذلك أو سمع به فلم تمجّه أذناه ، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة ، وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها .

لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ...

أى : لكل امرئ منهم جزاء ما اجترح من الإثم بقدر ما خاض فيه ، فإن بعضهم تكلم ، وبعضهم ضحك كالمسرور الراضى بما سمع ، وبعضهم أقل ، وبعضهم أكثر .

وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ...

أى : والذى تحمل معظم ذلك الإثم ، وهو عبد الله بن أبي له عذاب عظيم فى الدنيا والآخرة . وكان عبد الله ابن أبى هو الذى ابتدأ هذا الكلام وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها. فهو الذى بدأ الخوض ، وهو الذى بثه وأشاعه ، وقد أخزاه الله فى الدنيا وأظهر نفاقه ، وله فى الآخرة عذاب عظيم .

وقال الضحاك : الذى تولى كبره حسان ومسطح ، فجلدهما النبى ﷺ حين أنزل الله عذرها .

وهذا رأى ضعيف ، فحسان وقع فى الفتنة التى دبرها المنافقون ، ولم يكن هو الذى تولى كبر الإشاعة وأحكم تدبيرها .

قال ابن كثير :

وهو – أى كون حسان مصداقا لهذه الآية بدلا من عبد الله بن أُبى – قول غريب، ولولا أنه وقع فى صحيح البخارى ما قد يدل على إيراد ذلك ، لما كان لإيراده كبير فائدة ، فإن حسان من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر .

١٢– لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ .

هلا إذ سمعتم هذا الكلام ، ظننتم خيرا بأفراد ملتكم ومجتمعكم .

ثم إن عائشة لها منزلتها ، فهى زوج النبى ﷺ وابنة أبى بكر ، وهى أم المؤمنين وحرمتها عليهم كحرمة أمهاتهم .

والشخص الذى رميت به صحابى جليل مجاهد عفيف ، حيث أقسم بالله أنه ما كشف عن كنف أنثى قط ، أى فى حرام .

فكان أولى بالمسلمين إذ سمعوا هذه الشائعة ألا يصدقوها، ولكنهم ظنوا أسوأ ما يكون الظن بأنفسهم، وبأخلاق مجتمعهم . وكانت طبيعة الإيمان تقتضى أن ينفر المسلم من سماع هذا الإثم ، وأن يعلن رفضه بدون تردد ، وأن يقول : هذا كذب ظاهر ملفق ، وفرية صريحة ، وبهتان عظيم ، لا أساس له من الحقيقة والواقع .

قال الزمخشرى :

فإن قلت : هلاّ قيل : (لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا) ؟ ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة ؟وعن الضمير إلى الظاهر ؟ قلت : ليبالغ فى التوبيخ بطريقة الالتفات ، وليصرح بلفظ (الإيمان) دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض ألا يصدق مؤمن على أخيه ، ولا مؤمنة على أختها ، قول عائب ولا طاعن، وفيه تنبيه على أن حق المؤمن ، إذ سمع مقالة فى أخيه أن يبنى الأمر فيها على الظن الحسن ، لا على الشك، وأن يقول بملء فيه – بناء على ظنه بالمؤمن الخير – : هذا إفك مبين ، هكذا باللفظ المصرح ببراءة ساحته، كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال ، وهذا من الأدب الحسن الذى قل القائم به والحافظ له ، وليتك تجد من يسمع فيسكت ، ولا يشيع ما سمعه بأخوات !. انتهى .

وينبغى أن يكون الأساس للروابط الاجتماعية فى المجتمع الإسلامى ظن الناس فيما بينهم خيرا ، فالأصل هو أن الإنسان برىء إلى أن تثبت إدانته .

١٣– لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ .

أى : هلا جاء الخائضون فى الإفك بأربعة شهداء ، يشهدون على ثبوت ما قالوا وما رموها به ، فإذا لم يأتوا بهم فأولئك الكاذبون عند الله ، أى : فى قانون الله ، أو بحسب قانونه .

وإلا فمن الظاهر أن الاتهام فى نفسه كان إفكا وكذبا ، فما كان لأحد له حظ من العقل أن يقول فى مثل هذه الحال : إن عائشة تخلفت عن الرحيل بحيلة مدبرة ، لأن الذين يدبرون الحيل ، لا يدبرونها بأن تتخلف زوج رئيس القوم خفية مع رجل منهم ، ثم تأتى راكبة جهرة على بعير هذا الرجل نفسه فى وقت الظهيرة والجيش كله يشهد ذلك ، ورئيس القوم بين أظهرهم ، فهذه الصورة من الواقع ، تدل بنفسها دلالة واضحة على براءة ساحتها ، لأن الأساس الوحيد الذى كان من الممكن أن يُتهما عليه فى مثل هذه الحال ، هو أن يكون القائلون قد رأوهما يرتكبان الفاحشة بأعينهم ، وإلا فإن القرائن التى بنى عليها الظالمون اتهامهم ، ما كان فيها أدنى مجال للريبة والشبهة .

١٤ - وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

أى : ولولا تفضله – سبحانه – عليكم فى الدنيا بضروب النعم التى من أجلّها الإمهال للتوبة ، ورحمته فى الآخرة بالعفو بعد التوبة ، لعجل لكم العقوبة فى الدنيا من جراء ما خضتم فيه من حديث الإفك والبهتان .

١٥ - إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ .

أى : ولولا تفضله ورحمته لمسكم ذلك العذاب ، وقت تلقيكم ما أفضتم فيه من الإفك ، وأخبر بعضكم إياه من بعض بالسؤال عنه ، وقولكم قولا بالأفواه دون أن يكون له منشأ فى القلوب يؤيده ، وظنكم إياه هينا سهلا لا يعبأ به ، وهو من العظائم والكبائر عند الله .

وخلاصة ذلك أنه وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام هى :

(أ) تلقى الإفك بالألسنة ، فقد كان الرجل يلقى أخاه فيقول له : ما وراءك ؟ فيحدثه حديث الإفك ؛ حتى شاع وانتشر ، ولم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه .

(ب) أنه قول بلا روية ولا فكر ، فهو قول باللسان لا يترجم عما فى القلب ، إذ ليس هناك علم يؤيده ، ولا قرائن أحوال وشواهد تصدّقه .

(جـ) استصغار ذلك وحسبانه صغيرا يسيرا هينا ، وهو عند الله عظيم الوزر ، مستحق لشديد العقوبة .

قال الزمخشرى :

فإن قلت : ما معنى قوله : بِأَفْوَاهِكُم . والقول لا يكون إلا بالفم ؟

قلت : معناه أن الشىء المعلوم يكون علمه فى القلب ، فيترجم عنه اللسان ، وهذا الإفك ليس إلا قولا يجرى على ألسنتكم ، ويدور فى أفواهكم ، من غير ترجمة عن علم به فى القلب .

كقوله تعالى : يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ... (آل عمران : ١٦٧) .

وقيل : إنه توبيخ ، كما تقول : قاله بملء فيه ، فإن القائل ربما رمز ، وربما صرح وتشدق [١١٥] .

وقد قيل هذا فى قوله : قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ... (آل عمران : ١١٨) .

١٦ - وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ .

لقد كان ينبغى أن تتحرج الألسنة من مجرد النطق بهذا الإفك ، وأن تتوقف عن الخوض فيه ، وأن تتوجه إلى الله تنزهه عن أن يدع نبيه لمثل هذا ، وأن تقذف بهذا الإفك بعيدا عن ذلك الجو الطاهر الكريم .

وتذكر في هذا المقام موقف زينب بنت جحش « وهى التى تسامى عائشة فى منزلتها، وفى قربها من النبى ﷺ » فقد سأل النبى زينب عن عائشة ، فقالت : أحمى سمعى وبصرى ، والله ما رأيت إلا خيرًا . إن هذا النموذج الكريم هو الذى طالبت به الآية ، وأرشدت المسلمين إلى ما ينبغى قوله .

أى : هلا حين سمعتم هذا الإفك ، قلتم : لا يحل لنا أن نتكلم بهذا ، ولا ينبغى لنا أن نتفوه به ، سبحانك ربنا هذا كذب صراح ، يحير السامعين أمره ، لما فيه من جرأة على بيت كريم شهير بالعفاف والطهر ، ولما فيه من مس عرض ذلك البيت الطاهر بيت النبوة ، الذى هو فى الذروة العليا من الإجلال والاحترام وعظيم المكانة.

١٧ - يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

لقد تكررت الآيات وألحت على هذا الموضوع لتبين خطورته ، وعرضت هذه الخطورة بألوان متعددة، لتأخذ على النفوس كل سبيل حتى لا تعود إلى مثله .

وهنا يحذر القرآن المؤمنين أن يعودوا إلى مثل هذا الحديث ، من القذف أو الاستماع إليه أَبَدًا ما دمتم أحياء مكلفين .

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . فيه تهييج لهم ليتعظوا ، وتذكير بما يوجب ترك العود ، وهو الإيمان الصادّ عن كل قبيح [١١٦] .

١٨ - وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

أى : ويفصل الله لكم فى كتابه ، آيات التشريع ، ومحاسن الفضائل والآداب ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . يعلم البواعث والنوايا والغايات والأهداف ، ويعلم مداخل القلوب ومسارب النفوس ، وهو حكيم فى علاجها ، وتدبير أمرها ، ووضع النظم والحدود التى تصلح الفرد والمجتمع .

١٩ - إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

تطلق الفاحشة على كل أمر قبيح ، وأحيانا تطلق على الزنا خاصة .

ومقصود الآية ذم من ينشر الأخبار الكاذبة ، ويذيع أنباء الزنا عن المحصنين والمحصنات من المؤمنين ، فهناك صنف من الناس لا يحلو له الحديث إلا فى تجريح الشرفاء ولمز الغافلات المحصنات .

هذا الصنف مريض ، وربما كان فاسقا أو زانيا ويرى فى سلوك كل شريف وشريفة تحديا له ، وإعلانا عن النزاهة والاستقامة فى هذه الدنيا ، فهو يريد أن يستر كل خير ، وأن يذيع كل إثم ، وقد توعد الله هذا

الصنف بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، وأوجب علينا أن نقفل أبواب الفتنة ، وأن نرفض كل حديث يتصل بتجريح الأعراض ، وأن نسد منافذ الشر والإثم فى المجتمع ، وأن نحافظ على شبابنا وبناتنا من التيارات الغريبة ، والانحرافات الآثمة .

يقول المودودى :

والآية تنطبق كذلك على إنشاء دور للفاحشة والبغاء ، وما يُرغب الناس فيها ويثير غرائزهم الدنيئة، من القصص والروايات والأشعار والغناء والصور والألعاب والمسارح والسينما ، كما تنطبق كذلك على المجالس والنوادى والفنادق ، التى يعقد فيها الرقص والطرب ويشترك فيه الرجال والنساء ، على صورة خليعة مختلطة .

فالقرآن يصرح بأن هؤلاء جميعا من الجناة ، يجب ألا ينالوا عقابهم فى الآخرة فقط بل فى الدنيا كذلك ، فمن واجب كل دولة مسلمة أن تبذل جهدها فى استئصال جميع هذه الوسائل والأسباب لإشاعة الفاحشة ، وتقرر أن جميع هذه الأفعال جرائم مستلزمة للعقوبة ، وتؤاخذ عليها الشرطة والمحكمة[١١٧] .

وقد رُوى من حديث أبى الدرداء : أن رسول الله ﷺ قال : «أيما رجل شد عضد امرئ من الناس فى خصومة لا علم له بها ؛ فهو فى سخط الله حتى ينزع عنها ، وأيما رجل حال بشفاعته دون حد من حدود الله أن يقام ؛ فقد عاند الله حقا ، وأقدم على سخطه وعليه لعنة الله تتابع إلى يوم القيامة ، وأيما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة وهو منها برىء ، يريد أن يشينه بها فى الدنيا ، كان حقًا على الله تعالى أن يرميه بها فى النار» ، ثم تلا مصداقه من كتاب الله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [١١٨] .

٢٠ - وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

كرر الله تعالى تفضله على المؤمنين ببيان هذه الأحكام ، ليؤكد على أهمية الخطأ الجسيم الذى وقع ، فقد كان خليقًا أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء ، «ولكن فضل الله ورحمته ، ورأفته ورعايته.. ذلك ما وقاهم السوء ، ومن ثم يذكرهم به المرة بعد المرة ، وهو يربيهم بهذه التجربة الضخمة التى شملت حياة المسلمين»[١١٩] .

قال النسفى فى قوله تعالى : وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ...

لعجل لكم العذاب ، وكرر المنة بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب ، مبالغة فى المنة عليهم والتوبيخ لهم . وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . حيث أظهر براءة المقذوف ، وقبل توبة القاذف[١٢٠] .

٢١ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

لقد حذر الله من اتباع طريق الشيطان فقال عز شأنه : إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ . (فاطر : ٦) . وإذا كان الشيطان للإنسان عدوًا مبينًا ، فإن هذا الإنسان الغافل ينسى أحيانًا نفسه ، ويسلك سبل الشيطان وطرقه ، وينهج على منواله حين يشيع الفحشاء فى الذين آمنوا ، ويذيعها وينقلها ويرويها بين الناس فيفتح العيون الغافلة ، ويوهم الأبرياء أن الشر فاشٍ ومنتشر ، فيشجعهم ذلك على الرذيلة .

«وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان ، فيتبع المؤمنون خطاه ، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان ، وأن يسلكوا طريقًا غير طريقه المشئوم !

صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن ، ويرتجف لها وجدانه ، ويقشعر لها خياله !

ورسم هذه الصورة ، ومواجهة المؤمنين بما يثير فى نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية»[١٢١]

وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ...

إن الشيطان يتحين الفرصة لإضلالكم ، وإيقاعكم فى الفواحش والمنكرات والمعاصى ، فاحذروا طريقه ، واقصدوا باب الله بالتوبة ، فهو الباب الوحيد الذى يعصمكم من الفتنة والغواية : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ...

الهداية والتوفيق والتوبة كلها تتم بفضل الله ورحمته .

قال النسفى :

ولولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة الممحصة لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس الإفك .

وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ... يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محصوها .

وَٱللَّهُ سَمِيعٌ . لقولهم . عَلِيمٌ . بضمائرهم وإخلاصهم[١٢٢] .

وليست مشيئة الله تعالى فى تزكية الناس وتطهيرهم من أدناس الفواحش والمنكرات بدون قاعدة ولا نظام ، بل هى قائمة على نظام محكم ، وعلم واسع ، فالله يعلم من يطلب الخير ، ومن يرغب فى الشر ، ويسمع كل ما يتكلم به الإنسان فى خلواته ، ولا يخفى على علمه ما توسوس به نفسه .

فهو يمنح هدايته لمن يستحق هذه الهداية ، ولمن يسلك طريق الخير ويبتعد عن طريق الشر ، وهو سبحانه يحجب هدايته عمَّن أعرض عن الله واتبع هواه ، ولم يصغ لنداء الحق .

قال ﷺ : «اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له»[١٢٣] ، إن الله – عز وجل – يقول :

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ . (الليل : ٥ – ١٠) .

وجاء فى تفسير ابن كثير :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ... يعنى : طرائقه ومسالكه وما يأمر به .

وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ... هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها .

قال ابن عباس : خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ . عمله ، وقال عكرمة : نزغاته ، وقال قتادة : كل معصية فهى من خطوات الشيطان .

وسأل رجل ابن مسعود فقال : إنى حرمت أن آكل طعامًا ، وسماه . فقال : هذا من نزغات الشيطان، كفر عن يمينك وكل .

وقال الشعبى فى رجل نذر ذبح ولده : هذا من نزغات الشيطان ، وأفتاه أن يذبح كبشا .

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ...

أى : لولا أن الله يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ، ويزكى النفوس من شركها وفجورها ودنسها، وما فيها من أخلاق رديئة ، كل بحسبه ؛ لما حصَّل أحد لنفسه زكاة ولا خيرًا[١٢٤] .

٢٢ – وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

أى : ولا يحلف من كان ذا فضل منكم وسعة – أيها المؤمنون بالله – ألا يعطوا ذوى قرابتهم المساكين المهاجرين .

قال ابن كثير :

وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ، ولهذا قال تعالى : وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ . أي: عما تقدم منهم في الإساءة والأذى ، وهذا من حلمه – تبارك وتعالى – وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم .

وهذه الآيات نزلت في الصديق – رضى الله عنه – حين حلف ألا ينفق على مسطح بن أثاثة بعدما قال في عائشة ما قال ، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من تكلم من المؤمنين في ذلك ، وأقيم الحدّ على من أقيم عليه ، شرع – تبارك وتعالى ، وله الفضل والمنة – يعطف الصدّيق على قريبه ونسيبه ، وهو مسطح بن أثاثة ، فإنه كان ابن خالة الصدّيق .

وكان مسكينا لا مال له ، إلا ما ينفق عليه أبو بكر – رضى الله عنه – وكان من المهاجرين في سبيل الله ، وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها ، وضرب الحدّ عليها ، وكان الصدّيق – رضى الله عنه – معروفا بالمعروف ، له الفضل والأيادى على الأقارب والأجانب ، فلما نزلت هذه الآية ، قال الصدّيق : بلى والله ، إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا . ثم أعاد إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله، لا أنزعها منه أبدا. فلهذا كان الصدّيق هو الصدّيق ، رضى الله عنه وعن بنته[١٢٥] .

جاء في تفسير القرطبي ما يأتي :

قال بعض العلماء : هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى ، من حيث لطف الله بالقذفة العصاة بهذا اللفظ.

وقيل : أرجى آية في كتاب الله –عز وجل– قوله تعالى : وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا. (الأحزاب : ٤٧)

وقد قال تعالى في آية أخرى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ . (الشورى : ٢٢) .

فشرح الفضل الكبير في هذه الآية ، وبشر به المؤمنين في تلك .

ومن آيات الرجاء قوله تعالى : قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . (الزمر : ٥٣) .

وقوله تعالى : ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِ ... (الشورى : ١٩) .

وقال بعضهم : أرجى آية في كتاب الله عز وجل : وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ . (الضحى : ٥) .

وذلك أن رسول الله ﷺ لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار[١٢٦] .

في أعقاب الآية :

من حلف على يمين ثم رأى الخير فى غيرها ، فهل عليه أن يكفر عن يمينه أم لا ؟

تقول طائفة من الفقهاء : إن رجوعه إلى الخير هو الكفارة عن يمينه ، فلا كفارة عليه غيرها ، واستدلوا بهذه الآية ؛ لأن الله تعالى وإن أمر فيها أبا بكر بالرجوع عن يمينه لم يوجب عليه الكفارة .

وتقول طائفة أخرى من الفقهاء : إن الله تعالى قد أنزل فى كتابه حكمًا واضحًا مطلقًا عن الرجوع فى اليمين ، وهو قوله تعالى : لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ... (المائدة : ٨٩) .

يقولون : إن هذا الحكم العام ما نسخته آية سورة النور ، ولا أدخلت فيه تغييرا بألفاظ واضحة ، فهو لا يزال ثابتًا قائمًا إذ إن الله تعالى لم يذكر فى قصة أبى بكر أمر الكفارة نفيًا ولا إثباتًا .

ويستشهدون بحديث قال فيه النبى ﷺ : «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها ؛ فليأت الذى هو خير ، وليكفر عن يمينه» .[١٢٧] .

★ ★ ★

الجـــزاء

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

المفردات :

المحصنات : العفيفات .

الغافلات : أى : عن الفواحش ، وهن نقيات القلوب ، اللاتى لا يفكرن فى فعلها .

لعنوا : طردوا من رحمة الله فى الآخرة ، وعذبوا فى الدنيا بالحدّ .

دينهم : جزاءهم ، ومنه : «كما تدين تدان» .

الحق : الثابت الذى يحق لهم لا محالة .

أن الـلـه : أى : وعده ووعيده .

الـحـق : العدل الذى لا جور فيه .

تمهيد :

بعد أن ذكر قصص أم المؤمنين عائشة ، وبيَّن عقاب من اتهمها بالإفك ، وشديد عذابه يوم القيامة ، وأسهب فى هذا ؛ أعقب ذلك ببيان حكم عام ، وهو أن كل من اتهم محصنة مؤمنة غافلة بالزنا ، فهو مطرود من رحمة الله ، بعيد عن دار نعيمه ، معذب فى جهنم إلا إذا تاب وأحسن التوبة .

التفسير :

٢٣ - إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

تأتى هذه الآيات فى أعقاب حديث الإفك ، ولذلك قيل : إنها خاصة بعائشة رضى الله عنها .

فقد تحدثت الآيات (٤ - ٦) من سورة النور ، عن عقوبة القذف وجعلت عقوبته الجلد ، وعدم قبول الشهادة ، والفسق ، فإذا تاب القاذف تاب الله عليه .

أما الآية (٢٣) فجعلت عقوبة من قذف عائشة اللعنة والعذاب العظيم ، والجزاء العادل يوم القيامة .

قال ابن جرير :

فسر ابن عباس سورة النور فلما أتى على هذه الآية: إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ... قال : هذا فى شأن عائشة وأزواج النبى ﷺ وهى مبهمة [١٢٨] وليست لهم توبة .

ثم قرأ : وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ... إلى قوله : إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . (النور : ٤ ، ٥) ، قال : فجعل لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لمن قذف عائشة أو أزواج النبى ﷺ توبة . قال : فهمَّ بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور .

وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح [١٢٩] ، ويعضد العموم ما ورد فى الصحيحين، عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» [١٣٠] .

معنى الآية :

إن الذين يتهمون المؤمنات العفيفات الغافلات ، ويتحدثون عن ارتكابهن الفحشاء كذبا وزورا ، يبعدون من رحمة الله فى الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم جزاء ما اقترفوا من جنايتهم .

«ويجسم التعبير جريمة هؤلاء ويبشعها ، وهو يصورها رميا للمحصنات المؤمنات ، وهن غافلات غارّات غير آخذات حذرهن من الرمية ، وهن بريئات الطوايا مطمئنات لا يحذرن شيئا ، لأنهن لم يأتين شيئا يحذرنه ! فهى جريمة تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الخسة ، ومن ثم يُعاجَل مقترفوها باللعنة، لعنة الله لهم وطردهم من رحمته فى الدنيا والآخرة»[١٣١] .

٢٤ - يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

أى : لهم عذاب عظيم فى يوم يظهر فيه الحق ، وتشهد الجوارح بما ارتكبت من قول أو فعل ، إذ ينطقها الله بقدرته ، فتخبر كل جارحة بما صدر منها من أفاعيل صاحبها .

ونحو الآية قوله تعالى : وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ... (فصلت : ٢١).

روى مسلم، والنسائى، وابن أبى حاتم، عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبى ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : «أتدرون مم أضحك ؟» قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : «من مجادلة العبد ربه يقول : يارب ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجيز علىّ شاهدا إلا من نفسى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام عليك شهودا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعدا لكُنَّ وسحقا فعنكن كنت أناضل»[١٣٢] .

وقال قتادة :

ابن آدم ، والله ، إن عليك لشهودا غير متهمة من بدنك ؛ فراقبهم ، واتق الله فى سرك وعلانيتك ، فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ، ولا قوة إلا بالله .

٢٥ - يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ .

قال ابن عباس :

دِينَهُمُ . أى : حسابهم ، فالله يجزيهم جزاءهم العادل ويؤدى لهم حسابهم الدقيق ، ويومئذ يتيقنون أن وعد الله ووعيده وحسابه هو العدل الذى لا جور فيه .

قال النسفى :

ولم يغلظ الله تعالى فى شىء من المعاصى تغليظه فى إفك عائشة - رضى الله عنها - فأوجز فى ذلك وأشبع ، وفصل وأجمل ، وأكد وكرر ، وما ذاك إلا لأمر .

وعن ابن عباس – رضى الله عنه – : من أذنب ذنبا ثم تاب منه ؛ قبلت توبته ، إلا من خاض فى أمر عائشة . وهذا منه تعظيم ومبالغة فى أمر الإفك ، ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة :

برأ يوسف – عليه السلام – بشاهد من أهلها ، وموسى – عليه السلام – من قول اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه ، ومريم – رضى الله عنها – بإنطاق ولدها ، وعائشة – رضى الله عنها – بهذه الآى العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر بهذه المبالغات ، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك ، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسوله ، والتنبيه على عظيم مكانته صلى الله عليه وعلى آله وسلم[١٣٣] .

★ ★ ★

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

تمهيد :

بعد أن برأ الله – سبحانه – عائشة مما رميت به من الإفك ، ثم ذكر أن رامى المحصنات الغافلات مطرود من رحمة الله ؛ أردف ذلك دليلا ينفى الريبة عن عائشة بأجلى وضوح .

ذلك أن السنن الجارية بين الخلق والصفات بين الزوجين ، فالطيبات للطيبين ، والخبيثات للخبيثين، ورسول الله من أطيب الطيبين ، فيجب كون الصديقة من أطيب الطيبات ، على مقتضى المنطق السليم والعادة الشائعة بين الخلق .

التفسير :

٢٦– ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ... الآية

قال ابن زيد :

المعنى : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال وكذا الخبيثون للخبيثات ، وكذا الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات .

وقال مجاهد وابن جبير وعطاء وأكثر المفسرين : المعنى : الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول، وكذا الكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول . قال النحاس فى كتاب معانى القرآن : وهذا من أحسن ما قيل فى هذه الآية ، ودل على صحة هذا القول : **أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ** ... أى : عائشة وصفوان مما يقول الخبيثون والخبيثات .[١٣٤] .

وللمفسرين أكثر من قول فى معنى هذه الآية . قيل : إن هذه الآية مبنية على قوله تعالى : ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ ، واختار هذا القول النحاس أيضا ، وهو معنى قول ابن زيد : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ ، يعنى به : الجنس . وقيل : عائشة وصفوان (١٣٥) .

وتأتى هذه الآية فى ختام حديث الإفك ، وهو الحديث الذى هز المجتمع هزا شديدا ، وحاول الأعداء أن يصلوا إلى بيت القائد ، وأن يتهموه فى عرضه ، ثم جاءت آيات القرآن ببراءة عائشة ، وقدمت الدليل تلو الدليل ، وأيدت ذلك بطبائع الناس وغرائزهم الفطرية .

ولقد أحبت نفس رسول الله عائشة حبًا عظيمًا ، فما كان يمكن أن يحبّبها الله لنبيه المعصوم ، إن لم تكن طاهرة تستحق هذا الحب العظيم .

جاء فى تفسير ابن كثير :

أى ما كان ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهى طيبة ؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعا ولا قدرا ، ولهذا قال تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ ... أى : هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان .

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ . بسبب ما قيل فيهم من الكذب ، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ . أى : عند الله فى جنات النعيم (١٣٦) .

ويقول المودودى :

إن الله تعالى يبين فى هذه الآية مبدأ مهما من مبادئ الحياة الاجتماعية فى الإسلام ، وهو أن النفوس الخبيثة لا تلتئم إلا مع النفوس الخبيثة من مثلها ، والنفوس الطيبة لا تمتزج إلا بالنفوس الطيبة من مثلها .

يقول سبحانه وتعالى إن هذه حقيقة تنطوى عليها النفس الإنسانية ، وتشاهدونها كل حين فى حياة الناس ، فكيف تظنون بعد ذلك أنه من الممكن أن يعيش رجل طيب – تعرفون حياته من بدئها إلى آخرها – إلى سنوات طوال مع امرأة زانية .

يؤكد الله هذه النصيحة للمسلمين فى هذا المقام حتى إذا رمى فيهم أحد بعد ذلك ، فلا يصدقون به لمجرد سماعه ؛ بل عليهم أن يزدادوا احتياطا ، ويتبينوا على بصيرة ويقظة : من الذى يُرمى ؟ وبماذا يُرمى ؟ وهل حقا يصدق عليه ذلك الرمى ؟ فإن كان كلام الذى يرميه حيث يلتئم مع القرائن فقد يصدق به الناس، أو يرونه ممكن الوقوع على الأقل .

ولكن كيف لهم أن يصدقوا بكلام تمجه القرائن والآثار ، لا لشىء إلا لأن رجلا خبيثا قد تفوه به وألقاه على عواهنه (١٣٧) .

وجاء فى تفسيرى القرطبى والنسفى : أن عائشة – رضى الله عنها – قالت : لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهن امرأة : نزل جبريل بصورتى فى راحته حين أمر – عليه الصلاة والسلام – أن يتزوجنى ، وتزوجنى بكرا وما تزوج بكرا غيرى ، وكان ينزل عليه الوحى وأنا فى لحافه ، وأنا ابنة خليفته وصديقه ، ونزل عذرى من السماء ، وخلقت طيبة عند طيب ، ووعدت مغفرة ورزقا كريما (تشير إلى هذه الآية) وتوفى – عليه الصلاة والسلام – ورأسه فى حجرى ، وقُبر فى بيتى ولقد حفته الملائكة فى بيتى .

وعلى لسان عائشة قال القائل :

أنا ابنة الصديق صاحب أحمد ... وجليسه وأنيسه ببيان

والله شرفنى وأنزل عصمتى ... فى محكم التنزيل والقرآن

يا لائمى لا تأت قبر محمد ... وكفاك ما قد نلت من حرمان

★ ★ ★

الاستئذان

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

تستأنسوا : تستأذنوا، إذ بالاستئذان يحصل أنس أهل البيت، وبدونه يستوحشون ويشق عليهم الدخول .

تذكرون : تتعظون .

أزكى : أطهر .

جناح : حرج .

متاع : أى : حق تمتع ومنفعة ، كإيواء الأمتعة والرحال ، والشراء والبيع ، كحوانيت التجارة والفنادق والحمامات ونحوها .

سبب النزول :

روى الطبرى وغيره ، عن عدى بن ثابت : أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله ، إنى أكون فى بيتى على حال لا أحب أن يرانى عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتى الأب فيدخل علىّ ، وإنه لا يزال يدخل علىّ رجل من أهلى ، وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ فنزلت الآية . فقال أبو بكر – رضى الله عنه – : يا رسول الله ، أفرأيت الحانات والمساكن فى طرق الشام ليس فيها ساكن ؛ فأنزل الله تعالى : لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ...[١٣٨] .

التفسير :

٢٧ – يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

أدّب الله عباده المؤمنين بآداب نافعة فى بقاء الود وحسن العشرة ، ومن ذلك ألا يدخلوا بيوت غيرهم ، إلا بعد الاستئناس : وهو الاستعلام ، واستكشاف الحال هل يراد دخولهم أم لا .

وفسر بعضهم الاستئناس بالاستئذان ، وعند التدقيق نجد بين المعنيين فرقا لطيفا لا ينبغى أن يصرف النظر عنه ، فالاستئناس : تلمس الحالة النفسية ، والرغبة الوجدانية لأصحاب البيت ، ومن ذلك اختيار الوقت المناسب ، واستخدام المسرة (التليفون) لتعرف الاستعداد لتقبل الضيف ، ورضاهم عن زيارته أم لا ، فالاستئناس أعم وأشمل من كلمة (الاستئذان) ، إن الاستئذان طلب الإذن بالدخول أو عدمه ، أما الاستئناس : فهو معرفة التهيؤ ومدى استعداد المزور للأنس بالزائر .

وقيل : الاستئناس ، الاستعلام ، ومعنى تَسْتَأْنِسُوا : تستعلموا ، أى : تحاولون إعلام صاحب البيت بقدومكم ، قال مجاهد : بالتنحنح ، أو بأى وجه أمكن ، ويتأنى قدر ما يعلم أنه قد شعر به ، ويدخل إثر ذلك .

وفى سنن ابن ماجة ، عن أبى أيوب الأنصارى قال : قلنا : يا رسول الله ، هذا السلام ، فما الاستئناس؟ قال : «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ، ويتنحنح ويؤذن أهل البيت»[١٣٩] .

والسنة فى الاستئذان ثلاث مرات لا يزاد عليها ، قال ابن وهب : قال مالك : الاستئذان ثلاث ، لا أحب أن يزيد أحد عليها ، إلا من علم أنه لم يسمع ، فلا أرى بأسا أن يزيد ، إذا استيقن أنه لم يسمع .[١٤٠] وثبت فى الصحيح : أن أبا موسى الأشعرى ، حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له فانصرف ، ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبدالله بن قيس (يعنى : أبا موسى) يستأذن ؟ ائذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك ؟ قال : استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى ، وإنى سمعت النبى ﷺ يقول : «إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له ؛ فلينصرف»[١٤١] .

ويتعلق بالاستئذان ما يأتى :

١ – ينبغى ألا ينظر ببصره فى دار غيره إلا بإذنه . روى البخارى ، ومسلم ، عن رسول الله ﷺ قال: «إنما جعل الاستئذان من أجل النظر»[١٤٢] ، فخلوة الإنسان مكفولة له ، ورسائله وخطاباته لا يصح أن يقرأها أحد بدون إذنه .

روى أبو داود ، عن عبدالله بن عباس أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من نظر فى كتاب أخيه بغير ذنه فإنما ينظر فى النار»[١٤٣].

٢ – إذا جاء إلى بيت قوم ليستأذن ، فينبغى ألا يقف حيال الباب ، ولكن من جانب الباب الأيمن أو الأيسر . وى أبو داود ، عن عبد الله بن بسر قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، لكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول : «السلام عليكم» . وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور[١٤٤] .

٣ – ينبغى أن يكون الطرق على الباب خفيفا بحيث يسمع ، ولا يعنف فى ذلك ، وكذلك استخدام جرس باب ينبغى أن يكون خفيفا لا ثقيلاً ولا مزعجا ، روى أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال : كانت أبواب نبى ﷺ تقرع بالأظافر[١٤٥] .

٤ – صورة الاستئذان ، أن يقول الرجل : السلام عليكم أأدخل ؟ فإن أذن له دخل ، وإن أمر بالرجوع صرف ، وإن سكت عنه استأذن ثلاثا ، ولا ينبغى أن يكون الاستئذان ثلاث مرات متوالية ، بل ينبغى أن يكون ين كل استئذان وآخر فصل من الزمن؛ حتى إذا كان صاحب الدار مشتغلا بأمر يمنعه من الإذن فليفرغ منه .

٥ – ينبغى أن يعرف الطارق بنفسه تعريفا يزيل عنه الجهالة ، وإذا قال له صاحب الدار: من أنت ؟ نول : محمد أو إبراهيم مثلا ، ولا يقول: أنا ، روى الشيخان وغيرهما، عن جابر بن عبد الله – رضى الله نهما – قال : استأذنت على النبى ﷺ فقال : «من هذا» ؟ فقلت : أنا ، فقال النبى ﷺ : «أنا ، أنا» كأنه كره ك[١٤٦] .

قال علماؤنا : إنما كره النبى ﷺ ذلك ، لأن قوله : أنا ، لا يحصل به تعريف ، وإنما الحكم فى ذلك أن كر اسمه ، كما فعل عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – وأبو موسى ، لأن فى ذكر الاسم إسقاط كلفة سؤال والجواب ، ثبت عن عمر بن الخطاب أنه أتى النبى ﷺ وهو فى مشربة له ، فقال : السلام عليك يا سول الله ، السلام عليكم أيدخل عمر[١٤٧] ؟. وفى صحيح مسلم : أن أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: سلام عليكم ، هذا أبو موسى ، السلام عليكم ، هذا الأشعرى ... الحديث[١٤٨] .

٦ – يستحب أن يستأذن الرجل قبل دخوله بيته ، أو يأتى بما يدل على قدومه كالتسبيح أو التنحنح ، فإنه قد تكون المرأة فى شأن لا تحب أن يطلع عليه زوجها أو سيدها[١٤٩] . وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا[١٥٠] .

٧ – جعل الفقهاء حكم السمع كحكم النظر ، فإذا دخل رجل أعمى فى دار قوم ، فهو وإن كان لا ينظر إلى شيء بعينه ، ولكنه يسمع أحاديث أهل الدار ، وهذا أيضًا تدخل غير مشروع فى حق الخلوة كالنظر . ويلحق بذلك التحسس والتجسس على أحاديث الغير ، وسماع المكالمات التليفونية الخاصة بالآخرين ، ومن المعذبين يوم القيامة رجل تسمع لقوم وهم لاستماعه كارهون . ويتبادر إلى الذهن الحديث عن فضيحة ووترجيت ، وقد ثبت فيها أن الرئيس نيكسون سمح بالتنصت على الحزب المنافس له ، وأدى اكتشاف ذلك مع ملابسات أخرى إلى إجباره على الاستقالة . وديننا الحنيف دعا إلى أدب الاستئذان منذ أربعة عشر قرنا، وفى إحياء آداب ديننا إعادة لأمجاد الإسلام .

٨ – لا يجب الاستئذان إذا عرض فى الدار أمر مفاجئ شديد كمريض يستغيث ، أو حريق ، أو هجوم سارق أو غاصب ... إلخ .

٩ – لا عبرة إلا بإذن صاحب الدار ، أو من يعتقده المستأذن أنه يأذن من قبل صاحب الدار ، كالخادم وغيره من أفراد الدار المسئولين ، فإن كان الآذن طفلا فلا يكفى إذنه .

١٠ – عندما يأذن أصحاب الدار بالدخول ينبغى أن يبدأهم بالسلام عند مشاهدتهم ؛ لقوله تعالى :

حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ...

وظاهر الآية الكريمة أنه لابد قبل الدخول من الاستئذان والسلام معا ، وعليه جمهور الفقهاء ، فكل من الاستئذان والسلام مطلوب ، غير أن الطلب فيهما متفاوت ، فالطلب فى الاستئناس على سبيل الوجوب ، والطلب فى السلام على سبيل الندب ، كما هو حكم السلام فى غير هذا الموطن .

وظاهرها أيضًا تقدم الاستئذان على السلام ، لأن الأصل فى الترتيب الذكرى أن يكون على وفق الترتيب الواقعى ، وبهذا الظاهر قال بعض العلماء ، وجمهور الفقهاء على تقديم السلام على الاستئذان ، وحجتهم فى ذلك عموم قوله ﷺ فيما أخرجه الترمذى، عن جابر – رضى الله عنه – : «السلام قبل الكلام»[١٥١] . وما أخرجه ابن أبى شيبة، والبخارى فى الأدب، عن أبى هريرة فيمن يستأذن قبل أن يسلم ، قال : لا يؤذن له حتى يسلم. وبعض العلماء فصَّل فى المسألة وقال : إن كان القادم يرى أحدًا من أهل البيت ، سلم أولاً ثم استأذن فى الدخول ، وإن كانت عينه لا تقع على أحد منهم ، قدّم الاستئذان على السلام . وهذا قول جيد ، ولا ينافيه حديث الترمذى والبخارى، فإنه يمكن أن يحمل ذلك على الحالات التى يكون فيها القادم ، بحيث لا يرى أهل البيت ، فالأفضل أن يقدم الاستئذان على السلام ، كما هو ظاهر الآية ، إلا أن يكون القادم بحيث يرى أهل الدار ، فينبغى أن يجيبهم أولاً ثم يستأذن ، وفى هذا جمع بين الأدلة[١٥٢] .

١١ - كان العرب فى الجاهلية يدخلون البيوت بغير استئذان ، ويهجمون على البيت هجوما ، ويرون أن الاستئذان مذلة تأباها النفوس . فلما شرع الله أدب الاستئذان قال سبحانه : ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . أى : أن أدب الإسلام فى الاستئذان والسلام ،خير مما كان عليه العرب فى الجاهلية . فقد جعل الله البيوت سكنا ، يفىء إليها الناس ، فتسكن وتطمئن قلوبهم ونفوسهم ، ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم ، ويلقون أعباء الحذر والحرص المرهقة للأعصاب .

والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرما آمنا ، لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم ، وفى الوقت الذى يريدون ، وعلى الحالة التى يحبون أن يلقوا الناس عليها .

وكان الرجل فى الجاهلية إذا أراد أن يدخل بيتا غير بيته ؛ يقول : حييتم مساء ، ثم يدخل ، فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف واحد . فأرشدهم القرآن إلى آداب الزيارة ، ثم بيَّن أن هذه الآداب خير وأفضل لحفظ النفوس والأعراض ، والبعد عن الفتنة ، كى تتذكروا وتعملوا بما أمرتم به .

٢٨ - فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ .

البيوت حرمات وعورات ، وقد تكون البيوت المسكونة خالية من أصحابها فى وقت من الأوقات ، وفى هذه الحالة لايحل أيضًا لمن يجدها كذلك أن يدخلها ، فإن خبيئات البيوت عورات لها ، والدخول من غير إذن قد يؤدى إلى الاطلاع على هذه العورات ، فيجب على الطارق أن يمتنع عن دخولها حتى يأذن له أصحابها ، وليس شىء يبيح الدخول إلى هذا إلا الإذن الذى يصدر ممن يملكه ، فإذن العبد والصبى والخادم لا يبيح الدخول فى البيوت التى لا يوجد بها أصحابها ، كما لا يبيح الدخول فى البيوت التى يكونون فيها ، إلا أن يكون أحدهم رسولا من قبل صاحب الدار ، وفى هذه الحالة لا يكون الإذن من هؤلاء ، وإنما من صاحب الدار[١٥٣] .

وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ...

ارجعوا دون أن تجدوا فى أنفسكم غضاضة ، ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة إليكم ، أو النفرة منكم ، فللناس أسرارهم وأعذارهم ، ويجب أن يترك لهم وحدهم تقرير ظروفهم وملابساتهم فى كل حين . «فإن حق كل رجل إذا كان لا يريد مقابلة أحد أن يأبى مقابلته ، أو يعتذر إليه إن كان مشتغلا بأمر يمنعه من الفراغ لمقابلته ، وقد استدل الفقهاء بكلمة : ٱرْجِعُواْ . فى هذه الآية على أنه لا يجوز لأحد أن يقف على باب غيره ، إن لم يأذن له بدخول بيته ، بل عليه أن ينصرف ، ولا يجوز أن يكرهه على مقابلته ، أو يزعجه بالوقوف على بابه»[١٥٤] .

ولذا قال تعالى : هُوَ . أى : الرجوع أَزْكَىٰ لَكُمْ . أى : أطهر مما لا يخلو عنه الإلحاح والوقوف على الأبواب من دنس الدناءة وأنمى لمحبتكم .

قال الزمخشرى :

وإذا نهى عن ذلك لأدائه للكراهة ، وجب الانتهاء عن كل ما يؤدى إليها ، من قرع الباب بعنف ، والتصييح بصاحب الدار ، وغير ذلك مما يدخل فى عادات من لم يتهذب من أكثر الناس .

٢٩ - لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ .

ليس عليكم - أيها المؤمنون - إثم ولا حرج أن تدخلوا بيوتا غير معدَّة لسكن قوم معينين ، بل معدة ليتمتع بها من يحتاج إليها كائنا من كان ، كالفنادق والحوانيت والحمامات ونحوها ، مما فيه حق التمتع لكم كالمبيت فيها ، وإيواء الأمتعة ، والبيع والشراء ، والاغتسال ونحو ذلك ، لأن السبب الذى لأجله منع دخول البيوت ، غير موجود فيها .

وسبب نزول هذه الآية : على ما أخرجه ابن أبى حاتم ، عن مقاتل : أنه لما نزل قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ... الآية ، قال أبوبكر الصديق - رضى الله عنه -: يا رسول الله ، فكيف بتجار قريش ، الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام وبيت المقدس ، ولهم بيوت معلومة على الطريق - يريد الحانات التى فى الطريق - فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها ساكن ؟ فرخص الله - سبحانه - فى ذلك فأنزل قوله تعالى : لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ... فتكون الآية مخصصة لعموم الآية السابقة .

قال القاسمى :

فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ... أى : منفعة وحاجة. وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ . أى : والله عليم بما تظهرون بألسنتكم من الاستئذان ، إذا استأذنتم غلى أهل البيوت المسكونة ، وما تضمرون من حب الاطلاع على عورات الناس ، أو من قصد ريبة أو فساد ، وفى هذا من الوعيد الشديد ما لا يخفى [١٠٠].

جاء فى تفسير القرطبى :

قال جابر بن زيد : ليس يعنى بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة ، إما منزل ينزله قوم من ليل أو نهار ، أو خربة يدخلها لقضاء حاجة ، أو دار ينظر إليها ، فهذا متاع ، وكل منافع الدنيا متاع .

قال أبو جعفر النحاس : وهذا شرح حسن من قول إمام من أئمة المسلمين ، وهو موافق للغة ، والمتاع فى كلام العرب : المنفعة ، ومنه : أمتع الله بك ، ومنه : «فمتعوهن» . قلت : واختاره أيضًا القاضى أبو بكر

بن العربى ، وقال : أمّا من فسر المتاع بأنه جميع الانتفاع ، فقد طبق المفصل وجاء بالفيصل ، وبيَّن أن الداخل فيها إنما هو لما له من الانتفاع ، فالطالب يدخل فى الخانكات – وهى المدارس – لطلب العلم ، والساكن يدخل الخانات وهى الفنادق ، والزبون يدخل الدكان للابتياع ، والحاقن يدخل الخلاء للحاجة ، وكل يأتى على وجهه من بابه(١٠٦) .

★ ★ ★

غض البصر

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾

التفسير :

٣٠ – قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ .

سلك القرآن مسلك التربية السليمة فى الحفاظ على سلامة الأنفس والأعراض ، واستقرار النفوس ، وسلامة الوجدان ، وقد أمر الله المؤمنين بغض البصر عن المحرمات ، وحفظ الفروج عن الزنا ، وهذا أطهر للنفوس وأدعى إلى السعادة والعزة . فمن أطاع الله ؛ أطاع الله له كل شىء ، ومن أعرض عن طريق الله ؛ غلبته شهواته ، وتحكمت فيه نزواته .

ومما يتعلق بهذه الآية ما يأتى :

١ – للعلماء كلام طويل فى فوائد غض البصر ، فالنظر هو النافذة التى تربط الإنسان بالحياة ، والحياة بالإنسان ، فإذا استقام القلب عف البصر ، وإذا غض المؤمن بصره استقام قلبه ، قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر

والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... فى أعين العين موقوف على الخطر

كم نظرة فعلت فى قلب فاعلها ... فعل السهام بلا قوس ولا وتر

يسر ناظره ما ضر خاطره ... لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

٢ – غض البصر : إطباق الجفن على الجفن ، أو خفض الجفن الأعلى وإرخاؤه . ومن الثانى قول كعب ابن زهير :

وما سعاد غداة البين إن رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول

فلا يريد أنها مغمضة عينها مطبقة أجفانها ، بل أنها خافضة الطرف من الحياء والخفر ، ويقال : غض بصره ، يغضه ، غضا ، قال الشاعر :

فغض الطرف أنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وقال عنترة :

وأغض طرفى ما بدت لى جارتى   حتى يوارى جارتى مأواها

ولم يذكر الله ما يغض البصر عنه ، ويحفظ الفرج ، غير أن ذلك معلوم بالعادة ، وأن المراد منه المحرم دون المحلل[١٥٧] . وفى البخارى : وقال سعيد بن أبى الحسن للحسن : إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورءوسهن ؟ قال : اصرف بصرك ، يقول الله تعالى : **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ...**[١٥٨] .

٣ – معنى الغض فى اللغة : النقص والخفض والوضع ، فيقال : غض من قدره ، أى : خفض ونقص ووضع قدره ، وغض الغصن أى : كسره[١٥٩] . والمراد بغض البصر فى الآية : ألا ينظر بملء العين ، وأن يكف النظر عما لا يحل له ، بخفضه إلى الأرض أو بصرفه إلى جهة أخرى ، وكلمة : **مِنْ** . فى : **مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ** . للتبعيض ، أى : أن الله تعالى لا يأمركم بصرف كل نظر من أنظاركم ، وإنما يأمركم بصرف بعضها ، والمراد: صرف نظر الرجال إلى النساء ، أو إلى عورات غيرهم ، أو إلى المناظر الفاحشة ، فلا يحل لرجل أن ينظر إلى امرأة غير زوجته أو محارمه من النساء ، أما النظرة المفاجئة مرة واحدة فلا مؤاخذة عليها .

قال صاحب الكشاف :

إنما دخلت **مِنْ** . فى غض البصر دون حفظ الفرج ، للدلالة على أن أمر النظر أوسع ، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن وثديهن وأعضائهن وسوقهن وأقدامهن ، وكذلك الجوارى المستعرضات للبيع ، وأن الأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها ، وأما أمر الفرج فمضيق ، وكفاك فرقا أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه .

وقد اختلف فى المراد بحفظ الفرج ، فقيل : إن معناه تجنب الزنا واللواطة ، وقيل : إن المراد ستره ، فلا يحل للمؤمن أن يكشف عن سوأته ، ولا أن يلبس لباسا رقيقا يشف عما تحته ويبين عورته ، ولا مانع من إرادة المعنيين جميعًا[١٦٠] .

٤ – قال القرطبى فى تفسيره :

البصر هو الباب الأكبر إلى القلب ، وأعمر طرق الحواس إليه ، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته ، ووجب التحذير منه ، وغضه واجب عن جميع المحرمات ، وكل ما يخشى الفتنة من أجله ، وقد قال ﷺ :

«إياكم والجلوس على الطرقات» فقالوا: يا رسول الله ، مالنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، فقال : «فإن أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه» . قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر»[١٦١] رواه أبو سعيد الخدرى ، وأخرجه البخارى ومسلم .

وفى صحيح مسلم عن جرير بن عبدالله قال : سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجاءة ؛ فأمرنى أن أصرف بصرى . وهذا يقوّى قول من يقول : إن مِنْ . للتبعيض ، لأن النظرة الأولى لا تملك فلا تدخل تحت خطاب تكليف ، إذ وقوعها لا يتأتى أن يكون مقصودا ، فلا تكون مكتسبة ، فلا يكون مكلفا بها فوجب التبعيض لذلك ، ولم يقل ذلك فى الفرج ، لأنه يملك .

ولقد كره الشعبى أن يديم الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته ، وزمانه خير من زماننا هذا ، وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذات محرم نظرة شهوة يرددها[١٦٢] .

٥ – من أدب النبوة :

حفلت كتب السنة المطهرة بتوجيهات النبى ﷺ للمؤمنين والمؤمنات بغض البصر والعفة والنزاهة ، وقد أورد ابن كثير وغيره من المفسرين طائفة من هذه الأحاديث ، ومنها ما يأتى :

عن بريدة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يا على ، لا تتبع النظرة النظرة ؛ فإن لك الأولى وليس لك الأخرى»[١٦٣] رواه الترمذى ، وأحمد ، وأبو داود ، والدارمى . وعن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله عز وجل : إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركه مخافتى أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه»[١٦٤] أخرجه الطبرانى .

وعن أبى أمامة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغضُّ بصره ؛ إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها»[١٦٥] رواه الإمام أحمد فى مسنده .

وقال رسول الله ﷺ : «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك»[١٦٦] ، أخرجه أحمد ، وأصحاب السنن . وعن عبدالله بن عباس قال : كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه ؛ فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر[١٦٧] رواه البخارى ، والترمذى ، وأبو داود .

٦ – هذا الأمر بغض البصر قد استثنيت منه صور تعرض للإنسان فيها حاجة حقيقية للنظر إلى وجه المرأة ، فإذا أراد مثلا أن ينكح امرأة ، فليس له أن ينظر إليها فحسب ، بل هو مستحب له على الأقل ، فعن المغيرة بن شعبة قال : خطبت امرأة ، فقال لى رسول الله ﷺ : «نظرت إليها» ؟ قلت : لا . قال : «فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» .[١٦٨] رواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، والدارمى .

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رجلا أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار ، فقال له رسول الله ﷺ : «انظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئا»[١٦٩] .

وعن أبى حميد أنه – عليه الصلاة والسلام – قال : «إذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر إليها ، إذا كان إنما ينظر للخطبة»[١٧٠] . رواه أحمد .

وعن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن يرى منها بعض ما يدعو إلى نكاحها فليفعل»[١٧١] رواه أبو داود ، وأحمد .

ومن هنا أخذ الفقهاء ، أن هناك صورًا أخرى يجوز فيها للرجل أن ينظر إلى وجه المرأة ، كالنظر إلى امرأة مشتبهة عند تحقيق الجرائم ، أو نظر القاضى إلى وجه المرأة عند تحقيق الشهادة ، أو نظر الطبيب إلى وجه المرأة للمعالجة .

٧ – من مقاصد الأمر بغض البصر ألا ينظر الإنسان إلى عورة غيره ، كما قال تعالى : **وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ** ... وقال النبى ﷺ : «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة» . رواه مسلم وأحمد ، وأبو داود ، والترمذى . وعن على – رضى الله عنه – قال[١٧٢] : قال رسول الله ﷺ : «لا تنظر إلى فخذ حى ولا ميت»[١٧٣] رواه أبو داود ، وابن ماجة .

وقد مر بنا أن المراد بقوله تعالى : **وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ** . البعد عن الزنا وما يلحق به ، أو عدم كشف العورة ، ولا مانع من إرادة المعنيين جميعا .

وقد جعل رسول الله ﷺ عورة الرجل ما بين سرته إلى ركبته ، كما صح عنه ذلك فى رواية للدارقطنى والبيهقى ، فلا يحل للرجل أن يكشف هذا الجزء من جسده إلا أمام زوجته . عن جرهد الأسلمى من أصحاب الصفة – رضى الله عنه – أنه قال : جلس رسول الله ﷺ عندنا وفخذى منكشفة ، فقال : «أما علمت أن الفخذ عورة ؟»[١٧٤] رواه أبو داود ، ومالك ، والترمذى .

وقال ﷺ : «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك» فسأله السائل : يا رسول الله ، فإن كان أحدنا خاليًا ؟ قال : «فالله – تبارك وتعالى – أحق أن يستحيى منه»[١٧٥] رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجة[١٧٦] .

تلك نظم الإسلام شرعها الله العليم بالنفس البشرية ، الخبير بما يناسبها . وفى العصر الحديث شاهدنا نظريات تشجع العرى والاختلاط ، والانطلاق وراء الغريزة ، وشاهدنا دولا تبنت هذه الأفكار والآراء، ثم عادت تشكو من الإرهاق النفسى والحسى ، ومن كثرة الأمراض العصبية وغيرها . لأن الإنسان إنسان، لا غنى له عن القيود والضوابط ، حتى يشبع غريزته فى طريق مشروع ، فالإسلام لم يصدم الغريزة ، ولكنه

هذبها ووضع لها الطرق السليمة ، التى تكفل إشباعها فى الحلال وإبعادها عن الحرام ، وفى وصف النبى ﷺ يقول القرآن :

وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . (الأعراف : ١٥٧) .

★ ★ ★

الحجاب

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

المفردات :

الخمر : واحدها خمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها ، أى : الطرحة .

جيوبهن : الجيوب واحدها جيب ، وهو فتحة فى أعلى القميص يبدو منها بعض الجسد .

بعولتهن : البعولة الأزواج ، واحدهم بعل .

الإربة : الحاجة إلى النساء .

الطفل : يطلق على الواحد والجمع .

لم يظهروا : لم يعلموا عورات النساء لصغرهم .

تمهيد :

يخاطب القرآن الرجال فى كثير من آياته باعتبارهم الجنس الغالب الذى يتأتى منه الخطاب غالبا ، وهناك قواعد عامة وضعها القرآن ، وهى اشتراك النساء مع الرجال فى أمور الشريعة ، إلا ما نص عليه الخطاب بخصوصية أى منهما . قال تعالى : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . (البقرة : ٢٢٨) .

وقد أمر القرآن الرجال بغض البصر وحفظ الفرج ، ثم تكرر الخطاب للنساء للتأكيد عليه ، ولأنهن زدن على الرجال أحكامًا تخصهن ، وهى : النهى عن إبداء زينتهن إلا ما استثنى الله تعالى ، والأمر بإرخاء خمرهن على جيوبهن ، والنهى عن كل فعل يلفت النظر إلى زينتهن ، وينبه الناس إليها .

وتتعلق بهذه الآية الأحكام الآتية :

١ – وردت روايات مختلفة بشأن نظر المرأة إلى الرجل الأجنبى ، ويمكن أن نستعرض هذه الروايات على النحو الآتى :

(أ) ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم فى المسجد يوم العيد ، وعائشة تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم ، حتى ملّت ورجعت ، وذلك سنة سبع من الهجرة[١٧٧] .

وصح أيضًا أن النبى ﷺ مضى إلى النساء فى المسجد يوم عيد ، فذكرهن ومعه بلال ، وأمرهن بالصدقة ، ويبعد ألا ينظرن إلى النبى ﷺ وإلى بلال حين يسمعن الموعظة ، ويتصدقن [١٧٨] ، فدل مجموع ذلك على أنه يباح للمرأة أن تنظر من الرجل الأجنبى ، إلى ما عدا ما بين سرته وركبته ، وبهذا قال جمع من فقهاء الأمصار ، وهو أحد قولى الشافعى .

(ب) نصوص السنة واضحة فى تحريم نظر المرأة – من غير زوجها – إلى ما بين السرة والركبة ، سواء أكان ذلك بشهوة أم بغير شهوة ، كما حظرت عليها أيضًا أن تنظر إلى شىء من بدن الرجل بشهوة ، كل هذا محل اتفاق بين الفقهاء جميعا ، أما نظرها ما فوق السرة وتحت الركبة فقد إختلفت الروايات فيه . فمنها ما يحظر على المرأة أن تنظر إلى شىء من بدن الرجل الأجنبى ، وهو قول أحمد ، وأحد قولى الشافعى، وصححه النووى، وهو أيضًا ظاهر قوله تعالى : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ .

وقد استشهد أصحاب هذا الرأى بأحاديث متعددة منها : ما أخرج أحمد، وأبو داود، والنسائى، والترمذى وصححه، عن أم سلمة قالت : كنت عند النبى ﷺ وميمونة ، فأقبل ابن أم مكتوم حتى دخل عليه، وذلك بعد أن أمر بالحجاب ، فقال رسول الله ﷺ : «احتجبا منه» . فقلنا : يا رسول الله ، أليس أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال : «أفعمياوان أنتما ، ألستما تبصرانه» ؟ .

وفى الموطأ ، عن عائشة أنها احتجبت عن أعمى ، فقيل لها : إنه لا ينظر إليك ، قالت : لكننى أنظر إليه.

وهناك نصوص اعتمد عليها من أباح نظر المرأة للرجل الأجنبى تقدم ذكرها ، فى الفقرة « أ » ، وقد حاول أصحاب كل رأى الدفاع عن رأيهم ، وتوهين حجة الفريق الآخر .

ولعل أولى ما يُجمع به بين هذه الأحاديث المتعارضة ، أن يحمل الأمر بالاحتجاب من ابن أم مكتوم على الندب ، وكذلك احتجاب عائشة – رضى الله عنها – عن الأعمى كان ورعا منها ، وعملا بما هو أجمل وأولى بالنساء ، وحينئذ لا يكون حراما على المرأة أن تنظر من الأجنبى إلى غير ما بين السرة والركبة [١٧٩] .

ويقول أبو الأعلى المودودى :

والذى يستفاد من الجمع بين هذه الروايات المختلفة : أن ليست الشدة فى نظر النساء إلى الرجال الأجانب ، مثل الشدة فى نظر الرجال إلى النساء الأجنبيات . لا يحل لهن أن يقصدن النظر إليهم وجها لوجه فى المجالس ، ولكن يحل لهن أن ينظرن إليهم وهم يمشون فى الطريق ، أو يلعبون ألعابا غير محرمة من البعيد ، بل لا حرج أن ينظرن إليهم فى البيوت عند الحاجات الحقيقية ، وبه تقريبا جمع بين هذه الروايات الإمام الغزالى ، والحافظ ابن حجر العسقلانى – رحمهما الله – وقد نقل الشوكانى فى «نيل الأوطار» قول الحافظ : ويؤيد الجواز استمرار العمل على خروج النساء إلى المساجد والأسواق والأسفار ، منتقبات لئلا يراهن الرجال ، ولم يؤمر الرجال قط بالانتقاب لئلا يراهم النساء ، فدل ذلك على مغايرة الحكم بين الطائفتين [١٨٠].

على أنه لا يصح أن تكرر النساء النظر إلى الرجال ، ويمتعن أنفسهن بحسنهم [١٨١] .

٢ – ذكر القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى : وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ ... أن فى هذه الآية ٢٣ مسألة . وفى المسألة الثانية حاول التوفيق بين الأحاديث المتعارضة ؛ فذكر حديث الترمذى ، عن نبهان مولى أم سلمة : أن النبى ﷺ قال لها ولميمونة ، وقد دخل عليهما ابن أم مكتوم : «احتجبا». فقالتا : إنه أعمى . قال: «أفعمياوان أنتما ، ألستما تبصرانه» [١٨٢] ؟

ثم قال القرطبى : فإن قيل : هذا الحديث لا يصح عند أهل النقل ؛ لأن راويه عن أم سلمة نبهان مولاها ، وهو ممن لا يحتج بحديثه ، وعلى تقدير صحته فإن ذلك منه – عليه الصلاة السلام – تغليظ على أزواجه لحرمتهن ، كما غلظ عليهن أمر الحجاب ، كما أشار إليه أبو داود وغيره ، ويبقى معنى الحديث الصحيح الثابت وهو أن النبى ﷺ أمر فاطمة بنت قيس أن تعتد فى بيت أم شريك ، ثم قال : «تلك امرأة يغشاها أصحابى ، اعتدى عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك» [١٨٣] . قلنا : قد استدل بعض العلماء بهذا الحديث ، على أن المرأة يجوز لها أن تطَّلع من الرجل على ما لا يجوز للرجل أن يطَّلع من المرأة ، كالرأس ،

ومعلق القرط ، وأما العورة فلا . فعلى هذا يكون مخصصا لعموم قوله تعالى : وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ... وتكون مِنْ . للتبعيض كما هى فى الآية قبلها .

قال ابن العربى : وإنما أمرها بالانتقال من بيت أم شريك ، إلى بيت ابن أم مكتوم ، لأن ذلك أولى من بقائها فى بيت أم شريك مؤثرة بكثرة الداخل إليها ، فيكثر الرائى لها ، وفى بيت ابن أم مكتوم لا يراها أحد ، فكان إمساك بصرها عنه أقرب من ذلك وأولى ، فرخص لها فى ذلك ، والله أعلم .

التفسير :

٣١ – وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ...

توسعت كتب التفسير فى عرض ما يتصل بأحكام الآية ، ومن الخير أن نتعرض لتفسير كل جزء منها على حدة ، والله ولى التوفيق .

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ...

أى : فلا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة ، أو الهاتفة المثيرة ، ما يستثير كوامن الفتنة فى صدور الرجال .

وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ...

عما لا يحل لهن من الزنا والسحاق ، ويسترنها حتى لا يراها أحد .

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ...

أى : ولا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب ، إلا ما لا يمكن إخفاؤه مما جرت العادة بظهوره كالخاتم والكحل والخضابة ، فلا يؤاخذن إلا فى إبداء ما خفى منها كالسوار والخلخال والدّملج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط ، لأن هذه الزينة واقعة فى مواضع من الجسد – وهى الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن – لا يحل النظر إليها .

وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ...

الخمر جمع خمار ، وهو ما يخمر به – أى : يغطى به – الرأس . والجيوب جمع جيب ، وهو الصدر، فالمراد بضرب النساء بخمرهن على جيوبهن ، أى : يغطين رءوسهن وأعناقهن ونحورهن وصدورهن بكل ما فيها من زينة وحلى ، على خلاف ما كانت عليه حال النساء فى الجاهلية .

قال ابن كثير :

لقد كانت المرأة فى الجاهلية تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شىء ، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها ؛ فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيئاتهن وأحوالهن .

ويقول الزمخشرى فى تفسيره عن نساء الجاهلية : كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها ، وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة ؛ فأمرن بأن يسدلنها من قدامهن حتى يغطينها .

كانت نساء الجاهلية قريبات الشبه بحال المرأة فى الجاهلية الحديثة فى عصرنا ، فلما نزل القرآن بهذه الآيات تهذب الذوق الإسلامى ، سارعت النساء إلى امتثال أمر الله ، فحجبن مفاتن أجسامهن طائعات، وهذا التحشم وسيلة من الوسائل الوقائية للفرد والجماعة .

روى البخارى ، عن عائشة أنها قالت : رحم الله نساء المهاجرات[١٨٤] الأُوَل لما نزل : وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ... شققن أزرهن فاختمرن بها[١٨٥] .

وأخرج أبو داود ، عن صفية بنت شيبة قالت : بينما نحن عند عائشة ، قالت : فذكرن نساء قريش وفضلهن ؛ فقالت عائشة – رضى الله عنها –:

إن لنساء قريش لفضلا ، وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار ، أشد تصديقا لكتاب الله ، ولا إيمانا بالتنزيل ، لما نزلت سورة النور : وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ... انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذى قرابته ؛ فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل[١٨٦] ، فاعتجرت[١٨٧] به تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رءوسهن الغربان .[١٨٨] وفى مسند أبى داود ما يفيد أن الخمار ينبغى أن يكون من الثوب الغليظ ، ولا يكفى أن يكون ثوبا شفافا يصف ما تحته[١٨٩] .

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ ...

من هنا يشرع الله – سبحانه وتعالى – فى ذكر من يجوز للمرأة المسلمة أن تبدى لهم زينتها ، أما الذين ليسوا فى دائرة هؤلاء سواء أكانوا من الأقارب أم الأجانب ؛ فلا يجوز للمرأة المسلمة أن تبرز إليهم بزينتها .

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ...

أى : قل للمؤمنات لا يظهرن هذه الزينة الخفية إلا لأزواجهن ، فالمرأة مأمورة شرعا بأن تتزين لزوجها ، وأن تبحث عما يشبع رغبته ، ويسر ناظريه ومسامعه .

قال رسول الله ﷺ : «الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة ، إن نظر إليها زوجها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته فى ماله وعرضه»[١٩٠] .

وكذلك أمر الإسلام الرجل أن يتزين لزوجته ليشبع عاطفتها ، وليشبع حاجاتها النفسية والفطرية ، وقد أخذ العلماء هذا الحق من قوله تعالى : وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ... (البقرة : ٢٢٨) . فكل ما يطلبه الرجل من زوجته من أمانة وعفة ونظافة ، هو مطالب به أيضًا ، بيد أن الله جعل القوامة للرجال فقال سبحانه : ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ... (النساء : ٣٤) .

وقال سبحانه : وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ... (البقرة : ٢٢٨) . وهى درجة القوامة ، والعشرة بالمعروف والتسامح ، ولين الجانب . وقد أباح الله للزوج النظر إلى جميع بدن زوجته ، فقد خلق الله حواء لتكون سكنا لآدم . وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ... (الروم : ٢١) .

جاء فى تفسير القاسمى :

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ... أى : فإنهم المقصودون بالزينة ، ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج ، لكن بكراهة على المشهور . وقال الإمام أبو الحسن بن القطان فى كتاب «أحكام النظر» : عن أصبغ : لا بأس به وليس بمكروه ، وروى عن مالك : لا بأس أن ينظر إلى الفرج فى الجماع ، ثم ذكر أن ما روى من أن ذلك يورث العمى ، حديث لا يصح ، لأن فيه بقية ، وقد قالوا : بقية أحاديثه غير نقية[١٩١] .

قال تعالى : أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ ....

أى : لأن هؤلاء محارمهن الذين تؤمن الفتنة من قبلهم ، فإن آباءهن أولياؤهن الذين يحفظونهن عما يسوءهن ، وآباء بعولتهن يمنعون عن أبنائهم ما يسوءهم ، وأبناءهن شأنهم خدمة الأمهات ، وهم منهن ، وأبناء بعولتهن شأنهم خدمة أحبابهم ، وإخوانهم هم الأولياء بعد الآباء ، وبنيهن أولياء بعدهم ، وكذا بنى أخواتهن ، هم كبنى إخوانهن فى القرابة فيتعيرون بنسبة السوء إلى الخالة ، تعيرهم بنسبته إلى العمة ، هذا ما أشار له المهايمى[١٩٢] .

وأجمل ذلك الزمخشرى بقوله : وإنما سومح فى الزينة الخفية أولئك المذكورون ، لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلهم ومخالفتهم[١٩٣] ، ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم ، ولما فى الطباع من النفرة عن ممارسة القرائب ، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم فى الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك .

أَوْ نِسَآئِهِنَّ ...

قيل : هن المؤمنات أخذا من الإضافة ، فليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدى مشركة أو كتابية ، وقيل : النساء كلهن سواء فى حل نظر بعضهن إلى بعض .

قال فى الإكليل : فيه إباحة نظر المرأة إلى المرأة كمحرم .

وروى ابن أبى حاتم ، عن عطاء، أن أصحاب النبى ﷺ لما قدموا بيت المقدس، كان قوابل نسائهم اليهوديات والنصرانيات .

وقال الرازى: القول الثانى هو المذهب، وقول السلف الأول محمول على الاستحباب والأولى[١٩٤] .

وقد ساق المودودى آراء الفقهاء والمفسرين فى المراد بقوله تعالى : أَوْ نِسَآئِهِنَّ . وخلاصتها ما يأتى:

١ – تقول طائفة منهم : إن المراد بها النساء المسلمات فقط.

٢ – تقول طائفة أخرى . إن المراد جميع النساء ، وهذا هو أصح المذاهب عند الإمام الرازى .

٣ – وتقول طائفة ثالثة – وقولهم هو المعقول والأقرب إلى ألفاظ القرآن – : إن المراد النساء المختصات بهن بالصحبة والخدمة والتعارف ، سواء أكن مسلمات أم غير مسلمات، وأن الغرض من الآية أن تخرج من دائرة النساء الأجنبيات اللاتى لا يُعرف شيء عن أخلاقهن وآدابهن وعاداتهن، أو تكون أحوالهن الظاهرة مشتبهة لا يوثق بها، يقولون: ليست العبرة فى هذا الشأن بالاختلاف الدينى، بل هى بالاختلاف الخلقى، فللنساء المسلمات أن يظهرن زينتهن بدون حجاب ولا تحرّج للنساء الكريمات المنتميات إلى البيوت المعروفة الجديرة بالاعتماد على أخلاق أهلها، سواء أكن مسلمات أم غير مسلمات، وأما الفاسقات اللائى لا حياء عندهن، ولا يُعتمد على أخلاقهن وآدابهن، فيجب أن تحتجب عنهن كل امرأة صالحة، ولو كن مسلمات، لأن صحبتهن لا تقل عن صحبة الرجال ضررا على أخلاقها.

أما النساء الأجنبيات اللاتى لا يُعرف شيء عن أحوالهن فحدود إظهار الزينة لهن – عندنا – هى ما يجوز إظهاره للرجال من الأقارب غير المحارم ، أى : على المرأة المؤمنة ألا تكشف لهن من جسدها وزينتها أكثر من وجهها ويديها[١٩٥] .

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ...

من الجوارى، أما العبيد فقد اختلفوا فيهم، فقال قوم : عبد المرأة محرم لها، فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفا ، وله أن ينظر إلى بدن مولاته إلا ما بين السرة والركبة كالمحارم ، وروى ذلك عن عائشة وأم سلمة، وقد رُوى أن عائشة كانت تمتشط وعبدها ينظر إليها . وقال قوم: هو كالأجنبى معها، وهو رأى ابن مسعود والحسن وابن سيرين، ومن ثم قالوا: لا ينظر العبد إلى شعر مولاته . وسئل طاووس: هل يرى غلام المرأة رأسها وقدمها ؟ قال : ما أحب ذلك إلا أن يكون غلاما صغيراً، فأما رجل ذو لحية فلا .

أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ....

الإربة والأرب : الحاجة ، والمراد بالإربة هنا : الحاجة إلى النساء، والمراد بالتابعين: الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم، ولا غرض لهم إلا ذلك ولا حاجة لهم إلى النساء، وفى تعيين المراد بغير أولى الإربة أقوال كثيرة للسلف:

قال عبد الله بن عباس: هو المغفل الذى لا حاجة له إلى النساء.

وقال قتادة: هو التابع يتبعك ليصيب من طعامك.

وقال مجاهد: هو الأبله الذى لا يتبع إلا بطنه ، ولا يعرف شيئا من أمر النساء.

وقال الشعبى: من تبع الرجل وحشمه، الذى لم يبلغ إربه أن يطلع على عورة النساء.

وقال ابن زيد: هو الذى يتبع القوم حتى كأنه كان منهم ونشأ فيهم، وليس يتبعهم لإربة نسائهم، وليس له فى نسائهم إربة، وإنما يتبعهم لإرفاقهم إياه.

وقال الزهرى وطاووس: هو الذى لا همة له بالنساء ولا أرب[١٩٦] .

ويمكن أن نختصر ما ورد عن السلف فى الآتى: الشيخ الذى فنيت شهوته ، أو الأبله الذى لا يدرى من أمر النساء شيئا، أو المجبوب، أو الخصى، أو الممسوح، أو خادم القوم للعيش، أو المخنث. والذى عليه المعول أن المراد به : كل من ليس له حاجة إلى النساء، وأمنت من جهته الفتنة ونقل أوصاف النساء للأجانب.

ومن ذلك نعرف أن هؤلاء الخدّام والغلمان، المكتملين شبابا فى البيوت أو المطاعم والفنادق، لا يشملهم هذا التعريف للتابعين غير أولى الإربة بحال من الأحوال . أخرج مسلم، وأبو داود، والنسائى، وغيرهم، عن عائشة – رضى الله عنها – قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبى ﷺ فكانوا يعدّونه من غير أولى الإربة فدخل النبى ﷺ على أم سلمة وعندها هذا المخنث، وعندها أخوها عبد الله بن أبى أمية،

والمخنث يقول: ياعبد الله، إن فتح الله عليكم الطائف غدا، فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان [١٩٧]. فسمعه رسول الله ﷺ فقال: «يا عدو الله ، لقد غلغلت النظر فيها». ثم قال لأم سلمة: «لا يدخلن هذا عليك». فأمر بإخراجه من المدينة، فكان بالبيداء يدخل فى كل جمعة مرتين، فيسأل ثم يرجع[١٩٨]، وكذلك أخرج من المدينة من كان بها من المخنثين غيره، لأن النساء ما كُنَّ يحتجبن منهم، وكانوا يبينون للرجال أحوال النساء فى البيوت .

أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ...

أى : لم يفهموا أحوالهن ولم يعرفوا ما العورة لصغرهم. «وهم الأطفال الذين لا يثير فيهم جسم المرأة وحركاتها شعورا بالجنس، وهذا التعريف لا ينطبق إلا على من كان فى نحو عشر أو اثنتى عشرة سنة على الأكثر من الأطفال، وأما الأطفال الكبار عن هذه السن فإن الشعور بالجنس يبدأ يثور فيهم، ولو كانوا لم يبلغوا الحلم» [١٩٩].

وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ...

أى : ولا يضربن بأرجلهن الأرض لتقعقع خلاخلهن، فإن ذلك مما يهيج الرجال ويورث ميلا إليهن، وللنساء أفانين فى هذا، فقد يجعلن الخرز ونحوه فى جوف الخلخال ؛ فإذا مشين ولو هونا كان له رنين وصوت خاص، ومن الناس من يتأثر بوسوسة الحلى أكثر من رؤيتها.

قال ابن كثير:

يدخل فى هذا ، النهى عن كل شيء من زينتها كان مستورا فتحركت بحركة، لتظهر ماخفى منها، ومن ذلك ما ورد من نهيها عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتم الرجال طيبها، فروى الترمذى، عن أبى موسى، عن النبى ﷺ أنه قال: «كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا». وقال قولا شديدا[٢٠٠] .

وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

أى : ارجعوا إليه ، بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه، لكى تفوزوا بسعادة الدارين.

قال ابن كثير :

أى : افعلوا ما أمركم به من الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح فى فعل ما أمر الله به رسوله، وترك ما نهى عنه ، والله المستعان.

ونلحظ أن القرآن يختم أوامره بهذه الدعوة الرقيقة إلى التوبة والاستقامة، فالله يفتح بابه للتائبين، وهو عفو غفور رحيم، وبذلك يثير الحساسية برقابة الله، وعطفه ورعايته وعونه للبشر فى ضعفهم أمام الميل الفطرى العميق، الذى لا يضبطه مثل الشعور بالله وبتقواه.

فى أعقاب الآية:

١ - نقل القرطبى عن مكى قال: ليس فى كتاب الله - تعالى - آية أكثر ضمائر من هذه ، جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات من مخفوض ومرفوع.

٢ - إذا كان السبب فى تحريم ضرب الخلخال، ما يؤدى إليه من الفتنة والفساد، كان كل ما فى معناه ملحقا به فى التحريم، كتحريم الأيدى بالأساور، وتحريك الجلاجل فى الشعر، فالتنصيص على الضرب بالأرجل ليس لقصر النهى عليه، لأنه كان السبب فى نزول الآية.

٣ - بالقياس على ما تقدم قال الفقهاء: إنه لا يجوز للمرأة أن تخرج من بيتها متعطرة بحيث تشم منها رائحة الطيب، فقد أخرج أبو داود ، وابن ماجة ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة».[٢٠١] .

٤ - استدل الحنفية بهذا النهى على أن صوت المرأة عورة، فإنها إذا كانت منهية عن فعل يسمع له صوت خلخالها، فهى منهية عن رفع صوتها بالطريق الأولى، والظاهر أنه إن أمنت الفتنة لم يكن صوتها، عورة ؛ فإن نساء النبى ﷺ كن يروين الأخبار للرجال وفيهم الأجانب من غير نكير ولا تأثيم[٢٠٢].

٥ - نهى رسول الله ﷺ أن يخلو أحد من الرجال بامرأة ، ولو كان من أقربائها، إذا لم يكن معها أحد من محارمها.

عن جابر بن عبد الله : أن الرسول ﷺ قال: «لا تلجوا على المغيبات [٢٠٣] ، فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم» [٢٠٤] .

وعن جابر أيضا أن النبى ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم، فإن ثالثهما الشيطان» [٢٠٥] .

٦ - ما أباح النبى ﷺ أن يمس الرجل بيده جسد امرأة غير ذات محرم، فكان يصافح الرجال عند البيعة ولا يصافح النساء، فعن عروة : أن عائشة - رضى الله عنها - أخبرته عن بيعة النساء قالت: مامس رسول الله ﷺ يد امرأة قط إلا أن يأخذ عليها، فإذا أخذ عليها فأعطته قال: «اذهبى فقد بايعتك»[٢٠٦] .

٧ – نهى رسول الله ﷺ بشدة عن الاختلاط بين الرجال والنساء ، وبذل سعيه للقضاء عليه. فلا يخفى على أحد ما للجمعة والصلاة بالجماعة فى المسجد من الأهمية فى الحياة الإسلامية، ومع ذلك فقد أعفى النبى ﷺ النساء من وجوب الجمعة، وأعفاهن من وجوب الجماعة .

وقد صرح بأن صلاتهن فى البيوت خير من صلاتهن فى المساجد، روى أحمد، وأبو داود، عن النبى ﷺ قال: «لا تمنعوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن».(٢٠٧) وبعض العلماء العاملين فى زماننا يدعو إلى حث النساء على حضور مجالس العلم، وإحياء نشاط المرأة المسلمة لتفهم أصول دينها، وتدرك معالم الشريعة الغراء، وتستغنى بنظام الإسلام، عن نظام الغرب وتقاليده، ويحث على أن تكون فى المساجد أماكن للنساء، حتى يلتزمن بأحكام الإسلام وآدابه ، بعيدا عن تقاليد الجاهلية القديمة والحديثة.

«وإنه ليتضح من أحكام الشريعة أن المجالس المختلطة من الرجال والنساء لا تتفق بحال مع طبيعة الإسلام ومزاجه، فالدين الذى لا يسمح باختلاط الجنسين للعبادة فى مواضعها، هل لأحد أن يتصور عنه أنه يبيح الاختلاط بينهما فى الكليات والمكاتب والمجالس والنوادى الساهرة».(٢٠٨) .

اختلف الفقهاء فى معنى قوله تعالى: وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ...

(أ) فرأى الإمام أحمد بن حنبل أن معناه : أن النساء منهيات عن إبداء الزينة، إلا الزينة التى ظهرت بنفسها من غير قصد فمعفو عنها، كأن كشف الريح عن نحر امرأة أو ساقها . وذهب الإمام أحمد إلى أن بدن المرأة كله عورة؛ فيحرم إبداء شىء منه للأجنبى، وهو أصح قولى الشافعى، وقالوا: إن المراد بما ظهر منها: ما ظهر بنفسه بغير قصد إلى إظهاره .

(ب) وذهب الحنفية والمالكية إلى أن معنى الآية: وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا شيئا جرت العادة بظهوره، فلسن منهيات عن إبدائه، وذلك هو الوجه والكفين وما فيهما من زينة كالكحل والخضاب والخاتم، وعلى هذا التأويل تكون الزينة نوعين : ظاهرة ، وباطنة . فالله قد حظر إبداء شىء من الزينة الباطنة لغير من استثنى فى بقية الآية ، ولم يحظر إبداء الزينة الظاهرة لأن الحاجة تقضى بظهورها.

وعلى هذا قال الحنفية والمالكية: إن الوجه والكفين ليسا بعورة وهو أحد قولى الشافعى، واستشهدوا بقوله ﷺ : «يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها إلا هذا». وأشار إلى وجهه وكفيه (٢٠٩) . وفى رواية عن أبى حنيفة – رحمه الله – أن القدمين ليستا من العورة أيضا، ونظر فى ذلك إلى أن الحرج فى سترهما أشد منه فى ستر الكفين، لاسيما بالنسبة إلى أكثر نساء القرى الفقيرات، اللاتى يمشين لقضاء مصالحهن فى الطرقات، وعن أبى يوسف أن الذراعين ليستا بعورة كذلك لما فى سترهما من الحرج.

وقالوا: إن النساء منهيات عن إبداء زينتهن إلا ما دعت الحاجة إلى ظهوره، وجرى عرف الناس فى عصر التنزيل على أنه من الزينة الظاهرة، التى لم يحظر إبداؤها .

(جـ) وقد رجح الأستاذ أبو الأعلى المودودى رأى الحنابلة : لأن الظاهر من الآية أن القرآن ينهى عن إبداء الزينة، ويرخص فيها إذا ظهرت من غير قصد، فالتوسع فى هذه الرخصة إلى حد إظهارها عمدا مخالف للقرآن، ومخالف للروايات التى يثبت بها أن النساء فى عهد النبى ﷺ ما كن يبرزن إلى الأجانب سافرات الوجوه، وأن الأمر بالحجاب كان شاملا للوجه، وكان النقاب قد جعل جزءا من لباس النساء إلا فى الإحرام[٢١٠] .

(د) أما الأستاذ الشيخ محمد على السايس فقد رجح رأى الحنفية فقال : ولعلك إذا نظرت إلى أن الشريعة سهلة سمحة ، لا حرج فيها ولا مشقة ، ترجح القول بأن الوجه والكفين من الأجنبية ليسا من العورة، فإن فى تكليف النساء ستر الوجه والكفين حرجا ومشقة عليهن ، ولاسيما الفقيرات اللاتى ليس لهن خدم، فيضطررن إلى قضاء حاجاتهن من الأسواق بأنفسهن[٢١١] .

وينبغى أن يكون القول بهذا الرأى خاصا بالحالات التى تؤمن فيها الفتنة ، أما فى غيرها من الحالات التى تخشى فيها الفتنة ، وفى الأوقات التى يكثر فيها الفساق فى الأسواق والطرقات ، فلا يجوز للمرأة أن تخرج سافرة عن وجهها ، ولا أن تبدى شيئا من زينتها .

★ ★ ★

الترغيب فى الزواج

﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٣٢﴾ ﴾

المفردات :

الأيامى : واحدهم أيم، وهو كل ذكر لا أنثى معه، وكل أنثى لا ذكر معها، بكرا كانت أم ثيبًا، وليس خاصا بالنساء، قال قائلهم :

فإن تنكحى أنكح وإن تتأيمى وإن كنت أفتى منكم أتأيم

ويقال: آمت المرأة ، وآم الرجل، إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين ، وكثر استعماله فى الرجل إذا ماتت زوجته، وفى المرأة إذا مات زوجها .

قال ﷺ : «أنا وامرأة سفعاء[٢١٢] الخدين، تأيمت على ولدها الصغار حتى يبلغوا أو يغنيهم الله من فضله ؛ كهاتين فى الجنة»[٢١٣].

الصالحين من عبادكم : أي : الصالحين للنكاح والقيام بحقوقه .

وإمـــائـــكـــم : الإماء جمع أمة ، وهي الرقيقة غير الحرة .

واســــــع : غني .

التفسير :

٣٢ – وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ... الآية .

أي : زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر، أي : من الرجال والنساء ، والمراد بذلك: مدّ يد المساعدة بكل الوسائل حتى يتسنى لهم ذلك ، كإمدادهم بالمال وتسهيل الوسائل التي يتم بها الزواج والمصاهرة .

وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ...

أي : والقادرين والقادرات على النكاح والقيام بحقوق الزوجية ، من الصحة والمال ونحو ذلك . وقيل: المراد بالصلاح : معناه الشرعي المعروف ، وهو مراعاة أوامر الدين ونواهيه .

والخلاصة :

أن في الآية أمرًا للأولياء بتزويج من لهم عليهم حق الولاية ، وللسادة بتزويج العبيد والإماء . والجمهور قد حملوا الأمر على الاستحسان لا على الوجوب؛ لأنه كان في عصر النبي ﷺ وفي سائر العصور بعده ، أيامى من الرجال والنساء، ولم ينكر ذلك عليهم أحد، والظاهر أن الأمر يكون للوجوب إذا خيفت الفتنة، وغلب على الظن حصول السفاح من الرجل والمرأة .

جاء في ظلال القرآن :

ونحن نرى أن الأمر هنا للوجوب ، لا بمعنى أن يجبر الإمام الأيامى على الزواج ، ولكن بمعنى أنه يتعين إعانة الراغبين منهم في الزواج ، وتمكينهم من الإحصان ، بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية ، وتطهير المجتمع الإسلامي من الفاحشة ، وهو واجب ، ووسيلة الواجب واجبة . وينبغي أن نضع في حسابنا – مع هذا – أن الإسلام – بوصفه نظاما متكاملا – يعالج الأوضاع الاقتصادية علاجا أساسيا ، فيجعل الأفراد الأسوياء قادرين على الكسب ، وتحصيل الرزق ، وعدم الحاجة إلى مساعدة بيت المال ، ولكنه في الأحوال الاستثنائية يلزم بيت المال ببعض الإعانات ، فالأصل في النظام الاقتصادي الإسلامي أن يستغني كل فرد بدخله ، وهو يجعل تيسير العمل وكفاية الأجر حقا على الدولة ، واجبا للأفراد . أما الإعانة من بيت المال فهي حالة استثنائية ، لا يقوم عليها النظام الاقتصادي في الإسلام .

فإذا وُجد في المجتمع الإسلامي – بعد ذلك – أيامى فقراء وفقيرات، تعجز مواردهم الخاصة عن الزواج، فعلى الجماعة أن تزوجهم ، وكذلك العبيد والإماء، غير أن هؤلاء يلتزم أولياؤهم بأمرهم ما داموا قادرين .

ولا يجوز أن يقوم الفقر عائقا عن التزويج متى كانوا صالحين للزواج راغبين فيه ، رجالا ونساء - فالرزق بيد الله[٢١٤] .

حق الولى فى التزويج :

استدل الشافعية بظاهر قوله تعالى : ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ ... على أنه يجوز للولى أن يزوج البكر البالغة بدون رضاها ، لأنهم تأولوا الآية على أن الخطاب فيها للأولياء ، فقد جعلت للولى حق تزويج المرأة مطلقا سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، وسواء رضيت أم لم ترض ، ولولا أن أدلة أخرى جعلت الثيب أحق بنفسها ، لكان حكمها حكم البكر الكبيرة .

وأنت تعلم أنه ليس فى الآية دليل على إهدار رضا الكبيرة ، ولا اعتباره ، لكن قوله ﷺ : «البكر تستأمر فى نفسها وإذنها صماتها» ، يدل على وجوب استئذانها ، واعتبار رضاها ، فكان ذلك مخصصا للآية .

وكذلك استدلوا بها على أن المرأة لا تلى عقد النكاح ، لأن المأمور بتزويجها وليها ، فلو جاز أن تتولى النكاح بنفسها ، لفوتت على وليها ما جعله الله حقا من حقوقه ، ولكنك قد علمت أن الأولى حمل الخطاب فى الآية على أنه خطاب للناس جميعا ، على معنى ندبهم إلى المساعدة فى النكاح والمعاونة عليه ، وعلى هذا فحكم مباشرة العقد ينبغى أن يؤخذ من غير هذه الآية[٢١٥] .

﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ...

أغلقت السورة منافذ الحرام ، وفى نفس الوقت حثت على تيسير الزواج ، ووعدت المتزوج بالغنى والفضل من الله ، قال ابن مسعود : التمسوا الغنى فى النكاح وتلا هذه الآية . وقال عمر -رضى الله عنه-: «عجبى ممن لا يطلب الغنى فى النكاح ، وقد قال الله تعالى : ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ... ورُوى هذا المعنى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أيضًا[٢١٦] .

وأخرج الترمذى، والنسائى، وابن ماجة فى سننه : أن رسول الله ﷺ قال : «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف» .

وذهب كثير من المفسرين إلى أن الآية ليست وعدا من الله بإغناء من يتزوج ، بل المقصود الحث على المناكحة، والنهى عن التعلل بفقر المستنكحين ، فالمعنى : لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم ، أو فقر من تريدون تزوجها ، ففى فضل الله ما يغنيهم والمال غاد ورائح ، وليس النكاح مانعا من الغنى ولا سببا فى الفقر ، وما استقر فى الطباع من أن العيال سبب الفقر ، إن هو إلا ارتباط وهمى ، فقد ينمو المال مع كثرة العيال ، وقد يحصل الإقلال مع العزوبة ، والواقع يشهد بهذا ، وتحقيق ذلك : أن المراد بيان أن النكاح ليس

مانعا من الغنى ، فعبر عن ذلك ببيان أنه سبب فى الغنى مبالغة ، على حد قوله تعالى : فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ... (الجمعة : ١٠) . فإن ظاهر الأمر بالانتشار فى الأرض إذا قضيت الصلاة ، والمراد تحقيق زوال المانع ، وأن الصلاة إذا قضيت فلا مانع من الانتشار ، بما يقتضى طلب الانتشار مبالغة[٢١٧] .

ويقول المودودى :

الآية فى بنائها وصية لأهل الفتاة ألا يرفضوا شابا حسن السيرة والخلق لمجرد فقره ، ووصية للشباب نفسه ألا يرجئ أمر زواجه انتظارا للمزيد من الغنى واليسر ، بل عليه أن يقدم على الزواج متوكلا على الله ، ولو كان كسبه قليلا أو غير يقينى ، فإن الزواج نفسه كثيرا ما يكون السبب فى إصلاح أحوال الإنسان ، فكثيرًا ما يتغلب على نفقاته بمساعدة زوجته ، كما أنه بنفسه يرغب فى الجهود لكسب معاشه بعد الزواج ، أكثر مما يبذل قبله ، وقد تساعده زوجته فى كسب معاشه ، بل لا تدرى نفس ما هو المقدر لها ولغيرها فى المستقبل، فكثيرا ما تتبدل أحوال الغنى واليسر بأحوال الفقر والبؤس ، وبالعكس ، فعلى الإنسان أن يتجنب الدقة فى الحساب فى هذا الباب[٢١٨] .

وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ .

أى : والله ذو سعة وغنى ، فلا انتهاء لفضله ولا حد لقدرته ، فهو يسع هذين الزوجين وغيرهما ، وهو عليم يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، بحسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

ولا يعترض على ذلك بأن كثيرا من الفقراء يتزوجون ويستمر فقرهم ، ولا يبسط لهم فى الرزق ، ووعد الله لا يتخلف ، لأن وعد الله مشروط بالمشيئة ، كما هو الشأن فى قوله تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . (التوبة : ٢٨) . ويرشد إلى إضمار المشيئة قوله تعالى : وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . فإن المناسب للمقام أن يقال «واسع كريم» لكنه عدل عنه إلى ما فى النظم الجليل ، ليفيد أنه يعلم المصلحة فيبسط الرزق لمن يشاء ، ويقدر لمن يشاء ، حسبما تقتضى به الحكمة والمصلحة «وإن من عبادى من لا يصلح له إلا الفقر ، ولو أغنيته لفسد حاله»[٢١٩] .

★ ★ ★

العفاف

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

المفردات :

وليستعفف : وليجتهد فى العفة .

لا يجدون : لا يتمكنون من وسائله ، وهى المال وغيره .

الكتاب : والمكاتبة ، كالعتاب والمعاتبة ، يراد بها شرعا : إعتاق المملوك بعد أداء شىء من المال منجما ، أى : فى موعدين أو أكثر، فيقول له : كاتبتك على كذا درهم ، ويقبل المملوك ذلك، فإذا أداه عتق وصار أحق بما كسبه ، كما صار أحق بنفسه .

الفتيات : واحدهن فتاة ، ويراد بالفتى والفتاة لغة : العبد والأمة .

البغاء : الزنا .

التحصن : العفة .

لتبتغوا : لتطلبوا عرض الحياة ، أى : الكسب ، وبيع الأولاد .

التفسير :

٣٣ - وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ... الآية .

هذه الآية حلقة من سلسلة الأحكام التى جاءت بها سورة الأحزاب وأكملتها سورة النور . فقد حثت الآية السابقة على الزواج ، وأمرت بتيسير سبله ، والمعاونة على إتمامه وإنجاحه ، حتى يتم الأمن والاستقرار للفرد وللأسرة وللمجتمع .

وهنا يحث القرآن من عجز عن الزواج لأى سبب من الأسباب ، أن يبحث عن العفة ، وأن يتمسك بأسبابها ، ومن أسباب العفة غض البصر ، والبعد عن أسباب الفتنة والإثارة ، وشغل الذهن بعمل نافع كتلاوة القرآن والبحث العلمى والعمل المفيد .

وفى «إحياء علوم الدين» يذكر أبو حامد الغزالى خمس وسائل لتدريب الإنسان على الاستقامة ، وهى: المشارطة ، والمراقبة ، والمعاتبة ، والمحاسبة ، والمعاقبة .

فالمشارطة : أن يشرط على نفسه صباح كل يوم أن يستقيم، ويبتعد عن أسباب المعصية ومهيجاتها .

والمراقبة : أن يكون رقيبا على نفسه ، وأن يشعرها برقابه الله عليها . رُوى أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – سار فى الصحراء فاشتد به الجوع، فوجد عبدا يرعى أغناما، فقال له: بعنا شاة نتغذى بها. فقال العبد : إن الشياه ليست لى ولكنها لسيدى ، فقال له عمر : قل له : أكلها الذئب ، فقال العبد : يا هذا ، فأين الله ؟ فاشتراه عمر وأعتقه ، وقال له : هذه كلمة أعتقتك فى الدنيا ، وأرجو أن تعتقك يوم القيامة .

والمعاتبة : أن يعاتب نفسه إذا قصرت فى واجبها ، أو انحرفت عن طريق الحق .

والمحاسبة : أن يحاسب نفسه كل ليلة فإن وجد خيرا حمد الله ، وإن وجد أنه ارتكب معصية أو تقصيرا فى حق الله لام نفسه ، وأشعر قلبه الندم ، وجدد العزم على التوبة والاستقامة .

والمعاقبة : هى عقوبة الإنسان لنفسه على الذنب ، بالصيام أو القيام أو التلاوة ، أو أى عقوبة يراها مناسبة .

وهذه المعانى يستشهد لها الغزالى بآيات من كتاب الله ، وأحاديث نبوية ، وآثار من هدى السلف . فالمراقبة يستشهد لها بقوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا . (النساء : ١) . وبقوله سبحانه : مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . (المجادلة : ٧) . وقد أقسم الله بالنفس اللوامة ، وهى التى تلوم صاحبها على الذنب وتحثه على التوبة ، قال تعالى : لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ . (القيامة : ١ ، ٢) .

ويقول سبحانه : ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا . (الإسراء : ١٤) .

وفى الأثر : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا»[٢٢٠] .

ويقول تعالى : أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ... (المجادلة : ٦) .

ويقول تعالى : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

العفة في الإسلام :

العفة سلوك عملى فى الحياة للفرد والجماعة ، وهى مرتبطة بالتربية الإسلامية ، وباحترام القيم والمبادئ التى جاء بها الإسلام ، ومن هذه المبادئ ما يأتى :

١ – الإيمان بالله واليوم الآخر : وهذا الإيمان وحده ينبعث عنه أكمل الصفات الإنسانية والاجتماعية : من الإيثار، والتضحية، والحب، والرحمة، وإسداء الجميل، والتعاون على البر والتقوى ، واحتمال مشاق الجهاد ، والبذل فى سبيل الحق والخير ، وإقرار المثل العليا فى أرض الله[٢٢١] .

٢ – الالتزام بآداب الإسلام وأداء فرائضه والتمسك بأحكامه ، فالإسلام نظام شامل يشمل البيت والمدرسة والمسجد والحياة كلها .

وتنحصر نواحى الإصلاح التى جاء بها الإسلام فى هذه الأصول :

(أ) الربانية .

(ب) التسامى بالنفس الإنسانية .

(جـ) تقرير عقيدة الجزاء .

(د) إعلان الأخوة بين الناس .

(هـ) النهوض بالرجل والمرأة جميعا، وإعلان التكافل والمساواة بينهما، وتحديد مهمة كل منهما تحديدا دقيقا .

(و) تأمين المجتمع بتقرير حق الحياة والملك والعمل والصحة ، والحرية والعلم والأمن لكل فرد، وتحديد موارد الكسب .

(ز) ضبط الغريزتين : غريزة حفظ النفس ، وغريزة حفظ النوع ، وتنظيم مطالب الفم والفرج .

(حـ) تأكيد وحدة الأمة ، والقضاء على كل مظاهر الفرقة وأسبابها[٢٢٢] .

قال القرطبى :

١ – «استعفف» وزنه استفعل ، ومعناه : طلب أن يكون عفيفا ، فأمر الله تعالى بهذه الآية كل من تعذر عليه النكاح ، ولا يجده بأى وجه ، أن يستعفف ، ثم لما كان أغلب الموانع عن النكاح عدم المال ، وعد بالإغناء من فضله ، فيرزقه ما يتزوج به ، أو يجد امرأة ترضى باليسير من الصداق ، أو تزول عنه شهوة النساء.

٢ – ظن جماعة من المفسرين أن المأمور بالاستعفاف هو من عدم المال الذى يتزوج به ، وفى هذا القول تخصيص المأمورين بالاستعفاف ، وذلك ضعيف ، بل الأمر بالاستعفاف موجه لكل من تعذر عليه النكاح بأى وجه تعذر ، والله تعالى أعلم .

٣ - من تاقت نفسه إلى النكاح فإن وجد الطول فالمستحب له أن يتزوج ، وإن لم يجد الطول فعليه بالاستعفاف، فإن أمن بالصوم فإن الصوم وجاء[٢٢٣] ، ومن لم تتق نفسه إلى النكاح فالأولى له التخلى لعبادة الله تعالى وفى الخبر : «خيركم الخفيف الحاذ[٢٢٤] الذى لا أهل له ولا ولد» .

ولما لم يجعل الله بين العفة والنكاح درجة ، دل على أن ما عداهما محرم ، ولا يدخل فى ذلك ملك اليمين ، لأنه بنص آخر مباح وهو قوله تعالى : أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ... (النساء : ٣) فجاءت فيه زيادة ، ويبقى على التحريم الاستمناء ردا على أحمد ، وكذلك يخرج عنه نكاح المتعة بنسخه ، وقد تقدم هذا فى أول «المؤمنون»[٢٢٥] .

وقال القرطبى فى أول سورة «المؤمنون» :

١ - قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ . (المؤمنون : ٥) . قال ابن العربى : من غريب القرآن أن هذه الآيات العشر عامة فى الرجال والنساء ، كسائر ألفاظ القرآن التى هى محتملة لهم فإنها عامة فيهم ، إلا قوله : وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ . فإنما خوطب الرجال خاصة دون الزوجات ، بدليل قوله تعالى : إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ... (المؤمنون : ٦) . وإنما عُرف حفظ المرأة فرجها من أدلة أخر كآيات الإحصان عمومًا وخصوصًا ، وغير ذلك من الأدلة .

قلت : وعلى هذا التأويل فى الآية ، فلا يحل لامرأة أن يطأها من تملكه إجماعا من العلماء ، لأنها غير داخلة فى الآية ، ولكنها لو أعتقته بعد ملكها له جاز له أن يتزوجها ، كما يجوز لغيره عند الجمهور[٢٢٦] .

٢ - قال محمد بن عبدالحكم : سمعت حرملة بن العزيز قال : سألت مالكا عن الرجل يجلد عميرة ، فتلا هذه الآية : وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ . إلى قوله : ٱلْعَادُونَ . وهذا لأنهم يكنون عن الذكر بعميرة ، وفيه يقول الشاعر :

إذا حللت بواد لا أنيس به فاجلد عميرة لا داء ولا حرج

ويسميه أهل العراق الاستمناء ، استفعال من المنى ، وأحمد بن حنبل على ورعه يجوزه ، ويحتج بأنه إخراج فضلة من البدن فجاز عند الحاجة ، أصله الفصد والحجامة ، وعامة العلماء على تحريمه .

وقال بعض العلماء : إنه كالفاعل بنفسه ، وهى معصية أحدثها الشيطان ، وأجراها بين الناس حتى صارت قيلة ، ويا ليتها لم تقل ، ولو قام الدليل على جوازها لكان ذو المروءة يعرض عنها لدناءتها ، فإن قيل: إنها خير من نكاح الأمة ، قلنا : نكاح الأمة - ولو كانت كافرة على مذهب بعض العلماء - خير من هذا ، ولو كان قد قال به قائل أيضًا ، ولكن الاستمناء ضعيف فى الدليل ، عار بالرجل الدنىء ، فكيف بالرجل الكبير .

طريق القرآن :

لقد وضح القرآن طريق التسامى بالغرائز ، والعفة والبعد عن المحرمات واجتناب الشبهات ، وحث المؤمن على أن يجاهد نفسه وهواه ، وأن يصبر على ترك المعصية قال تعالى : وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ ...

وقد رسم القرآن من قصة يوسف مثلا أعلى للعفة والنزاهة والصبر ، ثم جعل الله يوسف على خزائن الأرض . ولما تنبه إخوته له :

قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . (يوسف : ٩٠) .

مكاتبة الرقيق :

وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَـٰكُمْ ...

أى : والمماليك الأرقاء الذين يرغبون فى الكتابة – وهى العتق على مال معين – فينبغى أن تحقق رغبتهم فى الحرية ، إذا كان العبد قادرا على الكسب عن طريق شريف .

ولقد جاء الإسلام والرق ظاهرة اجتماعية سائدة ، ولو ألغى الإسلام الرق لأدى ذلك إلى اضطراب فى المجتمع ، لأن هؤلاء العبيد كانوا قد تعودوا على حياتهم ، ولأنه من الصعب أن يخسر المالك صفقة كبيرة من المال دفعة واحدة .

ولقد لجأ الإسلام إلى تشجيع المسلمين على تحرير الأرقاء ، فجعل عتق الرقبة كفارة لكثير من الأشياء، مثل كفارة اليمين والظهار والفطر فى نهار رمضان ، وحث المؤمن على عتق الرقبة ابتداء تقربا لله، قال تعالى : فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ . (البلد : ١١ – ١٤) .

والآية التى نفسرها تشجيع على المكاتبة ، وهى وسيلة عملية للتحرير .

١ – قال القرطبى :

الكتاب والمكاتبة سواء ، مفاعلة مما لا تكون إلا بين اثنين ، لأنها معاقدة بين السيد وعبده ، يقال : كاتب يكاتب كتابا ومكاتبة ، كما يقال : قاتل قتالا ومقاتلة . فالكتاب فى الآية مصدر ، كالقتال والجلاد والدفاع . وقيل : الكتاب ها هنا هو الكتاب المعروف ، الذى يكتب فيه الشىء ، وذلك أنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتابا ، يطلبون العتق الذى يكتب به الكتاب فيدفع إليهم.

٢ – قال القاسمى :

والمكاتبة أن يقول السيد : كاتبتك . أى : جعلت عتقك مكتوبا على نفسى ، بمال كذا تؤديه فى نجوم كذا، ويقبل العبد ذلك ، فيصير مالكا لمكاسبه ولما يوهب له ، وإنما وجب معه الإمهال ، لأن الكسب لا يتصور بدونه ، واشترط النجوم لئلا تخلو تلك المدة عن الخدمة وعوضها جميعا ، وقوله تعالى : إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ... أى : كالأمانة ، لئلا يؤدّوا النجوم من المال المسروق ، والقدرة على الكسب والصلاح ، فلا يؤذى أحدا بعد العتق .

٣ – قال فى (الإكليل) :

فى الآية مشروعية الكتابة ، وأنها مستحبة ، وقال أهل الظاهر : واجبة لظاهر الآية ، وأن لندبها أو وجوبها شرطين : طلب العبد لها ، وعلم الخير فيه ، وفسره مجاهد وغيره بالمال والحرفة والوفاء والصدق والأمانة.

٤ – ظاهر الإطلاق فى قوله تعالى : فَكَاتِبُوهُمْ . جواز الكتابة سواء أكان البدل حالا أم مؤجلا بنجم واحد أو أكثر ، وإلى ذلك ذهب الحنفية ، ومنع الشافعية الكتابة على بدل حال ، قالوا : إن الكتابة تشعر بالتنجيم فتغنى عن التقييد ، وأيضًا لو عقدت الكتابة حالة توجهت المطالبة للمكاتب فى الحال وليس له مال يؤدى منه ، فيعجز عن الأداء ؛ فيرد إلى الرق ولا يحصل مقصود الكتابة . وكذلك منع الشافعية الكتابة على أقل من نجمين ، وسندهم فى ذلك أنه عقد إرفاق ومن تمام الإرفاق التنجيم ، ومع أن هذا الرأى مروى عن عمر وعثمان وابن عمر ، تراه خلاف ظاهر الآية ، ومستند الشافعية فيه ليس بالقوى[٢٢٧] .

وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَـٰكُمْ ...

أى : أعطوا – أيها السادة – المكاتبين شيئا من مال الله الذى أعطاكم ، وليس لكم فضل فيه ، فإن الله ربكم ورب عبيدكم . وأعطوا – أيها الحكام – المكاتبين سهامهم ، التى جعلها الله لهم فى بيت المال ، فى مصارف الزكاة يقول الله تعالى : وَفِى ٱلرِّقَابِ ... (التوبة : ٦٠) أى : فى تحرير الأرقاء ، وفيه الأمر لعامة المسلمين بأن يساعدوا بسعة قلوبهم ، أيما مكاتب يطلب منهم المعونة لأداء ما عليه من مال الكتابة .

الإكراه على البغاء :

وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

سبب النزول :

روى جابر بن عبد الله ، وابن عباس – رضى الله عنهم – أن هذه الآية نزلت فى عبدالله بن أبى ، وكانت له جاريتان ، إحداهما تسمى معاذة والآخرى مسيكة ، وكان يكرههما على الزنا ويضربهما عليه

ابتغاء الأجر وكسب الولد ، فشكتا ذلك إلى النبى ﷺ ؛ فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين ، ومعاذة هذه أم خولة التى جادلت النبى ﷺ فى زوجها(٢٢٨) .

وقد وردت أكثر من رواية فى سبب نزول الآية ، عن ابن عباس : أن أهل الجاهلية كانوا يكرهون إماءهم على الزنا ، ويأخذون أجورهم ، فنهوا عن ذلك فى الإسلام ونزلت الآية . وقيل : نزلت فى رجلين كانا يكرهان أمتين لهما على الزنا ، أحدهما عبدالله بن أبى ، وقيل : كان له ست جوار أكرههن على البغاء ، وضرب عليهن ضرائب ، فشكت اثنتان منهن ؛ فنزلت الآية .

ولا سبيل إلى تخصيص الآية بمن نزلت فيه ، بل هى عامة فى سائر المكلفين ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

البغاء فى الجاهلية :

يطلق البغاء على الفجور ، أو بيع العرض وهو الزنا ، وكان البغاء فى بلاد العرب على وجهين : البغاء فى صورة النكاح ، والبغاء العام . ويمكن إلقاء ضوء عليهما فيما يأتى :

البغاء فى صورة النكاح :

كانت تحترف به الجارية التى نالت حريتها وليس لها من يكفلها ، والحرة التى ليس لها بيت أو أسرة تضمها . فكانت إحداهن تجلس فى البيت ، وتعاهد فى آن واحد عدة رجال على أن ينفقوا عليها ، ويقوموا بأمرها ، ويقضوا منها حاجاتهم ، فإذا حملت ووضعت ومرّ ليال بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم حتى يجتمعوا عندها ؛ فتقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدت وهو ابنك يا فلان ، فتسمى من أحبت منهم باسمه ، فيلحق به ولدها ، فكان هذا وجها من وجوه النكاح التى يتناكح بها أهل الجاهلية قبل الإسلام ، وربما سمى زواج العشرة ، نسبة إلى عدد الرجال الذين يتعاهدون المرأة ويقضون منها حاجاتهم.

ومن أنواع الزواج فى الجاهلية زواج البضع ، ومنه زواج الشغار ، وغير ذلك . فلما جاء الإسلام ؛ أبطل جميع وجوه النكاح الرائجة فى أهل الجاهلية ، ولم يقرّ منها إلا الزواج المعروف ، الذى لا يكون للمرأة فيه إلا زوج واحد معلوم .

البغاء العام :

أما البغاء العام فإن معظمه كان يتم بواسطة الإماء ، وهو على وجهين أيضًا :

الأول : أن الناس كانوا يفرضون على الإماء الشابات مبلغًا كبيرا من المال يتقاضونه منهن فى كل شهر ، فكن يكسبن بالفجور ، لأنه لم يكن فى وجوههن طريق غيره لكسب هذا المبلغ الكبير .

الثاني : يتم بأن يُجلس الناس الشابات من إمائهم فى الغرفات ، وينصبوا على أبوابهن رايات تكون علما لمن أراد أن يقضى منهن حاجته ، فكان هؤلاء النساء يعرفن بالقليقيات ، ويقال لبيوتهن : المواخير ، فكان لكثير من الرؤساء والوجهاء فى العرب ، مثل هذه البيوت قبل الإسلام . وهذا عبدالله بن أبى رأس النفاق ، كان له ست إماء شابات جميلات يكرههن على البغاء طلبا لكسبهن ، ورغبة فى أولادهن ليكثر منهم خدمه وحشمه ، وكان يقدمهن لمن ينزل عليه من الضيوف ، إرادة الثواب منهم والكرامة لهم . وقد ورد فى سبب نزول الآية : أن إحدى هؤلاء الجوارى أسلمت وأرادت التوبة ، ولكن عبدالله بن أبى أجبرها على البغاء فأنزل الله – عز وجل – هذه الآية .

إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ...

لقد حرم الله البغاء فى جميع الظروف والأحوال ، ولكنه نص على هذه الحالة مراعاة لسبب النزول وزيادة فى تقبيح حالهم ، والتشنيع عليهم ، فإن ذا المروءة لا يرضى بفجور من يحويه بيته من إمائه ، فضلا عن أمرهن بذلك وإكراههن عليه ، ولاسيما عند إرادة التعفف والرغبة فيه .

لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...

أى : لا تفعلوا ذلك رغبة فى متاع زائل من عرض الحياة الدنيا . والبغاء محرم أصلا سواء رغب فى عرض الحياة الدنيا أم لم يرغب ، فليس هو مدار النهى ، «بل ذكر هنا لأنه المعتاد فيما بينهم ، كما قبله ، جىء به تشنيعا لهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير ، لأجل النزر الحقير ، أى : لا تفعلوا ما أنتم عليه من إكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال الوشيك الاضمحلال ، يعنى من كسبهن وأولادهن»[٢٢٩].

وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

أى : ومن يكرههن على البغاء فإن الله غفور رحيم لهن من بعد إكراههن ، والذنب على المكرِه لهن . وكان الحسن إذا قرأ الآية قال : لهن والله ، لهن والله .

واختار بعض العلماء أن المعنى : فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لهم ، أى : للمكرِهين ، وجعل ذلك مشروطا بالتوبة ، وهو تأويل ضعيف لأن فيه تهوين أمر الإكراه على الزنا ، والمقام مقام تهويل وتشنيع على المكرِهين ، خاصة إذا أدركنا أن سبب النزول إسلام فتاة من فتيات عبد الله بن أبى ؛ ورغبتها فى الطهارة ، ثم إكراهها على الزنا .

فكأن الآية تأخذ بيد هذه الفتاة المسلمة ، وترفع عنها ذلة الإثم والمعصية ، وتشجعها على التوبة والاستقامة ، ما دامت صادقة الإيمان مستمسكة بالإسلام .

في أعقاب الآيـة :

وردت أحاديث نبوية صحيحة ، تنهى عن البغاء وتحرم ثمنه ، وتحث على إغلاق أبواب هذه التجارة المحرمة ، وتلزم المسلم ألا يأكل من كسب الأمة إلا إذا كان كسبا حلالا ، وعملا شريفا . فالزنا فى حد ذاته حرام ، ودفع المال للزانية حرام أيضًا ، والإسلام بهذا يغلق الأبواب أمام هذا الشر المستطير ، حتى يبحث المؤمن عن الزوجة والأسرة وإشباع العاطفة عن طريق مشروع .

روى الجماعة، والإمام أحمد فى مسنده، عن أبى مسعود عقبة بن عمرو : أن النبى ﷺ حرم مهر البغى[٢٣٠] .

وروى أبو داود ، والترمذى ، وأحمد ، والنسائى ، عن رافع بن خديج : أن رسول الله ﷺ قال عن مهر البغى – أى أجرة الزانية – : «إنه خبيث وشر المكاسب»[٢٣١] .

وروى أبو داود فى كتاب الإجارة ، عن رافع بن خديج أنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن كسب الأمة حتى يعلم من أين هو[٢٣٢] .

وروى أحمد ، وأبو داود فى كتاب الإجارة ، عن طارق بن عبدالرحمن القرشى ، قال : جاء رافع بن رفاعة إلى مجلس الأنصار فقال : نهانا نبى الله ﷺ اليوم ، فذكر أشياء ، ونهى عن كسب الأمة إلا ما عملت بيدها ، وقال هكذا بإصبعه نحو الخبز والغزل والنفش[٢٣٣] .

★ ★ ★

آيات مبينات

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

التفسير :

٣٤ – وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ... الآية .

لقد أنزلنا إليكم فى هذه السورة آيات تبين لكم الأحكام والحدود والشرائع التى مر ذكرها من بدء السورة إلى الآن ، فقد ذكرت الآيات السابقة قانون الزنا والقذف واللعان ، وأمر أهل الإيمان بمقاطعة الخبيثين والخبيثات فى أمر الزواج ، وأمر الرجال والنساء بالغض من أبصارهم ، والحفظ لفروجهم ، وجاء فيها بيان حدود الحجاب للنساء ، ونُدِّد فيها ببقاء الرجال والنساء بغير زواج ، وأمر فيها السادة بمكاتبة عبيدهم وإمائهم إذا طالبوهم بها ووجدوا فيهم خيرا ، وأمر فيها بتطهير المجتمع من لعنة الفجور وبيع الأعراض ، فبعد بيان كل هذه الأحكام يقول الله – عز وجل – :

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ...

أى : قد بينا لكم أحكامنا وتعاليمنا على الوجه الذى ينبغى أن نبينها للذين يريدون أن يسلكوا فى حياتهم الصراط المستقيم .

وَمَثَلاً مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ...

أى : خبرا عظيما عن الأمم الماضية ، وما حل بهم بظلمهم وتعديهم حدود الله .

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ .

أى : فيتعظون بها وينزجرون عما لا ينبغى لهم .

وجاء فى تفسير المراغى :

أى : ولقد أنزلنا آيات مبينات لما أنتم فى حاجة إليه من الأحكام والآداب ، كما أنزلنا قصصا من أخبار الأمم السالفة ، كقصة يوسف ، وقصة مريم ، وفيها شبه بقصص عائشة ، وفيها موعظة لمن اتقى الله وخاف عقابه وخشى عذابه [٢٢٤] .

★ ★ ★

آيــة النــور

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

نـــــــــــــــور : أى : ذو نور، أى: هو هـاد أهل السماوات والأرض ، والمراد : العالم كله .

مشـــــكـــــاة : لفظ حبشى معرب ، يراد به الكوة غير النافذة .

الـــزجـــاجـــة : القنديل من الزجاج .

الـــــــــــدرى : المضىء المتلألئ ، منسوب إلى الدر .

لا شرقية ولا غربية : أى : ضاحية للشمس لا يظلها جبل ولا شجر ، ولا يحجبها عنها شىء من الشروق إلى الغروب .

يضرب الله الأمثال : يبين للناس الأشباه والأمثال .

تمهيد :

بعد أن ذكر – سبحانه – أنه أنزل فى هذه السورة آيات مبينات لكل ما يحتاج إليه الناس فى صلاح أمورهم ، من الشرائع والأحكام والآداب والأخلاق ، بيَّن أنه نور السماوات والأرض ، بما بث فيهما من الآيات الكونية ، والآيات التى أنزلها على رسله .

التفسير :

٣٥ – ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... الآية .

لقد رفع الله السماء ، وبسط الأرض ، ونظم الكون ، وأحكم قوانين الحياة .

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...

أى : أنه – سبحانه – صيرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلهما ، وكمال تدبيره – عز وجل – لمن فيهما ، كما يقال : الملك نور البلد ، كما قال الحسن ومجاهد والأزهرى والضحاك وابن جرير[٢٣٥] .

فإذا رأيت الشمس ساطعة تملأ الكون بالنور والدفء والضياء ، فذلك بفضل الله نور السماوات والأرض ، وإذا رأيت القمر هلالا ثم يكبر فيصير بدرا كاملا ، فذلك بفضل الله نور السماوات والأرض ، وإذا رأيت الأشجار والأزهار والبحار والطيور ، والهواء والفضاء والليل والنهار ، وكل شىء فى الكون يؤدى دوره بنظام وكمال ودقة ، فذلك بفضل الله نور السماوات والأرض .

وفى الصحيحين ، عن ابن عباس – رضى الله عنه – قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ضياء السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لا إله إلا أنت، وعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق»[٢٣٦] .

وكلمة «النور» تستعمل للعلم أيضًا ، كما يعبر عن الجهل بالظلمة ، فالله – سبحانه وتعالى – نور الكون بمعنى أنه لا يمكن أن تعرف الحقائق معرفة مباشرة فى هذا الكون إلا به – سبحانه وتعالى – وإلا فإنه لا يمكن أن يكون فيه شىء غير ظلمة الجهل والضلالة بدون الارتشاف من فيض كرمه وهدايته .

وقال الزمخشري :

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... أي : ذو نور السماوات ، وصاحب نور السماوات والأرض ، وأضاف النور إلى السماوات والأرض لأحد معنيين : إما للدلالة على سعة إشراقه وفشو ضوئه حتى تضيء له السماوات والأرض ، وإما أن يراد أن أهل السماوات والأرض يستضيئون بنوره أو به ، أي : هو النور [٢٢٧] .

الاتجاه إلى التجسيم :

قال هشام الجواليقي : إنه – سبحانه – نور لا كالأنوار ، وجسم لا كالأجسام ، وبهذا قال طائفة من المجسمة [٢٢٨] .

وهذا اتجاه غريب على الفكر الإسلامي ، فالله تعالى علة العلل ، وهو – سبحانه – منزه عن الكيف والكم ، والطول والعرض ، وهو يخلق ولا يُخلق ، وهو يجير ولا يجار عليه ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) . فادعاء طائفة من المجسمة بأن الله نور لا كالأنوار ، وجسم لا كالأجسام خطأ فاحش .

وقد ادعى بعضهم أن لله يدا وفما وأضراسا ولهوات وغير ذلك – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – وإذا علمنا أن آيات القرآن ذكرت أن لله يدا ووجها مثل : يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... (الفتح : ١٠) . ومثل قوله تعالى : وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ . (الرحمن : ٢٧) .

فإن الصحابة – رضوان الله عليهم – قد فهموا هذه النصوص على نحو يليق بذاته تعالى وأيقنوا أنها تشير إلى قدرة الله وجلاله وبقائه وسائر كمالاته .

ولذلك لم يؤثر أن أحدا من الصحابة سأل النبي ﷺ عن تفسير أي آية من هذه الآيات ، التي سميت بآيات الصفات ، لأنها تصف الله تعالى بالسمع والبصر والفوقية وغيرها .

فَهِم المسلمون منها كمال الله وجلاله وقدرته ، وإحاطة علمه وسمعه ورؤيته لسائر الموجودات ، ولم يسألوا عن تحديد ذلك ، بل أيقنوا بالإيمان بالله وبصفاته وكمالاته ، واستمر المسلمون على ذلك في حياة الخلفاء الراشدين ، ثم لما دخل في الإسلام كثير من أصحاب الديانات الأخرى ، وترجمت الفلسفة اليونانية، رأينا أصحاب المذاهب المنحرفة التي كانت تنسب إلى الآلهة الجمال والشكل ، والقوام والحواس ، تسقط هذه المعاني على صفات الله تعالى في الفكر الإسلامي ، وكان اتجاها منحرفا قاومه المؤمنون .

والآن يهيب العلماء بنا أن نعود إلى طريقة القرآن في التفكير ، فنصف الله تعالى بالكمالات بدون تشبيه ولا تجسيم .

يقول المودودى :

والمراد بالنور ما تظهر به الأشياء ، أى : ما كان ظاهرا بنفسه ومظهرًا لغيره ، هذا هو المفهوم الحقيقى للنور فى ذهن الإنسان . فهو يعبر بالظلام عن كيفية عدم رؤيته شيئا ، ويقول عندما يتبين له كل شىء : قد بدا النور ، فكلمة نُورُ . إنما استعملت لله – تبارك وتعالى – باعتبار مفهومها الأساسى هذا ، ولم تستعمل بمعنى أن الله تعالى – والعياذ بالله – شعاع يسير ١٨٦٠٠٠ ميل فى كل ثانية ، وينعكس على الشبكية فى العين ، ويؤثر فى مركز البصارة فى الدماغ . فهذه الكيفية المخصوصة للنور ليست بشاملة لحقيقة المعنى الذى قد اخترع له الذهن الإنسانى هذه الكلمة ، بل نطلق عليه هذه الكلمة باعتبار الأنوار التى تأتى تحت تجربتنا فى هذه الدنيا المادية ، فكل كلمة من كلمات اللسان الإنسانى إنما تستعمل لله – تبارك وتعالى – باعتبار مفهومها الأساسى ، لا باعتبار مدلولها المادى . فنحن نستعمل لله تعالى كلمة البصر مثلا ، فليس معناها أن له عضوا يسمى بالعين ويرى به كالإنسان والحيوان . وكذلك نستعمل له كلمة السمع ، فليس معناها أنه يسمع بأذنيه كما يسمع الإنسان . وكذلك نستعمل له كلمة البطش والأخذ فليس معناها أن له آلة تعرف باليد فيأخذ بها كما يأخذ الإنسان بيده . فكل هذه الكلمات إنما تستعمل لله – تبارك وتعالى – على وجه الإطلاق لا بمعنى من المعانى المحدودة ، ولا نكاد نظن بالنسبة لرجل له مسكة من العقل أن يقول باستحالة أن يوجد للسمع والبصر والبطش شكل غير الشكل المحدود المخصوص الذى نعرفه فى هذه الدنيا . وعلى هذا ، إذا قيل عن «النور» إنه لايوجد المصداق لمعناه إلا فى صورة ذلك الشعاع الذى يخرج من جرم لامع وينعكس على غطاء العين؛ فإن هذا القول لا يكون إلا من خطأ الفهم وضيقه . إن كلمة «النور» لم تطلق على الله – سبحانه وتعالى – بهذا المعنى الضيق المحدود وإنما أطلقت عليه بمعناها المطلق الواسع غير المحدود ، أى : أن الله – سبحانه وتعالى – هو وحده «سبب الظهور» فى هذا الكون . أما الأجرام اللامعة التى ينبعث منها النور ، فما نالت نورها ولا هى تنور الكون إلا بالنور الذى قد أنعم به عليها الله – سبحانه وتعالى – وإلا فما عندها شىء يمكن أن تنور به غيرها[٢٣٩] .

والمراد بالنور لدى الأكثرين هو الهداية والحق ، كما قال فى آخر الآية : **يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ**. فشبهه بالنور فى ظهوره وبيانه ، وأضافه إلى السماوات والأرض ، للدلالة على سعة إشراقه حتى تضىء السماوات والأرض، أو على حذف المضاف ، أى : نور أهل السماوات والأرض ، وقيل : نور السماء بالملائكة وبالأجرام المنيرة ، والأرض بها وبالأنبياء والعلماء ، وهذا القول مروى عن أُبى بن كعب، والحسن، وأبى العالية[٢٤٠] .

ومن هدى السنة نجد رسول الله ﷺ يتبتل فى دعائه لله الذى أضاء الكون ، وأبدع الوجود ، وهو – سبحانه – نور السماوات والأرض ، وبديع السماوات والأرض ، وحين ضاق النبى ذرعا بأهل مكة ، ذهب إلى الطائف يدعوها للإسلام ، فكذبه أهلها وآذوه، فمد يده إلى بارئ النسم وقال : «اللهم أشكو إليك ضعف قوتى

وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يارب العالمين ، أنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى عدو يتجهمنى أو بعيد ملكته أمرى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بى سخطك، أو يحل علىّ غضبك ، لك العتبى حتى ترضى ، إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، عافيتك هى أوسع لى»(٢٤١) .

ونور الله يدركه قلب المؤمن ، وتشف روحه بهداية السماء وعناية الرحمن . قال تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ... (الزمر : ٢٢) .

أخرج الإمام أحمد ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : «القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح ، فأى المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»(٢٤٢) .

مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ...

مَثَلُ نُورِهِۦ . أى : صفة نوره العجيبة الشأن .

قال ابن كثير :

مَثَلُ نُورِهِۦ : فى هذا الضمير قولان:

الأول: أنه عائد إلى الله – عز وجل – أى: مثل هداه فى قلب المؤمن.

والثانى : أن الضمير عائد إلى المؤمن الذى دل عليه سياق الكلام، تقديره : مثل نور المؤمن الذى قلبه كمشكاة ، فشبه قلب المؤمن فى صفائه فى نفسه ، بالقنديل من الزجاج الشفاف ، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد ، الصافى المشرق المعتدل ، الذى لا كدر فيه ولا انحراف .

وقالوا أيضًا : إن الرسول ﷺ هو المشكاة أو صدره ، والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من علمه وهداه، والزجاجة قلبه(٢٤٣) .

كَمِشْكَوٰةٍ . قال مجاهد: هى الكوة بلغة الحبشة ، وزاد بعضهم فقال: المشكاة الكوة التى لا منفذ لها .

فِيهَا مِصْبَاحٌ . أى: سراج ضخم ثاقب، شديد الإضاءة وقيل : المشكاة الأنبوبة فى وسط القنديل ، والمصباح الفتيلة المشتعلة .

ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ . أى : قنديل من الزجاج الصافى الأزهر .

ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ . أى : متلألئ وقّاد شبيه بالدر فى صفائه وزهرته .

جاء فى ظلال القرآن :

وهذا مثل يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود ، ويرسم النموذج المصغر ، الذى يتأمله الحس حين يقصر عن تملى الأصل ، وهو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور ، حين يعجز عن تتبع مداه وآفاقه المترامية ، وراء الإدراك البشرى الحسير .

ومن عرض السماوات والأرض إلى المشكاة ، وهى الكوة الصغيرة فى الجدار غير النافذة ، يوضع فيها المصباح ، فتحصر نوره وتجمعه ، فيبدو قويا متألقا : كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ... تقيه الريح وتصفى نوره ، فيتألق ويزداد . ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ... فهى بذاتها شفافة رائقة سنية منيرة .. هنا يصل بين المثل والحقيقة ، بين النموذج والأصل ، حين يرتقى من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير، كى لا ينحصر التأمل فى النموذج الصغير ، الذى ما جعل إلا لتقريب الأصل الكبير[٢٤٤] .

قال أبو تمام يمدح المأمون :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فقال له الفيلسوف الكندى وكان حاضرا : الخليفة فوق من مثلته بهم .

فأنشد أبو تمام على الفور :

لا تنكروا ضربى له من دونه ... مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس[٢٤٥]

يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ...

أى : رويت ذبالته «فتيلة المصباح» بزيت شجرة زيتونة كثيرة المنافع ، زرعت على جبل عال ، أو صحراء واسعة ، فهى ضاحية للشمس ، لا يظلها جبل ولا شجر ، ولا يحجبها عنها حاجب من حين طلوعها إلى حين غروبها ، فزيتها أشد ما يكون صفاء .

لا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ...

أى : لا شرقية تقع عليها الشمس وقت الشروق فقط ، ولا غربية تقع عليها عند الغروب ، ولا تصيبها فى الغداة ، بل هى شرقية غربية ، تصيبها الشمس من حين طلوعها إلى حين غروبها ، كما يقال : فلان لا مسافر ولا مقيم ، إذا كان يسافر أحيانا ويقيم أخرى .

يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ...

أى : هو لصفائه وبريقه ولمعانه ، كأنه يضىء بنفسه دون أن تمسه النار ، لأن الزيت إذا كان خالصا صافيا ثم رُئى من بعد ، يرى كأن له شعاعا ، فإذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوء .

كذلك قلب المؤمن يهتدى إلى الحق بفطرته ، ثم يأتيه العلم فيؤكد هدايته ويؤيدها .

قال يحيى بن سلام : قلب المؤمن، يعرف الحق قبل أن يبين له ، لموافقته إياه ، وهو المراد من قوله ﷺ : «اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله»[٢٤٦] .

نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ...

أى : هو نور مترادف متضاعف ، قد تناصرت فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت ، حتى لم يبق بقية مما يقوى النور .

قال القاسمى :

وليس معنى نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ... نور واحد فوق آخر مثله ، ولا مجموع نورين اثنين فقط ، بل هو عبارة عن نور متضاعف كتضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكره ، فإن المصباح إذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة ، كان أضوأ له وأجمع لنوره ، بخلاف المكان الواسع ، فإن الضوء ينبث فيه وينتشر ، والقنديل أعون شىء على زيادة الإنارة ، وكذلك الزيت وصفاؤه، وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها إشراقا ، مرتبة أخرى عادة .

يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ...

يلهم الله المؤمن طريق الرشاد والحق ، فيتبعه المؤمن بالعمل والجد ، ولزوم الطاعة والبعد عن المعصية .

قال الزمخشرى :

يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ . من عباده إلى إصابة الحق ، من نظر وتدبر بعين عقله ، والإنصاف من نفسه ، ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يمينًا وشمالاً ، ومن لم يتدبر فهو كالأعمى ، الذى سواء عليه جنح الليل الدامس ، وضحوة النهار الشامس[٢٤٧] .

ويقول المودودى :

يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ... أى : أن نور الله المطلق ، وإن كان ينور الكون كله ، ولكن لا يهتدى لإدراكه، والارتشاف من فيض نعمته إلا من يوفقه – سبحانه وتعالى – وإلا فكما أن الأعمى سواء عليه الليل

والنهار ، كذلك فإن الإنسان الأعمى بصيرة لا يدرك نور الله ، ولو كانت الكهرباء والشمس والقمر والنجوم له نورا ، كأنه ليس له في الكون إلا الظلمة لا غير[٢٤٨] .

وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ...

أى : ويسوق الله الأمثال للناس فى تضاعيف هدايتهم ، بحسب ما تدعو إليه حالهم ، لما فيها من الفوائد فى النصح والإرشاد إذ بها تتفتق الأذهان للوصول إلى الحق ، وبها تأنس النفس بتصويرها المعانى بصور المحسوسات التى تألفها وتدين بها .

قال القاسمى :

وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ... أى : ليدنو لهم المعقول من المحسوس توضيحا وبيانا ، ولذلك مثَّل نوره المعبر عنه بالقرآن ، بنور المشكاة[٢٤٩] .

وقال الشوكانى :

وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ... أى : يبين الأشياء بأشباهها ونظائرها تقريبا لها إلى الأفهام ، وتسهيلا لإدراكها لأن إبراز المعقول فى هيئة المحسوس ، وتصويره بصورته يزيده وضوحا وبيانا[٢٥٠] .

وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

فيعطى هدايته من يستحقها ، وفى هذا وعد وبشارة لمن تدبر الأمثال ووعاها ، ووعيد وإنذار لمن لم يتفكر فيها ولم يكترث بها ، فإنه لا يصل إلى الحق ولا يهتدى لطريقه .

قال ابن القيم :

وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية ، كما قال بعض السلف : القلوب آنية الله فى أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها ، والمصباح هو نور الإيمان فى قلبه ، والشجرة المباركة هى شجرة الوحى المتضمنة للهدى ودين الحق ، وهى مادة المصباح التى يتقد منها ، والنور على النور نور الفطرة الصحيحة ، والإدراك الصحيح ، ونور الوحى والكتاب ، فيضاف أحد النورين إلى الآخر ، فيزداد العبد نورا على نور ، ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه بالأثر ، بمثل ما وقع فى قلبه ونطق به ، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع ، والفطرة والوحى ، فيريه عقله وفطرته وذوقه ، أن الذى جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذى لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة ، بل يتصادقان ويتوافقان ، فهذا علامة النور على النور[٢٥١] .

★ ★ ★

عمارة المساجد

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

المفردات :

البيوت : المساجد .

أذن : أمر .

أن ترفع : أن تعظم وتطهر عن الأنجاس ، وعن اللغو من الأقوال .

يسبح : ينزه ويقدس .

الغدو : أول النهار .

الأصال : واحدها أصيل ، وهو العشى ، أى : آخر النهار .

تلهيهم : تشغلهم وتصرفهم .

تجارة : أى : قصد الربح المادى .

بيع : أى : فرد من أفراد البياعات ، والربح فى البيع ناجز بالفعل ، فهو أدخل فى الإلهاء .

إقام الصلاة : إقامتها لمواقيتها .

إيتاء الزكاة : إخراج المال للمستحقين .

يخافون يوما : أى : يوم القيامة

تتقلب : تضطرب وتتغير من الهول والفزع .

تمهيد :

بعد أن ذكر تعالى نوره لعباده وهدايته إياهم ، بيَّن هنا حال من حصلت لهم هذه الهداية .

التفسير :

٣٦ – فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ .

لقد بينت هذه الآية أن النور السابق ، يستقر فى بيوت طاهرة ، عامرة بذكر الله ، فيها رجال طهرت قلوبهم وحسنت أعمالهم ، أى : كمشكاة فى بيوت أمر الله بتطهيرها من الأنجاس الحسية والمعنوية ، وأمر بذكره فيها ، وإخلاص العبادة له .

واختار المفسرون أن المراد بالبيوت هنا : المساجد .

قال قتادة : هى هذه المساجد ، أمر الله – سبحانه وتعالى – ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطييبها وتبخيرها .

أخرج الشيخان ، عن عثمان بن عفان – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله ؛ بنى الله له مثله فى الجنة»[٢٥٢] .

وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت : أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد فى الدور وأن تنظف وتطيب[٢٥٣].

وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالبيوت فى الآية : المساجد ، أو بيوت المؤمنين ، حيث يذكرون ويتدارسون .

قال أبو الأعلى المودودى :

وقد اختلف المفسرون فى ما هو المراد بالبيوت فى هذه الآية . فقال بعضهم : إن المراد بها : المساجد، وإن المراد برفعها: بناؤها وعمارتها وتعظيمها وتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التى لا تليق به، وقال بعضهم : إن المراد برفعها : رفعها من الوجهة المعنوية والأخلاقية . وظاهر ألفاظ : وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ . وإن كانت تؤيد التفسير الأول أكثر مما تؤيد التفسير الثانى ، ولكن إذا تأملنا علمنا ، أن تأييدها للتفسير الثانى لا يقل عن تأييدها للتفسير الأول ، لأن شريعة الله لا تحد العبادة فى المساجد كما تحدها الديانات التى فيها الكهانة ، ولا يمكن أن تقام فيها طقوس العبادة بدون فرد من طبقة الكهنة والقسيسين . أما الإسلام ، فكل بيت فيه معبد كالمسجد ، وكل فرد من أفراد المسلمين قسيس لنفسه . فلما كانت معظم آيات هذه السورة تتعلق بتعليم المؤمنين ، وهدايتهم إلى رفع حياتهم الأسروية ؛ فإن التفسير الثانى أنسب وأليق بموضوع السورة عندنا من التفسير الأول ، غير أننا لا نجد سببا معقولا لعدم قبول التفسير الأول ، ولا ضير البتة إذا قلنا : إن المراد بالبيوت فى الآية : المساجد وبيوت المؤمنين معا .

يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ...

أى : ينزه الله تعالى ، ويقدسه فيها بالصلاة والعبادة .

بِٱلْغُدُوِّ . أى : صلاة الفجر ، وَٱلْآصَالِ : صلاة العصر ، وخصهما بالذكر لحضور الملائكة فى هذين الوقتين .

روى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر ، اقرأوا[٢٥٤] إن شئتم قول الله تعالى : وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا . (الإسراء : ٧٨) .

وذهب النسفى إلى أن المراد بالغداة : صلاة الفجر ، وبالآصال : صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وإنما وحد الغدو لأن صلاته واحدة ، وفى الآصال جمع أصيل وهو العشى[٢٥٥] .

هؤلاء الرجال لا تشغلهم تجارة فى السفر ، ولا بيع فى الحضر عن ذكر الله .

والتجارة والبيع لتحقيق الكسب والثراء ، ولكنهم مع شغلهم بهما لا يغفلون عن أداء حق الله فى الصلاة ، وأداء حق العباد فى الزكاة .

ولقد كان المؤمنون يسمعون الأذان ؛ فيتركون تجارتهم وبضاعتهم وبيعهم ويذهبون إلى المساجد لذكر الله ، فالمؤمن خليفة الله فى الأرض ، يضرب فيها بالتجارة والزراعة والصناعة والعمارة ، ولا تشغله الدنيا عن أداء حق الله والاستجابة لدعوته .

قال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ . (المنافقون : ٩) .

روى عمرو بن دينار أن ابن عمر – رضى الله عنهما – كان فى السوق فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلت : رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ...

وقال عمرو بن دينار الأعور : كنت مع سالم بن عبدالله ونحن نريد المسجد فمررنا بسوق المدينة ، وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا متاعهم ، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس فيها أحد ، فتلا سالم هذه الآية : رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ... ثم قال : هم هؤلاء .

وقال مقاتل بن حيان : لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة ، وأن يقيموها كما أمرهم الله ، وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها .

ونلحظ أنهم رجال متوازنون ، يشتغلون بالتجارة والبيع ، ويَخِفُّون إلى ذكر الله وإقام الصلاة ، ذكرهم لله ليس عبادة خاوية ، بل عبادة متكاملة ، لأنهم يُخرجون زكاة أموالهم ، ويتعاونون مع المؤمنين فى إقامة المجتمع الفاضل ، ومساعدة المحتاج ومد يد العون للآخرين .

٣٧ - رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ .

إنهم يؤدون الصلاة ، ويُخرجون الزكاة ، ويقومون بتعاليم الإسلام رغبة فيما عند الله ، وخوفا من عقاب يوم تضطرب فيه الأفئدة من الهول والفزع، وتشخص فيه القلوب والأبصار من الهلع والحيرة والرعب والخوف .

وقد عبرت آيات كثيرة عن أهوال يوم القيامة ، فى الحشر والبعث والحساب ، والميزان والصراط . قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ . (الحج :١ ، ٢)

ثم بيَّن مآل الرجال الصادقين وحسن عاقبتهم فقال :

٣٨ - لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

إنهم رجال أتقنوا أعمالهم ، وترفعوا عن الدنايا ولم تشغلهم الدنيا عن الآخرة ، فأدوا واجباتهم مرضاة لله ، وهنا تفيد الآية أن الجزاء من جنس العمل ، وأن الله يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم .

وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ...

فيضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويتفضل عليهم بالرضا والرضوان ، قال تعالى : لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... (يونس : ٢٦) .

وفى الحديث القدسى : «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»[٢٥٦] .

وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

أى : يثيب من يشاء ثوابا لا يدخل فى حساب الخلق ، فلا حدود لفضله ولا حساب لإحسانه، إنه واسع العطاء كريم متفضل، يعفو ويصفح ، ويقبل الحسنة ، ويكافئ عليها بعشر أمثالها ، ثم هو يضاعف لمن يشاء أضعافا مضاعفة ، بحسب نية المؤمن واجتهاده ، وإخلاصه ومرضاته لربه ، قال تعالى : رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ . (البينة : ٨) .

★ ★ ★

أعمال الكفار

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات :

السراب : ما يُرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة، يسرب ويجرى على وجه الأرض كأنه ماء .

القيعة : والقاع : المنبسط من الأرض .

الظمآن : شديد العطش .

لجى : أي : ذي لج (بالضم) ، واللج معظم الماء ، والمراد : بحر عميق الماء كثيره .

يغشاه : يغطيه .

لم يكد يراها : لم يقرب أن يراها ، فضلا عن أن يراها .

تمهيد :

بعد أن بيَّن الله أحوال المؤمنين ، وأنهم في الدنيا يكونون في نور الله ، وفي الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم ، والثواب العظيم . أردف ذلك ببيان حال الكفار ، فذكر أنهم في الآخرة يكونون في أشد الخسران والبوار ، وفي الدنيا في ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، وضرب لكلتا الحالين مثلا للتوضيح والبيان .

التفسير :

٣٩ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ...

قيل : نزلت هذه الآية في عتبة بن ربيعة بن أمية ، كان يترهب ملتمسا للدين في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام كفر به [٢٥٧] ، وكان بعض الكفار يعمل أعمالا نافعة ، كان بعضهم أئمة في الكفر يدعون الناس إليه ويحضونهم عليه ، ويرجون ثوابا عليه في الآخرة ، فبين الله لهم ضياع أعمالهم ، وبيَّن أنهم في الآخرة سيجدون عقاب الله أمامهم .

قال ابن القيم :

تشير الآية إلى أهل الجهل والظلم ، الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به الرسول ﷺ ، والظلم باتباع أهوائهم .

وهؤلاء يحسبون أنهم على علم وهدى ، وهم أهل الجهل والضلال ، يجهلون الحق ويعادون أهله ، وينصرون الباطل ويوالون أهله ، ويحسبون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون ، فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السراب .

و«السراب» ما يرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة ، يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري .

و«القيعة» و«القاع» هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا وادي .

شبه علوم الكفار وأعمالهم ، بسراب يراه المسافر في وقت شديد الحر ، فيؤمه ، فيخيب ظنه ويجده نارا تلظى . فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم ، إذا حُشر الناس واشتد بهم العطش ، بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء ، فإذا أتوه وجدوا الله عنده ، فأخذتهم زبانية العذاب .

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ . (الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤) .

وهم الذين عنى بقوله : ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ . (الفرقان : ٢٣) .

وهم الذين عنى بقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ . (البقرة : ١٦٧) .

وخلاصة الآية :

أن الخيبة والخسران في الآخرة لمن عملوا صالح الأعمال في الدنيا ، كصلة الأرحام وإغاثة الملهوفين، وقرى الأضياف ونحو ذلك ، وظنوا أنها تنجيهم من عذاب ربهم، وهم مع ذلك جاحدون بوحدانيته مكذبون لرسله ، فما مثلهم إلا مثل من اشتد عطشه ورأى السراب فخاله ماء ، وظن أنه قد وجد ضالته فسعى إليه ، حتى إذا جاءه لم يجد شيئا ورجع بخفي حنين .

وفي الصحيحين : أنه يقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عزير ابن الله ، فيقال : كذبتم ، ما اتخذ الله من ولد ، ماذا تبغون ؟ فيقولون : يارب ، عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا ، فينطلقون فيتهافتون فيها[٢٥٨] .

٤٠ – أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ...

أى : مثل أعمالهم التى عُملت على غير هدى ، مثل ظلمات مترادفة فى بحر عميق ماؤه ، بعيد غوره، يغطيه موج من فوقه موج من فوقه سحاب .

فالظلمات هى أعمال الكافرين ، والبحر اللجى قلوبهم التى غمرتها الحيرة والضلالة ، فلا تعقل ما فى الكون من آيات ، ولا تسمع عظة الناصحين ، ولا تبصر حجج الله ، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض .

قال الحسن : الكافر له ظلمات ثلاث : ظلمة الاعتقاد ، وظلمة القول ، وظلمة العمل .

وقال ابن عباس : هى ظلمة قلبه وبصره وسمعه .

والخلاصة : أن الكافر لشدة إصراره على كفره ، تراكمت عليه الضلالات ، حتى إن أظهر الدلالات إذا ذكرت عنده لا يفهمها ، فقلبه مظلم ، فى صدر مظلم ، فى جسد مظلم .

ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ...

ظلمة البحر اللجى ، وظلمة الذى فوقه ، وظلمة السحاب الذى فوق ذلك كله .

إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ...

أى : إذا أخرج يده – وهى أقرب ما يرى إليه – لم يقرب أن يراها ، فضلا عن أن يراها .

وقالت طائفة من النحاة : بل هذا دال على أنه إنما يراها بعد جهد شديد ، وفى ذلك إثبات رؤيتها ، بعد أعظم العسر لأجل تلك الظلمات[٢٥٩] .

وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ .

أى : ومن لم يرزقه الله إيمانا وهدى من الضلالة ، فما له هداية من أحد .

جاء فى ظلال القرآن :

والتعبير فى الآيتين يرسم لحال الكافرين مشهدين عجيبين حافلين بالحركة والحياة :

فى المشهد الأول : يرسم أعمالهم كسراب فى أرض مكشوفة مبسوطة ، يلتمع التماعا كاذبا فيتبعه صاحبه الظامئ ، وهو يتوقع الرى غافلا عما ينتظره هناك .. وفجأة يتحرك حركة عنيفة .. فهذا السائر وراء السراب ، الظامىء الذى يتوقع الشراب ، الغافل عما ينتظره هناك .. يصل فلا يجد ماء يرويه ، إنما يجد

المفاجأة المذهلة التى لم تخطر له ببال ، المرعبة التى تقطع الأوصال وتورث الخبال : وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ، الله الذى كفر به وجحده ، وخاصمه وعاداه ، وجده هنالك ينتظره ، ولو وجد فى هذه المفاجأة خصما له من بنى البشر لروّعه ، وهو ذاهل غافل على غير استعداد ، فكيف وهو يجد الله القوى المنتقم الجبار .

فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ... هكذا فى سرعة عاجلة تتناسق مع البغتة والمفاجأة ، وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ . تعقيب يتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع .

وفى المشهد الثانى: تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب ، ويتمثل الهول فى ظلمات البحر اللجى ، موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض ، حتى لتخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب والظلام .

إنه الكفر ، ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض فى الكون ، وضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى ، ومخافة لا أمن فيها ولا قرار .

وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ . ونور الله هدى فى القلب ، وتفتح فى البصيرة ، واتصال فى الفطرة بنواميس الله فى السماوات والأرض ، والتقاء بها على الله نور السماوات والأرض، فمن لم يتصل بهذا النور فهو فى ظلمة لا انكشاف لها، وفى مخالفة لا أمن فيها، وفى ضلال لا رجعة منه، ونهاية العمل سراب ضائع، يقود إلى الهلاك والعذاب، لأنه لا عمل بغير عقيدة، ولا صلاح بغير إيمان، إن هدى الله هو الهدى ، وإن نور الله هو النور[٢٦٠] .

ويقول أبو الأعلى المودودى :

والله تعالى قد ضرب ههنا مثلين للكفار والمنافقين :

ففى المثل الأول : بيَّن حال أولئك الذين قد يأتون بأعمال حسنة على كفرهم ونفاقهم ، ويقولون بالحياة الآخرة فى جملة معتقداتهم ، ويظنون أن مجرد أعمالهم الظاهرة – مع كونهم لا يؤمنون بصدق قلوبهم ، ولا يتصفون بصفات أهل الإيمان ، ولا يتبعون الرسول فى ما يأمرهم به أو ينهاهم عنه – سوف تنقذهم من عذاب الله تعالى يوم القيامة . فالله تعالي بضربه هذا المثل يبين لهؤلاء أن هذه الأعمال الظاهرة التى يرجون عليها النفع فى الآخرة ليست فى حقيقتها إلا كسراب فى الصحراء . فكما أن الظمآن يحسب السراب ماء فى الصحراء ويقصده ليشرب منه ، كذلك إن هؤلاء الكفار والمنافقين يقطعون مسافة الحياة الدنيا لينتهوا إلى حياتهم الآخرة ، لا يعتمدون فى ذلك إلا على أعمالهم الكاذبة ، ولكن كما أن الظمآن الذى يسرع إلى السراب فى الصحراء ليشرب منه ولا يجده شيئا عندما ينتهى إليه ، كذلك فإن هؤلاء الكفار

والمنافقين عندما يدخلون منزل الموت بعد حياتهم الدنيا ، لايجدون فيه عملا من أعمالهم ينقذهم من بطش الله تعالى وعذابه ، بل سوف يجدون الله تعالى ليوفيهم حسابهم ، ويجازيهم على كفرهم ونفاقهم وسيئاتهم التى كانوا يعملونها فى حياتهم الدنيا مختلطة ببعض الحسنات الظاهرة .

وفى المثال الثانى : وهو يبدأ من قوله : أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ ... يبين الله تعالى حال جميع الكفار والمنافقين، وفيهم من قد مرَّ ذكرهم فى المثال الأول . فالله تعالى يقول عن هؤلاء جميعا إنهم لايقضون حياتهم من بدئها إلى آخرها إلا فى حالة الجهل الكامل ، ولو كانوا حسب اعتبارات الدنيا كبار علمائها وأساتذتها الذين قد سبقوا سائر أهلها فى الفنون والعلوم والاختراع . ولكن مثلهم – حسب بيان القرآن – كمثل رجل يعيش فى مكان ليس فيه إلا الظلمة ، ولا ينفذ إليه من أى جوانبه شعاع واحد من النور . فيظن هؤلاء أن العلم إنما هو عبارة عن اختراع القنبلة الذرية أو قنبلة الهيدروجين أو الصاروخ الطائر إلى القمر ، وأن المهارة فى الاقتصاديات والماليات والقانون والفلسفة هى العلم .. ألا إن العلم الحقيقى هو شيء آخر ليسوا على أدنى إلمام بألفه وبائه ، فهم على الجهل المحض باعتبار هذا العلم ، حيث إن رجلا من البدو هو أعلم منهم إن كان سعيدا بمعرفة الحق .

وقوله تعالى : وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ . فيه يبين الله تعالى مقصوده الحقيقى الذى مهد له الكلام من قوله : ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... فلما لم يكن فى الكون كله نور غير نور الله تعالى فى حقيقة الواقع ، ولا تظهر فيه الحقائق إلا بنوره ، فهل يكون فى غير الظلمة التامة من كان لم يجعل الله له نورا من عنده ؟ إن هدى الله هو الهدى ، وإن نور الله هو النور[٢٦١] .

★ ★ ★

من دلائل الألوهية

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾

المفردات :

ألم تر أن الله يسبح له .. : الصلاة لبنى آدم ، والتسبيح صلاة غيرهم من الخلق ، ويجوز أن يكون التسبيح بلسان الحال ، بمعنى : أن جميع من فى الكون ينطق بقدرة الله الخالق المبدع لهذا الكون .

والطير صافات : فى الهواء تسبح ربها .

كل قد علم : كل من ذكر من الخلق قد علم .

صلاته وتسبيحه : الذى كلفه وألزمه ، أو كل قد علم الدور الذى يقوم به فى ناموس هذا الكون ، مما يدل على عظمة الإله ، فهو تسبيح بلسان الحال أو بلسان المقال ، وقيل : كل مصلٍّ ومسبح منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه .

يزجى سحابا : يسوق سحابا .

ثم يؤلف بينه : يجمع كل مفترقه .

ثم يجعله ركاما : متراكما بعضه على بعض .

فترى الودق يخرج من خلاله : الودق : المطر ، من خلاله : من خلال السحاب .

وينزل من السماء من جبال : فى السماء مخلوقة هناك .

من برد : هن من برد ، كما يقال : جبال من طين .

فيصيب : يعذب به ، ويجوز أن يكون المعنى : يغيث به ، ويرحم به .

ويصرفه عمن يشاء : رحمة بهم ، أو عقابا لهم .

يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار : يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار .

التفسير :

تشتمل هذه الآيات على ألوان من قدرة الله[٢٦٢] سبحانه وتعالى :

٤١ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ .

إن الكون جميعه خاضع لقدرة الله ، فالسماء عالية ، والأرض مبسوطة ، والجبال راسية ، والليل مظلم ، والنهار مضيء ، والشمس سراج ، والقمر نور ، والنجم زاهر ، والهواء والفضاء والسحاب والنبات والإنسان والحيوان ، كل ما خلقه الله ، له رسالة يؤديها فى هذا الكون ، ولسان حاله ينطق بقدرة الصانع سبحانه ، كل مخلوق له صلاة يؤديها ، وتسبيح يقوم به ، وكان النبى ﷺ يسمع تسبيح الحصى بين يديه، وكان داود – عليه السلام – يسمع تسبيح الجبال وترديدها لدعائه وصلاته ، أو كل قد علم الله صلاته وتسبيحه على اختلاف ألسنتهم وأدوارهم قد علم وسمع صلاتهم وتسبيحهم ، وهو العليم بكل ما كان وما يكون فى هذا الكون .

٤٢ - وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ .

بيد الله ملك السماء وما فيها ، وبيده ملك الأرض وما عليها ، وإليه المصير يوم القيامة حيث يرجع إليه الخلائق أجمعون ، **يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** . (المطففين : ٦) .

وينادى الرب – جل جلاله – : **لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ** . فيكون الجواب : **لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ** . (غافر : ١٦) .

٤٣ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ .

إن يد الله تزجى السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان ، ثم يؤلف بينه ويجمع بين متفرقه ، فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة ؛ فتشاهد المطر ينزل من خلال السحاب ، والسحب فى تراكمها فوق بعضها

أشبه بالجبال الضخمة الكثيفة فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة .. ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة ، وهى تعلو فوق السحب أو تسير بينها ، فإذا المشهد مشهد الجبال حقا ، بضخامتها ومساقطها ، وارتفاعها وانخفاضها ، وإنه لتعبير مصور للحقيقة التى لم يرها الإنسان إلا بعدما ركب الطائرات .

وهذه الجبال مسخرة بأمر الله ، وفق ناموسه الذى يحكم الكون ، ووفق هذا الناموس يصيب الله بالمطر من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء .. وتكملة المشهد الضخم : يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ . يضىء البرق بشدة وسرعة ، حتى ليكاد البرق أن يخطف الأبصار ، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة ، إذ فيه توليد الضد من الضد ، ففيه توليد النار من الماء .

٤٤ - يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ .

يتتابع الليل وراء النهار ، والنهار وراء الليل فى حركة مستمرة ، ويزيد الليل فى الشتاء وينقص فى الصيف ، ويختلف الليل والنهار وتتغير أحوالهما بالحرارة والبرودة ، والزيادة والنقصان .

وفى مظهر الشروق والغروب والضحى والظهيرة عبرة لأصحاب البصيرة ، إذ يتأملون فى مظاهر هذا الكون ، وتنفس الصباح ، وتشابك النجوم ، وتألق البدر ، فيتجدد إحساسهم مع التأمل والتفكر والتدبر فى بديع صنع الله .

٤٥ - وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

خلق الله كل حيوان يدب على الأرض من ماء مخصوص هو النطفة ، وفيه تنزيل للغالب منزلة الكل: لأن من الحيوانات ما لا يتولد من نطفة .

أو كل حيوان خلق من ماء هو جزء مادته ، وخص الماء بالذكر من بين ما يتركب منه من المواد ، لظهور احتياج الحيوان إليه ولاسيما بعد كمال تركيبه .

ثم فصل أقسام الحيوان مما يدب على وجه الأرض ، فقال :

فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِ ... كالحيات والسمك، وغيرهما من الزواحف .

وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ... كالإنسان والطير .

وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ... كالأنعام والوحوش .

يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ...

غير مقيد بشكل ولا هيئة ، فاختلاف هذه الحيوانات فى الأعضاء والقوى ، ومقادير الأبدان والأعمال والأخلاق ، لابد أن يكون بتدبير إله قادر عليم حكيم .

إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

فهو الخالق المبدع ، الذى قدر فهدى ، والذى خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى .

٤٦ - لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

لقد أبدع الله آيات الخلق وأحكم صنع هذا الكون ، وأنزل على عباده آيات القرآن واضحة ، تذكرهم ببديع صنع الله ، وتفتح قلوبهم وعقولهم على أسرار هذا الكون وجميع مشاهده ، فمن تأمل فى هذا الخلق، أيقن أن وراء الصنعة البديعة ، صانعًا قادرًا هو رب العالمين .

★ ★ ★

مرض ونفاق

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

المفردات :

يتولى : يعرض .

مذعنين : منقادين .

مرض : أي : فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال .

ارتابوا : شكوا في نبوتك .

يحيف : يجور .

الظالمون : الذين يريدون ظلم الناس وجحد حقوقهم .

ويخش الله : أي : فيما صدر منه من الذنوب في الماضي .

ويتقه : أي : فيما بقي من عمره .

جهد أيمانهم : أي : أقصى غايتها ، من قولهم : جهد نفسه ، إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها .

تولوا : أي : تتولوا ، بحذف إحدى التاءين .

تمهيد :

بعد أن ذكر – سبحانه – الأدلة الواضحة على توحيده وأتمّ بيانها ، ثم ذكر أنه يهدى بها من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم ، أعقبه بذكر من لم يهتد بها، وهم المنافقون الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، فيقولون : آمنا بالله وبالرسول، ثم يفعلون ضد ما يقولون ، فإذا دعوا ليحكم بينهم الرسول فيما يتنازعون فيه أبوا ، وخافوا أن يحيف عليهم ، والمؤمن الصادق الإيمان إذا ما دعى إلى الله والرسول؛ قال : سمعا وطاعة ، ثم بين بعض أكاذيبهم التى يراءون بها ويدعون الإخلاص فيها . فمنها أنهم يحلفون أغلظ الأيمان أنهم مطيعون للرسول فى كل ما يأمرهم به، حتى لو أمرهم بالخروج والجهاد لبوا الأمر سراعا، ثم أمر الرسول بنهيهم عن الحلف والأيمان ، لأن طاعتهم معروفة لا تحتاج إلى يمين ، وبأن يقول لهم : أطيعوا الله حقا لا رياء ، فإن أبيتم فإنما علىّ التبليغ وعليكم السمع والطاعة ، فإن أطعتمونى اهتديتم ، وإن توليتم فقد فعلت ما كلفت به ، وعلى الله الحساب والجزاء .

قال مقاتل : نزلت هذه الآية فى بشر المنافق، دعاه يهودى فى خصومة بينهما إلى رسول الله ﷺ، ودعا هو اليهودى إلى كعب بن الأشرف، ثم تحاكما إلى رسول الله ﷺ فحكم لليهودى: فلم يرض المنافق بقضائه ﷺ ، فقال : نتحاكم إلى عمر – رضى الله عنه – فلما ذهبا إليه ، قال له اليهودى : قضى لى النبى ﷺ فلم يرض بقضائه . فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ قال : بلى. فقال : مكانكما حتى أخرج إليكما ، فدخل – رضى الله عنه – بيته ، وخرج بسيفه فضرب به عنق المنافق حتى برد . وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله ﷺ .

التفسير :

٤٧ – ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أى : ويقول هؤلاء المنافقون ، صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا الرسول ، ثم يخالفون ذلك فيعرضون عن طاعة الله ورسوله ضلالا منهم عن الحق ، وما أولئك بالمؤمنين المخلصين الثابتين على الإيمان ، بل هم ممن فى قلوبهم مرض وقد مرنوا على النفاق ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

وخلاصة ذلك : لا يدخل فى زمرة المؤمنين من يقول : آمنا بالله والرسول وأطعنا ، ثم يعرض عما تقتضيه الطاعة ، وينحاز إلى غير المؤمنين .

ثم بيَّن هذا التولى بقوله :

٤٨ – ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ .

أى : وإذا دعى هؤلاء المنافقون إلى كتاب الله ورسوله ليحكم بينهم فيما اختصموا فيه بحكم الله ؛ أعرضوا عن قبول الحق ، واستكبروا عن اتباع حكمه ؛ لأنه لا يحكم إلا بالحق .

ونحو الآية قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا . (النساء : ٦٠ – ٦١) .

٤٩ – وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ .

أى : وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا إلى الرسول مطيعين ، لعلمهم بأنه يحكم لهم ، لأنه لايحكم إلا بالحق ، فإذعانهم لم يكن عن اعتقاد بأن حكمه الحق ، بل لأنه وافق هواهم ، ومن جراء هذا لما خالف الحق قصدهم عدلوا عنه إلى غيره .

ثم فصل ما يحتمل أن يكون السبب فى عدولهم عن قبول حكمه ﷺ .

٥٠ – أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ...

أى : أسبب إعراضهم عن المحاكمة إليه ﷺ أنهم مرضى القلوب بالكفر والنفاق ، أم سببه أنهم ارتابوا وشكوا فى ثبوته ﷺ على ظهور أمرها ؟ أم سببه أنهم يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم فى الحكم ؟

وخلاصة ذلك : لا يخرج أمرهم عن أن يكون فى القلوب مرض لازم بالكفر والنفاق ، أو عروض شك فى الدين ، أو خوف من أن يجور الله ورسوله عليهم ، وأيا كان الأمر فهو كفر وضلال ، والله عليم بما انطوت عليه قلوبهم من المرض .

ثم أبطل السببين الأولين وأثبت الثالث فقال :

بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ .

أى : ليس العدول إلا للسبب الأول فحسب ، فهم ما عدلوا إلا لما فى قلوبهم من المرض والنفاق ، وظلمهم لأنفسهم بمخالفة أمر ربهم ومعصيتهم له فيما أمرهم به من الرضا بحكم رسوله ﷺ فيما أحبوا وكرهوا ، والتسليم لقضائه .

وبعد أن نفى عنهم الإيمان الحق ، بيَّن صفات المؤمن الكامل ، فقال :

٥١ – إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

أى : ينبغى أن يكون قول المؤمنين إذا دعاهم الداعون إلى حكم الله ورسوله فيما بينهم وبين خصومهم : سمعنا كلامكم وأطعنا أمركم ، وأولئك هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مخوف .

وبعد أن رتب الفلاح على هذا النوع من الطاعة أتبعه ببيان أن كل طاعة لله ورسوله موجبة للفوز فقال:

٥٢ – وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ .

أى : ومن يطع الله ورسوله فيما أمراه به ، وترك ما نهياه عنه ، ويخش الله فيما صدر منه من الذنوب فيحمله ذلك على الطاعة وترك المعاصى ، ويتقه فى مستأنف أموره ، فأولئك الذين وصفوا بكل هذا هم الفائزون برضاه عنهم يوم القيامة ، والآمنون من عذابه .

ثم حكى سبحانه نوعا آخر من أكاذيب المنافقين بقوله :

٥٣– وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ...

أى : وحلفوا بالله جاهدين أيمانهم بالغين غايتها ، لئن أمرتهم بالخروج للجهاد والغزو : ليلبُن الطلب وليخرجُن كما أمرت .

والخلاصة : أنهم أغلظوا الأيمان وشددوها فى أن يكونوا طوع أمرك ورهن إشارتك، وقالوا : أينما تكن نكن معك ، فإن أقمت أقمنا ، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا . فرد الله عليهم وزجرهم عن التفوه بهذه الأيمان الفاجرة ، وأمره أن يقول لهم :

قُل لَّا تُقْسِمُواْ ...

أى : قل لهم : لا تحلفوا ، فإن العلم بما أنتم عليه لا يحتاج إلى قسم ويمين لوضوح كذبه . ثم علل النهى عن الحلف بقوله :

طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ...

أى : لا تقسموا لأن طاعتكم معروفة لنا ، فهى طاعة باللسان فحسب ، من غير مواطأة القلب لها ، ولا يجهلها أحد من الناس .

ونحو الآية قوله : يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ . (التوبة : ٩٦) .

وقوله : ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . (المجادلة : ١٦) .

ثم هددهم وتوعدهم على أيمانهم الكاذبة ، وأنه مجازيهم على أعمالهم السيئة ، ولاسيما ذلك النفاق المفضوح ، فقال :

إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ .

أى : أنه تعالى لا تخفى عليه خافية من ظاهر أعمالكم وخافيها ، فيعلم ما تظهرونه من الطاعة المؤكدة بالأيمان الكاذبة ، وما تبطنونه من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين ، ونحو ذلك من أفانين الشر والفساد التى دبرتموها .

ولما نبه سبحانه إلى خداعهم ، وأشار إلى عدم الاغترار بأيمانهم ؛ أمر بترغيبهم مشيرا إلى الإعراض من عقوبتهم بقوله :

٥٤ - قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ...

أى : مرهم باتباع كتاب الله وسنة رسوله ، وفى هذا إيماء إلى أن ما أظهروه من الطاعة ليسوا منها فى شىء .

ثم أكد الأمر السابق ، وبالغ فى إيجاب الامتثال به ، والحمل عليه بالترغيب والترهيب بقوله :

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ...

أى : فإن تتولوا عن الطاعة بعد أن أمركم الرسول بها ، فما ضررتم الرسول بشىء ، بل ضررتم أنفسكم ، لأنه عليه ما أمر به من تبليغ الرسالة وقد فعل ، وعليكم ما أمرتم به من الطاعة ، فإن أنتم لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه ، وإن أطعتموه فقد خرجتم من الضلال إلى الهدى ، فالنفع والضرر عائدان إليكم .

وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ .

أى : وإن تطيعوا الرسول فيما أمركم به ونهاكم عنه ؛ تهتدوا إلى الحق الموصل إلى كل خير ، المنجى من كل شر ، وما الرسول إلا ناصح وهاد ومبلغ لكم ، فإن أطعتموه لحظوظ أنفسكم أصبتم طريق الصواب ، وإن خالفتموه أوقعتم أنفسكم فى الهلكة .

والخلاصة : أن الرسول فعل ما يجب عليه من أداء الرسالة ، وقد بقى ما يجب عليكم أن تفعلوه .

ونحو الآية قوله : فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ . (الرعد : ٤٠) . وقوله : فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية : ٢١ ، ٢٢) .

★ ★ ★

استخلاف المؤمنين

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

تمهيد :

بعد أن بين الله تعالى أن من أطاع الرسول فقد اهتدى إلى الحق ، ومن اهتدى إلى الحق فجزاؤه دار النعيم ، أردف ذلك وعده الكريم بأنه سيجعل المؤمنين المطيعين لله ورسوله خلفاء فى الأرض ، ويؤيدهم بالنصرة والإعزاز ، ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمنا ، فيعبدون الله وحده وهم آمنون ، ومن جحد هذه النعم من بعد ذلك فقد عصى ربه ، وكفر أنعمه .

روى الطبرانى، والحاكم، وابن مردويه، عن أُبى بن كعب قال : لما قدم رسول الله ﷺ وصحبه المدينة وآوتهم الأنصار ؛ رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فكانوا لا يبيتون إلا فى السلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا : ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ فنزلت الآية .

التفسير :

٥٥ - وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... الآية.

أى : وعد الله المؤمنين منكم المصلحين لأعمالهم ، ليورثنهم أرض المشركين من العرب والعجم، وليجعلنهم ملوكها وساستها ، كما استخلف بنى إسرائيل بالشام حين أهلك الجبابرة وجعلهم ملوكها وسكانها .

وقد وفّى سبحانه بوعده ، فإنه لم يمت ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب، وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم ، والمقوقس فى مصر ، والنجاشى ملك الحبشة .

ولما قبض ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، قام بالأمر من بعده الخلفاء الراشدون ، فنهجوا منهجه ، وافتتحوا كثيرا من المشرق والمغرب، ومزقوا ملك الأكاسرة ، وملكوا خزائنهم ، واستعبدوا أبناء القياصرة ، وصدق قول رسوله : «إن الله زوى لى الأرض ؛ فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها»[٢٦٣] .

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ...

أى : وليجعلن دين الإسلام راسخا قويا ثابت القدم ، ويعظم أهله فى نفوس أعدائه الذين يواصلون الليل بالنهار فى التدبير لإطفاء أنواره ، لتعفو آثاره .

وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ...

أى : وليغيرن حالهم من الخوف إلى الأمن ، قال الربيع بن أنس : كان النبى ﷺ وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين ، يدعون إلى الله وحده ، وإلى عبادته وحده لا شريك له ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بعد بالهجرة إلى المدينة فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين ، يُمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح ، فصبروا على ذلك ما شاء الله ، ثم إن رجلا من الصحابة قال : يا رسول الله، أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : «لن تصبروا إلا يسيرا ، حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس فيه حديدة» . فأنزل الله : وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ... إلى آخر الآية .

ونحو الآية قوله تعالى : وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (الأنفال : ٢٦) .

ثم أتبع ذلك بتعليل التمكين وما بعده بقوله :

يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ...

أى : يعبدوننى غير خائفين أحدا غيرى .

وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ .

أى : ومن جحد هذه النعم فأولئك هم الذين أنكروا فضل المنعم بها ، وتناسوا جليل خطرها .

رأى المودودى فى استخلاف المؤمنين الصالحين :

يقول الأستاذ المودودى : هذا وعد من الله تعالى للمسلمين بأنه سيجعلهم خلفاء الأرض ، أى : أئمة الناس وقادتهم . والمقصود من هذه الآية : تنبيه المنافقين إلى أن هذا الوعد الذى قد قطعه الله – تبارك وتعالى – للمسلمين ، ليس الخطاب فيه لكل من ينتمى إلى الإسلام ولو اسما ، بل إنما هو للمسلمين الذين هم صادقون فى إيمانهم ، وصالحون باعتبار أخلاقهم وأعمالهم ، ومتبعون لدين الله الذى قد ارتضاه

وملتزمون لعبادته وعبوديته وحده وغير مشركين به شيئا ، وأما الذين ليسوا على تلك الصفات وإنما يدعون الإيمان بألسنتهم : فلا يستأهلون هذا الوعد لأنه لم يقطع لهم ، فلا يرجون أن ينالوا نصيبا منه .

قد رأينا بعض المغرضين من الناس يجعلون «الخلافة» بمعنى مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم والتمكن ، ثم يستنتجون من هذه الآية أن كل من حصل له العلو والغلبة فى الأرض ، فهو مؤمن صالح متبع لدين الله المرتضى ، قائم بعبوديته مجتنب للشرك به ، بل هم – فوق ذلك – يبدلون مفهوم كل كلمة من كلمات الإيمان والصلاح والدين والعبادة والشرك ، حتى يجعلوها متفقة مع أهوائهم ونظريتهم الزائفة هذه . فهذا أشنع تحريف معنوى للقرآن ، قد فاق تحريف اليهود والنصارى لكتبهم ، وبين لآية الاستخلاف هذه معنى يريد أن يمسخ تعليم القرآن كله ولا يترك شيئا من الإسلام فى مقامه ، فإنه لابد بعد هذا التحريف للخلافة أن تنطبق هذه الآية على كل من لهم العلو والغلبة فى الأرض اليوم ، أو كانت لهم فى الزمن الماضى ، ولو كانوا جاحدين بالله والرسالة والوحى واليوم الآخر ، منغمسين فى أدناس الفسق والفجور التى قد عدها القرآن من الكبائر ، كأكل الربا وارتكاب الزنا وشرب الخمر ولعب الميسر وما إليها . فإن كان أمثال هؤلاء من المؤمنين الصالحين ، ولأجل إيمانهم وصلاحهم نالوا العلو والغلبة فى الأرض ، فأى معنى يمكن أن يكون للإيمان غير الإذعان لقوانين الطبيعة ، وللصلاح غير العمل وفق هذه القوانين ؟ وماذا يمكن أن يكون دين الله المرتضى غير بلوغ الكمال فى العلوم الطبيعية وترقية الصناعة والتجارة والسياسة القومية ؟ وهل يمكن بعد التسليم بنظريتهم الزائفة أن تكون عبادة الله غير التزام القواعد والضوابط التى تساعد على بلوغ النجاح فى السعى الفردى والاجتماعى فطرة ؟ وهل يبقى الشرك إذن عبارة عن شىء غير مزج هذه القواعد والضوابط المفيدة بالطرق المضرة ؟ ولكن هل لأحد قد قرأ القرآن مرة بقلب مفتوح وعينين مبصرتين أن يقول بأن هذه هى المعانى لكلمات الإيمان والعمل الصالح ودين الحق والعبادة والتوحيد والشرك المذكورة فى القرآن ؟ الحقيقة أنه لا يكاد يقول بهذه المعانى إلا رجل لم يكن قد قرأ القرآن ولا مرة واحدة من بدئه إلى آخره مع فهم معانيه ، وإدراك مقاصده ، وإنما أخذ آية من هنا وأخرى من هناك فحرفها وفقا لأهوائه ونظرياته وأفكاره ، أو رجل مازال عند قراءته للقرآن يبطل ويخطئ بزعمه جميع الآيات التى فيها دعوة الناس إلى الإيمان بالله ربا واحدا ، وإلها لا شريك له ، وبوحيه الذى أنزل على رسوله وسيلة وحيدة لمعرفة الهداية ، وبكل نبى أرسله إلى الدنيا قائدا يجب على الناس أن يطيعوه ، أو فيها الأمر للناس باعتقاد حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، بل قيل لهم فيها أن لا فلاح للذين يريدون الحياة الدنيا فقط وهم عن الآخرة غافلون .

وهذه الموضوعات قد أبدئ فى ذكرها وأعيد فى القرآن بكثرة وبطرق مختلفة وبألفاظ واضحة صريحة ، حيث يتعسر علينا تصديق أن يقرأ أحد القرآن بإخلاص وأمانة ثم يقع فى مثل الأخطاء والأغلوطات التى قد وقع فيها هؤلاء المفسرون الجدد لآية الاستخلاف ، فالحقيقة أن المعنى الذى بينوه

لكلمتى الخلافة والاستخلاف وعلى أساسه قد رفعوا بناءهم ، إنما اختلقوه من عند أنفسهم ، ولا يكاد يقول به أحد يعرف القرآن .

إن القرآن يستعمل كلمة الخلافة بثلاثة معان مختلفة ، وفى كل موضع من مواضع استعماله لهذه الكلمة تعرف بسياقها ، فى أى معنى من هذه المعانى الثلاثة قد استعملها . فمعناها الأول : «حمل أمانة السلطة والصلاحيات» ، وبهذا المعنى أن ذرية آدم كلها خليفة الله فى الأرض . ومعناها الثانى : «ممارسة صلاحيات الخلافة تحت أمر الله التشريعى ، لا تحت أمره التكوينى فقط ، مع التسليم بحاكميته العليا»، وبهذا المعنى إنما المؤمن الصالح هو الخليفة فى الأرض ، لأنه هو الذى يؤدى حق الخلافة على وجهه الصحيح ، وعلى العكس منه ليس الكافر والفاسق بخليفة لله ، بل هو خارج عليه ، لأنه يتصرف فى ملكه على طريق معصيته . ومعناها الثالث : «قيام أمة جديدة مقام أمة غالبة فى عصر من العصور بعد انقراضها» . المعنيان الأولان مأخوذان من الخلافة بمعنى النيابة ، والمعنى الثالث مأخوذ من الخلافة بمعنى البقاء والقيام مقام الغير ، وهذان المعنيان لكلمة الخلافة معروفان فى لغة العرب . فمن قرأ الآن آية الاستخلاف بهذا السياق فإنه لا يكاد يشك لطرفة عين فى أن كلمة الخلافة قد استعملت فى هذا المقام بمعنى الحكومة القائمة بحق نيابة الله تعالى وفق أمره الشرعى ، ولأجل ذلك يأبى الله تعالى أن يشمل المنافقين المدعين بإسلامهم فى وعده الذي يقطعه للمسلمين فى هذه الآية ، فضلا عن أن يشمل فيه الكفار، ولأجل ذلك يقول إنه لا يستحق هذا الوعد إلا المتصفون بصفات الإيمان والعمل الصالح ، ولأجل ذلك يذكر – سبحانه وتعالى – من ثمرات قيام الخلافة فى الأرض أن يقوم دينه الذى ارتضى – أى : الإسلام – على الأسس القوية ، ولأجل ذلك ذكر هذه النعمة مشترطة بأن يبقى المسلمون قائمين بحق عبادته : **يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** . أما توسيع هذا الوعد إلى النطاق الدولى ، والتقرب به إلى كل من كان له العلو والكلمة النافذة فى العالم – أمريكا أو روسيا أو غيرهما – فإن هو إلا طغيان فى الغى ، وتمادٍ فى الجهل والضلال ولا غير .

وأمر آخر يجدر بالذكر فى هذا المقام ، هو أن هذا الوعد ، وإن كان شاملا للمسلمين فى جميع الأزمان، ولكن الخطاب المباشر فيه لأولئك المسلمين الذين كانوا فى عهد الرسول ﷺ ، وحقا إن المسلمين كانوا فى حالة شديدة من الخوف أيام نزول هذا الوعد ، حتى كانوا لا يضعون سلاحهم ، وما كان دين الإسلام قد تمكن لهم حتى ولا فى أرض الحجاز ، ولكن هذه الحالة ما تبدلت فى عدة سنوات بحالة الأمن والرفاهية والطمأنينة فحسب ، بل تجاوز فيها الإسلام حدود جزيرة العرب وانتشر فى أكبر جزء من أفريقية وآسيا ، ولم ترسخ جذوره فى منبت أرومته فقط بل وفى أكثر أقطار الأرض . فهذا شاهد تاريخى بأن الله تعالى قد أنجز وعده فى أبى بكر وعمر وعثمان – رضى الله عنهم – ولا يكاد يشك بعد ذلك رجل يقيم أدنى وزن للإنصاف فى أن خلافة أبى بكر وعمر وعثمان حق قد صادق عليه القرآن نفسه ، وأن الله تعالى نفسه يشهد

بكونهم مؤمنين صالحين . بيد أن من كان فى ريب من ذلك ، فعليه أن يراجع كتاب نهج البلاغة ويقرأ فيه الكلام الآتى لسيدنا على بن أبى طالب – رضى الله عنه – لما استشاره عمر فى غزو الفرس بنفسه :

إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ، وهو دين الله الذى أظهره ، وجنده الذى أعده وأمده حتى بلغ وطلع حيثما طلع ، ونحن على موعود من الله تعالى حيث قال – عز اسمه – : وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ... والله منجز وعده وناصر جنده . ومكان القيم بالأمر[٢٦٤] مكان النظام من الخرز : يجمعه ويضمه ، فإذا انقطع النظام ، تفرق الخرز وذهب ، ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا . والعرب اليوم ، وإن كانوا قليلين ، فهم كثيرون بالإسلام ، عزيزون بالاجتماع ، فكن قطبا واستدر الرحى بالعرب وأصلهم دونك نار الحرب . فإنك إن شخصت[٢٦٥] من هذه الأرض انقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك .

إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولوا : هذا أصل العرب ، فإذا قطعتموه استرحتم ، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك[٢٦٦] وطمعهم فيك . فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين فإن الله – سبحانه – هو أكره لمسيرهم وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما ما ذكرت من عددهم ، فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة[٢٦٧] .

ولكل من يقرأ هذا الكلام أن يرى : من الذى يجعله سيدنا على بن أبى طالب – رضى الله عنه – مصداقا لآية الاستخلاف ؟

وأما قوله تعالى بعد ذكر هذا الوعد : وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ . فالمراد بالكفر فيه: إما الكفران بنعمة الله ، أو الإنكار لما أنزل من الحق .

فباعتبار المعنى الأول : يصدق هذا القول على الذين يعدلون عن الطريق الحق ، بعد نيلهم نعمة الخلافة ، وباعتبار المعنى الثانى : يصدق على المنافقين الذين يصرون على نفاقهم حتى بعد علمهم بهذا الوعد من الله تعالى[٢٦٨] .

★ ★ ★

الصلاة والزكاة

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) ﴾

المفردات :

معجزين فى الأرض : أى : جاعلين الله عاجزا عن إدراكهم وإهلاكهم ، وإن هربوا فى الأرض جميعها .

تمهيد :

بعد أن بشر الله المؤمنين بالتمكين فى الأرض ، أردف ذلك أمرهم بإقامة الصلاة ، فهى دليل الفلاح وسبيل النجاح وصلة بين المخلوق والخالق . وأمرهم بإيتاء الزكاة رحمة وصدقة ، وصلة بين الغنى والفقير ، وكل ذلك من شأنه أن يعود عليهم بالفلاح والرشاد وعز الدنيا وسعادة الآخرة .

التفسير :

٥٦ – وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

أقيموا الصلاة فى أوقاتها ، وبالمحافظة على ركوعها وسجودها وخشوعها . قال ﷺ : «إن الله فرض خمس صلوات فى اليوم والليلة ، من حافظ عليهن فى أوقاتهن وخشوعهن كان له على الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له على الله عهد ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له» .[٢٦٩] .

٥٧ – لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ... الآية .

أى : أيها الرسول ، لا تظنن الكافرين يجدون مهربا فى الأرض إذا أردنا إهلاكهم ، بل نحن قادرون على أخذهم والبطش بهم متى أردنا ذلك .

وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ . ومآلهم جهنم يوم القيامة .

وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

أى : بئس المآل مآل الكافرين ، وبئس المهاد .

وتلك طبيعة القرآن ، فهو يتخول السامعين بالنصيحة ، ويراوح بين الأوامر والنواهى ، بالدعوة إلى طاعة الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وبتهديد الكافرين ، وبشارة المؤمنين ، ويتضمن ذلك دعوة للمؤمنين بأن أقيموا منهج الله ، وحققوا أوامره ، ولا عليكم بعد ذلك من كثرة أعدائكم .

«فما هم بمعجزين فى الأرض ، وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم فى طريق ، أنتم أقوياء بإيمانكم ، أقوياء بنظامكم ، أقوياء بعدتكم التى تستطيعون ، وقد لا تكونون فى مثل عدتهم من الناحية المادية ، ولكن القلوب المؤمنة التى تجاهد تصنع الخوارق والأعاجيب .

إن الإسلام حقيقة ضخمة لابد أن يتملاها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد الله فى تلك الآيات ، ولابد أن يبحث عن مصداقها فى تاريخ الحياة البشرية . وهو يدرك شروطها على حقيقتها ، قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب أو يستبطئ وقوعها فى حالة من الحالات .

إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج الله، وحكمت هذا النهج فى الحياة، وارتضته فى كل أمورها.. إلا تحقق وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن ، وما من مرة خالفت عن هذا النهج إلا تخلفت فى ذيل القافلة، وذلت، وطرد أبناؤها من الهيمنة على البشرية، واستبد بها الخوف، وتخطفها الأعداء، ألا وإن وعد الله قائم ، ألا وإن شرط الله معروف ، فمن شاء الوعد فليقم بالشرط ، ومن أوفى بعهده من الله»[٢٧٠].

★ ★ ★

آداب البيوت

هذه السورة نور يضىء للمؤمنين طريق الحياة ، وأدب رفيع مع النفس ومع الآخرين ، ونظام إلهى عادل فى الاستئذان وغض البصر ، وحفظ الفروج وستر العورات ، ونظام التعامل بين أفراد الأسرة وبين الأقارب والأصدقاء .

وإذا أردنا أن نتمعن فى معنى هذه الآيات بالتفصيل ، فمن الخير أن نأخذ كل آية على حدة ، لنتبين أحكامها وآدابها .

والله ولى التوفيق .

آداب الاستئذان

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) ﴾

المفردات :

ملكت أيمانكم : يشمل العبيد والإماء ، أى : الذكران والإناث .

الحلم : بسكون اللام وضمها ، أى : وقت البلوغ ، إما بالاحتلام ، وإما ببلوغ الخامسة عشرة ، من حلم بفتح اللام .

تضعون : تخلعون .

الظهيرة : وقت اشتداد الحر حين منتصف النهار .

عورات : أى : الأوقات التى يختل فيها تستركم ، من قولهم : أعور الفارس ، إذا اختلت حاله .

جناح : إثم وذنب .

طوافون عليكم : يطوفون عليكم للخدمة والمخالطة الضرورية .

ترتيب الآيات :

بيّن الله فى آيات سابقة آداب دخول البيوت ، وأوجب الاستئذان والتسليم على أهلها ، وبيّن أن فى ذلك الخير كل الخير للجميع ، فإن لم يجد الزائر أحدا رجع ، لما فى ذلك من صيانة الآداب العامة ، ومنع القيل والقال ، وحفظ الأعراض والأنساب .

ثم استثنى فى هذه الآيات دخول الأقارب بعضهم على بعض ، ودخول المملوكين على سادتهم ، وبيّن أن الاستئذان لا يكون فى جميع الأوقات ، بل فى ثلاثة أوقات هى عورات لأرباب البيوت ، لما فيها من رفع الكلفة وقلة التحفظ فى الستر .

التفسير :

٥٨ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ...

أى : لا يدخل عليكم - أيها المؤمنون - فى بيوتكم ، عبيدكم وإماؤكم ثلاث مرات فى ثلاثة أوقات من ساعات ليلكم ونهاركم إلا بإذن : قبل صلاة الفجر ، لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ، وكل ذلك مظنة انكشاف العورة ، وحين تخلعون ثيابكم التى تلبسونها وقت الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء لأنه وقت خلع ثياب اليقظة ولبس ثياب النوم .

وخص هذه الأوقات الثلاثة ، لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب ، وربما كان الرجل مع زوجته فى لحاف واحد ، كما ورد ذلك فى سبب النزول .

ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ...

أى : هذه الأوقات الثلاثة ، ثلاث عورات لكم ، يختل فيها التستر عادة ، ويكون النوم فيها مع الأهل غالبا ، فالهجوم فيها على أهل البيت ، مما تأباه النفوس وتكرهه أشد الكراهة .

والعورة فى اللغة : الخلل فى ثغر البلاد وغيره ، مما يخشى هجوم الأعداء منه ، وفى القرآن : يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . (الأحزاب : ١٣) .

والعورة كل شى يستره الإنسان من أعضاء جسده ويستحى من انكشافه ، وقد تطلق أيضا على كل شيء غير محفوظ ، وهذه المعانى متقاربة ويشملها مفهوم الآية إلى حد كبير .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ...

أى : إن للأطفال الصغار وخدام البيت من الرقيق ، أن يدخلوا عليكم فى حجراتكم أو أماكن خلوتكم ، بدون استئذان فى غير هذه الأوقات ، وإن احتمل فيها الإخلال بالتستر لندرته .

طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ...

أى : إن هذا هو السبب فى إذن الله تعالى للخدم والأطفال فى الدخول عليكم بدون استئذان ، فى غير أوقات الخلوة الثلاثة ، وذلك لأنهم طوافون عليكم فيعسر عليهم الاستئذان فى كل مرة .

بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... أى : بعضكم طائف على بعض طوافا كثيرًا ، أو بعضكم يطوف على بعض .

قال الزمخشرى :

يعنى إن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة ، يطوفون عليكم للخدمة ، وتطوفون عليهم للاستخدام ، فلو جزم الأمر بالاستئذان فى كل وقت لأدى إلى الحرج .

وهذا ما يؤيد قاعدة مهمة من قواعد الفقه الإسلامى ، هى أن أحكام الشرع مبنية على المصلحة ، وأن لكل حكم من أحكامه علة سواء أكان الشارع قد بينها أم لم يبينها .

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

أى : ومثل هذا التبيين لتلك الأحكام يبين لكم شرائع دينكم وأحكامه ، والله عليم بما يصلح أحوال عباده ، حكيم فى تدبير أمورهم ؛ فيشرع لهم ما يصلح أحوالهم فى المعاش والمعاد .

فى أعقاب الآية :

١ – كان العمل بهذه الآية واجبا ، إذ كانت البيوت لا أبواب لها ولا أقفال ، ولو عاد الحال لعاد الوجوب ، حكاه المهدوى عن ابن عباس[٢٧١] .

٢ – روى سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ... الآية، وقوله تعالى: وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً. (النساء: ٨).

وقوله تعالى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَـٰكُمْ ... (الحجرات: ١٣).

٣ – روى عكرمة: أن نفرا من أهل العراق قالوا: يا بن عباس، كيف ترى فى هذه الآية التى أمرنا فيها بما أمرنا ولا يعمل بها أحد. قول الله – عز وجل –: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّ ٰتٍ ... قال ابن عباس: إن الله حليم رحيم بالمؤمنين، يحب الستر، وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجال[٢٧٢]، فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيمة الرجل، والرجل على أهله؛ فأمرهم الله بالاستئذان فى تلك العورات، فجاءهم الله بالستور والخير، فلم أر أحدا يعمل بذلك بعد[٢٧٣].

وقد عقب القرطبى على هذا الحديث بقوله: هذا متن حسن، وفيه رد على قول سعيد بن المسيب، وابن جبير بأنها منسوخة، فإنه ليس فيه دليل على نسخ الآية. ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت، فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان، بل حكمها لليوم ثابت فى كثير من مساكن المسلمين فى البوادى والصحارى ونحوها[٢٧٤].

٤ – قال فخر الدين الرازى:

الآية دالة على أن الواجب اعتبار العلل فى الأحكام إذا أمكن؛ لأنه تعالى نبه على العلة فى هذه الأوقات الثلاثة من وجهين: أحدهما: بقوله تعالى: ثَلَـٰثُ عَوْرَ ٰتٍ لَّكُمْ. والثانى: بالتنبيه على الفرق بين هذه الأوقات الثلاثة، وبين ما عداها، بأنه ليس ذاك إلا لعلة التكشف فى هذه الثلاثة، وأنه لا يؤمن وقوع التكشف فيها وليس كذلك ما عدا هذه الأوقات[٢٧٥].

★ ★ ★

بلوغ الأطفال

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٥٩) ﴾

التفسير :

٥٩ – وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ ... الآية .

الحلم : وقت البلوغ والاحتلام ، والمراد : بلغوا حد العقل والتمييز ، أما الأولاد والبنات الذين لا تظهر فى أجسادهم هذه التغييرات لسبب من الأسباب ، فيمكن أن يقدر لهم العمر الزمنى للبلوغ ، وهو سن الخامسة عشرة على أرجح الأقوال .

لقد أذن الله للأطفال الصغار أن يدخلوا على آبائهم وأمهاتهم دون استئذان إلا فى ثلاثة أوقات يغلب فيها التكشف ، وكان هذا الإذن للأطفال لكثرة دخولهم ولحاجتهم إلى معونة أسرتهم ، ولقلة إدراكهم لمعنى العورة .

فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم خرجوا عن حد الطفولة بأن احتلموا ، أو بلغوا السن التى يحكم فيها عليهم بالبلوغ ، وجب أن يفطموا عن تلك العادة ، ويُحملوا على أن يستأذنوا فى جميع الأوقات ، كما يستأذن الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن .

أو الذين ذكروا من قبلهم فى قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ... (النور : ٢٧) .

تنبيهات :

١ – قال فى الإكليل :

فى الآية أن التكليف إنما يكون بالبلوغ ، وأن البلوغ يكون بالاحتلام ، وأن الأولاد البالغين لا يدخلون على والديهم إلا باستئذان كالأجانب .

٢ – إذا لم تظهر علامات البلوغ على الصبى أو الفتاة ، يمكن أن نحكم لهم بالبلوغ الزمنى وهو خمسة عشر عاما على الراجح ، وقد اختلف الفقهاء فى تحديد سن البلوغ .

فقال الشافعى ، وأبو يوسف ، ومحمد ، وأحمد بن حنبل ، رحمهم الله : إن الولد – وكذلك البنت – إذا بلغ خمسة عشر عاما يكون بالغا . ويؤيده قول من أبى حنيفة ، إلا أن قوله المشهور : أن الولد لا يكون بالغا

حتى يبلغ ثمانى عشرة سنة ، وأن البنت لا تكون بالغة حتى تبلغ سبع عشرة سنة ، وليس هذان القولان بمبنيين على نص فى الشريعة ، وإنما هما مبنيان على الاجتهاد الفقهى ، فليس من الضرورى أن نقرر أن خمس عشرة أو ثمانى عشرة سنة ، هى سن البلوغ فى أمر الأولاد غير المحتلمين ، والبنات غير الحائضات، فى الدنيا كلها ، فإن أحوال نمو الجسد الإنسانى تختلف باختلاف الأقطار والأزمان[٢٧٦] ، ومعرفة السن المعتادة للبلوغ ، أمر يرجع فيه إلى أهل الاختصاص كالأطباء ومن فى حكمهم ، فهؤلاء يقدرون العمر الزمنى للبلوغ فى قطر من الأقطار .

وعند ذلك يمكن لرجال القانون أن يقرروا حد البلوغ للأطفال غير العاديين فى ذلك القطر .

وما قدره الفقهاء من تحديد خمس عشرة سنة عمرًا لبلوغ الولد غير المحتلم ، أمر قياسى يقوم على الاجتهاد لا على نص من النصوص الشرعية .

٣ – جاء فى كتب الفقه أن ابنة اللبان والجزار تدرك البلوغ فى سن مبكرة عن مثيلاتها . وكأن الفقهاء بهذه اللمحة يتركون للقاضى تقدير سن البلوغ لكل فرد ، فقد يكون أحد الأطفال ضعيف البنية أو متأخر النمو ؛ فيتأخر العمر الزمنى للحكم ببلوغه ، ويكون طفل آخر قوى الجسم سليم البنية فنحكم ببلوغه فى سن متقدمة عن مثيله .

★ ★ ★

تخفف العجوز من الثياب

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

المفردات :

القواعد : جمع قاعد، بغير تاء، لأنه مختص بالنساء، كحائض وطامث ، قال ابن السكيت : امرأة قاعد : قعدت عن الحيض . وفى القاموس : إنها هى التى قعدت عن الولد وعن الزوج.

لا يرجون نكاحا : لا يطمعن فى الزواج لكبر سنهن .

أن يضعن ثيابهن : يخلعنها .

التبرج : التكلف فى إظهار ما يخفى من الزينة ، والبرج (بالضم) الحسن ، والبارجة : السفينة الكبيرة للقتال .

التفسير :

٦٠ – ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ ... الآية .

أباح الله للأطفال وللتابعين غير أولى الإربة من الرجال أن يروا زينة المرأة ، وكذلك رخص للنساء العجائز أن يتخففن من ثيابهن الخارجية ، فلا حرج على العجوز أن تخلع خمارها وقناعها ، ولو أدى ذلك إلى كشف عنقها ونحرها للأجانب ما دامت الفتنة مأمونة[٢٧٧] بشرط ألا يقصدن – بهذا التخفف من الثياب– إبداء الزينة وإظهار المحاسن أمام الرجال ، وبشرط ألا تنكشف عوراتهن ، وخير لهن أن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة ، وسمى هذا استعفافا ، أى : طلبا للعفة ، وإيثارًا لها ، لما بين التبرج والفتنة، وبين التحجب والعفة من صلة ، وذلك حسب نظرية الإسلام ، فى أن خير سبل العفة تقليل فرص الغواية، والحيلولة بين المثيرات وبين النفوس .

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

يسمع ويعلم ويطلع ويشاهد ، فالأمر هنا أمر نية وحساسية فى الضمير ، قال تعالى :

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ . (غافر : ١٩) .

فى أعقاب الآية :

١ – لم تبين الآية الثياب التى رخص للقواعد أن يخلعنها، وللمفسرين فى بيانها رأيان:

الرأى الأول : أن المراد بها الثياب الظاهرة التى لا يفضى وضعها لكشف العورة ، كالجلباب السابغ الذى يغطى البدن كله، وكالرداء الذى يكون فوق الثياب، وكالقناع الذى فوق الخمار، وحجة أصحاب هذا الرأى ما أخرجه ابن جرير ، عن الشعبى : أن أُبيًّا وابن مسعود وابن عباس قد قرأوا : «أن يضعن من ثيابهن» بزيادة «من» . قال ابن عباس : وهو الجلباب . وروى عن ابن مسعود أيضا : «أن يضعن من جلابيبهن» وهى قراءة ابن عباس أيضا .

قال : والجلباب وما تغطى به المرأة ثيابها من فوق ، كالملحفة ، فلا حرج عليهن أن يضعن ذلك عند المحارم من الرجال ، وغير المحارم من الغرباء ، غير متبرجات بزينة .

الرأى الثانى : أنهن يضعن خمرهن وأقنعتهن إذا كن فى بيوتهن أو من وراء الخدور والستور .

وهو رأى ضعيف ؛ لأن للشابة أن تفعل ذلك فى خلوتها ، فلا معنى لتخصيص القواعد بذلك .

٢ – قد يتساءل الإنسان قائلا : إذا كان وضع الثوب لا يترتب عليه كشف العورة ، فما معنى نفى الجناح فيه؟ وهل ينفى الجناح إلا فى شىء قد كان يتوهم حظره ومنعه ؟

والجواب أن الله تعالى ندب نساء المسلمين إلى أن يبالغن فى التستر والاستعفاف، بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، وجعل ذلك من الحشمة ومحاسن الآداب، فإنه أبعد عن الريبة بهن وأقطع لأطماع ذوى الأغراض الخبيثة، فكان إدناء الجلابيب من الآداب التى ندب إليها النساء جميعا، فرخص الله للقواعد من النساء أن يضعن جلابيبهن ، ونفى عنهن الجناح فى ذلك ، وخيرهن بين خلع الجلباب ولبسه، ولكنه جعل لبسه استعفافا وخيرا لهن من حيث إنه أبعد عن التهمة وأنفى للمظنة[٢٧٨] .

٣ – تقول العرب : امرأة واضع ، للتى كبرت فوضعت خمارها ، وقال قوم : الكبيرة التى أيست من النكاح، لو بدا شعرها فلا بأس ، فعلى هذا يجوز لها وضع الخمار، والصحيح أنها كالشابة فى التستر، إلا أن الكبيرة تضع الجلباب الذى يكون فوق الدرع والخمار ، قاله ابن مسعود وابن جبير وغيرهما[٢٧٩] .

٤ – أخرج ابن أبى حاتم ، عن أم الضياء أنها قالت : دخلتُ على عائشة – رضى الله عنها – فقلت: يا أم المؤمنين، ما تقولين فى الخضاب والنفاض والصباغ ، والقرطين والخلخال وخاتم الذهب ، وثياب الرقاق ؟ فقالت : يا معشر النساء، قصتكن كلها واحدة، أحل الله لكنَّ الزينة غير متبرجات[٢٨٠] .

٥ – **من هدى السنة** : أخرج البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء»[٢٨١] .

ورُوى فى الصحيح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ؛ لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[٢٨٢] .

قال ابن العربى :

وإنما جعلن كاسيات لأن الثياب عليهن، وإنما وصفن بأنهن عاريات لأن الثوب إذا رق يصفهن ويبدى محاسنهن. وذلك حرام .

وقال القرطبى :

«رءوسهن كأسنمة البخت» والبخت : ضرب من الإبل عظام الأجسام، عظام الأسنمة، شبه رءوسهن بها لما رفعن من ضفائر شعورهن على أوساط رءوسهن، وهذا مشاهد معلوم، والناظر إليهن ملوم[٢٨٣] .

★ ★ ★

الأكل من بيوت الأقارب

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

المفردات :

الحرج : الضيق ، ومنه : الحرجة ، للشجر الملتف بعضه ببعض لضيق المسالك فيه ، والمراد بالحرج هنا : الإثم .

ما ملكتم مفاتحه : المفاتح : جمع مفتح أو مفتاح ، وملك المفتاح كناية عن كون الشيء تحت يد الشخص وتصرفه ، كأن يكون وكيلا عن رب المال ، أو أمينا وحافظا .

الصديق : من يصدق في مودتك وتصدق في مودته ، يطلق على الواحد والجمع ، كالخليط والعدو، والمراد بالصديق هنا : الجمع .

جميعا : مجتمعين .

أشتاتا : متفرقين ، واحدهم شتيت .

على أنفسكم : أي : على أهل البيوت .

تحية : أصل معنى التحية : طلب الحياة ، كأن يقول : حياك الله ، ثم توسع فيه فاستعمل في كل دعاء ، وتحية الإسلام : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مباركة : بورك فيها بالأجر .

طيبة : تطيب بها نفس السامع .

أسباب النزول :

قال الحسن : أنزلت هذه الآية فى ابن أم مكتوم ، وضع الله عنه الجهاد ، وكان أعمى .

وقال ابن عباس :

نزلت هذه الآية فى الحارث بن عمرو ، خرج مع رسول الله ﷺ غازيا وخلف مالك بن زيد مع أهله ، فلما رجع وجده مجهودا ، فسأل عن حاله فقال : تحرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وهناك روايات أخرى فى أسباب النزول تجدها فى كتب التفسير ، وهى ما يعبر عنه بالسبب المباشر، بيد أن ذلك لا يمنع أن تكون هناك أسباب عامة نزلت من أجلها الآية .

ومن هذه الأسباب ما يأتى :

الأول : هذا الانقلاب الهائل الذى حدث فى عقلية العرب بتعاليم القرآن الخلقية ، وجعل حسهم مرهفا فى التمييز بين الحلال والحرام ، والجائز وغير الجائز ، حتى أنه لما نزل قوله تعالى : **وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ** ... (البقرة : ١٨٨) . قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام من أفضل الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد ؛ فكف الناس عن ذلك : فأنزل الله عز وجل : **لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ** ... إلى : **أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ** . [٢٨٤]

الثانى : اشتملت الآية على جزءين :

(أ) رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ، وغيرهم من المعذورين فى التخلف عن الجهاد ، أو فى الأكل من بيوت غيرهم .

(ب) رفع الحرج عن سائر الناس فى أكلهم من بيوت أقربائهم المذكورين فى الآية .

التفسير :

٦١ - لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ ... الآية .

أى : ليس على هؤلاء الثلاثة إثم فى ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم . ونحو الآية قوله تعالى : **لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ** ... (التوبة : ٩١) .

وقوله عز شأنه : **لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ** ... (النساء : ٩٥) .

وعن ابن عباس : أن المراد من الحرج المنفى فى الآية : الحرج فى الأكل ، ذلك أنه لما نزل قوله تعالى: وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ... (البقرة : ١٨٨) ، تحرج المسلمون من مؤاكلة الأعمى لأنه لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لأنه لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، والمريض لأنه لا يستطيع استيفاء الطعام ؛ فأنزل الله هذه الآية ، والمعنى على هذه الرواية : ليس فى مؤاكلة الأعمى ولا ما بعده حرج .

وقيل : كانوا يخرجون إلى الغزو ، ويخلفون الضعفاء فى بيوتهم ، ويدفعون إليهم المفاتيح ، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يتحرجون ، فقيل : ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا عنه ، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت .

هذا بعض ما ذكر المفسرون ، ولا يخفى صدق الآية على جميع ذلك ونفى الحرج عنه كله .

وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ...

إنما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره فى اللفظ ، وليساوى به ما بعده فى الحكم ، وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم ، وقد استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء فى المسند والسنن من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أنت ومالك لأبيك»[٢٨٥] .

وقال الترمذى الحكيم : ووجه قوله تعالى : وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ... كأنه يقول : مساكنكم التى فيها أهاليكم وأولادكم ، فيكون للأهل والولد هناك شىء قد أفادهم هذا الرجل الذى له المسكن ، فليس عليه حرج أن يأكل معهم من ذلك القوت ، أو يكون للزوجة والولد هناك شىء من ملكهم فليس عليه فى ذلك حرج[٢٨٦] .

أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ ...

لما علم بالعادة أن هؤلاء تطيب نفوسهم بأكل من يدخل عليهم من الأقارب . وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، كما هو مذهب أبى حنيفة والإمام أحمد بن حنبل فى المشهور عنهما .

وجاء فى ظلال القرآن :

ولأن الآية آية تشريع ، فإننا نلحظ فيها دقة الأداء اللفظى ، والترتيب الموضوعى ، والصياغة التى لا تدع مجالا للشك والغموض، كما نلمح فيها ترتيب القرابات، فهى تبدأ ببيوت الأبناء والأزواج ولا تذكرهم، بل تقول الآية : مِنۢ بُيُوتِكُمْ . فيدخل فيها بيت الابن وبيت الزوج ، فبيت الابن بيت لأبيه ، وبيت الزوج بيت

لزوجته ، وتليها بيوت الآباء ، فبيوت الأمهات ، فبيوت الإخوة ، فبيوت الأخوات ، فبيوت الأعمام ، فبيوت العمات ، فبيوت الأخوال ، فبيوت الخالات[٢٨٧] .

أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ...

عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته ، فلا حرج عليه أن يأكل من ثمر الضيعة ، ويشرب من لبن الماشية ، ولكن لا يحمل ولا يدخر ، قال سعيد بن جبير ، والسدى : هو خادم الرجل من عبد وقهرمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف .

وقال الزهرى ، عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : كان المسلمون يذهبون مع النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم ، ويقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه ، فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل ، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء ؛ فأنزل الله : **أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ** ...

أَوْ صَدِيقِكُمْ ...

أى : بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم فى الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهونه .

قال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه .

وقال جماعة من المفسرين : إنما كان ذلك فى صدر الإسلام ، ثم نسخ ، واستقرت الشريعة على أنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا برضاه .

قال ابن زيد :

هذا شىء قد انقطع ، إنما كان فى أوّله ولم يكن لهم ستور أبواب ، أو كانت الستور مرخاة . فربما دخل الرجل البيت وليس فيه أحد، وربما وجد الطعام وهو جائع، فسوغ له أن يأكل منه ، ثم قال : ذهب ذلك اليوم، البيوت فيها أهلها ، فإذا خرجوا أغلقوها[٢٨٨] .

والصحيح الذى عليه المعول فى دفع التعارض بين النصوص : أن إباحة الأكل من هذه البيوت مقيدة ومشروطة بما إذا علم الآكل رضا صاحب المال ، بإذن صريح أو قرينة ، فإذا دل ظاهر الحال على رضا المالك ؛ قام ذلك مقام الإذن الصريح[٢٨٩] .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ...

أى : لا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين ، فقد كان من عادات بعضهم فى الجاهلية ألا يأكل طعاما على انفراد ، فإن لم يجد من يؤاكله عاف الطعام .

قال القرطبى :

قيل : إنها نزلت فى بنى ليث بن بكر ، وهم حى من كنانة ، كان الرجل منهم لا يأكل وحده ، ويمكث أياما جائعا حتى يجد من يؤاكله ، ومنه قول بعض الشعراء :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له ... أكيلا فإنى لست آكله وحدى

قال ابن عطية : وكانت هذه السيرة موروثة عندهم عن إبراهيم ﷺ فإنه كان لا يأكل وحده[٢٩٠] .

ورُوى أن قوما من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم[٢٩١] ولو ترتب على ذلك لحوق الضرر بهم وتعطيل مصالحهم ، فنزلت الآية الكريمة لنفى الجناح عن الناس فى أكلهم مجتمعين أو متفرقين ، وتوسيع الأمر عليهم فى ذلك ، وبيان أن أمر الطعام ليس من العظم بحيث يْحتاط فيه إلى هذا الحدّ ، وتراعى فيه الاعتبارات الدقيقة المعنتة[٢٩٢] .

فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ...

أى : فإذا دخلتم بيتا من هذه البيوت فليسلم بعضكم على بعض . وفى الآية تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين ، فالذى يسلم منهم على قريبه أو صديقه يسلم على نفسه .

تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ...

أى : حيوا تحية ثابتة بأمره تعالى ، مشروعة من لدنه ، يرجى بها زيادة الخير والثواب ، ويطيب بها قلب المستمع .

أخرج البخارى وغيره ، عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، تحية من عند الله مباركة طيبة»[٢٩٣] .

وأخرج الحافظ البزار ، عن أنس بن مالك قال : أوصانى النبى ﷺ بخمس خصال قال : «يا أنس ، أسبغ الوضوء يزد فى عمرك ، وسلم على من لقيت من أمتى تكثر حسناتك ، وإذا دخلت – يعنى : بيتك – فسلم على أهلك يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوّابين قبلك ، يا أنس ، ارحم الصغير ، ووقر الكبير تكن من رفقائى يوم القيامة»[٢٩٤] .

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

بيَّن الله لكم معالم دينكم ، كما فصل لكم فى هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة ، والشرائع المتقنة المبرمة ؛ لكى تفقهوا أمره ونهيه وأدبه ، وتأخذوا بأسباب السيادة ، وتدركوا ما فى المنهج الإلهى من حكمة وتقدير .

★ ★ ★

استئذان الرسول

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٦٢) ﴾

المفردات :

أمر جامع : خطب جلل يستعان فيه بأرباب التجارب والآراء، كقتال عدو ، أو التشاور فى حادث قد عرض .

المعنى العام :

حثت الآيات السابقة على أدب الاستئناس والاستئذان فى دخول البيوت ، وفى ختام سورة النور تبين هذه الآية أدب الاستئذان حين الخروج ، ولاسيما إذا كان المؤمنون فى أمر عام مع الرسول ﷺ كتشاور فى قتال أو تدارس حادث عرض ، ومن يلتزم بأدب الجماعة ويحرص على الالتزام بمهامها ؛ فهو كامل الإيمان حقا ، وللرسول أن يأذن لمن شاء منهم إذا استأذنه .

التفسير :

٦٢ - إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ ... الآية .

أى : ما المؤمنون حق الإيمان إلا الذين صدقوا الله ورسوله ، وإذا كانوا مع رسوله على أمر يجمعهم: من حرب حضرت ، أو صلاة اجتمع لها ، أو تشاور فى أمر نزل ؛ لم ينصرفوا عما اجتمعوا له ، حتى يستأذنوا الرسول ﷺ .

روى الترمذى، والنسائى، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة»[٢٩٥] .

وهذا الاستئذان كما يكون للنبى ﷺ ، هو كذلك لمن يأتى بعده من خلفائه، وأمراء النظام الإسلامى فى جماعة المسلمين، فكلما اجتمع المسلمون لغاية اجتماعية – فى السلم والحرب – فإنه لا يحل لهم أن ينفضوا من هذا الأمر بدون إذن من أميرهم ، ولما كان الإذن كالدليل على الإيمان، مدح الله الملتزمين به فقال :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...

أى : إن الذين لا ينصرفون إذا كانوا معك – أيها الرسول – فى أمر جامع إلا بإذنك لهم، طاعة منهم وتصديقا، أولئك هم المؤمنون حقا . وتشير الآية إلى أن الاستئذان لا يكون إلا فى عذر حقيقى، وحاجة ماسة، وأن للرسول وأمير الجماعة بعد الرسول، أن يأذن أو لا يأذن حتى بعد بيانكم للحاجة والعذر، فإن له تقدير الموقف ، وترجيح حاجة الجماعة أو حاجة المستأذِن .

فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ...

أى : بحسب ما تقتضيه المصلحة التى تراها، كما وقع لعمر – رضى الله عنه – حين خرج مع النبى ﷺ فى غزوة تبوك ، حيث استأذن فى الرجوع إلى أهله، فأذن له ﷺ وقال له: «ارجع ، فلست بمنافق» .

وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ...

فيه التنبيه على أن الاستئذان إذا كان فيه أدنى دخل للاحتيال ، أو يريد المستأذن أن يؤثر مصلحته الفردية على المصلحة الجماعية ؛ فإن ذلك موجب للإثم واللوم ، ولأجل ذلك ينبغى للرسول وللخليفة من بعده، ألا يكتفى بالإذن لمن استأذنه من المسلمين، بل عليه أن يستغفر لكل من يأذن له .

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

فهو يغفر الذنب للتائبين ، وهو رحيم لا يعاقبهم على الذنوب بعد توبتهم منها .

★ ★ ★

تعظيم الرسول

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

المفردات :

التسلل : الخروج من المكان تدريجيا وخفية .

اللواذ : والملاوذة : التستر ، يقال : لاذ فلان بكذا ، إذا استتر به .

يخالفون عن أمره : يعرضون عنه ويخالفونه .

فتنة : بلاء وامتحان فى الدنيا ، أو عذاب أليم فى الآخرة .

التفسير :

٦٣ – لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ... الآية .

فى معنى هذه الجملة ثلاثة وجوه :

الأول : لا تجعلوا أمر الرسول إياكم ، ودعاءه لكم ، كما يكون من بعضكم لبعض، أى : إن دعاء الرسول ونداءه لكم ، له أهمية ليست لدعاء غيره، فإذا دعاكم غيره فلكم أن تجيبوه أو لا تجيبوه ، وأما إذا دعاكم الرسول ولم تجيبوه: فإنكم توقعون أنفسكم فى الحرج ، وإن ذلك مما يتهدد إيمانكم، وينذركم بحبط أعمالكم.

الثانى : ألا تنادوه كما ينادى بعضكم بعضا ، فلا تقولوا له : يا محمد . ولا تقولوا : يا بن عبدالله . ولكن شرفوه وعظموه فى الدعاء ، فقولوا : يا رسول الله ، أو يا نبى الله .

الثالث : ألا تعتقدوا أن دعاء الرسول على إنسان كدعاء غيره ، فإن دعاء الرسول مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم إذا عملتم ما يسخطه .

وقد رجح ابن كثير المعنى الثانى ، واستشهد له بجملة من الآثار ، منها ما يأتى :

قال ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله – عز وجل – عن ذلك إعظاما لنبيه ﷺ ، وأمرهم أن يقولوا : يا نبى الله ، يا رسول الله .

وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه وأن يبجل وأن يعظم .

وقال مقاتل : **لَا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا**... يقول : لا تسموه إذا دعوتموه: يا محمد، ولا تقولوا : يا بن عبد الله ، ولكن شرفوه فقولوا : يا نبى الله ، يا رسول الله ، وهذا كقوله تعالى : **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** . (الحجرات : ٢) . فهذا كله من باب الأدب فى مخاطبة النبى ﷺ والكلام معه وعنده . كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته[٢٩٦] .

وإذا ضممنا آخر الآية إلى صدرها ترجح لنا أن المراد هو المعنى الأول . أى : إذا دعاكم الرسول فلا تهملوا دعوته ، واستجيبوا لأمره .

ومن إعجاز القرآن : أن الآية تشير إلى معنى ، وتحتمل معنى ، وتستتبع معنى .

قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ...

قال القرطبي :

التسلل والانسلال : الخروج ، واللواذ من الملاوذة : وهى أن تستتر بشيء مخافة من يراك ، فكان المنافقون يتسللون عن صلاة الجمعة «لواذا» – مصدر فى موضع الحال ، أى : متلاوذين – أى : يلوذ بعضهم ببعض ، ينضم إليه استتارا من رسول الله ﷺ ، لأنه لم يكن على المنافقين أثقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة .

وقيل : كانوا يتسللون فى الجهاد ، رجوعا عنه ، يلوذ بعضهم ببعض .

وقال الحسن : لِوَاذًا . فرارا من الجهاد . ومنه قول حسان :

وقريش تلوذ منا لواذا لم يقيموا وخف منها الحلوم [٢٩٧]

وروى أبو داود : أنه كان من المنافقين من يثقل عليه استماع الخطبة والجلوس فى المسجد ، فإذا استأذن أحد من المسلمين ؛ قام المنافق إلى جنبه يستتر به ، فأنزل الله الآية :

فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ...

أى : يعرضون عن أمره .

وقال أبو عبيدة الأخفش : عَنْ . فى هذا الموضع زائدة [٢٩٨] .

والآية تحذر من يخالف أمر الرسول ، أو يتهرب من دعوته ولا يلبى أمره ، بأن تصيبه الفتنة أو العذاب الأليم . وبهذه الآية قد احتج الفقهاء على أن الأمر على الوجوب ، ووجهها أن الله – تبارك وتعالى – قد حذر من مخالفة أمره ، وتوعد بالعقاب عليها بقوله : **أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** . فتحرم مخالفته ويجب امتثال أمره [٢٩٩] .

والفتنة هنا : القتل ، قاله ابن عباس ، وقال عطاء : الزلازل والأهوال ، وقال جعفر بن محمد : يُسلط عليهم سلطان جائر . أى : إن المسلمين إن أعرضوا عن أحكام الرسول ﷺ وخالفوها ، فإن الله سيسلط عليهم من الحكام من لا يرحمهم ، وعلى كل حال فهذه إحدى صور الفتنة ، كما يمكن أن تكون لها صور كثيرة أخرى ، كتفرق كلمة المسلمين ، ونشوب الحرب الداخلية بينهم ، وانحطاطهم الخلقى ، وتشتت جماعتهم، وظهور الفوضى فيهم ، وانكسار قوتهم السياسية والمادية ، وتحكم غيرهم فى رقابهم [٣٠٠] .

★ ★ ★

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير :

٦٤ – أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... الآية .

هذه الآية ختام السورة ، وقد بدئت السورة بقوله تعالى : سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا ...

وهنا يثبت علمه الواسع ، وإحاطته الشاملة ، وملكه العميم ، لكل ما فى السماوات والأرض ، واطلاعه على الضمائر والنوايا ، وحسابه للجميع يوم القيامة .

قال ابن كثير :

قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ... وقَدْ : للتحقيق ، كما قال قبلها : قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ... وقال تعالى : قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ... (الأحزاب : ١٨) .فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقد ، فقوله تعالى : قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ . أى : هو عالم به مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كما قال تعالى : وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ . (يونس : ٦١) .

وقال تعالى : سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ . (الرعد : ١٠) . والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جدًا[٣٠١] .

وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ...

أى : ويوم يرجع الخلائق إلى الله ، وهو يوم القيامة .

فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ .

أى : يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير .

وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ . من أعمالهم وأحوالهم . أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . (الملك : ١٤) .

وفى هذا الذيل حث على الطاعة والانقياد لما شرعه الله من الأحكام ، كما أن فى الصدر حثا على القبول من جهة أن الله إنما شرعها لعلمه بحاجتهم إليها .

عن عقبة بن عامر قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية فى خاتمة النور ، وهو جاعل أصبعيه تحت عينيه يقول : «بكل شيء بصير» . أخرجه الطبرانى وغيره . قال السيوطى : بسند حسن .

رُوى أن ابن عباس – رضى الله عنه – قرأ سورة النور على المنبر فى الموسم ، وفسرها على وجه لو سمعت الروم به لأسلمت . والله أعلم[٣٠٢] .

والحمد لله حمدا كثيرا طيبا طاهرا مباركا فيه ، كما يرضى ربنا ويحب ، اللهم لك الحمد فى الأولى والآخرة ، اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ضياء السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد لا إله إلا أنت ، وعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، ومحمد ﷺ حق .

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين

★ ★ ★



تفسير سورة الفرقان

أهداف سورة الفرقان

سورة الفرقان سورة مكية، نزلت بعد سورة يس ، ونزلت سورة يس بعد سورة الجن ، وكان نزول سورة الجن فى رجوع النبى ﷺ من الطائف ، وكان قد ذهب إليها سنة عشر من بعثته ، فيكون نزول سورة الفرقان فى السنة العاشرة من البعثة ، وتكون من السور التى نزلت فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء . وهى فترة تميزت بقسوة مشركى مكة وعنفهم ورغبتهم فى القضاء على الدعوة بكل سبيل ، ولذلك تبدو سورة الفرقان وكأنها إيناس لرسول الله ﷺ وتسرية ، وتطمين له وهو يواجه مشركى قريش وعنادهم وتعنتهم معه وجدالهم بالباطل ، ووقوفهم فى وجه الهدى وصدهم عنه .

سورة تشد أزر الرسول ﷺ

تنوعت جوانب هذه السورة وتعددت ، لكنها فى جملتها كانت مؤازرة لرسول الله تبثه الثقة والاطمئنان، وتفضح شبهات المشركين ، وتنافح عن الدعوة والداعية بالعديد من السبل .

فهى فى لمحة منها تصور الإيناس اللطيف الذى يحيط به الله عبده ورسوله ، وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحًا رفيقاً ، ويفيض عليه بالرعاية واللطف والمودة .

وهى فى لمحة تصور المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة المشاقة لله ورسوله ، وهى تجادل فى عنف ، وتتعنت فى عناد ، وتجنح عن الهدى الواضح المبين .

إنها البشرية الضالة التى تقول عن هذا القرآن العظيم : إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ... (الفرقان : ٤) .

أو تقول : أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . (الفرقان : ٥) .

والتى تقول عن محمد رسول الله : إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُورًا . (الفرقان : ٨) .

أو تقول فى استهزاء : أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً . (الفرقان : ٤١) .

وهذا التكذيب كان سمة الناس من عهد نوح إلى عهد محمد ، لقد اعترض القوم على بشرية الرسول ﷺ ، واعترضوا على حظه من المال ، فقالوا : أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ... (الفرقان : ٨) .

واعترضوا على طريقة تنزيل القرآن ، فقالوا : لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ... (الفرقان : ٣٢) .

وذلك فوق التكذيب والاستهزاء ، والافتراء والإيذاء. وعندما يئس النبى من أهل مكة توجه إلى الطائف، وبها قبائل ثقيف، وفيها نعمة وغنى وزراعة وأعناب، حتى كان العرب يعتقدون أن طائفًا من الجن نقلها من اليمن السعيد إلى جنوب الحجاز .

وعندما ذهب إلى الطائف دعا أهلها للإسلام ؛ فردوه أسوأ رد وأغروا به السفهاء والعبيد يرجمونه بالحجارة ، حتى دميت قدماه الشريفتان ، وأغمى على النبى الأمين ، فلما أفاق مد يده لله داعيا متضرعًا، يقول:

«اللهم أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يارب العالمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى إلى عدو يتجهمنى أو بعيد ملكته أمرى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى سخطك أو يحل على غضبك ، إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، عافيتك هى أوسع لى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» .

وقد نزلت سورة الفرقان فى أعقاب رحلة الطائف ، فكانت حنانا ورحمة من الله لنبيه تمسح آلامه ، وتسرى عنه ، وتهون عليه مشقة ما يلقى من عنت القوم وسوء أدبهم ، وتطاولهم على الرسول الذى اختارته السماء ليحمل رسالة الله إلى الناس .

وتعزيه عن استهزائهم بتصوير المستوى الهابط الذى يتمرغون فيه : أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً. (الفرقان : ٤٣ ، ٤٤)

ويتكفل القرآن بالعون والمساعدة فى معركة الجدل والمحاجة : وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا . (الفرقان : ٣٣) .

ثم تعرض السورة أهوال القيامة ومشاهد المجرمين تهديدا ووعيدا : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان : ٢٥ ، ٢٦) .

وتصف ندم هؤلاء الكفار يوم القيامة فتقول : وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً . (الفرقان : ٢٧ ، ٢٨) .

ثم تقدم السورة مسيرة الأنبياء وجهادهم وبلاءهم تسلية للرسول الأمين ، ثم تحثه على الصبر والمصابرة ، وعلى جهاد الكفار بالحجة والبرهان : فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا . (الفرقان : ٥٢).

وهكذا تمضى السورة ، فى جانب منها إيناس وتسرية وعطف وإيواء من الله لرسوله ، وفى جانب آخر مشاقة وعنت من المشركين لرسول الله ، وتقدم السورة جوانب القدرة الإلهية ، وتصف عجائب صنع الله فى مد الظل وتسخير الشمس ، وخلق الليل والنهار ، والظلام والنور ، وإنزال المطر وإنبات النبات ، وخلق الإنسان والكواكب والبروج والأفلاك . وتتوعد المشركين بالعذاب والعقاب .

فإذا اقتربت السورة من نهايتها وصفت عباد الرحمن بالتواضع وقيام الليل ، والاقتصاد فى النفقة، والاحتراز من الشرك والزنا وقتل النفس ، وتذكر فضل التوبة ومنزلة التائبين عند الله ، وتختم السورة بتصوير هوان البشرية على الله لولا تلك القلوب المؤمنة التى تلتجئ إليه وتدعوه : قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا . (الفرقان : ٧٧) .

موضوعات السورة

رغم أن الخط الأساسى لسورة الفرقان هو العناية بالرسول ومسح آلام الحزن عنه وتثبيت قلبه ، إلا أنه يمكن أن نقسم هذه السورة إلى أربع فقرات أو أربعة موضوعات متمايزة :

الموضوع الأول :

بدأ الموضوع الأول من سورة الفرقان بتسبيح الله وحمده على تنزيل هذا القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، وبتوحيد الله المالك لما فى السماوات والأرض ، المدبر للكون بحكمة وتقدير ، ونفى الولد والشريك . ثم شرع فى ذكر ما أورده الكفار من شبه ، فذكر شبهتهم الأولى وهى قولهم : إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ... (الفرقان : ٤) .

ورد عليهم بأن ادعاءهم ظلم وزور ، لأنه تحداهم به فلم يمكنهم أن يأتوا بمثله .

ثم ذكر شبهتهم الثانية وهى زعمهم أن القرآن أساطير الأولين اكتتبها ، ورد عليهم بأن الذى أنزله هو خالق الإنسان ، وهو العليم بأسراره وما يناسبه .

ثم ذكر اعتراضهم على بشرية الرسول ، وحاجته للطعام والمشى فى الأسواق ، واقتراحهم أن ينزل عليه ملك أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها .

ورد عليهم بأن الله لو شاء لجعل لنبيه فى الآخرة جنات وقصورا خيرا مما ذكروه من نعم الدنيا ، وجميع الرسل قبل محمد كانوا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق لأنهم بشر وذلك شأن البشر .

ويستغرق الموضوع الأول من أول السورة إلى الآية ٢٠ منها .

الموضوع الثانى :

بدأ الموضوع الثانى بذكر تطاول المشركين ، وزعمهم أنه كان يجب أن ينزل عليهم ملائكة تؤيد محمدا فى دعواه ، أو يروا ربهم .

ثم عاجلهم بمشهد اليوم الذى يرون فيه الملائكة لا تحمل البشرى ، وإنما تحمل الإنذار والوعيد . وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان : ٢٦) .

ليكون فى ذلك تسلية للرسول ﷺ وهم يهجرون القرآن ، وهو يشكو لربه هذا الهجران .

ثم ذكر اعتراضهم على عدم نزول القرآن جملة واحدة، ورد عليهم بأنه نزل مفرقا لتثبيت قلب الرسول، وللإجابة على استفهام المستفهمين ، وتوضيح الحق أمام السائلين .

ثم ذكر أنهم فى الآخرة يمشون مقلوبين، وجوههم إلى تحت، وأرجلهم إلى فوق، فيضلون فى أخراهم كما ضلوا فى دنياهم .

ثم شرع فى تأييد ذلك بتصوير عاقبة المكذبين من قبلهم ، من قوم موسى وقوم نوح، وعاد وثمود، وأصحاب الرس والقرون الكثيرة بين ذلك، ويعجب من أمرهم وهم يمرون على قرية لوط المدمرة ولا يعتبرون ؛ فيهون بذلك كله من وقع تطاولهم على الرسول ﷺ وقولهم : أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً . (الفرقان : ٤١) .

ثم عقب على هذا الاستهزاء بتحقيرهم ووضعهم فى صف الأنعام، بل دون ذلك : إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً . (الفرقان : ٤٤) .

ويستغرق هذا الموضوع الآيات من ٢١ : ٤٤ .

الموضوع الثالث :

يبدأ الموضوع الثالث بعرض مظاهر القدرة الإلهية فى نظام هذا الكون وإبداع صنعته ودقة ناموسه .

فيعرض مشهد الظل ، ويستطرد إلى تعاقب الليل والنهار، والرياح المبشرة بالماء المحيى ، وخلقة البشر من الماء، ومع هذا فهم يعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم، ويتظاهرون على ربهم وخالقهم، فينصرون الشيطان على ربهم الذى يريد أن يربيهم ويهديهم، ويتطاولون فى قحة إذا دعوا إلى عبادة الرحمن ، وقد جعل الله الليل والنهار خلفة يخلف أحدهما الآخر، ويتعاقبان ليرى الإنسان الصباح المشرق والليل المظلم ؛ فيتذكر عظمة الله ويشكره ، ولكنهم لا يتذكرون ولا يشكرون .

ويستغرق هذا الموضوع الآيات من ٤٥ : ٦٢ .

الموضوع الرابع :

يصف الموضوع الرابع عباد الرحمن الذين يسجدون له ويعبدونه ، ويسجل مقوماتهم التى استحقوا بها هذه الصفة الرفيعة، ويفتح باب التوبة على مصراعيه لمن يريد الإقبال على الله ، ويصور جزاء المؤمنين الصابرين على تكاليف الإيمان والعبادة : أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا * خَـٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . (الفرقان : ٧٥ ، ٧٦) .

ويستغرق هذا الموضوع الآيات من ٦٣ : ٧٧ حيث تختم السورة ببيان هوان البشرية على الله لولا دعاء المؤمنين، وعبادة المتقين .

وفى هذا الهوان تهوين لما يلقاه الرسول من عنت المشركين ، فهو يتفق مع ظل السورة وجوها، ويتفق مع موضوعها وأهدافها .

★ ★ ★

عظمة الخالق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ ﴾

المفردات :

تبارك : تكاثرت بركته وعمت الخلائق كلَّها .

الفرقان : القرآن، وسمى فرقانًا لأنه فرّق بين الحق والباطل ، ولأنه نزل مفرقا ، ولم ينزل جملة واحدة ، قال تعالى : وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ... (الإسراء :١٠٦).

عبده : أى : محمد ﷺ ، ووصفه بذلك تشريفا له ، بكونه فى أقصى مراتب العبودية .

للعالمين : أى : الثقلين من الإنس والجن .

نذيرا : مخوفًا لهم من عذاب الله ، إن كفروا به ولم يوحِّدوه .

فقدره تقديرا : سواه تسوية قائمة على أساس ، لا اعوجاج فيه ، ولا زيادة ولا نقص عما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

ضرا ولا نفعا : أى : لا دفع ضُر ولا جلب نفع .

موتا ولا حياة ولا نشورا : أى : لا يقدرون على إماتة أحد ولا إحيائه ولا بعث الأموات .

التفسير :

١ - تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا .

كثرت بركات الله ، وعظمت نعماؤه وأفضاله ، فهو خالق الكون ، وبيده الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير ، وقد أنزل الله القرآن على عبده محمد ﷺ ، ليكون داعية إلى الإيمان ، ونذيرًا للبشرية كلها من الكفر والتكذيب .

فى أعقاب الآية :

(أ) امتن الله على نبيه محمد ﷺ بالعبودية الحقة لله ، وهذه أعظم درجة ينالها إنسان وهى أن يكون عبدًا حقا لله العلى الكبير ، وقد ورد هذا المعنى فى القرآن الكريم ، ففى صدر سورة الإسراء : سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ .

وفى صدر سورة الكهف يقول الله تعالى : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا .

(ب) عالمية الدعوة : هذه السورة مكية ، والآية الأولى مكية ، وفيها عالمية الرسالة ، فقد أفادت الآية أن الله أنزل القرآن على محمد ﷺ ، ليبلِّغه للعالمين .

وفيه رد على المستشرقين، الذين ادعوا أن الإسلام كان دعوة محلية فى مكة ، فلما انتقل إلى المدينة وتكونت الدولة الإسلامية تحول إلى العالمية، ويمكن الاستدلال بالأحاديث النبوية الصحيحة، على عالمية الدعوة فى مكة، فقد اشتكى المؤمنون الأولون من شدة ما يلقون من العذاب من أهل مكة، وقالوا : يا رسول الله ألا تدعو عليهم . فقال ﷺ : «والذى نفسى بيده ليتمنّ الله هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون» .

وفى صحيح البخارى : أن هرقل ملك الروم سأل أبا سفيان عن النبى ﷺ ، فسأله عن نسبه ، وعن أتباعه ، وعن حروبه . فقال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب ، وأكثر أتباعه من الضعفاء ، والحرب بيننا وبينه سجال ينال منّا وننال منه . فقال هرقل لأبى سفيان : إن الرسل تبعث فى أنساب قومها ، وأتباع الرسل هم الضعفاء والفقراء ، والإيمان يتعرض للابتلاء حتى يكتمل نوره ، وإذا كان ما تقول حقا فسيملك محمد موضع قدمىّ هاتين ، ولو كنت أصل إليه لغسلت عن قدميه[٣٠٣] .

وفى طريق الهجرة من مكة إلى المدينة ، تقدم فارس مقدام خلف النبى ﷺ يريد القبض عليه ، أو قتله، ليحصل على مكافأة أهل مكة ، لكن عناية الله وحفظه لنبيِّه ، حَفِظَا رسول الله ﷺ ، ثم قال النبى ﷺ : «يا سراقة ، أسلم ولك سوار كسرى». ثم أسلم سراقة فيما بعد ولبس خُف كسرى ، وتاجَ كسرى ، وسراويل كسرى، فلما رآه عمر قال له : أقبل ، فأقبل ، ثم قال له : أدبر ، فأدبَر ، ثم قال عمر : ربَّ يوم يا سراقة بن مالك ابن جشعم ، يكون هذا فخرا لك ولأبنائك من بعدك ، ثم خلعها عمر عن سراقة ووضعها فى بيت مال المسلمين.

(جـ) رسالة الرسول ﷺ للتبشير بالجنة للطائعين ، والإنذار بالنَّار للعاصين ، ولكنه اقتصر هنا على الإنذار ، فى مواجهة الكافرين المعاندين .

بينما قال تعالى في سورة الأحزاب : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا . (الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦) .

وقال سبحانه : وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ . (الأنبياء : ١٠٧) .

٢ - ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا.

تشتمل هذه الآية على صفات الله تعالى ، وكمالاته وقدرته :

١ - فقد خلق الله هذا الكون بقدرته، وجعل السماء سقفًا مرفوعًا وزينها بالنجوم، وجعل فيها بروجًا وشمسًا وقمرًا منيرًا ، وخلق الله الأرض ، وبسطها ، وجعل فيها طرقًا يسير عليها الناس، وأرسى فيها الجبال، ويسر إعمارها بإنزال المطر وإنبات النبات ، وخلق الحيوانات، والإنس والجن، وقد عبر القرآن عن هذا المعنى في كثير من الآيات .

قال تعالى : تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا . (الفرقان : ٦١) .

وقال تعالى : لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ . (طه : ٦) .

وقال تعالى : أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . (الأنبياء : ٣٠ - ٣٣) .

تنزّه الله عن الولد والشريك

ادعت النصارى أن المسيح ابن الله ، وقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقد نفى القرآن ذلك عن الله ونزهه عن مشابهة الحوادث .

قال تعالى : مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ... (المؤمنون : ٩١)

وفي الحديث الصحيح : «لا أحد أحلم من الله ، إنهم ليدعون له ولدًا ، وإنه ليعافيهم ويرزقهم»[٣٠٤] .

وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل : «يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني ، ويكذبني ابن آدم وما ينبغي له أن يكذبني ، فأمّا شتمه لي فقوله : إن لي ولدا ، وأنا الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وأما تكذيبه لي فقوله : ليس يعيدني كما بدأني»[٣٠٥] .

وقد ردّ القرآن فى آياته على المكذبين بالبعث فقال تعالى : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ . (الأنبياء : ١٠٤) .

وقال سبحانه : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (الروم : ٢٧) .

وفى آخر سورة يس يقول الله تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٧٨ – ٨٣) .

الخلق والتقدير

أبدع الله خلق الأشياء على غير مثال سابق ، وآية ذلك تكامل هذا الكون ، وتعاون أجزائه : فالشمس ساطعة ، والقمر منير ، والبحار شاسعة ، والشمس ترسل أشعتها فوق المحيطات ، فيتصاعد البُخَار ، ثم تسوقه الرياح فيتساقط مطرًا ، تتم به حياة الزرع والإنسان والحيوان ، والإنسان يستنشق الأوكسجين ، ويخرج ثانى أكسيد الكربون ، والنبات يأخذ ثانى أكسيد الكربون ويستنشقه ، ثم يخرج الأوكسجين ، فلو وجد الإنسان وحده لمات ، ولو وجد النبات وحده فى هذا الكون لذبل وذوى ، فمن حسن تقدير الله وترتيبه وتدبيره ، وجود الإنسان والنبات ، والهواء مثلا فيه نسبة ٢١٪ من الأوكسجين ، ولو زادت هذه النسبة إلى ٥٠٪ لزاد الاشتعال ، بحيث إن شرارة واحدة فى الغابة تكفى لاشتعال الأشجار كلها ، ولو نقصت نسبة الأوكسجين فى الهواء عن ٢١٪ لاختنق الإنسان ، وانخفض مستوى تقدمه وحضارته .

ولذلك قال تعالى : وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا .

أى : أبدع خلق كل شىء فى هذا الكون ، مع التنظيم والسبك ، والتكامل والإبداع ، والتنسيق بين المخلوقات ، بحيث يتم بينها التكامل والتعاون ، فى إعمار الكون وإبداع نظامه .

وفسر ابن كثير : وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا . بأن كل شىء مخلوق مربوب لله ، والله هو خالق كل شىء وربّه ومليكه وإلهه ، وكل شىء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره .

٣ - وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا .

تندد الآية بعبادة الأصنام، فقد وضَّحت الآيات السابقة، مظاهر ربوبية الله تعالى الموجبة لألوهيته، وإفاضته الخير على الخلق ، واتصافه بالملك والقدرة والعلم والحكمة ، ثم تندد الآية الثالثة من سورة الفرقان بالشرك والمشركين ، فقد اتخذوا أصناما وأوثانا عبدوها من دون الله تعالى ، وهذه الأصنام لا تخلق شيئا ، بل يصنعها عبادها من الأحجار والأخشاب ، وهذه الأصنام لا تملك لنفسها ضرًا ، أي : دفع الضرر عن نفسها ، ولا تملك جلب النفع لنفسها ، ولا تقدر على إماتة أحد ولا إحيائه ، ولا تقدر على بعث الموتى من قبورهم .

والآية فيها تحريك للعقول ، ودعوة للتدبر ، فقد وصفت الأصنام بسبع صفات :

١ - لا تخلق شيئا .

٢ - هي مخلوقة ، خلقها الله ، إن كانت ملائكة أو المسيح أو عزيرًا، وخلقها عُبَّادها إن كانت أصناما .

٣ - لا تدفع الضرّ عن نفسها .

٤ - لا تجلب لنفسها نفعا .

٥ - لا تقدر على إماتة أحد .

٦ - لا تقدر على إحياء الموتى .

٧ - لا تقدر على بعث الموتى وإخراجهم من قبورهم للحساب والجزاء .

★ ★ ★

شبهات المشركين والرد عليها

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

إفك : كذب .

افتراه : الافتراء : الاختلاق والكذب .

جاءوا : أتوا .

ظلما : جورا وعدولا عن الصواب .

زورا : كذبا ، فهم نسبوا القبيح إلى القرآن ، وهو مبرأ منه .

أساطير : أكاذيب ، جمع أسطورة أو أسطار .

الأولين : السابقين .

اكتتبها : أمر بكتابتها .

تملى عليه : تلقى عليه بعد كتابتها ليحفظها .

بكرة وأصيلا : صباحًا ومساء ، والمراد : دائما .

قل أنزله : ردٌّ عليهم .

يعلم السر : ما يسرُّه أهل السماوات والأرض في نفوسهم ، والمراد : اشتماله على مغيبات وأشياء خفية ، لا يعلمها إلا عالم الأسرار ، فكيف تجعلونه أساطير الأولين .

أو يلقى إليه كنز : أي : من السماء فينفق منه ، ولا يحتاج معه إلى الضرب فى الأسواق .

جنة يأكل منها : بستان فيه ما يغنيه من أنواع الحبوب والثمار .

رجلا مسحورا : أي : سحر فاختل عقله .

الأمثال : أي : السحر ، والجنون ، والشعر ، والكهانة ، والكذب ، وما إلى ذلك .

فضلوا : أي : بقوا متحيرين فى ضلالهم ، فلا يهتدون إلى الهدى والإسلام .

سبب النزول :

قال مقاتل والكلبى ومجاهد وابن عباس : نزلت فى النضر بن الحارث ، فهو الذى قال هذا القول، وعنى بقوله : وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ . عدّاسًا مولى حويطب بن عبد العُزَّى ، ويسارًا غلام عامر بن الحضرمى، وأبو فكيهة الرومى مولى بنى الحضرمى ، وكانوا من أهل الكتاب ، يقرءون التوراة ويحدثون أحاديث منها، فأسلموا وكان النبى ﷺ يتعهدهم ويختلف إليهم ، فمن ثمّ قال النضر ما قال[٣٠٦] .

تمهيد :

بدأت سورة الفرقان بالتوحيد ، وانتقلت إلى الردّ على عُبّاد الأوثان ، وذكرت هنا شبهات المشركين وطعنهم فى القرآن ، وطعنهم فى نبوة النبى محمد ﷺ ، الذى نزل عليه القرآن .

التفسير :

٤ - وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا .

ادعى مشركو مكة أن محمدا افترى القرآن واختلقه ، وقاله من عند نفسه ، وقد استعان بمن أسلم من أهل الكتاب حيث تبنّاهم ورعاهم ، ولكون هذه التهمة ساقطة من تلقاء نفسها ، أجاب عنها القرآن إجابة مجملة فقال :

فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا .

أي : ادعوا هذه الدعوى الباطلة المائلة عن الحق ، المتّصفة بالزور والبهتان والكذب ، فشتان بين كلام المخلوق ، وكلام الخالق ، فالعرب كانوا أرباب الفصاحة والبلاغة ، ويدركون ويميزون درجات الفصاحة والبلاغة ، وقد أحسُّوا بما فى القرآن من إعجاز وبيان لا يقدر عليه بشر ، ثم غالبوا هذا الحق ، وادعوا أن محمدًا ينقل القرآن عن أهل الكتاب ، مع أن محمدًا تحدّاهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور منه ، أو بسورة واحدة ، فعجزوا ولزمهم العجز ، وكانوا أحرص الناس على الانتصار ، فقد قاتلوا محمدًا وقاتلهم ، وقاوموا دعوته بكل ما يستطيعون من سبيل ، وإذا كان محمد ينقل عن أهل الكتاب ، فلماذا لم ينقلوا هم كما

نقل ، ويقدموا سورة واحدة تحفظ ماء وجوههم ، خصوصا بعد أن تحداهم القرآن ، ووصمهم بالعجز ، حيث قال تعالى : فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ... (البقرة : ٢٤) .

وقال عز شأنه : قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . (الإسراء : ٨٨) .

٥ - وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً .

أى : ادعى مشركو مكة أن القرآن قد جمع قصص السابقين ، وتحدث عن أمم بائدة ، وتحدث عن قوم نوح وعاد وثمود وسبأ وفرعون ، كما تحدث عن زكريا ويحيى ويوسف وموسى وعيسى ، ومحمد كان يتلقى هذه الأساطير عمن أسلم من أهل الكتاب ، حيث يقرءونها عليه فى الصباح والمساء ، حتى يحفظها وينقلها للناس على أنها وحى من السماء .

النضر بن الحارث

كان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وكان يأتى الحيرة ويتعلم أخبار ملوك الفرس ، وأحاديث رستم واسفنديار ، وكان النبى ﷺ يجلس إلى قومه ، فيحدثهم بما أصاب قوم نوح وعاد وثمود من المكذبين لرسلهم ، ويدعوهم للإيمان ، خشية أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم ، فإذا قام النبى ﷺ من المجلس، جلس النضر بن الحارث وقال : تعالوا أقص عليكم ، إنى أحسن حديثا من محمد ، ويقول : إن ما يقوله محمد هو من أكاذيب القصاص وأساطيرهم ، التى سطروها فى كتبهم فهو يحدّث بها ، وهى تُملى عليه، أى: يمليها عليه غيره صباح مساء .

٦ - قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا .

قل لهم يا محمد : الذى أنزل هذا الكتاب هو الله ، عالم الأسرار والخفايا ، والمطلع على أعمال السابقين واللاحقين ، لذلك اشتمل القرآن على أخبار لم ترد فى التوراة والإنجيل ، أو وردت محرفة فصوَّبها القرآن ، وبين الصواب للمختلفين .

قال تعالى : إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . (النمل : ٧٦) .

وقال عز شأنه : الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ . (آل عمران : ١ - ٣) .

فالقرآن مصدق لما سبقه من الكتب والصحف ، وهو أيضا مهيمن عليها ، يبين ويوضح ما حُرِّف فيها وغُيِّر ، ويصوّب الخطأ ، ويزيد على ما فيها ، ولو كان القرآن ناقلا عن أهل الكتاب ، ما زاد على ما عندهم ، ولا صوَّب أخطاءهم ، ولا قوّم اعوجاجهم ، ولا بين انحرافهم .

قال تعالى : فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ... (النساء : ١٦٠) .

وقال عز شأنه : كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . (آل عمران : ٩٣) .

لقد سجل القرآن على اليهود تحريف التوراة ، والزيادة فيها ، والنقص منها .

قال تعالى : أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . (البقرة : ٧٥) .

وقال عز شأنه : وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . (آل عمران : ٧٨) .

والخلاصة : أن القرآن منزل من عند الله وحده ، وهو سبحانه حليم غفور يمهل العصاة ، ويغفر للمذنبين ، ويقبل توبة التائبين ، فتوبوا إليه حتى يقبلكم .

فى أعقاب الآيـة :

إن المسلم يعتز بهذا الكتاب الذى نسبه الله إلى نفسه ، فقد خلا من التعارض والتضارب ، قال تعالى: وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا . (النساء : ٨٢) .

ولو كان محمد مستعينا بأحد من الخلق ، لسهل عليهم الاستعانة بآخرين ، ليأتوا بمثل ما أتى به محمد ، فلما عجزوا ، واستمرَّ عجزهم مع وجود التحدّى ، دلَّ ذلك على أن القرآن ليس من صنع بشر ، بل تنزيل من حكيم حميد .

ثم إن القرآن مشتمل على الإعجاز العلمى والغيبى فقد أخبر عن أمم بائدة ، وأخبر عن أمور علمية ، تتصل بالعسل وأنه فيه شفاء ، وأهمية اللبن ، وقلة الأوكسجين فى طبقات الجو العليا ، وأن الجلد مركز الإحساس ، وأن الكون مشتمل على تكامل وتجانس ونظام وإبداع . مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ... (الملك : ٣) . كما تحدَّث القرآن عن بدء الخليقة ، وخلق السماوات والأرض ، والفضاء والجبال والهواء والإنسان ، ولم يصطدم

ذلك ولا غيره بأى حقيقة علمية، بل كلما تقدم العلم ، جاء بما يؤكد صدق هذا الكتاب، وصدق الرسول محمد ﷺ، قال تعالى : سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... (فصلت : ٥٣) .

فالله هو المطلع وحده على هذا الكون وما فيه من أسرار وخفايا ، وهو وحده الغفور الرحيم ، قال تعالى : قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا .

مطاعن المشركين فى محمد ﷺ

٧ – وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا .

تشير كتب السيرة والتفسير ، مثل تفاسير الألوسى والقرطبى والطبرى وغيرها ، عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث وغيرهم من وجوه قريش ، اجتمعوا وأرسلوا إلى النبى ﷺ ، فعرضوا عليه الملك أو الرئاسة أو السيادة أو ما يشاء نظير أن يترك دعوته ، فأخبرهم أنه لا يريد شيئا من ذلك ، ولكن الله بعثه رسولا ، وأنزل عليه كتابا ، وأمره الله أن يدعوهم إلى الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وأن يبشرهم بالجنة إن أطاعوا ، وينذرهم بالنار إن عصوا .

فقالوا : يا محمد ، إن كنت غير قابل شيئا مما عرضناه عليك ، فسلْ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدِّقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورًا من ذهب وفضة تغنيك عما تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك ، إن كنت رسولا كما تزعم ، فقال ﷺ : «ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذى يسأل ربّه هذا ، وما بُعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا» . فأنزل الله تعالى : وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ...

وهذه الآيات بما فيها من مطالب مادية ، تكررت فى القرآن الكريم ، وتشير إلى تعنت المشركين ، واستكثارهم أن يشاهدوا رجلا مثلهم ، يأكل كما يأكلون ويشرب كما يشربون ، ويمشى فى الأسواق ويتكسب للمعاش ، ثم ينزل عليه وحى السماء ، استكثروا هذا وما علموا أنَّها إرادة الله فى أن يكون الرسول بشرا يعيش كما يعيش الناس ، ويتعرض لطلب الطعام ، والمشى فى الأسواق ، وتكسب المال ، ثم ينهض بواجب الدعوة إلى الله فى مكة ، متعرضا لصنوف الاضطهاد والعذاب ، ثم يرحل إلى المدينة ويؤسس دولة الإسلام ، ويقود غزوات ناجحة ، وتأتيه الغنائم فيوزعها ، ويفضِّل أن يعيش كما تعيش جماهير الأمة ، رسولا عبدًا وليس نبيًا ملكا ، حتى تتحقق فيه القدوة والأسوة ، ويقتدى به الفقراء والأغنياء وسائر الخلق أجمعين .

وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا .

أى : قال المشركون : أىُّ سبب جعل هذا الذى يزعم أنه رسول يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشى فى الأسواق ساعيا على رزقه كما نسعى ، فلو كان رسولاً من عند ربّه لميَّزه علينا ، فهلا ميزه بأن ينزل عليه ملك ينذر المكذِّبين به ، ليجعلنا مطمئنين إلى إرساله إلينا .

٨ - أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُورًا .

أى : إذا لم ينزل معه ملك يؤازره ويصدقه ، فلا أقل من أن ينزل عليه مال يكتنزه ، ليستظهر به ، وترتفع حاجته عن اكتساب قوته والسعى فى الأسواق ، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك ، فلا أقل من أن يكون له بستان يتعيش من ريعه ، مثل مياسير قريش ، متميزا عن عامتهم ، ثم قال مشركو مكة : إن محمدًا قد غُلب على عقله ، أو أصابه مسٌّ من الجنون ، فصار يختلق كلام القرآن ثم يزعم أنه وَحْى .

٩ - ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً .

يتدخل القرآن مدافعًا عن الرسول ، مسجلا على هؤلاء المشركين تخبُّطهم فى أقوالهم ، حيث قالوا : إنَّ محمدًا شاعر ، ثم قالوا : هو ساحر ، وكاهن ، ومجنون ، وكذاب ، ومتخيِّل يرى فى منامه ما يراه ثم يرويه فى الصباح على أنه وحى ، وقريب من ذلك ما حكاه القرآن من تخبُّطهم وحيرتهم فى إلصاق التهم ، ومحاولة تشبيهه بالساحر والكاهن والشاعر والمفترى .

بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ . (الأنبياء : ٥) .

وخلاصة معنى الآية :

لقد ألصقوا بك التهم وشبهوك بالمسحورين مرة ، واتهموك بالتزوير مرة ، ومثّلوك برواة الأساطير مرة ، وكله ضلال وبعد عن الحق .

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً . فلا يجدون طريقا يسلكونه إلى الهدى والإيمان .

وهكذا سجل القرآن حيرة المشركين ، وضربهم الأمثال الواهية الرخيصة ، للصدِّ عن سبيل الله ، وقد باءت كل محاولاتهم بالفشل والخيبة والخذلان .

★ ★ ★

تصريف القول بين الدنيا والآخرة ، والنار والجنة

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

تبارك : تقدّس وكثر خيره ، وعمت بركته .

خيرا من ذلك : الذى اقترحه المشركون .

قصورا : أى : كثيرة لا قصرا واحدًا .

الساعة : قيام الناس لرب العالمين ، وسبب التسمية : أنه تعالى يفجأ بها الناس فى ساعة لا يعلمها إلا هو .

سعيرا : نارا شديدة الاستعار ، أى : الاتقاد .

تغيظا : سمعوا لها صوتًا يشبه صوت المتغيظ ، وهو إظهار أشد الغيظ والغضب .

زفيرا : الزفير : إخراج النَّفس ، وضدّه الشهيق ، أى : صوت الزافر الحزين الذى يخرج النفس من جوفه ، والمراد : صوتًا حزينًا مرعبًا .

مكانا ضيقا : أى : ألقوا من النار فى مكان ضيق لزيادة تعذيبهم .

ثبورا : هلاكا ، أى : نادوا : يا هلاكنا احضر لتنقذنا من هذا العذاب .

ثبورا كثيرا : أى : نادوا هلاكا كثيرا ، ليخلّصكم من كل نوع من أنواع العذاب الذى ينتظركم فى جهنم ، فإن أنواعه كثيرة متجددة .

الخلد : المكث الطويل .

جـــــزاء : ثوابا على إيمانهم وتقواهم .

مصـــيـــرا : صاروا إليها لا يفارقونها .

وعدا مسئولا : موعودًا يسأل الناس ربّهم أن يتفضل بإنجازه .

التفسير :

١٠ - تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا .

تعالى الله ، الذى إذا شاء التوسعة عليك فى الدنيا ، جعل لك خيرا من ذلك الذى اقترحوه ، بساتين تجرى من تحتها الأنهار لا بستانًا واحدًا ، ويجعل لك قصورًا عديدة تتمتع بها ، ولكنَّه ادخر لك الخير كله بجميع صوره فى الآخرة ، بعد قيام الساعة التى كذبوا بها .

وقد أورد القرطبى فى تفسيره طائفة من الأحاديث ، تفيد أنه عُرض على النبى مفاتيح خزائن الدنيا ، مع أنه لا ينقص ما له فى الآخرة شيئا ، وإن شاء جمع الله عز وجل له ذلك فى الآخرة ، فقال ﷺ : «يُجمع ذلك لى فى الآخرة» .

فأنزل الله عز وجل هذه الآية ، لقد اختار الرسول ﷺ أن يكون رسولا بشرا مثل سائر الناس ، يتعرض للفقر وللغنى ، حتى يكون أسوة حسنة للفقراء ، وأسوة حسنة للأغنياء ، وقدوة عملية فى شئون الحياة جميعها ، فى تصرفه وحكمته وزهده وعطفه وكرمه ﷺ .

١١ - بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا .

أى : اصبر يا محمد على أذاهم ، فإنهم يؤمنون بصدقك ، ويتيقنون بأمانتك .

فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

وليس المانع لهم من الإيمان هو كونك بشرا تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق ، أو أن الله تعالى لم ينزل عليك ملكا ، بل المانع لهم هو تكذيبهم بالساعة ، فعلَّةُ كفرهم وعنادهم ، هى عدم إيمانهم بالبعث والجزاء ، فلو آمنوا بالحياة الآخرة ، لطلبوا كلَّ وسيلة تنجيهم من عذابها ، وتسبب لهم الحصول على نعيمها ، لكنهم اهتموا بدنياهم ، وأعرضوا عن آخرتهم ، فلا تعجب من تكذيبهم إياك فيما جئتهم به من الحق ، وقد أعددنا لكل من كذب بالساعة نارا شديدة الاتقاد ، عظيمة الإحراق ، لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، وقيل: سَعِيرًا . دركة من دركات النار تسمّى سعيرا .

١٢ - إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا .

إذا رأت النار أهلها من ذوى الشرك والظلم والفساد ، وهم فى مكان بعيد مكشوف أمام النار ، تغيظت عليهم تغيظا ، وزفرت زفيرًا مزعجًا ، فيسمعونه فترتعد له فرائصهم .

وإسناد الرؤية والزفير إلى النار على المجاز ، وقيل : إنه على الحقيقة ، حيث إن جهنم تشتاق إلى المشركين ، وتتلمظ غيظا على من عصى الله تعالى ، وتظلّ تقول : هَلْ مِن مَّزِيدٍ . حتى يضع رب العزة رحمته فيها فتقول : (قطنى قطنى) أى : كفانى كفانى .[٣٠٧] .

قال تعالى : يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ . (ق : ٣٠) .

ورجح القرطبى أن النار ترى المشركين على الحقيقة ، لا على المجاز ، واستدل بما رُوى مرفوعًا أن رسول الله ﷺ قال : «من كذب علىّ متعمدًا ؛ فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدا» .

١٣ - وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا .

هم يتعرضون لألوان العذاب والمهانة والضيق والكروب ، فإذا وضعوا فى مكان ضيّق كضيق الجراب على السيف ، والزجّ على الرمح ، حال كون أيديهم مقرونة إلى أعناقهم ، ومقيدة بالسلاسل فى أعناقهم ، نادوا بأعلى صوتهم : يا ثبوراه ، أى : يا هلاكاه احضر فهذا أوان حضورك ، لتنقذنا مما نحن فيه .

قال بعض العلماء : دعاء الثبور ونداؤه كناية عن تمنيهم الهلاك ، ليسلموا مما هو أشدّ منه ، كما قيل: أشدّ من الموت ما يُتمنّى معه الموت .

١٤ - لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا .

أى : لا تدعوا اليوم ويلاً واحدًا ، وادعوا ويلاً كثيرًا ، لتعدد العذاب بتعدد أنواعه ، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودًا غيرها ، فهم بحاجة فى كل عذاب إلى هلاك وموت جديد يخلصهم منه ، وأنى لهم الموت ، وهيهات أن ينفعهم هذا الدعاء ، فإنهم خالدون فى النار أبدًا ، فالمقصود فى الآية إقناطهم من النجاة ، وأن دعاءهم برفع العذاب لا ينتهى .

وقال ابن كثير : الأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون : وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا . (الإسراء : ١٠٢) . أى : هالكًا .

١٥ - قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا .

قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين : أذلك العذاب الأليم خير وأفضل ، أم جنة النعيم المقيم والخلود الدائم التى وعد الله بها عباده المتقين ؟ وهذه الجنة كانت لأهل الإيمان والتقوى ، مثوبة ومكافأة لأعمالهم ، ومصيرًا يصيرون إليه لا يفارقونه أبدا ، ونلاحظ أن النار لا خير فيها ، ولا مناسبة بينها وبين الجنة ، وإنما هو التذكير فقط ، والمقابلة بين جزاء الأشرار ، ومكافأة الأخيار ، ليرتدع الكافرون ، ويجتهد المؤمنون .

١٦ - لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولاً .

لأهل الجنة ما يطلبون من النعيم ، وفى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فيها التكريم والتنعيم ، والخلود الأبدى بلا موت ، هذا وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد .

وقيل : إن هذا الجزاء العظيم ، من حق العباد الصالحين أن يطلبوه وأن يسألوه ، كما ورد فى قوله تعالى : رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ . (آل عمران : ١٩٤) . أو أن الملائكة تدعو للمؤمنين ، وتسأل الله لهم المغفرة ، والجنة تكريما لهم ، واعترافا بفضلهم .

قال تعالى : ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (غافر : ٧ ، ٨) .

فى ختام الآيات

هذه آيات الله فى سورة الفرقان ، خلعت الحياة على جهنم ، فجعلتها ترى المشركين ، وهى تتغيظ فى صوت الزفير الذى يخلع القلوب من هوله ، وشخَّصت منظر المشركين وهم يُلْقون فى النار ، فى أضيق مكانٍ ، مقرنين بالسلاسل ، يتنادون بالويل والهلاك ، وأنى لهم الهلاك ، ثم يقارن القرآن بين هذا العذاب ، وما يقابله من نعيم المتقين فى الجنة ، وهم يتمتعون بما يشاءون من النعيم والخلود والتكريم الإلهى لهم .

والله العلى القدير يعرض النار والجنة أمام عباده ، وقد أعذر من أنذر ، ولله الفضل والمنة ، وله الحمد فى الأولى والآخرة .

★ ★ ★

سؤال الأصنام والملائكة وعزير والمسيح

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

يحشرهم : يجمعهم .

ضل السبيل : فقده ، وخرج عن طريق الحق .

سبحانك : تنزيها لك عما لا يليق بجلالك وكمالك .

الذكر : القرآن ، أو كل ذكر الله .

بُورًا : هالكين فاسدين ، وهو لفظ يستوى فيه الواحد والجمع .

صرفا : دفعا للعذاب ، أو حيلة ، من قولهم : إنه يتصرف ، أى : يحتال .

التفسير :

١٧ - وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ .

تعرض الآية مشهدا من مشاهد القيامة يوم يحشر الله المشركين ، والآلهة التى عبدوها من دون الله، كالملائكة والجن والمسيح والأصنام والأوثان ، فيسأل الله هذه الآلهة سؤال توبيخ وتقريع لمن عبدوهم .

كما ورد فى قوله تعالى : وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ..(التكوير: ٨ ، ٩) .

كأنَّ قائلها ليس أهلا لأن يوجه إليه السؤال ، وكما ورد فى سؤال المسيح فى سورة المائدة ، وتبرؤ المسيح ممن عبده من دون الله .

قال تعالى : وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ... (المائدة : ١١٦) . وسؤال الأصنام والأوثان والجماد ، إما أن يكون بلسان الحال ، وإما أن يكون بلسان المقال ، بمعنى أن تنطق هذه الجمادات ، أو تشهد على نحو ما قال تعالى : وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء : ٤٤) .

فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ .

فيقول الله لهذه الآلهة : هل دعوتم عبادى هؤلاء إلى عبادتكم من دونى ؟ أو هل زينتم لهم الشرك حتى وقعوا فى الضلال بسببكم ، أم هم الذين ضلُّوا بأنفسهم ، أو عبدوكم من تلقاء أنفسهم ، من غير دعوة منكم لهم ؟

١٨ – قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا .

قالت الآلهة المعبودة من دون الله : تنزهت يا ربنا عن الشريك والمثيل ، لا يصح منّا اتخاذ أولياء من دونك ، فندعو عبادك إلى عبادتهم فنضلهم بذلك ،أو ما دعوناهم إلى عبادتنا ، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ، ونحن براء منهم ومن عبادتهم ، وإذا كنا لا نرى من دونك أولياء ، فكيف ندعو غيرنا إلى ذلك .

ونظير الآية قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ... (سبأ : ٤٠ ، ٤١) .

ثم تذكر الآلهة المعبودة من دون الله سبب انحراف المشركين وبطرهم ، فتقول :

وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا .

أى : أنعمت عليهم ، بطول الأعمار وسعة الأرزاق ، وغنى الآباء والأجداد ، فانغمسوا فى الشهوات والملاذ ، حتى نسوا ذكرك وعبادتك ، وما جاءتهم به الرسل ، وما نزلت به كتب السماء ، فكانوا بذلك قوما هلكى خاسرين .

من تفسير القرطبى

قَوْمًا بُورًا . أى : هلكى ، قاله ابن عباس ، مأخوذ من البوار وهو الهلاك ، وقال أبو الدرداء – رضى الله عنه – وقد أشرف على أهل حمص : يا أهل حمص ، هلمَّ إلى أخ لكم ناصح ، فلما اجتمعوا حوله قال: ما لكم لا تستحون ! تبنون ما لا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون ، إن من كان قبلكم بنوا مشيدا ، وجمعوا عبيدا ، وأملوا بعيدا ، فأصبح جمعهم بورا ، وآمالهم غرورا ، ومساكنهم قبورا .

قوله : بورا . أى : هلكى ، وفى خبر آخر : فأصبحت منازلهم بورا ، أى : خالية لا شىء فيها ، وقال الحسن : بورا . لا خير فيهم ، مأخوذ من بوار الأرض ، وهو تعطيلها من الزرع ، فلا يكون فيها خير ، وقال شهر بن حوشب : البوار : الفساد والكساد ، مأخوذ من قولهم : بارت السلعة ، إذا كسدت كساد الفاسد ، ومنه الحديث : «نعوذ بالله من بوار الأيم» ، وهو اسم مصدر كالزور ، يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والاثنان والجمع(٣٠٨) .

١٩ – فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا .

يتَّجه الخطاب من الحق سبحانه وتعالى إلى عُبَّاد الأصنام فيقول لهم : لقد تبرأت منكم الأصنام ، وسائر الآلهة التى عبدتموها من دون الله ، وكذبتكم فى قولكم إنها آلهة ، وأسقط الآن فى أيديكم ، وظهر واضحًا ضلال شرككم ، واستحقاق العذاب لكم ، وأنتم الآن لا تستطيعون صرف العذاب عن أنفسكم ، ولا تجدون من ينصركم ويدفع عقاب الله عنكم .

والخلاصة : إنكم لا تستطيعون النجاة، لا بالهرب، ولا بالانتصار لأنفسكم ، فأنتم معذبون لا محالة.

وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا .

وهذا خطاب عام لسائر الناس ، يقول تعالى : ومن يشرك بالله غيره ، أو يعبد سواه ، أو يظلم عباد الله فى الدنيا ؛ نذقه عذابًا شديدًا فى الآخرة .

ونلحظ أن المشهد فى السابق كان فى يوم القيامة على طريقة الحوار أو السؤال والجواب ، وكانت نتيجة السؤال والجواب بيان حصر المسئولية عن الضلال فى العابدين ، دون المعبودين ، وعندئذ يستحق هؤلاء العذاب الكبير جزاء شركهم وكفرهم .

قال صاحب الظلال :

وبينما المشهد فى الآخرة يوم الحشر ، ينتقل السياق فجأة إلى المكذبين ، وهم بعد فى الأرض : وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا . ذلك على طريقة القرآن فى لمس القلوب فى اللحظة التى تتهيأ فيها للاستجابة، وهى متأثرة بمثل ذلك المشهد المرهوب .

٢٠ – وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا .

تأتى هذه الآية تسلية للرسول ﷺ ، فى أعقاب مشاهد الآخرة ، واستحقاق المشركين للعذاب ، يعود السياق إلى الرسول ﷺ ، يسليه ويواسيه بأنَّهُ لم يكن بدعا من الرسل ، فجميع الرسل كانوا رجالا يأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق ، ويختلطون بالناس ، ويتعرضون لصنوف البلاء ، ولو كان الرسل أغنياء أمراء ، لدخل فى دعوتهم طلاب الدنيا وراغبوها ، لكن إرادة الله شاءت أن يكون الرسل بشرا ، وأن يكابدوا فى سبيل دعوتهم البلاء الشديد ، قال تعالى : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

وقال عز شأنه : حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ . (يوسف : ١١٠) .

وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ...

أى : امتحانًا واختبارًا وابتلاء ، حيث يوجد فى هذه الدنيا الغنى والفقير ، والمريض والصحيح ، والرسول والمرسل إليهم ، وصاحب الحق وطالب الهوى ، فلا ينبغى أن يحسد الفقير الغنى ، أو المريض الصحيح ، ولا ينبغى أن يمنع الغنى الحق عن الفقير ، ولا أن يمنع السليم العون عن المريض ، فالفقير عليه أن يبعد الحسد من قلبه عن الغنى ، والغنى عليه أن يبعد البطر والمنع عن الفقير ، فقد أراد الله أن تكون الدنيا دار ابتلاء واختبار ، ووضع بها سننا ونواميس ، ينبغى أن ندرسها ونتعاون معها ولا نصطدم بها .

أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا .

الاستفهام هنا معناه الحث على الصبر والأمر به، أى: اصبروا ولا تجزعوا من أذى المشركين، أو اتهام المبطلين ، أو نقاش المنحرفين ، فتلك سنة الله فى البلاء والاختبار ، وهو سبحانه مطلع وشاهد، بصير بمن يصبر وبمن يجزع، عليم بالمخلصين، خبير بالقلوب والسرائر، وسيجازى كل إنسان بما يستحق .

من تفسير مقاتل بن سليمان :

قال تعالى : وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا .

نزلت هذه الآية حين أسلم أبو ذر الغفارى ، وعبدالله بن مسعود ، وعمار بن ياسر، وصهيب ، وبلال ، وخبّاب بن الأرت ، وجبر مولى عامر بن الحضرمى ، وسالم مولى أبى حذيفة ، والنمر ابن قاسط ، وعامر بن فهيرة ، ومهجع بن عبد الله ، ونحوهم من الفقراء – رضى الله عنهم جميعا – فقال أبو جهل ، وأميّة ، والوليد ، وعقبة ، وسهيل ، والمستهزئون من قريش : انظروا إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمدًا ، من موالينا وأعواننا ، رذالة كل قبيلة ، فازدروهم ؛ فقال الله تعالى لهؤلاء الفقراء من العرب والموالى :

أَتَصْبِرُونَ . على الأذى والاستهزاء . وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا . إن تصبروا .

فصبروا ولم يجزعوا ، فأنزل الله فيهم : إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ... أى : على الأذى والاستهزاء من كفار قريش[٣٠٩] . أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ . (المؤمنون : ١١١) .

وجاء فى تفسير القرطبى ما يأتى :

روى أبو الدرداء عن النبى ﷺ أنه قال : «ويل للعالم من الجاهل ، وويل للجاهل من العالم ، وويل للسلطان من الرعية ، وويل للرعية من السلطان ، ويل للمالك من المملوك ، وويل للمملوك من المالك ، وويل للشديد من الضعيف ، وويل للضعيف من الشديد ، بعضهم لبعض فتنة ، قال تعالى : وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا . أسنده الثعلبى[٣١٠].

وفى صحيح مسلم ، عن عياض بن حِمَارٍ ، عن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : إنى مبتليك ومبتلٍ بك» .

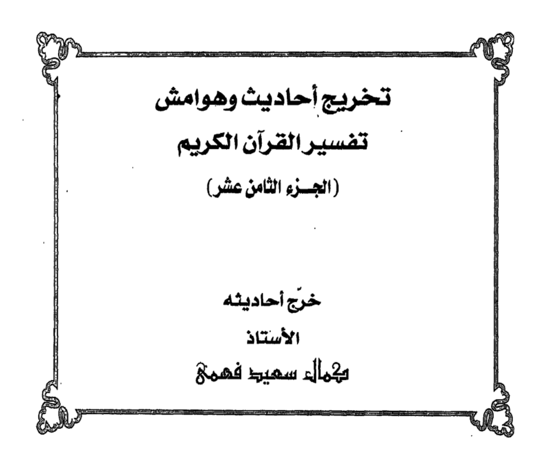
وفى مسند أحمد ، عن رسول الله ﷺ قال : «لو شئتُ لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة»

وفى صحيح البخارى : أنه ﷺ خُيّر بين أن يكون نبيا ملكا ، أو عبدًا رسولا ، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير الجزء (الثامن عشر)

ويليه تفسير الجزء (التاسع عشر) إن شاء الله تعالى



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجـــزء الثامن عشر)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

(١) انظر ظلال القرآن بقلم سيد قطب ١٨/٨ .

(٢) لقد أنزل على عشر آيات :

رواه أحمد ح ٢١٨ ، والترمذى فى تفسير القرآن ح ٣٠٩٧ .

(٣) كان خلقه القرآن :

كذا رواه مسلم فى أثناء حديث طويل من كتاب صلاة المسافرين ١٢٣٣ ، وأحمد مختصرًا ح ٢٣٤٦٠ ، ٢٤١٣٩ ، ٢٤٦٢٩ .

(٤) حبب إلى الطيب والنساء :

رواه أحمد ح ١١٨٤٥ ، ١٢٥٨٤ ، ١٣٥٢٦ ، والنسائى فى عشرة النساء ح ٣٨٧٨ .

(٥) بنى الإسلام على خمس :

رواه البخارى فى الإيمان ح ٧ ، وفى تفسير القرآن ح ٤١٥٣ ، ومسلم فى الإيمان ح ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، والترمذى فى الإيمان ح ٢٥٣٤ ، والنسائى فى الإيمان ح ٤٩١٥ ، وأحمد ح ٤٥٦٧ ، ٥٤١٤ ، ٥٧٤٣ ، ١٨٤٢٣ ، ١٨٤٢٩ .

(٦) من يضمن لى ما بين لحييه :

رواه البخارى فى الرقاق ح ٥٩٩٣ ، وفى الحدود ح ٦٣٠٩ ، والترمذى فى الزهد ح ٢٣٣٢ ، ٢٣٣٣ ، وأحمد ح ٣٦١٣، ٢١٧٥٧ ، ومالك فى الجامع ح ١٥٦٦ .

(٧) ما ظهرت الفاحشة فى قوم :

رواه ابن ماجة فى الفتن ح ٤٠٠٩ ، ومالك فى الموطأ كتاب الجهاد ح ٨٧٠ ، بنحوه .

(٨) احفظ فرجك إلا عن زوجتك :

رواه أبو داود فى الحمام ح ٣٥٠١ ، والترمذى فى الأدب ح ٢٦٩٣ ، ٢٧١٨ .

(٩) أى : جعلته يجامعها ويستمتع بها ، من السِّر بمعنى الجماع .

(١٠) آية المنافق ثلاث :

رواه البخارى فى الإيمان ح ٣٣ ، وفى الشهادات ح ٢٦٢٨ ، وفى الوصايا ح ٢٧٤٩ ، وفى الأدب ح ٦٠٩٥ ، ومسلم فى الإيمان ح ٥٩ ، ٧٤ ، والترمذى فى الإيمان ح ٢٦٣١ . وقال : حسن صحيح .

(١١) الصلاة الصلاة :

رواه أبو داود فى الأدب ح ٥١٥٦ ، وابن ماجة فى الوصايا ح ٢٦٩٨ ، وأحمد فى مسنده ح ٥٨٦ . وليس فيه : واستوصوا بالنساء خيرًا .

(١٢) الصلاة على وقتها :

رواه البخارى فى مواقيت الصلاة ح ٥٧٢ ، وفى الأدب ح ٥٩٧٠ ، ومسلم فى الإيمان ح ٨٥ ، والنسائى فى المواقيت ح ٦١٠ ، وأحمد ح ٣٨٨٠ ، ٤١٧٥ . من حديث عبدالله بن مسعود .

(١٣) جزء من حديث ، رواه البخارى فى الجهاد والسير ٢٧٩٠ ، وفى التوحيد ح ٧٤٣٢ ، وأحمد ح ٧٨٦٣ ، ٨٢١٤ ، ٨٢٦٩ ، من حديث أبى هريرة مرفوعًا : من آمن بالله وبرسوله ..... الحديث . رواه الترمذى فى صفة الجنة ح ٢٥٢٩ ، وأحمد ح ٢١٥٨٢ ، من حديث معاذ بن جبل مرفوعًا : من صام رمضان وصلى الصلوات ..... الحديث . ورواه الترمذى أيضًا فى صفة الجنة ح ٢٥٣٠ ، وأحمد ح ٢٢١٨٧ ، ٢٢٢٣٢ ، من حديث عبادة بن الصامت مرفوعًا : فى الجنة مائة درجة .... الحديث . وأشار الترمذى إلى أن حديث معاذ أصح من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنهما .

(١٤) تفسير المراغى ، تأليف أحمد مصطفى المراغى ١٨/١٠-١١ ، وقد نقل فى تفسير هذه الآية كلاما علميا عن الدكتور أحمد محمد كمال فى مجلة الدكتور ، وعن الدكتور سالم محمد فى مجلة الدكتور أيضًا .

(١٥) كل جسد ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب :

رواه البخارى فى تفسير القرآن ح ٤٩٥٣ ، ومسلم فى الفتن ح ٢٩٥٥، والنسائى فى الجنائز ح ٢٠٧٧ ، وأبو داود فى السنة ح ٤٧٤٣، وابن ماجة فى الزهد ح ٤٢٦٦ ، ومالك فى الجنائز ح ٥٦٥ ، وأحمد ح ٨٠٨٤ ، ٩٢٤٤ ، ١٠٠٩٩ ، ١٠١٠٠ . من حديث أبى هريرة مطولاً ومختصرًا .

(١٦) ورد ذلك على لسان ملك الروم لأبى سفيان ، ورواه البخارى فى صحيحه .

(١٧) ضمير الجمع فى قوله تعالى : (يستأخرون) عائد على (أمة) باعتبار المعنى ، إذ المراد بها : الأفراد المجتمعون .

(١٨) يا أيها الناس إن الله تعالى طيب :

رواه مسلم فى الزكاة ح ١٠١٥ ، والترمذى فى تفسير القرآن ح ٢٩٨٩ ، وأحمد ح ٨١٤٨ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٧١٧ . من حديث أبى هريرة .

(١٩) أيما لحم نبت من سحت فالنار أولى به :

هذه اللفظة جزء من حديث طويل رواه الترمذى فى الجمعة ٦٤١ ، وأحمد ح ١٤٠٣٢ ، ١٤٨٦٠ ، والدارمى فى الرقاق ٢٧٧٦ ، مختصرًا بنحوه . كلهم من حديث جابر بن عبدالله .

(٢٠) إذا رأيت الله تعالى يعطى العبد :

رواه أحمد فى مسنده ح ١٦٨٦٠ ، من حديث عقبة بن عامر ، وقال فى آخره : ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ...﴾ الآية .

(٢١) يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى :

رواه مسلم فى البر والصلة ح ٢٥٧٧ ، وأحمد ٥ / ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٧ ، والترمذى ح ٢٤٩٥ ، وابن ماجة ح ٤٢٧٥ ، وعبد الرزاق ح ٢٠٢٧٢ من حديث أبى ذر .

(٢٢) تفسير القرطبى باختصار وتصرف ٥/ ٤٦٦٠ ، طبعة دار الغد العربى ، الطبعة الثانية ١٩٩٦ م .

(٢٣) اللهم اشدد وطأتك على مضر :

رواه البخارى فى الأذان ح ٨٠٤ ، ومسلم فى المساجد ح ٦٧٥ ، والنسائى فى التطبيق ح ١٠٧٤ ، وأبو داود فى الصلاة ح ١٤٤٢، وابن ماجة فى إقامة الصلاة ح ١٢٤٤ ، وأحمد ح ٧٢١٩ ، ٧٤١٥ ، والدارمى فى الصلاة ح ١٥٩٥ .

(٢٤) أن ثلاثة فى بنى إسرائيل :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٣٤٦٤ ، ومسلم فى الزهد ح ٢٩٦٤ .

(٢٥) ما السماوات السبع والأرضون :

البخارى فى التفسير (٤٨١١) ، ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٨٦ /١٩-٢١) .

(٢٦) رواه الترمذى فى تفسير القرآن ح ٣٢٣٣ ، ٣٢٥٣ ، وأحمد ح ٢١٦٠٤ ، وذكره مالك بلاغا فى النداء للصلاة ، وابن جرير فى التفسير ٢٤/ ١٧ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٥/ ٣٣٦ .

(٢٧) بسم الله ، أعوذ بكلمات الله التامة :

مسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٠٨/ ٥٤) ، والترمذى فى الدعوات (٣٤٣٧) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، وابن ماجة فى الطب (٣٥٤٧) ، ومالك فى الاستئذان ٢/ ٩٨٧ (٣٤) ، وأحمد ٦/ ٣٧٧ ، كلهم عن خولة بنت حكيم رضى الله عنها . وكذا مسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٠٩) ، وأبو داود فى الطب (٣٨٩٩) . وابن ماجة فى الطب (٣٥١٨) ، ومالك فى الشعر ٢/ ٩٥١ (١١) ، وأحمد ٢/ ٢٩٠ ، كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢٨) أعوذ بكلمات الله التامة :

رواه أحمد ح ١٦١٣٧ ، ٢٣٣٢٧، وكذا رواه الترمذى فى الدعوات ح ٣٥٨٢ ، وأبو داود فى الطب ح ٣٨٩٣ ، ومالك فى الجامع ح ١٧٧٢ ، بنحوه . وانظر ما قبله .

(٢٩) رواه النسائى فى الاستعاذة ح ٥٥٣٣، وأبو داود فى الصلاة ح ١٥٥٢ ، وأحمد ح ١٥٠٩٧ .

(٣٠) إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين :

أبو داود فى العلم (٣٦٤٦) ، السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٢٩٢ ، وعزاه للدار قطنى .

(٣١) فاطمة بضعة منى :

رواه البخارى فى المناقب ح ٣٧١٤ ، ومسلم فى فضائل الصحابة ح ٢٤٤٩ ، وأبو داود فى النكاح ح ٢٠٦٩ ، ٢٠٧١ ، وابن ماجة فى النكاح ح ١٩٩٨ ، ١٩٩٩ ، وأحمد ح ١٨٤٢٨ ، ١٨٤٣٢، ١٨٤٤٧ ، ١٨٤١٥ .

(٣٢) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى ٢/ ٥٧٧ .

(٣٣) إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة :

مسلم فى الإيمان (١٨١ / ٢٩٨) بنحوه .

(٣٤) أخرجه ابن أبى حاتم، عن رجل من آل سعيد بن العاص. وانظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابونى ٢/٥٧٩.

(٣٥) المرجع السابق.

(٣٦) **اللهم إنى ظلمت نفسى:**

البخارى فى الأذان (٨٣٤)، ومسلم فى الذكر (٢٧٠٥/٤٨)، كلاهما عن أبى بكر.

(٣٧) تفسير سورة النور لأبى الأعلى المودودى: ١٠.

(٣٨) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ١/١٦٠.

(٣٩) تفسير سورة الإسراء د. عبدالله شحاتة: ١٣٢.

(٤٠) الإصحاح الثانى والعشرون، الآيتان ١٦، ١٧.

(٤١) الإصحاح الثانى والعشرون، الآيتان ٢٨، ٢٩.

(٤٢) المحصن: هو الذى سبق له الزواج.

(٤٣) ثمرة السياط: عقدة أطرافها.

(٤٤) الاختيار (فقه حنفى)، تأليف عبدالله الموصلى: ٣/٤٠، ٤١.

(٤٥) هذا هو رأى الجمهور، انظر تفسير المنار: ٣/٣٥٥، فقد توسع فى تفسير هذه الآيات.

(٤٦) المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر: ١٨٥.

(٤٧) كتاب التثنية، الإصحاح الثانى والعشرون، الآيات ٢٢ - ٢٦. وتلحظ أن الفتاة فى المدينة تستطيع أن تصرخ وتستنجد بالناس، أما إذا كانت فى الحقل فربما لا يجيبها أحد إذا استغاثت.

(٤٨) **لأقضين بينكما بكتاب الله:**

رواه البخارى فى الصلح ٢٦٩٦، وفى الشروط ح ٢٧٢٥، وفى الأيمان والنذور ح ٦٦٣٣، وفى الحدود ح ٦٨٢٨، ٦٨٣٦، ٦٨٤٣، ٦٨٦٠، وفى الأحكام ح ٧١٩٥، وفى أخبار الآحاد ح ٧٢٦٠، وفى الاعتصام ح ٧٢٧٩، ومسلم فى الحدود ح ١٦٩٨، والترمذى فى الحدود ح ١٤٣٣، والنسائى فى آداب القضاة ح ٥٤١٠، ٥٤١١ وأبو داود فى الحدود ح ٤٤٤٥، وابن ماجة فى الحدود ح ٢٥٤٩، وأحمد ح ١٦٥٩٠، ١٦٥٩٤، ومالك فى الحدود ١٥٥٦، والدارمى فى الحدود ح ٢٣١٧، من حديث أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى، وفى بعضها من حديث أبى هريرة وحده، وفى بعض الروايات من حديث أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى وشبل.

(٤٩) أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ بالحق :

بهذا اللفظ رواه أحمد ح ٢٧٨ ، ٣٩٣ من حديث عمر بن الخطاب موقوفًا ، ورواه البخارى فى المظالم ح ٢٤٦٢ ، وفى الحدود ح ٦٨٢٩ ، ٦٨٣٠ ، وفى الاعتصام ح ٧٣٢٣ ، ومسلم فى الحدود ح ١٦٩١ ، والترمذى فى الحدود ح ١٤٣١ ، ١٤٣٢ ، وأبو داود فى الحدود ح ٤٤١٨ ، وابن ماجة فى الحدود ح ٢٥٥٣ ، ومالك فى الحدود ح ١٥٥٨ ، ١٥٦٠ ، والدارمى فى الحدود ح ٢٣٢٢ ، وفى الرقاق ح ٢٧٨٤ ، بنحوه .

(٥٠) لولا أن يقول قائل أو يتكلم متكلم :

رواه البخارى فى أثناء حديث طويل من كتاب الحدود ح ٦٨٣٠ ، ومسلم فى الحدود ح ١٦٩١ ، وأبو داود فى الحدود ح ٤٤١٨ ، وأحمد ح ١٥٧ ، ١٩٨ ، وانظر ما قبله .

(٥١) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى : ٢/٥٨١ .

(٥٢) خذوا عنى خذوا عنى :

رواه مسلم فى الحدود ح ١٦٩٠ ، والترمذى فى الحدود ح ١٤٣٤، وأبو داود فى الحدود ح ٤٤١٥ ، وابن ماجة فى الحدود ح ٢٥٥٠، وأحمد ح ١٥٤٨٠ ، ٢٢١٥٨، ٢٢١٩٥ ، والدارمى فى الحدود ح ٢٣٢٧، من حديث عبادة بن الصامت .

(٥٣) تفسير آيات الأحكام : إشراف محمد على السايس : ٣ / ١١٠ .

(٥٤) لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث :

رواه البخارى فى الديات ح ٦٣٧٠ ، ومسلم فى القسامة ٣١٥٧، ٣١٦٧ ، والترمذى فى الديات ح ١٣٢٢، وفى الحدود ح ١٣٦٤ ، والنسائى فى تحريم الدم ح ٣٩٥١ ، وفى القسامة ح ٤٦٤٢ ، وأبو داود فى الحدود ح ٣٧٨٨، وابن ماجة فى الحدود ح ٢٥٢٥ ، وأحمد ح ٣٤٣٨ ، ٣٨٥٩ ، ٤٠٢٤ ، والدارمى فى الحدود ح ٢١٩٦ .

(٥٥) تفسير آيات الأحكام : إشراف محمد على السايس :٣ / ١١٤ .

(٥٦) أبو الأعلى المودودى ، تفسير سورة النور : ٥٠٠ .

(٥٧) من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط :

رواه الترمذى فى الحدود ح ١٤٥٥ ، ١٤٥٦، ١٤٦١ ، وأبو داود فى الحدود ح ٤٤٦٢ ، وابن ماجة فى الحدود ح ٢٥٦١ ، وأحمد ح ٢٧٢٧ ، والدارمى فى السير ٢٤٩٠ من حديث ابن عباس .

(٥٨) تفسير آيات الأحكام ، إشراف محمد على السايس : ٣ / ١١٤ .

(٥٩) اختلطت بها .

(٦٠) أجامعها .

(٦١) بل للناس كافة :

رواه مسلم فى التوبة ح ٢٧٦٣ ، والترمذى فى التفسير ٣١١٢ ، وأحمد ح ٤٢٣٨ ، ٤٢٧٨ عن عبدالله بن مسعود .

(٦٢) أليس قد صليت معنا :

رواه البخارى فى الحدود ح ٦٨٢٣ ، ومسلم فى التوبة ح ٢٧٦٤ ، من حديث أنس رضى الله عنه .

(٦٣) اللهم إنى أول من أحيا أمرك :

إن المجتمع الذى يشجع الاختلاط ، ويتسامح بالخلوة بالأجنبية ، ويسمح بعرض الأفلام التى تفلسف الحرية الشخصية ، وتهون من أمر الفاحشة لا يشجع على إحصان أفراده ، وأولى بالمسلمين إذا أرادوا معالجة الموقف أن ينظروا للمجتمع ككل ، فالفرد إنسان يحيا فى ظل المجتمع ويتأثر بكل مؤسساته : بالأسرة ، والمدرسة ، والنادى ، ووسائل الإعلام ، والواجب أن تتكاتف هذه الوسائل كلها لبناء الفرد والمجتمع .

متى يبلغ البنيان يوما تمامه .. إذا كانت تبنيه وغيرك يهدم ، وقد ذكر ابن تيمية فى سورة النور أن شارب الخمر يحرص على الجماع فى حلال أو حرام ، فإن وجد الحلال أغناه عن الحرام ، وإن لم يجد الحلال فربما زنا بأبنته أو بأخته .

وحديث قضاء النبى ﷺ فى اليهوديين رواه مسلم فى الحدود ١٧٠٠ ، وأبو داود فى الحدود ٤٤٤٨ ، وابن ماجة فى الحدود ٢٥٥٨ ، وأحمد ١٨٠٥٤ من حديث البراء .

(٦٤) أن عبدا من رقيق الإمارة :

رواه البخارى فى الإكراه ، باب : إذا استكرهت المرأة على الزنا ، تعليقا ، ورواه مالك عن نافع أيضًا فى الحدود ح ١٥٦٥ .

(٦٥) لعلك قبلت أو غمزت :

رواه البخارى فى الحدود ح ٦٨٢٤ ، وأبو داود فى الحدود ح ٤٤٢٢ ، ٤٤٢٧ ، وأحمد ح ٢١٣٠ ، ٢٣١٠ ، ٢٤٢٩ ، ٢٦١٢ .

(٦٦) لقد تابت توبة :

رواه مسلم فى الحدود ح ١٦٩٥ ، ١٦٩٦ ، والترمذى فى الحدود ح ١٤٣٥ ، والنسائى فى الجنائز ح ١٩٥٧ ، وأبو داود فى الحدود ح ٤٤٤٠ ، ٤٤٤٢ ، وأحمد ح ١٩٣٦٠ ، ١٩٤٠٢ ، ١٩٤٢٤ ، ١٩٤٥٢ ، والدارمى فى الحدود ح ٢٣٢٤ ، ٢٣٢٥ .

(٦٧) أتشفع فى حد من حدود الله :

البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٣٤٧٥ ، وفى الحدود ح ٦٧٨٨ ، ومسلم فى الحدود ح ١٦٨٨ ، والترمذى فيه ح ١٤٣٠ ، والنسائى فى قطع السارق ح ٤٨٩٩ وأبو داود فى الحدود ح ٤٣٧٣ ، وابن ماجة فى الحدود ٢٥٤٧ ، والدارمى فى الحدود ح ٢٣٠٢ .

(٦٨) أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم :

هو جزء من الحديث قبله .

(٦٩) من حالت شفاعته دون حد :

رواه أبو داود فى الأقضية ح ٣٥٧٩ ، وأحمد ح ٥٣٦٢ ، ٥٥١٩ ، من حديث عبدالله بن عمر مرفوعًا .

(٧٠) من وقع على ذات محرم :

رواه ابن ماجة فى الحدود ح ٢٥٤٦ .

(٧١) ملعون من أتى امرأة فى دبرها :

رواه أبو داود فى النكاح ٢١٦٢ .

(٧٢) من أتى حائضا أو امرأة فى دبرها :

رواه الترمذى فى الطهارة ح ١٣٥ ، وأبو داود فى الطب ح ٣٩٠٤ ، وابن ماجة فى الطهارة ح ٦٣٩ ، وأحمد ح ٩٠٣٥ والدارمى فى الطهارة ح ١١٣٦ .

(٧٣) اضمنوا لى ستًا من أنفسكم :

رواه أحمد ح ٢٢٢٥١ ، من حديث عبادة بن الصامت .

(٧٤) لا يزنى الزانى حين يزنى :

رواه البخارى فى المظالم ح ٢٤٧٥ ، وفى الأشربة ح ٥٥٧٨ ، وفى الحدود ح ٦٧٧٢ ، ٦٧٨٢ ، ٦٨١٠ ، ومسلم فى الإيمان ح ٥٧ ، والترمذى فى الإيمان ح ٢٦٢٥ ، والنسائى فى قطع السارق ح ٤٨٧٠ ، ٤٨٧١، ٤٨٧٢ ، وفى الأشربة ح ٥٦٥٩ ، ٥٦٦٠ ، وأبو داود فى السنة ح ٤٦٨٩ ، وابن ماجة فى الفتن ح ٣٩٣٦، وأحمد ح ٨٦٧٨ ، ٩٨٥٩، ١٤٣٢١، ٢٤٥٦٥ ، والدارمى فى الأشربة ح ٢١٠٦ .

(٧٥) إن الله كتب على ابن آدم حظه :

رواه البخارى فى الاستئذان ح ٦٢٤٣ ، وفى القدر ح ٦٦١٢ ، ومسلم فى القدر ح ٢٦٥٧ ، وأبو داود فى النكاح ٢١٥٢ ، وأحمد ح ٧٦٦٢، ٢٧٤٣٧ ، ٢٧٠٢٣ ، من حديث أبى هريرة .

(٧٦) يا مرثد الزانى لا ينكح إلا زانية :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن ح ٣١٧٧ ، والنسائى فى النكاح ٣٢٢٨ .

(٧٧) كانت امرأة يقال لها أم مهزول :

رواه أحمد ح ٦٤٤٤ ، ٧٠٥٩ .

(٧٨) تفسير القرطبى : ١٢ / ١٦٨ .

(٧٩) تفسير آيات الأحكام السايس : ٣/١١٧ ، وتفسير النسفى : ٣/١٣١ .

(٨٠) تفسير القرطبي .

(٨١) المرء على دين خليله :

رواه الترمذي في الزهد ح ٢٣٧٨ ، وأبو داود في الأدب ح ٤٨٣٣ ، وأحمد ٧٩٦٨ ، ٨٢١٢ ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

(٨٢) تفسير سورة النور لابن تيمية ، مكتبة المنار الإسلامية – الكويت : ٥٠ .

(٨٣) تفسير سورة النور لابن تيمية : ٥١ .

(٨٤) أي : إن ماء الزنا لا حرمة له ، فلا يحرم الزنا زواج الزاني من الزانية ، لقوله ﷺ : «الحرام لا يحرم حلاله» رواه الطبراني والدارقطني .

(٨٥) تفسير القرطبي : ١٢/١٧٠ .

(٨٦) أبو الأعلى المودودي ، تفسير سورة النور : ٨٦ .

(٨٧) في ظلال القرآن : ٤/٢٤٩١ .

(٨٨) تفسير القاسمي : ١٢/٤٤٥٢ .

(٨٩) تفسير القرطبي : ١٢/١٧٣ .

(٩٠) تفسير سورة النور ، لأبي الأعلى المودودي : ٩٤ .

(٩١) البينة أو حد في ظهرك :

البخاري في الشهادات ح ٢٦٧١ ، وفي تفسير القرآن ح ٤٧٤٧ ، وفي الحدود ح ٦٨٢٩، ٦٨٣٠ ، ومسلم في الحدود ح ١٦٩١ ، والترمذي في الحدود ح ١٤٣٢ ، وأبو داود في الطلاق ح ٢٢٥٤ وفي الحدود ح ٤٤١٨ ، وابن ماجة في الطلاق ح ٢٠٦٧، وفي الحدود ح ٢٥٥٣ ، وأحمد ح ٢٧٨ ، ومالك في الحدود ح ١٥٥٨ ، ١٥٧١ ، والدارمي في الحدود ٢٣٢٢ .

(٩٢) قد أنزل الله فيك ... الملاعنة :

رواه البخاري في الصلاة ح ٤٢٣ ، وفي التفسير ح ٤٧٤٥ ، وفي الطلاق ح ٥٢٥٩ ، وفي الأحكام ح ٧١٦٦ ، وفي الاعتصام ح ٧٣٠٤ ، ومسلم في اللعان ح ١٤٩٢ ، ١٤٩٥ ، والنسائي في الطلاق ح ٣٤٠٢ ، وأبو داود في الطلاق ح ٢٢٤٥، ٢٢٥٣ ، وابن ماجة ح ٢٠٦٦ ، ٢٠٦٨ ، وأحمد ح ٢٢٣٤٤ ، ومالك في الطلاق ح ١٢٠١ ، والدارمي في النكاح ٢٢٢٩ .

(٩٣) ذكرنا أنه قذف امرأته قبل نزول آية اللعان ، وانظر قصته في سبب نزول الآية .

(٩٤) يا هلال اتق الله :

تقدم تخريجه .

(٩٥) أصيهب : تصغير أصهب ، وهو الذى فى شعره حمرة .

(٩٦) أريشح: تصغير أرشح ، وهو خفيف لحم الإليتين .

(٩٧) حمش الساقين : دقيقهما .

(٩٨) أورق : أسمر .

(٩٩) جعدا : شديد الأسر والخلق ، والذى شعره غير سبط ، وهما مدح .

(١٠٠) الحمالى : الضخم الأعضاء ، التام الأوصال .

(١٠١) خدلج الساقين : عظيمهما .

(١٠٢) سابغ الإليتين : تامهما وعظيمهما .

(١٠٣) انظر كتب الحديث والتفسير مثل : القرطبى ، والقاسمى ، وفى ظلال القرآن . وأحكام اللعان مبسوطة فى كتب الفقه .

(١٠٤) وردت فى بقية الجماعة أيضا إلا الترمذى ، عن سهل بن سعد الساعدى ، وابن عمر .

(١٠٥) هل لك من إبل :

رواه البخارى فى الطلاق ح ٥٣٠٥، وفى الحدود ح ٦٨٤٧ ، وفى الاعتصام ح ٧٣١٤ ، ومسلم فى اللعان ح ١٥٠٠ ، والترمذى فى الولاء والهبة ح ٢١٢٨ ، والنسائى فى الطلاق ح ٣٤٧٨ ، وأبو داود فى الطلاق ح ٢٢٦٠ ، وابن ماجة فى النكاح ٢٠٠٢ ، وأحمد ح ٧١٤٩ ، ٧٢٢٣ .

(١٠٦) تفسير القرطبى : ١٢ / ١٩٥ .

(١٠٧) تفسير القرطبى : ١٢ / ١٩٣.

(١٠٨) تفسير آيات الأحكام ، إشراف محمد على السايس : ١٤٢/٣ .

(١٠٩) تفسير آيات الأحكام ، إشراف محمد على السايس : ١٤٤/٣ .

(١١٠) تفسير المراغى : ٧٦/١٨ .

(١١١) الاختيار شرح المختار – باب اللعان : ١٧١/٣ .

(١١٢) أبشرى يا عائشة إن الله قد برأك :

البخارى فى الشهادات ٢٦٦١ ، وفى المغازى ٤١٤١ ، وفى التفسير ٤٧٥٠ ، ومسلم فى التوبة ح ٢٧٧٠ ، وأحمد ٢٥٠٩٥ .

(١١٣) تفسير الكشاف للزمخشرى .

(١١٤) أشد الناس بلاء :

بوب به البخارى فى كتاب المرضى ، ورواه الترمذى فى الزهد ح ٢٣٩٨ ، وابن ماجة فى الفتن ح ٤٠٢٣، وأحمد ح ١٤٨٤، ١٤٩٧، ١٥٥٨، ١٦١٠ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٧٨٣ ، من حديث سعد بن أبى وقاص ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(١١٥) تفسير القاسمى ، المسمى : محاسن التأويل ، تأليف علامة الشام محمد جمال الدين القاسمى : ١٢ / ٤٤٦٣ .

(١١٦) تفسير النسفى : ٣/١٣٦ .

(١١٧) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ١٣٣ .

(١١٨) تفسير القرطبى : ١٢ / ٢٦ .

(١١٩) فى ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب : ٤ / ٢٥٠٤ .

(١٢٠) تفسير النسفى : ٣ / ١٣٧ .

(١٢١) فى ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب : ٤ / ٢٥٠٤ .

(١٢٢) تفسير النسفى : ٣ / ١٣٧ .

(١٢٣) اعملوا فكل ميسر لما خلق له :

رواه البخارى فى تفسير القرآن ح ٤٩٤٩ ، فى التوحيد ح ٧٥٥١ ، ومسلم فى القدر ح ٢٦٤٧ ، ٢٦٤٩ ، والترمذى فى القدر ح ٢١٣٦ ، وفى التفسير ح ٣١١١، وأبو داود فى السنة ٤٧٠٩ ، وابن ماجة فى المقدمة ح ٧٨ ، ٩١ ، وفى التجارات ح ٢١٤٢ ، وأحمد ح ٢٠ ، ٦٢٢ ، ١٣٥٢ ، من حديث على ، وعمر ، وعمران بن الحصين ، وأبى حميد ، وسراقة ، وأبى بكر الصديق .

(١٢٤) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى : ٢ / ٥٩٣ .

(١٢٥) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى : ٢ / ٥٩٢ ، وقد ورد ذلك أيضا فى تفسيرى النسفى والقرطبى ، وذكر القرطبى أن قصة الآيات رويت فى الصحيح .

(١٢٦) تفسير القرطبى : ١٢ / ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(١٢٧) من حلف على يمين :

مسلم فى الأيمان ١٣/١٦٥٠ ، والترمذى فى النذور والأيمان ١٥٣٠ ، وقال : حديث أبى هريرة حديث حسن صحيح ، والنسائى فى الكبرى فى الأيمان والكفارات ٢/٤٧٢٢ ، كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأبو داود فى الأيمان والنذور ٣٢٧٧ ، والنسائى فى الكبرى فى الأيمان والنذور ٤/٤٧٢٤ ، كلاهما عن عبدالرحمن بن سمرة رضى الله عنه .

(١٢٨) قوله : «وهى مبهمة» ، أى : عامة فى تحريم قذف كل محصنة .

(١٢٩) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى : ٢ / ٥٩٤ .

(١٣٠) اجتنبوا السبع الموبقات :

تقدم تخريجه .

(١٣١) فى ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب : ٤ / ٢٥٠٥ .

(١٣٢) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى : ٢ / ٥٩٥ .

(١٣٣) تفسير النسفى : ١٣٨/٣ . وقد ورد هذا المعنى فى تفسير الكشاف .

(١٣٤) تفسير القرطبى : ٢١١/١٢ .

(١٣٥) تفسير القرطبى : ٢١١/١٢ .

(١٣٦) مختصر تفسير ابن كثير : ٥٩٥/٢ .

(١٣٧) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ١٣٩ بتصرف واختصار .

(١٣٨) تفسير القرطبى : ١٢ / ٢١٣ .

(١٣٩) تفسير القرطبى : ١٢ / ٢١٤ .

(١٤٠) تفسير القرطبى : ١٢ / ١١٤ .

(١٤١) إذا استأذن أحدكم ثلاثا :

رواه البخارى فى الاستئذان ح ٥٧٧٦ ، ومسلم فى الآداب ح ٤٠٠٦ ، وأبو داود فى الأدب ح ٤٥٠٩ ، وأحمد ح ١٨٧٨٦.

(١٤٢) إنما جعل الاستئذان من أجل النظر :

البخارى فى الاستئذان ٦٢٤١ ، ومسلم فى الأدب ٢١٥٦ ، والترمذى فى الاستئذان ٢٧٠٩ وقال : حديث حسن صحيح .

(١٤٣) من نظر فى كتاب أخيه :

رواه أبو داود فى الصلاة ح ١٢٧٠ ، وأوله : لا تستروا الجدر من نظر .... الحديث .

(١٤٤) السلام عليكم :

رواه أبو داود فى الأدب ح ٤٥١٢ .

(١٤٥) كثير من أحكام هذا الباب مستنبط من تفسير القرطبى : ١٢ / ٢١٢ – ٢٢٢ .

(١٤٦) أنا ، أنا :

رواه البخارى فى الاستئذان ح ٥٧٨١ ، ومسلم فى الآداب ح ٤٠١١ ، ٤٠١٢ ، وفى فضائل الصحابة ح ٤٥١٦ ، والترمذى فى الاستئذان ح ٢٦٥٣ ، وأبو داود فى الأدب ح ٤٥١٣ ، وابن ماجة فى الأدب ح ٣٦٩٩ ، وأحمد ح ١٣٦٧٠ ، والدارمى فى الاستئذان ح ٢٥١٦ .

(١٤٧) السلام عليك يا رسول الله :

هذا اللفظ جزء من حديث الإيلاء : رواه البخارى فى المظالم ح ٢٢٨٨ ، وفى التفسير ح ٤٥٣٢ ، وفى النكاح ٤٧٩٢ ، ٤٨٠٢ ، وفى الطلاق ح ٤٨٨٠ ، وفى اللباس ح ٥٣٩٥ ، وفى أخبار الآحاد ح ٦٧٢١ ، ومسلم فى الطلاق ح ٢٧٠٥ ، والترمذى فى التفسير ح ٢٩٦٢ ، والنسائى فى الطلاق ح ٣٤٠٢ ، وأبو داود فى الأدب ح ٤٥٢٥ ، وأحمد فى مسنده ح ٢٦٢٠.

(١٤٨) السلام عليكم هذا أبو موسى :

رواه مسلم فى الآداب ح ٤٠١٠ .

(١٤٩) تفسير آيات الأحكام ، للشيخ محمد على السايس : ٣ / ١٥١ .

(١٥٠) نهى أن يطرق الرجل أهله طروقًا :

رواه البخارى فى النكاح ٤٨٤٢ ، ومسلم فى الإمارة ح ٣٥٥٧ ، ٣٥٥٨ ، وأبو داود فى الجهاد ح ٢٣٩٥ ، وأحمد ح ١٣٦٧٦.

(١٥١) السلام قبل الكلام :

رواه الترمذى فى الاستئذان ح ٢٦٢٣ ، وقال : هذا حديث منكر لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(١٥٢) تفسير آيات الأحكام ، للشيخ محمد على السايس : ٣ / ١٤٨ .

(١٥٣) تفسير آيات الأحكام ، للشيخ محمد على السايس : ٣ / ١٥٢ .

(١٥٤) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى ، مؤسسة الرسالة : ١٤٧ .

(١٥٥) تفسير المراغى : ١٨ / ٩٦ .

(١٥٦) تفسير القرطبى : ١٢ / ٢٢٢ .

(١٥٧) تفسير القرطبى : ١٢ / ٢٢٢ .

(١٥٨) اصرف بصرك :

رواه البخارى تعليقا فى كتاب الاستئذان .

(١٥٩) القاموس المحيط للفيروزبادى : مادة الضاد ، فصل الغين .

(١٦٠) تفسير آيات الأحكام ، للشيخ محمد على السايس : ٣ / ١٥٦ .

(١٦١) إياكم والجلوس على الطرقات :

البخارى فى الاستئذان ٦٢٢٩ ، ومسلم فى اللباس ٢١٢١/١١٤ .

(١٦٢) تفسير القرطبى : ١٢ / ٢٢٣ بتصرف واختصار .

(١٦٣) يا على لا تتبع النظرة :

رواه الترمذى فى الأدب ح ٢٧٠١ ، وأبو داود فى النكاح ١٨٣٧ ، وأحمد ح ٢١٨٩٦ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٥٩٣ .

(١٦٤) النظر سهم مسموم من سهام إبليس :

الطبرانى فى الكبير ١٠٣٦٢ ، والهيثمى فى مجمع الزوائد ٦٣/٨ وقال : فيه عبدالله بن إسحاق الواسطى ، وهو ضعيف .

(١٦٥) من نظر إلى محاسن امرأة ثم غض بصره عنها :

أحمد ٢٦٤/٥ ، والهيثمى فى مجمع الزوائد ٦٦/٨ وقال : وفيه على بن يزيد الألهانى ، وهو متروك .

(١٦٦) احفظ عورتك :

تقدم تخريجه .

(١٦٧) كان الفضل بن عباس رديف النبى :

رواه البخارى فى الحج ح ١٤١٧ ، ١٧٢٢، وفى المغازى ح ٤٠٤٨ ، ومسلم فى الحج ح ٢٢٨٤ ، ٢٢٦١، ٢٣٧٥، ٢٣٩٥ ، والنسائى فى مناسك الحج ح ٢٥٩٣ ، ٢٥٩٤ ، وفى آداب القضاة ح ٥٢٩٤ ، وأبو داود فى المناسك ح ١٥٤٤، وأحمد ح ٢١٥٣ ، ومالك فى الحج ح ٧٠٣ ، والدارمى فى المناسك ح ١٧٦١ ، من حديث ابن عباس .

(١٦٨) نظرت إليها :

رواه النسائى فى النكاح ٣١٨٣، والترمذى فى النكاح ١٠٠٧ ، وابن ماجة فى النكاح ١٨٥٦، وأحمد ح ١٧٤٣٥ .

(١٦٩) انظر إليها ، فإن فى أعين الأنصار شيئا :

مسلم فى النكاح ٢٥٥٢، ٢٥٥٣ ، والنسائى فى النكاح ٣١٩٤ ، من حديث أبى هريرة .

(١٧٠) إذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه :

رواه أحمد ح ٢٢٤٩٧ .

(١٧١) إذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن يرى :

رواه أبو داود فى النكاح ١٧٨٣ ، وأحمد ١٤٠٥٩ ، ١٤٣٤٠ .

(١٧٢) لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل :

مسلم فى الحيض ح ٥١٢ ، وأبو داود فى الحمام ح ٣٥٠٢ ، والترمذى فى الأدب ح ٢٧١٧، وابن ماجة فى الطهارة ح ٦٥٣ ، وأحمد ح ١١١٧٣ ، من حديث أبى سعيد الخدرى . وقال الترمذى : حديث حسن غريب صحيح .

(١٧٣) لا تنظر إلى فخذ حي ولا ميت :

رواه أبو داود فى الجنائز ح ٢٧٣٢ ، وفى الحمام ح ٣٤٩٩ ، وابن ماجة فى الجنائز ح ١٤٤٩ ، وأحمد ح ١١٨٤ .

(١٧٤) الفخذ عورة :

ذكره البخارى فى الصلاة تعليقًا ، ووصله الترمذى فى الأدب ح ٢٧١٩ ، ٢٧٢١، ٢٧٢٢ ، وأبو داود فى الحمام ح ٣٤٩٨ ، وأحمد ح ١٥٣٦١ ، ١٥٣٦٢ ، ١٥٣٦٣ ، والدارمى فى الاستئذان ح ٢٥٣٦ . وقال الترمذى : حسن ما أرى إسناده بمتصل ، وقال فى موضع آخر : حسن غريب من هذا الوجه . قلت : واللفظ لأبى داود .

(١٧٥) احفظ عورتك :

تقدم تخريجه .

(١٧٦) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ١٥٣ .

(١٧٧) تشتهين تنظرين – النظر إلى الحبشة وهم يلعبون :

رواه البخارى فى الجمعة ح ٩٥٠ ، ومسلم فى العيدين ح ٨٩٢ ، والنسائى فى العيدين ح ١٥٣٩ ، ١٥٤٩ ، ١٥٩٥ ، وابن ماجة فى النكاح ١٨٩٨ ، وأحمد ح ٢٣٥٢٩ ، من حديث عائشة .

(١٧٨) لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير – وعظ النساء فى العيد :

رواه البخارى فى الجمعة ح ٩٥٨، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ومسلم فى صلاة العيدين ح ٨٨٥ ، والنسائى فى صلاة العيدين ح ١٥٦٢ ، وأبو داود فى الصلاة ح ١١٤١ ، وأحمد ح ١٣٧٤٩ ، ١٣٩١٨ ، والدارمى فى الصلاة ح ١٦٠٢ ، ١٦١٠ ، من حديث ابن عباس .

(١٧٩) تفسير آيات الأحكام ، للشيخ محمد على السايس : ٣ / ١٥٩ .

(١٨٠) نيل الأوطار ، للشوكانى : ١٠٧٦ .

(١٨١) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ١٥٥ .

(١٨٢) احتجبا منه :

رواه الترمذى فى الأدب ح ٢٧٧٨ ، وأبو داود فى اللباس ح ٤١١٢ ، وأحمد ح ٢٥٩٩٧ ، من حديث أم سلمة . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(١٨٣) تلك امرأة يغشاها أصحابى :

مسلم فى الطلاق ١٤٨٠ / ٣٦ ، وأبو داود فى الطلاق ٢٢٨٤ .

(١٨٤) أى : النساء المهاجرات ، وهو نحو : شجر الآراك ، أى : شجر هو الآراك .

(١٨٥) رحم الله نساء المهاجرات :

رواه البخارى تعليقا فى تفسير القرآن باب ﴿وليضربن بخمرهن .. الآية﴾ ، ووصله أبو داود فى اللباس ٤١٠٢، من حديث عروة ، عن عائشة .

(١٨٦) كساء من صوف ونحوه ، يؤتزر به .

(١٨٧) أى : جعلته معجرا ، وهو الخمار يلبس على الرأس .

(١٨٨) لما نزلت سورة النور :

رواه أبو داود فى اللباس ح ٤١٠٠ ، وأحمد ح ٢٥٠٢٤ ، من حديث صفية بنت شيبة ، عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت نساء الأنصار فأثنت عليهن وقالت لهن معروفا وقالت : لما نزلت سورة النور عمدن إلى حجور أو حجوز – شك أبو كامل – فشققنهن فاتخذنها خمرا . وهذا لفظ أبى داود .

(١٨٩) انظر الحديث فى تفسير سورة النور للمودودى : ١٦٠ .

(١٩٠) الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة :

أحمد ٢ / ١٦٨ ، ومسلم فى الرضاع ١٤٦٧ / ٦٤ .

(١٩١) تفسير القاسمى : ١٢ / ٤٥١٢ ، وانظر تفسير القرطبى : ١٢ / ٤٣٢ ، فقد نقل الخلاف بين العلماء فى الموضوع .

(١٩٢) تفسير القاسمى : ١٢ / ٤٥١٢ .

(١٩٣) أى : دخولهم عليهم من خلفهم ، فتفاجأ المرأة بقريبها أمامها .

(١٩٤) تفسير القاسمى : ١٢ / ٤٥١٣ .

(١٩٥) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ١٦٦ بتصرف واختصار .

(١٩٦) تفسير ابن جرير الطبرى .

(١٩٧) يعنى : تقبل بأربع عكن وتدبر بثمانى عكن . والعكن والإعكان : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا .

(١٩٨) أخرجوهم من بيوتكم – إن فتح الله لك الطائف :

البخارى فى النكاح ٥٢٣٥، وفى اللباس ٥٨٨٧ ، ومسلم فى السلام ٢١٨٠/٣٢ ، وأبو داود فى الأدب ٤٩٢٩ ، والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء ٥٢٤٩/٥ ، وابن ماجة فى النكاح ١٩٠٢ ، وأحمد ٦/ ٢٩٠ ، كلهم عن أم سلمة .

(١٩٩) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ١٧ ، وانظر القاسمى : ١٢ / ٤٥١٤ . وتفسير آيات الأحكام ، للسايس : ١٦٦/٣ .

(٢٠٠) أخرجه الترمذى ، وقال : حسن صحيح ، فى كتاب الأدب : ٤١ ، وباب ما جاء فى كراهية خروج المرأة متعطرة : ٣٥ ، ورواه أبو داود ، والنسائى ، أيضًا ، ومعنى كذا وكذا ، أى : زانية .

(٢٠١) لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت :

رواه أبو داود فى الترجل ح ٤١٧٤ ، وابن ماجة فى الفتن ح ٤٠٠٢ ، وأحمد ح ٧٣٠٩ ، من حديث أبى هريرة .

(٢٠٢) تفسير آيات الأحكام ، للسايس : ٣ / ١٦٧ .

(٢٠٣) المغيبات : جمع مغيبة ، وهى التى غاب عنها زوجها .

(٢٠٤) لا تلجوا على المغيبات :

رواه الترمذى فى الرضاع ح ١١٧٢ ، وأحمد ح ١٣٩١٣ ، من حديث جابر ، وقال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقد تكلم بعضهم فى مجالد بن سعيد من قبل حفظه .

(٢٠٥) من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة :

رواه أحمد ح ١٤٢٤١ .

(٢٠٦) ما مس رسول الله ﷺ بيده امرأة :

رواه مسلم فى الإمارة ح ١٨٦٦ ، وأبو داود فى الخراج ح ٢٩٤١ ، وأحمد ح ٢٤٣٠٨ ، من حديث عائشة .

(٢٠٧) لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، وبيوتهن خير لهن :

البخارى فى الجمعة ٩٠٠ ، ومسلم فى الصلاة ١٣٦/٤٤٢ ، كلاهما عن ابن عمر .

(٢٠٨) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ١٧٦ .

(٢٠٩) يا أسماء إن المرأة إذا بلغت :

رواه أبو داود فى اللباس ح ٤١٠٤ ، وقال : هذا مرسل ، خالد بن دريك لم يدرك عائشة .

(٢١٠) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ١٥٨ .

(٢١١) تفسير آيات الأحكام ، للسايس : ٣ / ١٦٢ .

(٢١٢) السفع : السواد والشحوب ، أراد أنها بذلت نفسها وتركت الزينة والترفه حتى شحب لونها واسود ، إقامة على ولدها بعد وفاة زوجها .

(٢١٣) أنا وامرأة سفعاء الخدين تأيمت :

رواه أبو داود فى الأدب ح ٥١٤٩ ، وأحمد ح ٢٣٤٨٦ ، من حديث عوف بن مالك .

(٢١٤) فى ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب : ٤ / ٢٥١٥ .

(٢١٥) تفسير آيات الأحكام ، إشراف الشيخ محمد على السايس : ٣ / ١٧٠ .

(٢١٦) تفسير القرطبى : ١٢ / ٢٤١ .

(٢١٧) تفسير آيات الأحكام ، للسايس : ٣ / ١٧٢ .

(٢١٨) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ١٨١ بتصرف .

(٢١٩) تفسير آيات الأحكام ، للسايس : ٣ / ١٧١ .

(٢٢٠) حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا :

ذكره الترمذى فى صفة القيامة تحت حديث ٢٤٥٩ تعليقا بقوله : ويروى عن عمر ..

(٢٢١) المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية : ٢٠٤ ، عمر عودة الخطيب ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٩٧٠ .
وانظر : «علوم الدين الإسلامى» للدكتور عبدالله شحاتة «فصل رعاية الشباب» : ٢٧٧ .

(٢٢٢) «علوم الدين الإسلامى» د. عبدالله شحاته «موضوع الإسلام والشباب» : ٢٧٤ .

(٢٢٣) جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم ، عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن الفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» .

الباءة : مؤن النكاح من مهر ونفقة وكسوة .

الوجاء : من الخصاء يكون برض عروق الأنثيين مع بقاء الخصيتين كما هما ، فشبه به الصوم فى قطع شهوة النساء.

(٢٢٤) (الحاذ) : الحال ، تفسيره ما بعده .

(٢٢٥) تفسير القرطبى : ١٢ / ٢٤٤ (سورة النور) .

(٢٢٦) تفسير القرطبى : ١٢ / ١٠٦ (سورة المؤمنون) .

(٢٢٧) تفسير آيات الأحكام ، للسايس : ٣ / ١٧٥ .

(٢٢٨) تفسير القرطبى : ١٢ / ٢٥٤ ، وتفسيرى ابن جرير وابن كثير ، والاستيعاب لابن عبد البر : ٢ / ٧٦٢ ، وقد أخرجه مسلم وأبو داود .

(٢٢٩) تفسير القاسمى : ١٢ / ٤٥٢٣ .

(٢٣٠) نهى عن مهر البغى :

رواه البخارى فى البيوع ح ٢٢٣٧، وفى الإجارة ح ٢٢٨٢ ، وفى الطلاق ح ٥٣٤٦ وفى الطب ح ٥٧٦١ ، ومسلم فى المساقاة ح ١٥٦٨ ، والترمذى فى النكاح ١١٣٣ ، وفى البيوع ح ١٢٧٦، وفى الطب ح ٢٠١٧، والنسائى فى الصيد والذبائح ٤٢٩٢ ، وفى البيوع ح ٤٦٦٦ ، وأبو داود فى البيوع ح ٣٤٢٨، ٣٤٨١ ، وابن ماجة فى التجارات ح ٢١٥٩ ، وأحمد ح ١٦٦٢٢ ، ومالك فى البيوع ح ١٣٦٣، والدارمى فى البيوع ح ٢٥٦٨ من حديث أبى مسعود . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٢٣١) شر الكسب مهر البغى :

رواه مسلم فى المساقاة ح ١٥٦٨ ، والترمذى فى البيوع ح ١٢٧٥، والنسائى فى الصيد والذبائح ٤٢٩٤ ، وأبو داود فى البيوع ح ٣٤٢١ ، وأحمد ح ١٥٣٨٥ ، ١٥٤٠٠ ، والدارمى فى البيوع ح ٢٦٢١ ، من حديث رافع بن خديج . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٢٣٢) نهى عن كسب الأمة :

رواه أبو داود ح ٣٤٢٧ ، من حديث رافع . ورواه البخارى فى البيوع ح ٢٢٣٨ ، من حديث عون بن أبى جحيفة .

(٢٣٣) نهانا نبى الله :

رواه أحمد ح ١٨٥١٩ ، وأبو داود فى البيوع ح ٣٤٢٦ ، من حديث رافع بن رفاعة .

(٢٣٤) تفسير المراغى : ١٠٦/١٨ .

(٢٣٥) فتح القدير ، للشوكانى : ج ٤ .

(٢٣٦) اللهم لك الحمد أنت نور السماوات :

تقدم تخريجه .

(٢٣٧) تفسير الكشاف : ٦٨/٣ .

(٢٣٨) فتح القدير ، للشوكانى : ج ٤.

(٢٣٩) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ١٩٧ .

(٢٤٠) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى : ٩ / ٩٢ .

(٢٤١) اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى :

ذكره الهيثمى فى المجمع ٣٨/٦ وقال : رواه الطبرانى ، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات .

(٢٤٢) القلوب أربعة :

قال ابن كثير : إسناده جيد ولم يخرجوه ، وقد أخرجه أحمد ح (١٠٧٤٥) .

(٢٤٣) تفسير ابن كثير .

(٢٤٤) فى ظلال القرآن : ٤ / ٢٥١٩ .

(٢٤٥) تفسير النسفى : ٣ / ١٤٦ ، وفى كتب الأدب أن القصيدة كانت لأبى تمام فى مدح أحمد بن أبى دؤاد ، فقاله له الكندى : الأمير فوق من ذكرت ، فارتجل أبو تمام البيتين ، ولما أخذت منه القصيدة وجدت خالية منهما .

(٢٤٦) اتقوا فراسة المؤمن :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن ح ٣١٢٧ ، من حديث أبى سعيد الخدرى ، وقال : حديث غريب .

(٢٤٧) تفسير الكشاف ، للزمخشرى : ٣ / ٦٨ .

(٢٤٨) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ٢٠٠ .

(٢٤٩) تفسير القاسمى : ١٢ / ٢٥ / ٤٥ .

(٢٥٠) فتح القدير ، للشوكانى : ٤ / ٣٤ .

(٢٥١) انظر تفسير القاسمى : ١٢ / ٤٥٢٩ .

(٢٥٢) من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا فى الجنة :

البخارى فى الصلاة ٤٥٠ ، ومسلم فى المساجد ٥٣٣/ ٢٤ ، ٢٥ ، والترمذى فى الصلاة ٣١٨ ، وقال : حديث حسن صحيح ، و ابن ماجة فى المساجد ٧٣٦ ، كلهم عن عثمان بن عفان .

(٢٥٣) أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد فى الدور :

رواه الترمذى فى الجمعة ح ٥٩٤ ، وأبو داود فى الصلاة ح ٤٥٥ ، وأحمد ح ٢٥٨٥٤ ، من حديث عائشة .

(٢٥٤) يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار :

رواه البخارى فى مواقيت الصلاة ح ٥٥٥ ، وفى التوحيد ح ٧٤٢٩ ، ٧٤٨٦ ، ومسلم فى المساجد ح ٦٣٢ ، والنسائى فى الصلاة ح ٤٨٥ ، وأحمد ح ٢٧٣٣٦ ، ٩٩٣٦ ، ومالك فى النداء للصلاة ح ٤١٣ ، من حديث أبى هريرة بلفظ : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم – وهو أعلم بهم – كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون . وليس فيه ذكر للآية .

ورواه البخارى فى الأذان ح ٦٤٩ ، وفى تفسير القرآن ح ٤٧١٧ ، ومسلم فى المساجد ح ٦٤٩ ، والترمذى فى التفسير ح ٣١٣٥ ، والنسائى فى الصلاة ح ٤٨٦ ، وابن ماجة فى الصلاة ح ٦٧٠ ، وأحمد ح ٧١٤٥ ، ٧٥٥٧ ، ٩٧٨٣ من حديث أبى هريرة أيضًا بلفظ : فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح . يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ .

(٢٥٥) تفسير النسفى ٣ / ١٤٦ .

(٢٥٦) أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت :

رواه البخارى فى بدء الخلق ح ٣٢٤٤ ، وفى التفسير ح ٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠ ، وفى التوحيد ح ٧٤٩٨ ، ومسلم فى الجنة ح ٢٨٢٤ ، والترمذى فى التفسير ح ٣١٩٧ ، ٣٢٩٢ ، وابن ماجة فى الزهد ح ٤٣٢٨ ، وأحمد ح ٩٣٦٥ ، ٩٦٨٨ ، ١٠٠٥١ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٨٢٨ من حديث أبى هريرة .

(٢٥٧) تفسير النسفى .

(٢٥٨) هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر - يقال لليهود - :

رواه البخارى فى التفسير ح ٤٥٨١، وفى التوحيد ح ٧٤٤٠، ومسلم فى الإيمان ح ١٨٣ ، من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٢٥٩) تفسير القاسمى : ١٢ / ٤٥٣٦ .

(٢٦٠) فى ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب : ٤ / ٢٥٢١ .

(٢٦١) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٢٦٢) تفسير الآيات ٤١ - ٤٦ مأخوذ من كتاب «تفسير الآيات الكونية» للمؤلف .

(٢٦٣) إن الله زوى لى الأرض :

مسلم فى الفتن ٢٨٨٩ ، والترمذى فى الفتن ح ٢١٧٦ ، وأبو داود فى الفتن ح ٢١٧٦ ، وابن ماجة فى الفتن ٣٩٥٢ ، وأحمد ٢٧٨/٥ ، ٢٨٤ ، من حديث ثوبان . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٢٦٤) القائم : يريد الخليفة ، والنظام هو السلك الذى ينظم فيه الخرز .

(٢٦٥) شخصت : خرجت .

(٢٦٦) انتقاضهم عليك للقتل .

(٢٦٧) نهج البلاغة : ١ / ٢٨٣ .

(٢٦٨) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى ، مؤسسة الرسالة ، طبعة بيروت : ٢١٤ - ٢٢٠ .

(٢٦٩) إن الله فرض خمس صلوات فى اليوم والليلة :

أبو داود فى الصلاة ٤٣٠ ، ورواه النسائى فى الصلاة ٤٦١ ، عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

(٢٧٠) فى ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب : ٤ / ٢٥٣٠ .

(٢٧١) تفسير القرطبى : ١٢ / ٣٠٢ .

(٢٧٢) الحجال : جمع حجلة (بالتحريك) وهو بيت كالقبة ، يستر بالثياب ويكون له أزرار كبار .

(٢٧٣) سنن أبى داود ، ووردت فى تفسير القرطبى : ١٢ / ٣٠٣ .

(٢٧٤) تفسير القرطبى : ١٢ / ٣٠٣ .

(٢٧٥) نقلا عن تفسير القاسمى : ١٢ / ٤٥٤٨ .

(٢٧٦) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ٢٢٣ ، وتفسير آيات الأحكام ، للسايس : ٣ / ١٨٥ .

(٢٧٧) تفسير آيات الأحكام ، للسايس : ٣ / ١٨٧ .

(٢٧٨) تفسير آيات الأحكام ، للسايس : ٣ / ١٨٦ .

(٢٧٩) تفسير القرطبى : ١٣ / ٣٠٩ .

(٢٨٠) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق الصابونى : ٣ / ٦٦٨ ، وتفسير القرطبى : ١٣ / ٣١٠ .

(٢٨١) ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء :

البخارى فى النكاح ٥٠٩٦ ، ومسلم فى الذكر والدعاء ٢٧٤٠ ، كلاهما عن أسامة بن زيد .

(٢٨٢) صنفان من أهل النار من أمتى لم أرهما بعد :

مسلم فى اللباس والزينة ٢١٢٨ ، وفى الجنة ٢١٢٨ ، وأحمد ٢/٣٥٦ .

(٢٨٣) تفسير القرطبى : ١٣ / ٣١١ .

(٢٨٤) تفسير القرطبى ، ونسب هذه الرواية إلى على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس .

وقال القرطبى : تكلم الناس فى تفسير على بن أبى طلحة ، فقيل : إنه لم ير ابن عباس ، والله أعلم (١٢/٣١٢) .

(٢٨٥) هذا جزء من حديث أخرجه أحمد وأصحاب السنن ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى : ٢ / ٦١٩ .

(٢٨٦) تفسير القرطبى : ١٢ / ٣١٤ .

(٢٨٧) فى ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب : ٤ / ٢٥٣٣ .

(٢٨٨) تفسير القرطبى : ١٢ / ٣١٢ .

(٢٨٩) تفسير آيات الأحكام ، للسايس : ٣ / ١٩٠ .

(٢٩٠) تفسير القرطبى : ١٢ / ٣١٧ .

(٢٩١) القاسمى والقرطبى والنسفى .

(٢٩٢) تفسير آيات الأحكام ، للسايس : ٣ / ١٩١ .

(٢٩٣) إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم :

لم أره هكذا ، إنما رواه مسلم فى الأشربة ٢٠١٨ ، وأبو داود فى الأطعمة ٣٧٦٥ ، وابن ماجه فى الدعاء ٣٨٨٧ ، وأحمد ٣٤٦/٣ ، كلهم عن جابر بلفظ : إذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله ، وعند خروجه . وعند طعامه ؛ قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء .

(٢٩٤) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق الصابونى : ٢ / ٦٢٠ .

(٢٩٥) إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم :

رواه أبو داود فى الأدب ح ٥٢٠١ ، والترمذى فى الاستئذان ح ٢٧٠٦ ، وأحمد ح ٧١٠٢ ، ٩٣٧٢ ، من حديث أبى هريرة . وقال الترمذى : حديث حسن .

(٢٩٦) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق الصابونى : ٢ / ٦٢١ .

(٢٩٧) تفسير القرطبى : ١٢ / ٣٢٢ .

(٢٩٨) تفسير القرطبى : ١٢ / ٣٢٣ .

(٢٩٩) تفسير القرطبى : ١٢ / ٣٢٣ .

(٣٠٠) تفسير القرطبى : ١٢ / ٣٢٣ ، وتفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ٢٣٢ .

(٣٠١) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى : ٢ / ٦٢٢ .

(٣٠٢) تفسير النسفى : ٣ / ١٥٧ .

(٣٠٣) قصة قرهل :

رواها البخارى فى بدء الوحى ح ٧ .

(٣٠٤) لا أحد أحلم من الله :

رواه البخارى فى الأدب ح ٦٠٩٩ ، وفى التوحيد ح ٧٣٧٨ ، ومسلم فى صفة القيامة ح ٢٨٠٤ ، وأحمد ح ١٩٠٩٢ ، ١٩١٣٦ . من حديث أبى موسى مرفوعا : ليس أحد – أو ليس شىء – أصبر على أذى سمعه من الله ..... الحديث .

(٣٠٥) يشتمنى ابن آدم :

رواه البخارى فى بدء الخلق ح ٣١٩٣ ، والنسائى فى الجنائز ح ٢٠٧٨ ، واللفظ له ، وأحمد ح ٨٨٧٠ .

(٣٠٦) انظر تفسير القرطبى : ٥/٤٨٥٢ دار الغد العربى القاهرة ، والتفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلى ١٩ / ١٥ دار الفكر المعاصر ، بيروت ، وتفسير المراغى ١٨ / ١٥٠ ، وتفسير مقاتل بن سليمان ٣ / ٢٢٦ تحقيق د . عبدالله شحاته .

(٣٠٧) قط قط :

رواه البخارى فى تفسير القرآن ح ٤٨٤٨، ٤٨٤٩، ٤٨٥٠ ، وفى الأيمان والنذور ح ٦٦٦١ ، وفى التوحيد ح ٧٤٤٩ ، ومسلم فى الجنة ح ٢٨٤٦ ، ٢٨٤٧ ، ٢٨٤٨ ، والترمذى فى صفة الجنة ح ٢٥٥٧ ، وفى تفسير القرآن ح ٣٢٧٢، وأحمد ح ٧٦٦١ ، ٢٧٣٨١ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٨٤٩ . وقال الحافظ فى الفتح (٨ / ٤٦١) : وفى بعض النسخ (قطنى قطنى) ، و(قطنى) بزيادة نون مشبعة ... وكلها بمعنى : يكفى . ا هـ .

(٣٠٨) تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ٥ / ٤٨٦٠ ، وقد أورد طائفة من القراءات فى هذه الآية ، ومن ذلك قوله : وقرأ الحسن وأبو جعفر «أن نُتَّخَذ» بضم النون وتشديد التاء وفتح الخاء ، على الفعل المجهول .

(٣٠٩) تفسير مقاتل بن سليمان : ٣ / ٢٣٠ تحقيق د . عبدالله شحاته ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣١٠) تفسير القرطبى : ٥ / ٤٨٦٧ دار الغد العربى القاهرة ، والتفسير المنير للأستاذ الدكتور وهبه الزحيلى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ١٩ / ٤٠ .

★ ★ ★

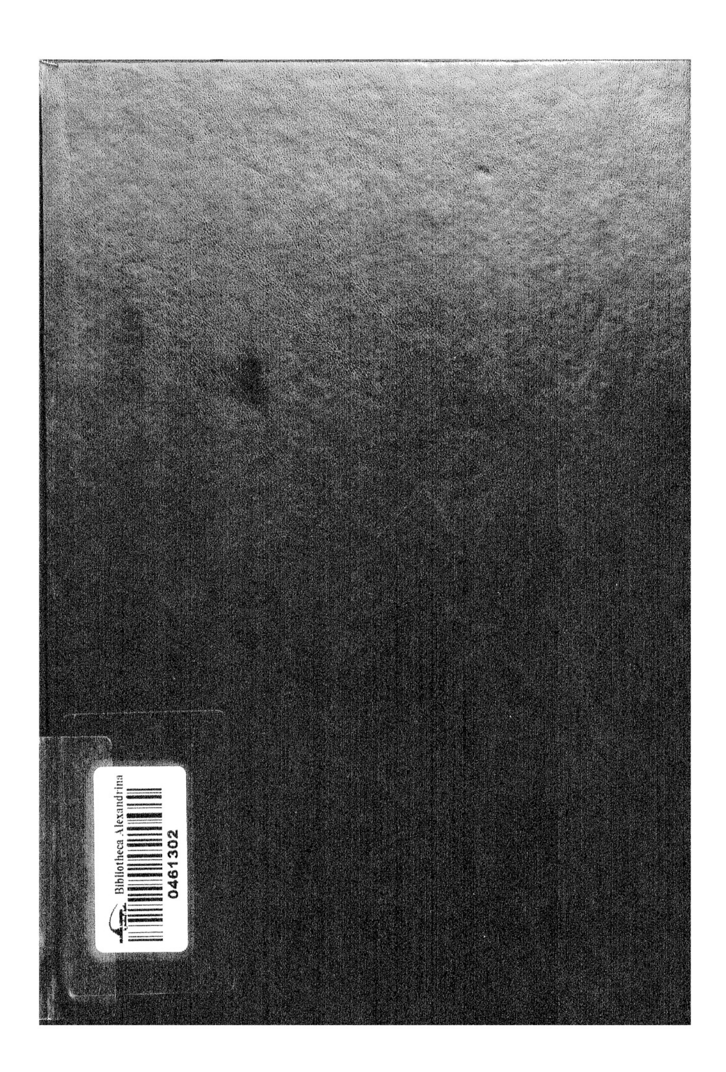
تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله

وبها تم الجزء (الثامن عشر)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله الجزء (الثامن عشر)

ويليه الجزء (التاسع عشر) بإذن الله تعالى



Bibliotheca Alexandrina
0461302